بياتريكس ميدان رينيس

عصور ماقبل التاريخ فى مصر

من المصريين الأوائل إلى الفراعنة الأوائل

ترجمة : ماهر جويجاتى





دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع



بياتريكس ميدان - رينيس

عصور ما قبل التاريخ

فى مصر

من المصريين الأوائل

إلى الفراعنة الأوائل

ترجمة : ماهر جويجاتى

هذه ترجمة كتاب

PRÉHISTOIRE DE L'ÉGYPTE

DES PREMIERS HOMMES AUX PREMIERS PHARAONS

par Béatrix Midant-Reynes

préface de Jean Leclant



ARMAND COLIN

الإهــداء

إلى الطهطاوى،

إلى جدى الأعلى،

إلى إنسان نزلة خاطر – قرب طهطا،

إلى أقدم مصرى معروف سكن وادى النيل

قبل نحو ثلاثين ألف سنة،

فهو الرد العلمى على كل الخرافات والأباطيل

التى تقال عن أصول الحضارة المصرية،

إليه أهدى هذه الترجمة

ماهر جويجاتى

أود أن أذكر هنا الأساتذة الأجلاء الذين قرؤوا بعض أجزاء المخطوط ونقدوها نقداً بناءً، ولذا أتقدم بالشكر لكل من السادة

* كلود لوشيفالييه Claude Lechevalier
عالم الجيولوجيا والأستاذ فى جامعة Paris x - Nanterre

* فرنسيس جوس Francis Geus
الأستاذ المساعد فى جامعة Charles de Gaulle - Lille III

* بيير فرميرش Pierre Vermeersch
أستاذ عصور ما قبل التاريخ فى جامعة Katholieke Universiteit Van Leuvan

المؤلفـة .

فهرست الكتاب

توضيح من المترجم

عندما بدأت ترجمة كتاب «عصور ما قبل التاريخ فى مصر»، لم يكن قد مضى سوى سنوات قليلة على صدور أصله الفرنسى (١٩٩٢). ورغم ذلك فقد اتجهت النية بالإتفاق مع المؤلفة والناشر الفرنسيين إلى إدخال بعض التعديلات على النص الفرنسى سواء بالإضافة أو بالحذف ليتفق مع أحدث ما توصل إليه العلم فى هذا المجال حتى ديسمبر ١٩٩٩.

وأود هنا أن أنوه بأن لولا السيدة «دانييل كونيار» Danielle Cognard رئيسة قسم الترجمة بالمركز الفرنسى للثقافة والتعاون بالقاهرة CFCC لما أمكن تحقيق هذا التحديث. فبفضلها أمكن عقد عدة لقاءات فى القاهرة مع العالمة الفرنسية الدكتورة «بياتريكس ميدان – رينيس» Béatrix Midant-Reynes . كما تحملت السيدة «كونيار» مشقة مراسلة السيدة المؤلفة أثناء وجودها فى فرنسا لإستيفاء كل ماكنت أطلبه من استفسارات.

وقد وصل عدد هذه التعديلات إلى الأربعين تعديلاً تقريباً. واستلزم الأمر إعادة صياغة عشر فقرات وصلت إحداها إلى عشرين سطراً.

كذلك وبناء على طلب المترجم أضافت السيدة المؤلفة خصيصاً إلى الترجمة العربية مايلى:

١ – الملحق الأول وهو عن العضايمة قرب إسنا فى صعيد مصر، وهو الموقع الذى تعمل فيه السيدة «ميدان – رينيس».

٢ – الملحق الثانى ويضم رسوم للأدوات التى ورد ذكرها فى متن الكتاب ولم ترد فى الطبعة الفرنسية وقد تطوعت السيدة «هوخستراسير – پيتى» C.Hochstrasser - Petit وهى من معاونات السيدة المؤلفة برسم معظم هذه الرسوم بلا مقابل وقد سجل اسمها إلى جانب كل رسم من رسومها. وأود هنا أن أشكرها نيابة عن كل من اسهم فى اصدار هذا الكتاب وبالأصالة عن نفسى.

٣ – أضفت بعض الهوامش بناء على توضيحات وشروح المؤلفة رداً على استفساراتى وقد أشرت إلى ذلك فى حينه.

٤ – كذلك فقد استفدت بناء على توصية من السيدة المؤلفة من المعجم المختصر جداً (١٥٠ كلمة) للمصطلحات التكنولوجية الحجرية الذى أعده الأستاذ الدكتور سلطان محيسن عالم الآثار السورى.

٥ – كما قامت المؤلفة بإضافة إلى قائمة المراجع كل جديد من المراجع فى هذا المجال منذ صدور الطبعة الفرنسية (١٩٩٢) وحتى نهاية عام ١٩٩٩.

وهكذا يمكن اعتبار هذه الترجمة التى نقدمها للقارىء العربى دراسة شاملة تسجل آخر ما توصل إليه العلم والعلماء العاملين فى مجال «عصور ما قبل التاريخ فى مصر» حتى نهاية القرن العشرين.

* * *

عند ترجمة المصطلحات الجغرافية والجيولوجية والعلمية اعتمدت على ما ورد فى:

١ – المعجم الجغرافى، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٧٤.

٢ – معجم الجيولوجيا، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٨٢.

٣ – معجم أكاديميا للمصطلحات العلمية والتقنية، لبنان، ١٩٩٣.

وألحقت المصطلح الأجنبى بترجمته العربية مع التعريف العلمى لهذا المصطلح، كما ورد فى هذه المعاجم.

ولم أجد من الضرورى – منعاً للتكرار – أن أذكر فى كل مرة المرجع واكتفيت بعبارة المترجم، وألحقت بها «نجمة» صغيرة لتمييز هذه الهوامش عن تلك التى أضافها المترجم فوردت دون إضافة «نجمة».

كما أن لفظتى «فونة» Faune و «فلورة» Flore اللتين تردان بكثرة خلال هذه الترجمة، هما لفظتان دخيلتان أقرهما مجمع اللغة العربية ولهما تعريف علمى محدد يتجاوز كلمتى «حيوانات» و«نباتات» العربيتين.

* * *

أثناء إعداد الترجمة العربية للطبع اخبرتنى المؤلفة بصدور ترجمة إنجليزية لهذا الكتاب متضمنا كل ما أدخلته من تعديلات على الأصل الفرنسى:

"The Prehistory of Egypt. From the First Egyptians to the First Pharaohs" Blackwell Publishers, London. 2000. Translated by Ian shaw.

ماهر جويجاتى

تمهيد

وادى النيل الذى فى وسعه أن يفخر ويتباهى بهذا القدر الكبير من الآثار والبقايا الأثرية من شتى الأنواع، تأخر ظهور اهتمام علماء ما قبل التاريخ به، واحتاج هذا الإهتمام إلى وقت طويل حتى يكشف عن نفسه. ولا ريب أن الثروة الضخمة من الآثار الشديدة التنوع التى يزخر بها التاريخ الفرعونى قد بلغت حداً، بدا معها لفترة طويلة أنه لا يجدى نفعاً أن نبحث لهذا التاريخ عن مقدمات أو إرهاصات، بل وصل الأمر إلى اعتبار هذا المنحى بمثابة انتهاك للمحرمات. وإن كان عالم المصريات يجد صعوبة فى القيام بعمله دون أن يخصص مكاناً للوثائق القبطية - وثائق الأزمنة المسيحية التى جاءت فى أعقاب ثلاثين قرناً من الحضارة الفرعونية - فإننا لا نكرس، فى الغالب، سوى اهتمام عابر لمرحلة التكوين البطىء على امتداد آلاف السنين، والتى تشكلت خلالها الخطوط العريضة لواحدة من أولى الحضارات العظيمة التى عرفتها البشرية. صحيح أن هذه الحضارة قد ظهرت إلى الوجود، حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، على نحو متسارع، من جراء «طفرات» حقيقية، وكان يبدو أن هذه الحضارة انبثقت، وقد تشكلت بالفعل على أكمل وجه بفرعونها وعلاماتها الهيروغليفية ونظام إقتصادى واجتماعى لن يتبدل من الآن فصاعداً، إلا فى أضيق الحدود.

ولا ريب انه قد جرت أبحاث مرموقة، منذ عام ١٨٦٩ - بعد مرور نصف قرن تقريباً على اكتشافات «شمبوليون» العبقرية عندما تم جمع من جبل طيبة، أولى الحصى الظرانية المصنعة. ولم ينس هذا الكتاب أن يشير إلى هذه الأبحاث، فى عجالة خاطفة. ولكنها ظلت متفرقة حتى العقد الخامس من هذا القرن. ومن ثم فإننا ممتنون لـ «بياتريكس ميدان رينيس» لأنها اختارت بشجاعة أن تنضم إلى أولئك الذين طوروا فى السنوات الأخيرة الأبحاث فى مجال جديد: مجال عصور ما قبل التاريخ المصرية. وتلبية لنداء الطريق الذى اختطته لنفسها، فقد اكتسبت المعارف والتقنيات الضرورية للعمل على إلتقاء تخصصين علميين على قدر كبير من الدقة: علم عصور ما قبل التاريخ وعلم المصريات. إنها حاصلة على درجة الدكتوراه من جامعة باريس، حيث تابعت محاضرات متخصصة وشاركت مشاركة نشطة فى مجموعات عمل فى مجال المصريات وعصور ما قبل التاريخ، كما استطاعت أيضاً أن تستفيد من الألمان وتتعلم منهم، ودعيت إلى الإشتراك فى حفائر بعثه «لوفن» Leu-ven البلجيكية. كما أسند إليها المعهد الفرنسى للآثار بالقاهرة IFAO الإشراف على الأعمال الأركيولوجية فى موقع العضايمه بصعيد مصر حول عصر ما قبل الأسرات. وقد سعدت أنا شخصياً أيضاً بما قدمته من إسهام لفريق أبحاثى فى إطار الكوليج دى فرانس Collége de France مما جعل الفريق يوسع دائرة دراساته إلى أزمنة بعيدة وصولاً إلى أقدم العصور.

ان المردود العلمى لمثل هذه الأبحاث عظيم الشأن. ففى حين ظلت الحضارة الفرعونية لفترة طويلة ينظر إليها من منظور كبرى ثقافات الشرق الادنى، بدأت محاولات متزايدة لفرس مصر القديمة فى إطارها الإفريقى. وإذا صح القول أن مصر تقع عند ملتقى عوالم ثلاثة : المتوسطى والإفريقى والأسيوى، فإن النيل هو نهر إفريقى بالدرجة الأولى، فهو حصيلة النيل الأبيض القادم من البحيرات العظمى فى أوغندا والنيل الأزرق القادم من مرتفعات الحبشة. إن القطاع الأوسط من واديه الطويل يحد الطرف الشرقى من فيافى الصحراء الكبرى. وانطلاقاً من التطورات المناخية التى طرأت على هذه الصحارى، فى وسعنا أن نعرف مختلف أطوار عصور ما قبل التاريخ Préhistoire وفجر التاريخ Protohis-toire فى وادى النيل.

للتيقن من أبحاثهم، كان علماء المصريات وعلماء الحضارات الإفريقية مطالبين بمقارنة وجهات نظرهم. وبينما كانت الأبحاث والإكتشافات تتواصل وتتعدد، فى السنوات الأخيرة، مع توفير بعض المحاولات الجزئية للوصول إلى نظرة تركيبية شاملة، مع توالى ما أدخل عليها من تعديلات، كانت الضرورة تلح بإصرار على ظهور دراسة شاملة باللغة الفرنسية على وجه التحديد، لاسيما ان آخر دراسة ضخمة كانت تعود إلى أكثر من أربعين سنة مضت: Emile Massoulard, Préhistoire et Protohistoire de l'Egypte, Paris, Musée de l'homme, 1949.

وبفضل تجاربها على أرض الواقع، وسعة اطلاعها واتصالاتها المباشرة مع غيرها من الباحثين، تمكنت بياتريكس ميدان - رينيس» من إعداد مجلد هو فى آن واحد جديد بالنسبة للمتخصصين ومفيد للجمهور الواسع. فبعد أن حددت المقومات الأساسية للظروف الجغرافية والبيئة المناخية فى العصور القديمة، تصطحبنا إلى العصر الحجرى القديم البعيد، ثم عبر أطوار الإنتقال إلى العصر الحجرى الحديث بحلول الألف الخامس، فى الفيوم ومرمدة بنى سلامة والعمرى إلى الجنوب من القاهرة وفى الطارف فى منطقة طيبة، وأخيرا إلى النوبة وحتى الخرطوم وفى الصحراء الشرقية مع أحدث الإكتشافات الألمانية والأمريكية.

ومع اكتشاف حضارة البدارى بفضل العلماء الإنجليز عام ١٩٢٢ - ١٩٢٣، نتجه صوب عصر ما قبل الأسرات والدفنات التى تنتشر على امتداد ثلاثين كيلو مترا على البر الشرقى فى مصر الوسطى (مستجدة وهمامية). وقد عثر على مادة ثرية تشير إلى مجتمع شديد التعقيد عرف تقنيات متقدمة. وبعد انقضاء ألفية واحدة وهى الألف الرابع - ازدهرت حضارات ما قبل الأسرات: فى الشمال، حضارة المعادى وسحناتها المختلفة التى تم الكشف عنها منذ وقت قريب بفضل الباحثين الألمان. وفى الجنوب العمرة[1] (أو نقادة ١) وجرزة (نقادة ٢) التى حدد «كايزر» W.kaiser وفكرى حسن تتابعها الزمنى النسبى والمطلق.

وفى غضون ذلك، عرفت النوبة السفلى الحضارة التى تعرف اصطلاحاً بـ «المجموعة أ» وهى التسمية التى أطلقها عليها «ريزنر» G.A Reisner عام ١٩١٠، من خلال مجرد خطاب بسيط، يعبر عن فكرة غامضة، فى حين أستمر وجود عصر حجرى حديث متأخر فى منطقة الخرطوم. ولاشك أنه تبعاً لمشكلة العلاقات القائمة بين مصر والثقافات الإفريقية، بكل ما تعنيه الكلمة، كنا نود أن نعرف المزيد وأن يصبح فى وسعنا أن نقدر حق التقدير الصلات القائمة بين المادة التى حصلنا عليها من هنا وهناك. ولكن برزت إلى الوجود أفكار جديدة من جراء الحفائر الجارية فى الوقت الراهن فى السودان، وهناك مشكلة كبيرة أخرى: مشكلة الرسومات على الصخر. فأعمال التنقيب التى تمت على امتداد نهر النيل وفى كبرى الوديان فى صعيد مصر والنوبة والسودان قد اماطت اللثام عن منطقة جديدة ازدهر فيها الفن الجدارى الصحراوى. وفيما يتعلق بثقافة الصيادين ثم ثقافات الرعاة، تكشف مضاهاة الكم الضخم من المعلومات القائمة على الدراسة، عن أوجه الشبه فى السمات الثقافية، فى المنطقة الممتدة من البحر الأحمر وحتى موريتانيا، وسوف تستمر بعضها على امتداد الحضارة الفرعونية.

وإذا وصلنا إلى السنوات ٣٣٠٠ – ٣١٠٠، قبل الميلاد، انتقلنا إلى الزعماء الأوائل الملقبين بـ «حورس». وهنا تثار مشكلة توحيد «الأرضين»، فقد عرفت مصر على الدوام على أنها «الأرضان». وعلينا أن نتساءل عن مقومات هذه الوحدة: أهى غزو قائم على الحرب أم انتشار موجة سلمية. وإذا كان من الواضح انه تم التخلى نهائياً عن «نظرية الغزاة القادمين من الشرق»، فإن أعمال التنقيب فى مواقع «هيراكنبوليس[2]» وقسطل لتشهد على وجود زعماء أقوياء، حتى قبل «مينا» الأسطورى، أول الفراعنة وفقاً للتقليد المتواتر. وفى الشهور المنصرمة، أتاحت عودة علماء الآثار الألمان إلى التنقيب فى أبيدوس، فى جبانة ملوك مصر الأوائل أتاحت معلومات جليلة الفائدة عن «الأسرة الملكية رقم صفر» "dynastie o".

وبالتالى، فقد توفرت بلا أدنى شك بعض الإجابات لما طرحناه من أسئلة، ولكن كم من النقاط الغامضة ومساحات عدم اليقين مازالت قائمة! ولا ريب أن ازدياد الإكتشافات ستثير من الاسئلة أكثر مما تقدم لنا من إجابات شافيه. وهذا هو ما يحدث مع كل علم متطور يتقدم إلى الأمام. فلا تنفك دراسة عصور ما قبل التاريخ فى مصر تشد انتباهنا شداً.

جان ليكلان Jean Leclant

الأستاذ الفخرى فى الكوليج دى فرانس Collège de France والسكرتير الدائم لمجمع الدراسات التاريخية والأركيولوجية والفيلولوجية.

Académie des Inscripitions et belles lettres.

هوامش التمهيد

١ – حضارة العمرة على مقربة من أبيدوس ولا ينبغى الخلط بينها وبين حضارة العمرى قرب حلوان. (المترجم)

٢ – الكوم الأحمر، حالياً، قرب إدفو. (المترجم)

مقدمـــة [١]

أهدى هذا الكتاب إلى جميع
الذين اسهموا فى تسهيل
انجازه بفضل ما أبدوه
من مودة وصداقة

فى عام ١٨٢٢، عندما قدّم «جان – فرانسوا شمبوليون» Jean - François Champollion، إلى العالم مفتاح حل رموز العلامات الهيروغليفية، من خلال خطابه الذائع الصيت إلى السيد «داسييه» Dacier ، كان ذلك إيذاناً بمولد علم جديد، هو علم المصريات.

ومن الواضح أن مفهومه قد ظل مرتبطاً بقراءة النص، وان احتلت فيه اركيولوجيا الآثار مكانة متميزة. وفى عام ١٩٦٨، كان «سيرج سونرون» Serge Sauneron يكتب قائلاً: «*لقد أكثر المصريون من تدوين النصوص، متفوقين فى ذلك على أية حضارة قديمة أخرى. ومن ثم فمهما بلغت أهمية الوثائق الأركيولوجية البحتة التى تم الكشف عنها إلى وقتنا الراهن، تظل دراسة وتأويل النصوص المصرية هى القاعدة والأساس لمعظم الأبحاث التى ينكب عليها علماء المصريات*» (1968, 41) . ويفهم من ذلك، أن ما يحدث قبل الفراعنة، لا ينتمى إلى علم المصريات.

وفى واقع الأمر، كان لابد من الإنتظار سبعاً وأربعين سنة حتى يصبح وجود عصور حجرية فوق الأرض التى كشفت عن التحامسة والرعامسة، أمراً محتملاً.

لقد سجل «هامى» E. Hamy و «لونورمان» F. Lenormant بتاريخ ٣٠ أكتوبر ١٨٦٩ فى يوميات رحلتهما أنهما قد عثرا فى الأقصر فوق الهضبة الملكية فى بيبان الملوك[٢]، على كمية من الظران المصنع، وهو ما يعتبر شاهداً على وجود هذا العصر الحجرى الذى كان يعتبر، من قبل، أمراً مرفوضاً. وفى العشرين من ديسمبر التالى، حددا قائمة بالمحطات المعروفة الظاهرة على سطح الأرض، فكان مجموعها ثمانياً، من سقارة وحتى الكاب.

استقبل «ماريت» Mariette ، هذا الكشف بارتياب شديد وخامره الشك فى هذا الأمر، مؤكداً أن المصريين فى العصر الفرعونى، كانوا هم أيضاً يصنعون الظران ويستخدمونه.

ومن المتفق عليه أن تصنيع الأدوات الحجرية واستخدامها ظل معمولاً به حتى العصر الرومانى على أقل تقدير. وفى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، كان وجود عصر سابق على العصر الفرعونى، لا يزال محل شك وارتياب عظيمين. ولذا فعندما كشف سير «فلندرز بترى» Sir Flinders Petrie بعد مرور اثنين وسبعين عاماً على فك رموز الهيروغليفية، عن آلاف المقابر، فى جبانة نقادة، بلغ تأثره حداً كبيراً، عندما لاحظ أصالة ما عثر عليه، حتى ظن أنه أمام شعب أجنبى، بدا له أنه قام بغزو مصر، قرب نهاية الدولة القديمة، فسبب ما سببه، من خراب وفوضى.

هذه الأجساد المنكمشة على نفسها التى تصاحبها أوانٍ حمراء مصقولة ذات حواف سوداء، وتزدان أحياناً بزخارف بيضاء على خلفية سمراء أو سمراء على خلفية بيضاء، وهذه المجموعات الضخمة من الصلايات المصنوعة من الشست ذات الأشكال الحيوانية، والمعالق والدبابيس والأمشاط المصنوعة من العظم أو العاج ذات الأشكال غير المألوفة كانت تقترن بكل ما هو غريب وتوقع الحيرة فى نفوس العلماء الذين تربوا على امتداد قرن من الزمن فى حضن الآثار الفرعونية.

وكان «جاك دى مورجان»[٣] Jacques de Morgan أول من يتعرف على الشواهد الدالة على وجود شعب يعود إلى عصور ما قبل التاريخ.

كان «حدسا[٤]» طيباً ومواتياً، ولكن بقى إقامة الدليل على كل شئ.

وأخذ «بترى» هذه المهمة على عاتقه، بفضل عمل مدقق ومنهجى وفعال، فأخرج إلى النور عالماً سابقاً على فجر الفراعنة. ونبش ودرس جبانات نقادة وهو[٥] والعابدية وأبيدوس، وأرسى على معايير صارمة ما كان «دى مورجان» قد استشعره كأمر بديهى. ونشر فى عام ١٩٠١ نظامه الذائع الصيت الخاص بالتسلسل الزمنى الذى يعرف بـ «التتابع الزمنى» أو «التوقيت المتتابع 'Sequence Dates'. لقد انطلق من رؤية حدسية مفادها أن الأوانى الفخارية ذات المقابض المتموجة تتطور من الأشكال الكروية ذات المقابض البارزة إلى أشكال أضيق تحولت فيها المقابض إلى مجرد عنصر زخرفى. واعتمد «بترى» نظام تصنيف، قبل عصر الحاسبات الآلية، فتوصل إلى تحديد تسلسل زمنى نسبى يتكون من خمسين رقماً: يتفق SD 30 مع أقدم الأوانى الفخارية و SD 79 مع اعتلاء مينا العرش، قرب نهاية الألف الرابع، وهو التاريخ الزمنى «المطلق» الوحيد الذى يستند إليه مجمل تسلسله الزمنى النسبى.

وكان من السهل على المرء أن يتصور ثغرات نظام من هذا القبيل، فلم يسلم من الإنتقادات. فكل شيء عثر عليه فى مقبرة تم تحديد تاريخها وفقا لنموذج الأوانى الفخارية، يندرج بالتالى فى نفس المتتالية الزمنية لهذا النموذج، وإن بدا أنه قد ظهر فى فترة سابقة أو يعود إلى فترة لاحقة. وماذا عن الأشياء التى عثر عليها فى مقابر لم يعثر فيها على أوانى فخارية أو عن الأوانى الفخارية التى لم يتم تصنيفها؟ ومن جهة أخرى، فإن هذا النظام الملائم لجبانات الوجه القبلى الذى تستند صياغته إليها، لا يمكن تطبيقه على مواقع الشمال التى تم الكشف عنها فى وقت لاحق. ورغم كل ذلك، ينبغى الإقرار بفضل هذا النظام، لكونه كان المرجع الوحيد لعصور ما قبل التاريخ فى مصر، كما ظل معمولاً به على امتداد قرن من الزمن، وفى كثير من الأحوال من جانب أولئك الذين كانوا قد انتقدوه.

ومن سخريات القدر، أنه عندما ذهب «دى مورجان» إلى نقادة بعد رحيل «بترى»، كشف عن مقبرة الملكة «نيت حوتب»،[٦] حيث وجد أن أشكالا «متدنية» من المقابض المتموجة تجاور آثار من بداية الأسرات. وهكذا كان يقدم برهاناً ساطعاً على صحة أطروحات «بترى»...

وفى غضون ذلك، وفيما بين ١٨٧٦ و ١٨٨٩، كان العالم الألمانى «چورج شوينفورث» Georg Sehwein furth المتخصص فى نبات العصر الحجرى القديم يجوب الوادى والصحارى بحثا عن العصر الحجرى هذا، الذى كان العلماء يقرون شيئا فشيئا بوجوده، وإن كانوا لم يتحققوا منه سوى بشكل غامض.

وشهدت السنوات الأولى من القرن العشرين، خروج مواقع شديدة الأهمية من طى النسيان، ونذكر على سبيل المثال «هيراكنپوليس»، وهى «نخن» القديمة، عاصمة عصر ماقبل التاريخ (Quibell and Green, 1902) ، وفيها عثر على صلاية نعرمر الذائعة الصيت، وأيضا جبانه المحاسنة (Ayrton and Loat 1911) ، وجبانه جرزة على بعد خمسة كيلومترات إلى الشمال الشرقى من هرم ميدوم، قرب الفيوم وهى امتداد لثقافة نقادة ٢ جهة الشمال، وأعطى هذا الموقع اسمه لثقافة جرزة. (Petrie and Wainwright 1912) . وتعزز نظام «بترى» عن التتابع الزمنى بآلاف المقابر الجديدة هذه. واستناداً إلى تكرار وجود بعض النماذج الفخارية، امكن التمييز بين عصرين أساسيين كبيرين: عصر نقادة الأول الممتد من SD 30 إلى SD 40 . ويصل عصر نقادة الثانى إلى Sd 60 (ونظراً لأن الفترات الزمنية لكل فقرة زمنية من «التتابع الزمنى» ليست متساوية، فإن قيمتهما نسبية). وفى وقت لاحق أضيف عصر ثالث، ينتهى عند Sd 78 ، ويتفق مع غزو الوادى من قبل «جنس جديد» قادم من الشرق، إنه «جنس الأسرات»، الذى ينحدر منه المصريون الفراعنة الذين يأخذون مكانهم بين Sd 78 و Sd 79 . وبينما كان الشمال ينفتح على الحقبة قبل الفرعونية، كانت أعمال التنقيب قد بدأت فى السودان منذ عام ١٩٠٧، وقد باشرها «ريزنر» Reisner (١٩١٠) ثم «فيرث» Firth (١٩١٢ و ١٩٢٧) وقد كشفت عن وجود مجموعات جنائزية شبيهه بعصر ما قبل الأسرات فى مصر.

وبحلول الحرب العالمية الأولى، كان السباق السودانى المصرى لوادى النيل، قد أصبح مندمجاً فى وجود هذا الماضى الذى تراجع إلى أبعد الأزمنة...

وفى هذا الصدد، حملت معها السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى نصيبها من الأحداث: ففى الجنوب، ظهرت ثقافة البدارى الأقدام من ثقافة نقادة. وفى الشمال عرفت أقدم ثقافات العصر الحجرى الحديث فى مصر.

وفيما بين ١٩٢٢ و ١٩٢٥ توصل «جى برونتون» Guy Brunton إلى الكشف، فى المنطقة الواقعة بين مطمر والهمامية، فى قطاع البدارى، عن دفنات تشبه الدفنات النقادية، وإن كان يختلف ما عثر عليه فيها اختلافاً بيناً، ولاسيما الأوانى الفخارية الحمراء أو السوداء المصقولة، أو أيضا الحمراء ذات الحواف السوداء، فقد كان سطحها متموجا نتيجة احتكاكها بمشط من العظم أو من الخشب قبل حرقها. وتلقائياً، صنف هؤلاء القادمين الجدد «قبل» الفقرة Sd 30 .

وفى عام ١٩٢٤، قام شاب مصرى هو أمين العمرى بالتنقيب فى ضواحى القاهرة على مقربة من حلوان، بناء على إرشادات الأب «بوفييه – لاپيير» Bovier - Lapierre فكشف على بعد ٢٣ كيلو مترا من العاصمة، موقعاً من العصر الحجرى الحديث سوف يحمل اسمه. ولا نعرف سوى القليل جدا عن موقع العمرى نظرا لوفاة مكتشفه المبكرة. وفيما بين ١٩٤٣ و ١٩٥٢ كرس «ديبونو» Debono ثلاثة مواسم للتنقيب فى هذا الموقع وقد نشرت نتائجها أخيراً (Debono, 1990) .

وفى الفترة من ١٩٢٤ إلى ١٩٢٦ كشف السيدة «كيتون – تومبسون» G. Caton - Thompson والجيولوجى جاردنر E. W. Gardner[٧] ، فوق الشاطىء الشمالى من بحيرة قارون عن ثقافات العصر الحجرى الحديث فى الفيوم. وانقضت عدة سنوات، قبل أن يقوم عالم المصريات الألمانى «هرمان يونكر» Herman Junker بالكشف عام ١٩٢٦، فى غرب الدلتا، على بعد خمسين كيلو مترا من القاهرة عن عدد من الفدادين تضم التجمع السكنى الشاسع لمرمدة بنى سلامة. وفى عام ١٩٣٢ كشف «منجين» O. Menghin ومصطفى عامر M. Amer فى المعادى من ضواحى القاهرة على محلات تعود إلى عصر ما قبل الأسرات وتضم تجمعا سكنياً وجبانتين وهى على قدر كبير من الأصالة، وعلى علاقة بالشرق الأدنى القديم المجاور، وتجارة النحاس.

ان الفيوم والعمرى ومرمدة بنى سلامة والمعادى كلها مواقع تتميز عن ثقافات الجنوب بآثارها المرتبطة بإطار سكنى معين. فالمنازل دائرية أو بيضاوية، وهى جزئياً تحت مستوى سطح الأرض، وجدرانها مطلية بالطمى (مرمدة) وبها مناطق هامة لتخزين المؤن ومغطاة بالحصر أحياناً (الفيوم) والقرابين المصاحبة للمتوفى محدودة (مرمدة والمعادى)، وهى كلها سمات تبرز أصالة الشمال تاركه فراغاً ضخما فى مصر الوسطى وفى الدلتا. ومن ناحية التتابع الزمنى، تبدو الثقافات الثلاثة الأولى، أنها الأقدم، نظرا الى أنها لم تعرف النحاس وسابقة على البدارى حيث عثر على المعدن. وفى المقابل، تغطى المعادى إلى جانب البدارى ونقادة فى الجنوب، العصر «الكالكوليتى»[٨] Chalcolithique.

وبينما أخذت تتشكل لوحة عصر ما قبل الأسرات، كانت الأبحاث حول العصور الحجرية فى تطور مستمر.

وفى عام ١٩٢٣، وفى سهل كوم أمبو قام «ادمون فينيار» Edmond Vignard إنطلاقاً من مجموعات ضخمة من الأدوات الحجرية، بتعريف صناعة ذات أطوار ثلاثة: السبيلية(٩) التى تطورت من سحنة «موستيرية»(١٠) moustérien إلى الأدوات الحجرية القزمية microli-thisme وهى تغطى بالمقارنة مع أوروبا الحضارات «الموستيرية» و «الأورنياسية»(١١) Aurignacien و «المجدلينية» Magdalénien و «السولترية» Solutrée و«الأزيلية» Azilien و «التردنوازية» Tardenoisien. هكذا كانت مصر قد أماطت اللثام عن عصرها الحجرى القديم الأوسط والأعلى!

وفى نفس هذه الفترة، وفى عام ١٩٢٥، أتاحت الأعمال الجارية فى العباسية قرب القاهرة، للأب «بوفييه – لا بيير»(١٢) Bovier - Lapierre أن يهتدى إلى وجود طبقات هامة من القطع الحجرية المصقولة، وقد استقرت فى هذا المكان عندما تكونت مدرجات النيل القديمة. إن وجود أدوات «أشولية» acheuléens ذات وجهين، ضمن أقدم الأدوات البشرية، قد حدد لوادى النيل وجود الطور الأسفل من العصر الحجرى القديم وشد انتباه الباحثين إلى الدور الأساسى الذى يلعبه علم الجيولوجيا فى معرفة أقدم العصور. ويعود إلى «جيمس هنرى بريستد» James Henry Breasted ، عندما كان مديراً للمعهد الشرقى لجامعة شيكاجو، فضل تنظيم أول مسح لعصور ما قبل التاريخ فى وادى النيل، يرتبط بدراسة المدرجات. وكلّف بهذه المهمة الجيولوجى «ساندفورد» K.S.Sand ford والأركيولوجى «أركل» W. J. Arkell ، فنشرا من ١٩٢٩ إلى ١٩٣٩ دراسة تركيبية شاملة تقع فى أربعة مجلدات، عن العصر الحجرى القديم فى مصر.

وعند فجر الصراع العالمى الثانى، كانت اثنتان وأربعون سنه من الأبحاث فوق أرض الواقع قد اتاحت إرساء أسس عصور ما قبل التاريخ فى مصر، والكشف عن وجود وتطور الإنسان على امتداد نهر النيل، منذ اقدم عصور الحجر المصنع وحتى الفراعنة الأوائل.

ومع ذلك، فإن صورة التاريخ البدائى لمصر ظلت فى السنوات ١٩٣٠ – ١٩٤٠ مرسومة من خلال الأسطورة، وبالتالى من خلال النص. وهذه الصورة هى التى استقرت فى «الذاكرة الجمعية» لعلماء المصريات، رغم كل الشواهد الأركيولوجية، أو إذا أردنا أن نكون أكثر وضوحاً، لأن الشوهد الأركيولوجية تنتمى إلى دائرة من التأويل لم يألفها عالم المصريات المتخصص فى النصوص.

وفى عام ١٩٣٠، تقدم «كورت زيته» Kurth Sethe(١٣) ببحث مشهور عنوانه Urgeschich-

te und älteste Religion der Agypter ، استخدم فيه المصادر الأدبية، وعلى رأسها «متون الأهرام» وقوائم الأقاليم، ليحدد وجود مملكة قوية متحدة فى الشمال عاصمتها هليوپوليس، قرب الربع الأخير من الألف الرابع، خاضت هذه المملكة حرباً ضروساً مشهودة ضد مملكة فى الجنوب، عاصمتها «هيراكنپوليس» (الكوم الأحمر، حاليا). وتمت الوحدة الأولى تحت سيطرة مملكة هليوپوليس، التى يهيمن عليها الإله – الصقر «حورس»، فى حين كان «ست» يتسيد على الجنوب. وتقدم لنا هذه الصياغة الجديدة الصراع بين «حورس» و «ست» على أنه انعكاس أسطورى لأحداث حقيقية. ثم تمرد الجنوب لينقسم القطر من جديد إلى مملكتين لكل منهما عاصمته، «په» = «بوتو»، فى الشمال و «نخن» = «هيراكنپوليس»، فى الجنوب، إلى أن تمت الوحدة على يدى «مينا»، وكان الصعيد مسقط رأسه.

وفى مؤلف نشره «هيرمان كيس» Hermann Kees فى «ليپزيج»، عام ١٩٤١، تحت عنوان Der Götterglaube im Alten Aegypten عارض أطروحات «زيته» واقترح صورة مختلفة. فكان يرى أن الذى حدث لم يكن استعماراً للجنوب من قبل الشمال، بل اتحاداً تعاهدياً قوياً للأقاليم فى الجنوب، تجمّع حول ملك «هيراكنپوليس»، وتحت قيادته تحققت وحدة البلاد.

وفى حين كان «زيته» شخصياً قد أكد على الطابع غير المؤكد لأطروحاته الخاصة وما تنطوى عليه من جراة، قد تتجاوز أحيانا حدود المعقول، فقد استخدم معظم علماء المصريات فرضيته دون أدنى تحفظ. فلا عجب إذن ان نجدها قد وردت فى مؤلف « إميل ما سولار Emile Massoulard الصادر عام ١٩٤٩ الذى يقدم فيه رؤية شاملة لعصر ما قبل التاريخ فى مصر، بعد ان ادمج هذه الفرضية فى المعطيات الأركيولوجية. يقول ماسولار: «يمكن النظر إلى تكوين مملكتين فى عصر ما قبل الأسرات القديم، على أنه أمر شديد الإحتمال. المملكة الأولى فى الوجه القبلى، تسودها ثقافة العمرة وكان «ست» إلهها الرئيسى. والمملكة الأخرى فى الدلتا، وتسودها ثقافة جزرة وتعبد «حورس» (...). ومن الراجح ان اقوى الممالك المتحدة قد تشكلت فى عصر ما قبل الأسرات الأوسط بعد غزو الوجه القبلى من قبل ملك الوجه البحرى. وربما اتخذت من «هليوپوليس» عاصمة لها. عندئذ انتشرت فى الجنوب حضارة جرزه التى كانت قاصرة على الشمال، وفرضت نفسها على البلاد بأسرها» (pp. 512 - 513) .

وفى أعقاب حضارة جرزه هذه، ظهرت حضارة تنتمى إلى فجر الأسرات وكانت حضارة باهرة، امتدت إلى سائر اركان مصر، وتغلغلت فى النوبة واكتملت عندما قام ملك من الجنوب، يدعى «مينا» ومسقط رأسه «ثيس» («ثنى») وفتح الشمال. إن الحيوية التى عرفها هذا الطور الأخير من عصر ما قبل الأسرات يعود على ما يظن إلى غزو البلاد من

جانب شعب له أصول أسيوية.. إنه «جنس الأسرات» الذى سيجد له اساساً انثروبولوجياً عند «ديرى» Derry . (1956) .

وتواصلت الأبحاث فى السنوات التالية على أرض الواقع وامتدت إلى الواحات الخارجة فى الصحراى الغربية، حيث كشفت «كيتون تومبسون» G. Caton - Thompson عن سلسلة مواقع تعود إلى ما قبل التاريخ بدءاً من الأشولى وحتى العصر الحجرى الحديث. وفى السودان حدد «أركل» A.J. Arkell (١٩٤٩) العصر الحجرى الأوسط والعصر الحجرى الحديث فى الخرطوم.

وتشكل أعمال «إليز بومجارتل» Elise Baumgartel (١٩٥٥، ١٩٦٠) آخر الدراسات التركيبية الشاملة حول هذا الموضوع قبل الإنبعاثة النشطة التى حدثت فى الستينات من هذا القرن.

أن المشروع الدولى لانقاذ آثار النوبة تحت إشراف اليونسكو هو الذى كان وراء هذه الإنبعاثة الجديدة. إن الظروف الملحة قد فتحت الوادى أماما التخصصات العلمية المتعددة التى تنفتح على أكثر من مجال، فتدفق على النيل الأفضل فى كل تخصص: مهندسون وفنيون ومعماريون وأنثروبولوجيون وجيولوجيون... وعلماء الآثار من مختلف المجالات. وكان من بينهم علماء عصور ما قبل التاريخ، ولم يحضروا وهم مسلحون بوسائل تقنية حديثة فحسب، ولكنهم تدربوا على معالجة متجددة للمشاكل التى يواجهونها، ومن ثم فقد كان مقدراً لهم ان يحدثوا تارة انقلاباً فى الصورة التى خلفها لنا باحثو فترة «ما قبل الحرب» وطوراً صححوها أو حددوا ملامحها.

إن التقدم الذى أحرز فى الفيزياء والكيمياء، قد انعكس على مجال التتابع الزمنى، فقد توصل «لايبى» Libby عام ١٩٤٧ إلى نظام للتاريخ له صفة «مطلقة»، قائم على الكربون المشع 14 C ، وقد تم اختباره على كل حال، على المواد التى تعود إلى العصر الحجرى الحديث والتى عثر عليها فى الفيوم. وسرعان ما تم تصويب هذا النظام بواسطة «علم التاريخ الشجرى» dendrochronologie[١٤] . ورغم أوجه القصور التى تعترى هذا الأسلوب فقد ساعد على تحديد عصور ما قبل التاريخ فى وادى النيل داخل إطار متسق إذ اتاح فى المقام الأول تاريخ مختلف الطبقات الجيولوجية التى تضم أشياء من صنع الإنسان على قدر كبير من الأهمية. فلو كانت الجيولوجيا أساس أعمال «ساند فورد» و «أركل»، فقد أصبح من الضرورى إعادة النظر فيها على أساس مناهج ومعالجات جديدة. ونظرا لأنها كانت القاعدة التى ترتفع من فوقها معارف عصور ما قبل التاريخ، فقد كان من المناسب البدء بها. لقد أدرك الدكتور رشدى سعيد[١٥] (١٩٦٢ ، ١٩٩٠) عدم وجود دراسة حقيقية

متعمقه لجيولوجيا مصر، فأخذ على عاتقه الإضطلاع بهذه المهمة المهولة. وفى نهاية دراسته اتضح أن المدرجات كما وصفها «ساند فورد» و «أركل» هى أكثر تعقيداً مما بدت، واتضح انها ليست متواصلة، بل متناثرة ومفتتة ولا يتطابق بالضرورة الواحد منها مع الآخر.

وعلى صعيد المفاهيم، فإن معالجة أرض الواقع كانت قد أصبحت معالجة باليثنولوجية[١٦] Paléthnologique (على حدأ تعبير «ليروا – جورهان» A. Leroi - Gourha) إنها مطالعة جديدة هدفها معالجة الإنسان من خلال تعقيدات مكوناته الثقافية والإيكولوجية (اى علاقة الإنسان بالبيئة – المترجم) والإقتصادية والتقنية والإجتماعية والدينية... وفى هذا الصدد، استعارت مناهج التنقيب منهج الرياضيات، فحلت النظرة الشاملة محل أسلوب «اختيار» القطع المثيرة الذى سار على هديه علماء آثار القرن التاسع عشر. ومع ذلك، لا ينبغى أن ينحى شىء جانباً، وتظهر أهمية «عملية جمع العينات» عندما يتضح أن التنقيب الشامل قد أصبح مستحيلاً أو عديم الفائدة، ويتم مراجعة صفتها التمثيلية بفضل الإحصاء. وتعتبر هذه السنوات بالنسبة لعلماء ما قبل التاريخ «حقبة تتابع الطرز» (التيپولوچيات)[١٧]، typologies ، وقد استنبطوا منها النسبة المئوية للآلات التى يمكن مقارنتها من موقع إلى آخر.

وأخذت فرق الباحثين الدولية التى تعمل تحت إشراف «فريد وندورف» Fred Wendorf فى إطار بعثة Combined Prehistoric Expedition من دالاس، تقلب المعطيات الخاصة بالعصر الحجرى القديم فى النوبة ومصر، تقلبها رأساً على عقب وازاحوا العصر السبيلى الذى قال به «فينيار» Vignard وأماطوا اللثام عن ازدهار ثقافى خاص بالوادى. وواصلوا أعمال البحث فى الصحراء الشرقية حيث سبق لـ «كيتون – تومبسون» ان عثرت على متتالية طويلة من الثقافات، فكشفوا (Wendorf, 1980 - 1984) عن آثار اقدم أحياء العصر الحجرى الحديث فى المنطقة. وخلال المسيرة الطويلة التى دفعت السكان القاطنين عند شواطىء النيل إلى الإنتقال إلى العصر الحجرى الحديث، فإن إقليم الصحراء، الأكثر رطوبة، عند بداية عصر الهولوسين[١٨]، يظل موطنا ممكناً وكامناً.

وفيما يتعلق بعصر ما قبل الأسرات، فإن الأبحاث التى قام بها فكرى حسن على أرض الواقع، قد اتاحت عدداً ضخماً من التواريخ بواسطة الكربون المشع (Hassan, 1985) وتوفير إطار التتابع الزمنى الذى كان يحتاج إليه هذا العصر يفتقر إليه.

ومع ذلك، فإن مفهوم «پترى» عن التتابع الزمنى (SD) كان قد أصابه الكثير من «إنقضاض» مفهوم الـ «ستوفن»[١٩] Stufen الذى تقدم به «كايزر» Kaiser (1957). لقد عاد

إلى تناول الوثائق التى جمعها «بترى» تناولاً نقدياً، وانطلاقاً من التوزيع الأفقى لنماذج الفخار فى جبانة أرمنت التى نشرت على أفضل وجه (R. Mond and O. Myers, 1932) ، استطاع أن يحدد تسلسلا زمنياً داخلياً لعصر نقادة، فصحح التتابع الزمنى لـ «بترى» وأوضحه، فأضاف إليه أطواراً ثلاثة وأحد عشر تقسيماً ثانوياً.

وبدأ يتشكل إطار مرجعى، جليل الفائدة للمتخصص الجديد الذى بدأ يلوح فى الأفق، والذى ينتمى إلى علماء ما قبل التاريخ، أكثر منه إلى علماء المصريات. وهكذا، فعندما عاد «فيرسيفيس» W. Fairsevis و «هوفمان» M. Hoffman إلى دراسة «هيراكنبوليس» عند نهاية الستينات اختاروا لدراسة هذا المكان فريقا مسلحاً بتخصصات علمية فى أكثر من مجال، فريقـا فـى وسعـه أن يتصدى لدراسة الوادى الكبير من منظور ايكولوچيا العصور القديمة Paléo - écologique ، بدءاً من العصر الحجرى القديم وحتى بدايات عصر الأسرات.

ورغم أن «هييز» W. Hayes قد اسهم عام ١٩٦٥ اسهاماً متميزاً فى الأعمال الخاصة بأقدم عصور مصر (Most Ancien Egypt) ، فإن دراسته التى تقترب جدا من أعمال اليونسكو الضخمة، لم تتمكن من الإستفادة من نتائجها. كان لابد إذن من انتظار صدور دراسة «هوفمان» M. Hoffman التركيبية الشاملة عن مصر قبل الفراعنة للتحقق من التقدم الذى تم احرازه على امتداد عشرين سنة من الإبحاث المكثفة والتعاون.

ولم تتراجع الظاهرة. لقد شهدت السنوات العشر الأخيرة(٢٠) مزيدا من الإنجازات وقيام فرق جديدة بالعمل فى الوقت الراهن فوق أرض الواقع. ولكن ترشدها فى الوقت الراهن مقتضيات جديدة: ان انتشار الزراعة المكثفة فى الأراضى القائمة على امتداد الوادى – بما فى ذلك السودان – قد جلبت معها الدمار التام للمواقع التى تم تحديدها عند حافة السهل الرسوبى. لقد نشأ البحث فى عصور ما قبل التاريخ نتيجة ظرف طارىء وأصبح هو وأعمال التنقيب الخاصة بإنقاذ آثار النوبة شيئا واحداً. وتم تحديد محاور لها الأولوية ومنها قطاعات مصر الوسطى والدلتا التى لا نعرف عنها سوى القليل.

إن العمل الذى اضطلع به «فرميرش» P. Vermeersch وفريقه ضمن «المشروع البلجيكى لعصور ما قبل التاريخ فى مصر الوسطى» Belgian Middle Egypt Prehistoric Project قد ساعد منذ ١٩٨٠ على كشف مواقع من العصر الحجرى القديم الأسفل والأوسط ودراستها فى بيئتها مع توضيح الأطوار المناخية المختلفة التى تحكمت فى اقامة اولى الثقافات البشرية فى الوادى. ويرجع الفضل إلى «فرميرش» P. Vermeersch فى الكشف عن أقدم المصريين المعروفين إلى يومنا هذا : إنسان نزلة خاطر الذى يعود عمره إلى ٣٠٠٠٠ سنة

قبل الزمن الحاضر B . P ، وقد رأى النور فى الثمانينات من القرن العشرين وطفل تل الترامسا الذى يعود تاريخه إلى ٥٥٠٠٠ سنة قبل الزمن الحاضر B . P والذى تم الكشف عنه مؤخراً على مقربة من معبد دندرة.

وفى الدلتا التى لم تعرف الإستقرار، انصبت الجهود على موقع مرمدة بنى سلامة، الذى أعاد «إيوانجر» J. Eiwanger (1984) التنقيب فيه، وعلى استغلال الجبانة النقادية الكبرى فى منشأة أبو عمر من قبل الفريق الألمانى التابع لـ Ägyptische Sammlung فى ميونخ، تحت إشراف «ديتريش ويلدونج» Dietrich Wildung (Kroeper U. Wildung, 1985) ، وعلى مدينة «بوتو»(٢١) ذات القيمة الجوهرية (W. Von der Way 1989) التى تقع طبقات ما قبل الأسرات فيها تحت مستوى المياه الجوفية فلا يمكن التنقيب عنها إلا بعد استخدام المضخات ذات المحرك... ومؤخراً، قامت بعثة من جامعة امستردام تحت إشراف «فان دان برينك» E. C . M. Van den Brink (1989) تعمل فى منطقة فاقوس، بالكشف عن عدة أطوار متعاقبة لمواقع سكنية تمتد من عصر ما قبل الأسرات وحتى الأسرات الأولى.

هذه الكشوف التى سيضاف اليها قيام فرق إيطالية (Caneva et al 1987) وألمانية (Rizkana a, Seeher 1987, 1988, 1989) بالعمل من جديد فى موقع المعادى، قد ساهمت فى رسم صورة لمجموعات ثقافية لها الخصائص المميزة للقسم الشمالى من البلاد، إنها عصور ما قبل التاريخ فى الدلتا التى قد تدحض الفكرة بانها كانت عبارة عن قطاع موحش، غير مسكون فى أقدم العصور، ويعج بالمستنقعات والبعوض.

وفـى الفيوم، انتهت الأبحـاث الثقافيـة المتعاقبـة أو المشتركـة للفرق الأمريكيـة والإيطاليـة والألمانيـة والبـولندية إلى إمكـان إدمـاج ثقافـات مـا قبـل التاريـخ فـى بحيرات العصـور القديمة Paléo - lacs وإلى صياغة متتالية معقدة لمناخ العصور القديمة Paléo - climatique . (J. Kozlowski,d. 1980)

فى السودان، عادت البعثات الفرنسية والإيطالية والبولندية إلى التنقيب فى القطاعات التى سبق ان عمل فيهـا «أركـل» ومـدوا نطـاق ابحاثهـم فـى اتجـاه الجنـوب (Geus, 1984, Caneva 1983, Krzyzania K 1984) .

وفى الصعيد أخيراً، فى قلب الثقافة النقادية ذاتها، عاد المعهد الفرنسى للدراسات الشرقية IFAO إلى أعمال التنقيب فى موقع العضايمة الذى يعود إلى عصر ما قبل الأسرات، والذى سبق الكشف عنه والتنقيب فيه جزئياً عام ١٩٧٣ (Debono 1971. Midant - Reynes et al. 1990)

ويكفى أن نلقى نظرة عابرة على أعمال التنقيب وما تحقق من أعمال فى مصر

والسودان التى ينشرها سنويا «چان ليكلان» Jean Leclant و «جيزيل كليرك» Giséle Clerc فى مجلة «أورينتاليا» Orientalia للتاكد من أن أبحاث عصور ما قبل التاريخ تحتل مكانة يصعب إغفالها، فى خضم النشاط الأركيولوچى الجارى على ضفاف النيل.

إن لقاءات «پوزنام» Poznam التى تنعقد، منذ عام ١٩٨٠، كل أربع سنوات، تجمع المتخصصين فى مسائل عصور ما قبل التاريخ فى وادى النيل وشمال إفريقيا، حول موضوع محدد.

مما سبق يتضح، بجلاء، كل ما تحقق على امتداد قرن من الزمن تقريبا!

ومع ذلك، فلنعد إلى التعريف الذى كان قد تقدم به «سونرون» عام ١٩٦٨ عن علم المصريات، وهنا نتساءل من جديد إن كان مازال علينا اليوم ان نُقصى الماضى قبل الفرعونى خارج حدود علم المكتشف العظيم.

ولا ريب أن مزيدا من المطبوعات ترى النور، ولكنها تتجه إلى مزيد من التخصص، فتبدو فى غير متناول غير المتخصصين، لتصبح تخصصاً علمياً منغلقا، أو تبتعد بالأحرى، أكثر فاكثر عن العالم الذى ألفه علماء المصريات. حقاً، إنه لتخصص علمى، فهو عند المنبع مجرد علم عصور ما قبل التاريخ، ثم «يطبع بطابع نهر النيل» عندما ينتقل إلى العصر الحجرى الحديث، «ليطبع بطابع علم المصريات» عند الإقتراب من الأسرات الفرعونية الأولى. وهكذا سندرك بسهولة أننا أمام سياق متصل، ترتبط فيه الظواهر، وتقتبس من بعضها البعض، وتتبدل، ولكنها لا تنفصم أو تنقطع إلا فى النادر القليل.

إن العرض الألمعى الذى قدمه عالم المصريات الألمانى «ڤرنر كايزر» Werner Kaiser (١٩٦٤)، يدفعنا إلى النظر فى هذا الموضوع والتفكر فيه. ولقد عقد مقارنة بين أقدم الوثائق المكتوبة والمصادر الأركيولوجية، بعد أن قام بتحليلها بدورها وبنقدها بكل ما أوتى من صرامة، فتوصل إلى استنتاج باحتمال قيام وحدة سياسية، سابقة على «مينا»، فى ظل العديد من صغار الملوك. وهو ما قد يتفق مع وجود وحدة ثقافية منذ عصر جرزه، وظهور نخبة من الزعماء الذين يمكن التاكد منهم أركيولوچياً، إنهم الزعماء الملقبون بـ «حورس» الذين دوّن اسمهم داخل الـ سرخ»، وربما كانوا «أتباع حورس» الذين أشار إليهم حجر بالرمو.

ان فكرة الوحدة «قبل الأوان»، ليست جديدة، بكل تاكيد. ولكن بعد أن تاسست على إعادة اكتشاف المصادر الأركيولوجية والمكتوبة، فإن التحليل قد عصف بصياغات «زيته» و «كيس» ويدعونا إلى النظر إلى مفهوم «القطرين»، كما يتضح فى العصور التاريخية.

أكثر من أى حضارة قديمة أخرى، تتغلغل جذور المصريين فى تربة أرض واديهم، فيستوعبون الظواهر الثقافية ليعيدوا ابتكارها ويعيدوا استثمارها، فى أصالة تلامس العبقرية. ومن هذا المنظور، يشكل اختراع الكتابة، فى مكانها الطبيعى، إحدى هذه الظواهر. وتاريخ وادى النيل المديد لا يمكن الخلط بينه وبين التاريخ الفرعونى - علم المصريات - الذى لا يشكل سوى جانب منه، الجانب الأكثر إشراقا!

ومع ذلك، فمن أى ناحية ننظر إلى مغامرة نهر النيل، فإنه يستحيل تحديدها وتعريفها إلا من خلال مجمل سياقها وجميع مراحلها المتعاقبة.

واليوم، يتفق علماء المصريات – بكل معنى الكلمة – على أن الجانب الأكبر من مقومات الحضارة الفرعونية تضرب جذوره فى الماضى السحيق لعصور ما قبل التاريخ التى أصبح من الضرورى ان نفهمها فهما أفضل. ومن جانبهم، يُجمع علماء ما قبل التاريخ – ماعدا، على ما يظن، أولئك الذين تخصصوا فى اقدم مراحل العصر الحجرى القديم – يجمعون على انه من المستحيل دراسة ثقافات العصر الحجرى الحديث فى مصر، على غرار ثقافات غيرها من المناطق، لانها على وجه التحديد، ثقافات قبل فرعونية، ولأن حقبة من مواقع العصر الحجرى الحديث قد وفرت وفقا لسياق شديد التعقيد، فى هذا الجزء من الوادى الممتد من مدار السرطان وحتى البحر المتوسط، لحظة من أسمى لحظات البشرية وأرقاها. ولا يمكن معالجة مثل هذه الظاهرة الإنتقالية وفهمها بسهوله ويسر، وهى تعتمد على العديد من المناهج. وإذا كان القوم يتبادلون التحية فى أدب جم بين شاطىء وآخر، أى بين علماء ما قبل التاريخ وعلماء المصريات، فإن اللغة التى ينطقون بها ليست واحدة. ترى ما هو الشىء المشترك بين المعطيات الإقتصادية الواردة فى بردية «هاريس» وعقد بيع بقرة مدون على أومستراكا ديموطيقية وبين الإنتقال من ثقافة قارون إلى ثقافة الفيوم (أ). لاشىء أكثر من الذى يجمع بين ملامح العصر الحجرى الحديث فى جنوب فرنسا وقانون «لى شاپلييه» Le Chapelier [٢٢] أيام الثورة الفرنسية! وحزارِ من إثارة المشكلات الزائفة بسبب ما قد يخفيه جمود الكلمات! وإذا كان هناك عصر يخص كليهما على حد سواء، فإنه بالتاكيد هذا العصر الواقع عند مفترق التخصصين العلميين، العصر الذى لم يعد يخضع كل الخضوع لعلماء عصور ما قبل التاريخ ولم ينتسب بعد بالكامل لعلماء المصريات: إنه فجر التاريخ Prorohistoire الذى يمتزج فى مصر مع العصر قبل الفرعونى. ومع ذلك، وكما لاحظ «ليونيل – بالو» Lionel - Balout (1955, 450) وهو يتحدث عن افريقيا الشمالية *«إن العصر الحجرى الحديث هو وضع حضارى. فى حين يكشف فجر التاريخ عن وضع معارفنا»*. إننا هنا أمام معطىً ذاتى يصعب علينا أن نتخلص منه. فبإدخال أبناء العصر الحجرى الحديث فى مصر إلى «قاعة انتظار» antichambre (على حد قول «بالو») التاريخ، فإننا نحدد لحظة

غامضة ومبهمة، فننظر إليهم على أنهم لم يعودوا من أبناء العصر الحجرى الحديث كما أنهم ليسوا بعد من أبناء عصر الأسرات! ولنسترجع إذن إلى الأذهان أطروحات «كايزر» عن التوحيد السياسى للبلاد قبل ما يطلق عليه اصطلاحاً الأسرة الأولى وسيمكننا أن نتصور إلى أى مدى تكون الحدود الفاصلة متحركة وغير ثابتة، ولماذا يصبح من الصعوبة بمكان، ونحن عند مفترق الطرق ان نتعرف فيهم على نوبنا...

وإذا التمسنا، عند دراسة فجر التاريخ فى مصر، العون من تقنيات تُنفَّذ فى أرض الواقع، نكون أقرب إلى أركيولوجيا عصور ما قبل التاريخ منها إلى الآثار، وإذا كشفنا عن مادة أصيلة، فتم دراستها دون الرجوع بصورة منتظمة إلى العصر اللاحق، فسيوفر لنا ذلك نتائج مفيدة بالضرورة، وأقل ما نقول عنها انها ستقدم لنا رؤية جديدة، سندرك أن هذه الدراسة تشكل فى واقع الأمر تخصصاً علمياً قائماً، بحد ذاته. وتكشف رسومات الأوانى التى مازالت تفتقر إلى دراسة سميوطيقية Sémiotique، (٢٣) عن أسلوب فى التفكير صيغ نتيجة عمل ذهنى بطىء ولغة خطية. وتمهد المنحوتات المجسمة الطريق للأشكال الفرعونية العظيمة، وقد ظهرت لتعبر عن اهتمامات لن تجد لها دائما أصداء فى الأزمنة اللاحقة. لان الإنقطاعات والانفصامات هى أساسية فى هذا العالم الذى يعتمد على التواصل. فكم من الأشكال قد انبثقت فى عصر ما قبل الأسرات لتستوفى صيغها وتستنفدها قبل وصولها إلى عتبة التاريخ! أو أنها تعبره عبوراً لتكتسب رموزا لم تكن تعرفها فى بادىء الأمر... إن عالم «علماء عصور فجر التاريخ» فى مصر – حقا إنها تسمية قائمة – مستمد من عالم «علماء ما قبل التاريخ» وعالم «علماء المصريات»، إنه يستعير من كليهما التقنيات والأساليب الذهنية.

وختاماً فإن حصيلة ما يناهز قرناً من الزمن، من الابحاث والاستقصاءات التى تناولت عصور ما قبل التاريخ فى وادى النيل، قد أماطت اللثام عن تاريخ مديد وعظيم وقدمت تعريفا لمحاور الأبحاث وأولوياتها، وساعدت على ظهور باحثين من «النمط الثالث».

هوامش المقدمة

(١) نشر هذ النص باللغة الفرنسية فى مجلة :Archéo - Nil ، تحت عنوان «عصور ما قبل التاريخ وعلم المصريات. مائة عام من الأبحاث حول عصور ما قبل التاريخ فى وادى النيل»، اكتوبر ١٩٩٠. (المؤلفة).

(٢) أى وادى الملوك. (المترجم).

(٣) جاك دى مورجان. (١٨٥٧ – ١٩٢٤). عالم اثار فرنسى تخصص فى عصور ما قبل التاريخ. شغل منصب مدير مصلحة الآثار المصرية (١٨٩٢ – ١٨٩٧). (المترجم).

(٤) أنها كلمة «بترى». Prehistoric Egypt, Londres 1920, P 1. '..by happy intuition, though without any definite proof, de Morgan treated the Nagadeh discoveries as being pre - dynastic"

(٥) قرب نجع حمادى. (المترجم).

(٦) من الأسرة الأولى (المترجم).

(٧) لا يجوز الخلط بينه وبين «جاردينر» Sir Alan Gardiner، (١٨٧٩ – ١٩٦٣) وهو من أبرز علماء المصريات البريطانيين. (المترجم).

(٨) تتكون هذه الكلمة من جذرين : chalco ويعنى «نحاس» و Lithique ويعنى حجر. وهو عصر بداية المعادن أو الحضارات النحاسية الحجرية. (المترجم).

(٩) نسبة إلى قرية السبيل، على مقربة من كوم أمبو . (المترجم)

(١٠) نسبة الى قرية «موستييه» Moustier فى فرنسا (المترجم)

(١١) وهى أسماء مشتقة من أسماء بلدان (المترجم)

(١٢) كاهن من الرهبنة اليسوعية ومن علماء عصور ما قبل التاريخ (١٨٧٢ – ١٩٥٠) عضو الجمعية الجغرافية الملكية المصرية. باشر حفائره فى العباسية (القاهرة) والشرق الأدنى وحلوان. عانى من أزمة إيمانية. وتوفى فى بيروت . (المترجم)

(١٣) «زيته» (١٨٦٩ – ١٩٣٤) من أنبغ علماء المصريات الألمان وأشهرهم. (المترجم)

(١٤) تاريخ الأحداث الماضية بدراسة الحلقات الشجرية الموجودة فى الأخشاب المأخوذة من المواقع الأثرية. (المترجم).

(١٥) إنه العالم المصرى الشهير. (المترجم)

(١٦) وهى كلمة نحتها العالم المذكور من دمج كلمة paléo ومعناها «قديم»، مع كلمة ethnologique اى المتعلق بالإثنولوجيا – اى علم الإنسان التحليلى (المترجم).

(١٧) راجع الهامش فى بداية الفصل الثانى (المترجم)

(١٨) راجع الملاحق فى آخر الكتاب (المترجم)

(١٩) أى مستوى التسلسل التاريخى (المترجم).

(٢٠) أى الثمانينات (المترجم)

(٢١) تل الفراعين حاليا، وتقع شمال غرب كفر الشيخ (المترجم).

(٢٢) لى شابيلييه» (١٧٥٤ – ١٧٩٤). رجل سياسة فرنسى. ارسى قانونه أسس الرأسمالية الليبرالية (المترجم).

(٢٣) علم العلامات Sémiotique يدرس العلامات والشارات ودلالتها وحركتها فى المجتمع (المترجم).

الباب الأول

أرض مصر

الفصل الأول

بين مجارى المياه والصحراء

تمتد هذه القطعة من إفريقيا بين خطى عرض ٢٤ْ و ٣١ْ شمالاً، وهى جزء من الحزام الصحراوى الذى يبلغ طوله عشرة آلاف كيلو متر من الصحراء الكبرى عند المحيط الأطلنطى وحتى البحيرات المالحة فى شمال الهند. فى هذه المناطق القاحلة، أكثر من أى مكان آخر، لعبت التقلبات المناخية إبان الحقبة الرابعة Quartenaire[١] دوراً حاسماً فى حياة الجماعات البشرية وتطورها وموتها. معنى ذلك، ان دراسة نشأة حضارة وادى النيل تتطلب من الباحث ان يستعيد العصور التى كانت فيها الصحراء مأهولة ولم يكن البشر قد انتقلوا بعد إلى الوادى ليسكنوه..

وعلينا أن نأخذ بعين الإعتبار ثلاث وحدات جغرافية كبرى. إنها وحدات ثلاث تشكل من حيث تكوينها وتطورها المناخى وإعمارها - تشكل تطور وازدهار الحضارة الفرعونية.

نبدأ بنهر النيل ووادية. فهو ممر طويل يتصل بإفريقيا. ثم الصحراء الشرقية وسيناء، المعبر الإجبارى نحو كبرى المراكز الثقافية فى الشرق. وأخيراً الصحراء فى الغرب، وهى همزة الوصل مع الصحراء الكبرى، أرض الصيادين الأوائل. وهكذا تجد مصر نفسها، دفعة واحدة، عند ملتقى الثقافات.

وادى النيل : من وادى الخسف[٢] rift إلى المدرجات.

إن وادي النيل كما نعرفه فى الوقت الراهن أو بالأحرى كما ألفناه منذ بداية الأزمنة الفرعونية - هو نهر طويل، من أطول الأنهار، فى العالم (٦٦٧٠كم). وكما لاحظ هيرودوت (الكتاب الثانى، الفصل ١٩) «فان طبيعته ليست كسائر الأنهار، بل على عكسها. فيفيض فى الصيف. وينحسر ماؤه فى الشتاء». وان كان ينتمى فى جانب منه إلى الصحراء الكبرى، فان نظام إيراد النهر يعود فى واقع الأمر إلى أمطار افريقيا الإستوائية ووسطها. لقد أتيح للمصريين بسبب علاقاتهم ببلاد النوبة أن يصعدوا النهر لأكثر من مرة فيما وراء الجندل الأول. لقد شغل البحث عن منابع النيل بال العديد من المستكشفين وكرسوا له وقتهم، منذ

العصور القديمة (Mazuel, 1935). ولكن كان لابد من الإنتظار حتى ١٣ أغسطس ١٨٥٨، عندما كان مستكشف إنجليزى يدعى «جون سپاك» John Speke يتجول فى وسط شرق إفريقيا فاكتشف وجود بحيرة كبيرة أطلق عليها «ڤيكتوريا». وبعد أن تتبع مجرى الماء الخارج من البحيرة، استطاع أن يصل، إبان رحلة أخرى عام ١٨٦٠ إلى النقطة المصرية فى «دوفيليه» Dufilè. وأرسل برقية نالت نفس الشهرة التى حصل عليها خطاب «شمپوليون» إلى السيد «داسييه». كانت البرقية تبلغ خبراً: "The Nile is Settled" (لقد حسمت مسألة النيل).

بعد أن ينبع النيل من الهضاب الشامخة للبحيرات العظمى، وبعد تغذيته بالأمطار الصيفية التى ترفع من منسوب مياه روافده السودانية (بحر الجبل وبحر الغزال) والأثيوبية (السوباط والنيل الأزرق والعطبرة)، يخترق النيل ٢٥٠٠كم من الصحارى القاحلة قبل ان ينتشر على هيئة دلتا عريضة ويختفى فى البحر المتوسط، ليقسم البلاد إلى منطقتين مختلفتين تماماً من حيث تكوينهما: فى الشرق، الهضاب الصحراوية التى تمزقها الوديان ومخرات السيول، وفى الغرب شبه سهل تنتشر فيه المنخفضات. إنهما منطقتان لم يكتف هيرودوت» بأن يفرق بينهما مورفولوجياً، ولكن من حيث إعمار كل منهما. فأطلق عليهما على التوالى «الصحراء العربية» و«الصحراء الليبية».

وهكذا ينتمى وادى النيل إلى الغابات الإستوائية فى شرق إفريقيا والساڤانا السودانية والصحارى السودانية المصرية. انه تنوع مناخى يضاف إليه تعقيدات طوبوغرافية وجيولوچية.

ويشكل عام تتكون الطبقة القاعدية فى مصر والمناطق المجاورة لها من الشست المتبلور، الذى أصبح يكون ما يشبه السهل إبان فترة مديدة من الحقبة الأولية[٣] Primaire . وفوق شبه السهل المتبلور هذا الذى يعود إلى حقبة ما قبل الكمبرى[٤]، استقر، فى الجنوب، الحجر الرملى النوبى، وهو رواسب حتاتية (فتاتية)[٥] détritique، تعود إلى أصول قارية. أما فى الشمال وحتى إسنا فقد استقر الحجر الجيرى وقد رسبته البحار القليلة العمق عند طغيان البحر فى العصر الطباشيرى الكريتاوى[٦] Crétacée . وخلال الحقبة الثالثة Tertiaire، ومع انحسار البحر الإيوسينى Eocéne[٧] ظهر إلى الوجود نيل أولىّ، إنه «النيل الليبى القديم» UR - Nil على حد قول «بلانكا نهورن» Blankenhorn[٨]، ونظر إليه لفترة طويلة على أنه جد النيل الحالى، وكان يجرى إلى الغرب منه، فى الصحراء الغربية (Said, 1975.).

ويتفق مسار الوادى الراهن مع الحركات التكتونية[٩]، عند مطلع عصر البليوسين Pliocéne[١٠]، قبل حوالى خمسة ملايين سنة، ليشكل على ما يعتقد أحد فروع الأخاديد

الإفريقية التى تمتد نحو البحر الأحمر، وكان النهر يبدو حينئذ وكأنه سلسلة من البحيرات المتصلة فيما بينها، ويرى البعض انها كانت مرتبطة بالقسم الحبشى فى حين كانت مستقلة عنه، فى نظر البعض الاخر، لأن العمر المطلق لنظامه الهيدروغرافى[١١] hydrographique الشديد التميز مازال فى الحقيقة محل جدال. ويرى بعض الباحثين (Heinzelin و Butzer. Paepe و Hansen) ان معظم المياه كانت ترد خلال الطور الأول من تاريخه الوديان بسبب المناخ المحلى الذى كان يسود إبان العصور القديمة. وقد حدث تغيير جوهرى فى عصر البليستوسين الحديث – منذ حوالى ٥٠٠٠٠ سنة – عندما تم الاستيلاء على مياه الحوض السودانى، والشاهد على ذلك رواسب الغرين والمرل[١٢] التى خلفتها مياه النيل الأزرق والعطبرة. فى حين يرى البعض الاخر (Adamson. William. Maley) ان الإتصال مع الحبشة قد تم فى الحقبة الرابعة، بل وربما إبان الحقبة الثالثة، كما قد يشهد على ذلك التماثل بين حبوب اللقاح والكائنات الحية المجهرية فى الحبشة وتلك التى ترسبت تحت مياه النيل فى الدلتا.

وأياً كان الأمر فخلال المليونى سنة الأولى من عصر «البليستوسين»[١٣] Pleistocène، نجد أن السياقات الجيومورفولوجية[١٤] المتحكمة فى تطور الوادى تتوقف على التقلبات المناخية بطابعها الدورى. وتنتهى إلى ظواهر النحر والإطماء. لقد ترتب على تعاقب حمل الرواسب وإطمائها والنحر فى هذه الأرض الرسوبية التى لم تتدعم بعد – ترتب عليها أن تكونت مدرجات من الحصباء والحصى. وقد كشفت أعمال «سندفورد» و«أركل»، فى الفترة من ١٩٢٩ إلى ١٩٣٩، عن ارتباطها بالصناعات البشرية. وفى حقيقة الأمر، فإن المدرجات التى تم الكشف عنها هى مدرجات متناثرة، نظراً لأنه كلما حدثت عملية إعادة تكيف، مرتبطة بالظروف الجديدة، كان يحدث تحات[١٥] érosion جزئى للأشكال وعمليات الترسيب السابقة.

وهذه المدرجات التى تكونت كإعادة تكيف للنهر استجابة للتغيرات التى حدثت فى مستوى سطح البحر، حسب رأى «سندفورد» و«أركل»، تقابلها مدرجات وديان روافد النهر.

لقد استطاعت الأعمال التى سادت خلال الثلاثين سنة الأخيرة أن تظهر مدى تعقيد هذه المجموعات التى تختلط وتتقاطع وتتكامل فيها الاسهامات الطولية والجانبية.

واتضح، فى حقيقة الأمر، أن المدرجات القائمة إلى الشمال من أسيوط، أو أقدمها على الأقل، لا ترتبط ارتباطا مباشراً بمدرجات الوجه القبلى. وإذا كانت اكتشافات «سندفورد» و«أركل»، لاتزال حقيقية، ومن حيث المبدأ»، فإن العمليات التى أدت إلى تكوين هذه المستويات، كانت أكثر تعقيداً، حيث أخذت تضيف التقلبات المناخية دورات الإرساب – التحات، هذه التقلبات التى تسببت فى ظواهر تسوية[١٦] – تخفيض[١٧]، على قدر كبير من

الأهمية على الصعيد الإقليمى. وعلاوة على ذلك فكثيرا ما تعدل المستوى القاعدى للتحات قرب السواحل، بسبب التغيرات التى حدثت لمستوى سطح البحر المتوسط. إن ظاهرة التعرية الشديدة هذه التى لحقت بمجموعات البليستوسين، قد حملت علماء الجيولوجيا على القيام بدراسة كل قطاع على حدة، تصاحبها محاولات ايجاد ترابطات صعبة إلى حد ما. إن تحليلات جيولوجية وجيومورفولوجية تفصيلية للمتتاليات المحلية، التى تعتمد أساساً على قياس حجم حبات المادة granulomètrie[18] وعلى علم المعادن وعلم حبوب اللقاح القديمة Palynologie قد أوضحت بجلاء عمليات التحول إلى منحدر تحاتى تكون فوق صخور صلبة Pèdimentation وساعدت على تحديد الكيانات الليثولوجية[19] التى يطلق عليها «تكوينات»[20] والتى يضاف إليها اسم القطاع أو المدينة القائمة فى المنطقة التى عثر فيها عليها. وهكذا حلت «تكوينات» دكه وكوركسو ودندره وقنا.. محل مدرجات «سندفورد» و«أركل». وتتفق هذه التكوينات مع أطوار تراكم حصى الوديان والغرين الأثيوبى التى ساعدت - بعد أن تحدد زمن طبقات الأرض Chronostratigraphie المرتبطة بدراسة الصناعات البشرية التى تضمها
- ساعدت تجديد معارفنا عن عصور ما قبل التاريخ، وعن أقدم أطوارها فى المقام الأول.

وعلى بعد ٢٣كم إلى الشمال من القاهرة، فإن النيل الذى فقد سرعته بعد أن اجتاز ٢٥٠٠كم من الصحارى، ينقسم إلى فرعين تكثر تعرجاتهما وهما يخترقان الدلتا. ويصب الفرع الغربى فى البحر المتوسط عند رشيد. أما الشرقى فيصل البحر عند دمياط.

إن تربة الدلتا خصبة بما تحتويه من مواد طينية وغرينية مخلوطة بالرمال المجلوبة من هضاب أثيوبيا البركانية. إنها منطقة سهوب وأراضى زراعية، وتعادل مساحتها التى تبلغ ٢٢٠٠٠كم٢، ٦٣٪ من المساحة المسكونة فى طول البلاد وعرضها. كانت بالنسبة للفراعنة أرضاً تكثر فيها القنيصة. ويحتفظ هذا المثلث الخصب، بأشكال مختلفة لآثار حفريات الأفرع والقنوات التى كانت تخترقه على الدوام منذ أقدم العصور. وكان «هيرودوت»، يحدد فى القرن الرابع قبل الميلاد فروعاً خمسة، بدءاً من الفرع الكانوبى غرباً وصولاً إلى الفرع البلوسى شرقاً. وسجل «سترابون» فى القرن الأول الميلادى، سبعة أفرع. ولاحظ «بطليموس» نفس الشىء بعد مرور قرن من الزمن. وإذا كان عدد الأفرع وأسمائها، يختلف من مؤلف إلى آخر، فإنه يبقى على كل حال أن عمل البشر لم يتوقف فى هذا القطاع، عن مقاومة الانسداد الطبيعى للترع، وغطوا أنحاء الدلتا بشبكة كثيفة من مجارى المياه.

ونستخلص قطاعين جيومورفولجيين. فإلى الجنوب من صدع يمتد من بحيرة المنزلة متجها ناحية الجنوب الغربى إلى قلب وادى النطرون، تبرز جزر صغيرة رملية يبلغ ارتفاعها من متر إلى أثنى عشر متراً فوق الأرض المنزرعة وتشكل «ظهور السلحفاة» وهى بقايا

محتملة لفروع قديمة للنيل بعد أن ردمت. ان الترسب فى هذه المنطقة سميك، محدود التجانس، ويتكون من غرين تتخلله شطوط من الحصباء. وعلى العكس، فالترسيب فى الشمال ناعم ومتجانس وينحدر انحداراً سهلاً فى اتجاه البحيرات الساحلية الكبرى التى يتميز بها الساحل. ومن الإسكندرية وحتى بورسعيد تشكل بحيرات مريوط وإدكو والبرلس والمنزلة، وتنفتح الأخيرتان على البحر، تشكل هذه البحيرات مؤخرة البلاد على هيئة برك وبحيرات ضحلة ومستنقعات. إنها مناطق الدلتا السفلية حيث كان ينبت فى الماضى نبات البردى، وحيث تطفو مدينة «خمنيس» الأسطورية[21] فى مكان ما، على غرار جزر البوص...

وعلى بعد ٨٠ كم إلى الجنوب الغربى من القاهرة، تمت شبه واحة الفيوم بالصلة إلى منخفضات الصحراء الغربية. ومع ذلك فإن ارتباطها الطبيعى مع النيل وحقيقة ان تربتها تتكون من الغرين والطمى تدرجها ضمن التضاريس العامة للوادى التى اعتاد الباحثون ان ينظروا إليها كجزء منه. وعند مستوى ديروط، فى مصر الوسطى، يستخدم بحر يوسف أحد مجارى النيل القديمة متجهاً شمالاً عبر تعرجات ليصل إلى سهل فسيح إلى الشرق من الفيوم، وينحرف فى اتجاهها ويدخلها عبر ترعة هوارة. ومن هنا، يتلاشى على هيئة عدد من الأفرع والترع التى تروى سطح المنخفض بأكملة دون الوصول أبداً إلى بحيرة قارون - وهى بحيرة «موريس» على حدّ قول «هيرودوت» التى تشغل قاع المنخفض، إلى الشمال الغربى، على عمق ٤٤ متراً تحت مستوى سطح البحر.

ومنذ الدراسات الأولى التى تناولت المنطقة (Beadnell, 1905) تباينت التفسيرات حول أصل هذا المنخفض وتتابعت الآراء من قائل بالتشوه التكتونى[22] إلى من ذهب إلى أنه التحات النهرى فى حين رأى ثالث أنه التخوية[23]. ويميل الرأى السائد فى الوقت الراهن إلى النظر إلى الفيوم كما ينظر إلى الواحات الأخرى الواقعة غرب النيل، وأن التفاوت فى صلابة الصخور فى مقاومة ظاهرة التحات هو المسئول عن هذه الحفرة الضخمة التى تبلغ ١٧٠٠كم مربع التى حفرت فى عصر الإيوسين éocène[24] والأوليجوسين oligocène[25]، وقد سُدّت فى الشمال بواسطة منحدر شديد الإنحدار فى حين تنحدر ناحية الجنوب انحداراً خفيفاً.

ولكن قبل أن تصبح الفيوم منخفضاً كانت دلتا نيل بدائى، مما تشهد على ذلك الرواسب النهرية البحرية الدلتاوية الواقعة فى الشمال. وهنا أيضا وفى طبقات عصر الأوليجوسين التى تعود)إلى ٢٥ أو ٣٠ مليون سنة مضت عثر على حفريات رتبة الرئيسيات الصغيرة Primates . (Propliopithecus Aegyptopithecus. Aelopithe cus . Oligopithecus). انها الجدود الأبعد للقردة الضخمة الحالية، واحدى الحلقات الجليلة الفائدة فى طريق التحول من الرئيسيات إلى الإنسان العاقل hominisation[26].

وفى أعقاب هذه المرحلة، أدت الظواهر البركانية الناتجة عن انخساف القشرة الإفريقية إلى تكوين البازلت الذى يكسو فى الشمال منحدر الواحة الشديد الإنحدار.

وفى الحقبة الرابعة، تشهد مدرجات الحصباء والحصى المختلطة بعناصر أركيولوجية، على تاريخ طويل لمجارى المياه، هنا كما على امتداد نهر النيل.

وعندما شاهد «هيرودوت» بحيرة «موريس»، التى كان يعتقد أنها «حفرت بأيدى بشر»، كانت البحيرة تشغل عندئذ معظم مساحة المنخفض كما كانت مرتبطة بنهر النيل عن طريق بحر يوسف الذى كان يغذيها بالماء.

وبالفعل فقد تعاقبت أربع بحيرات كشفت عنها النقاب دراسات «كيتون تومبسون» و «جاردنر» و «سندفورد» و «أركل»، و «بال» ودراسات «وندورف» و «شايلد» فى وقت ليس بالبعيد.

وعن هذين الأخيرين ننقل تسلسل الأحداث كما أستطاعا أن يتصوراهما فى أعقاب البعثات التى قاما بها فى السبعينات.

– «بحيرة موريس» القديمة Paléomoeris. وتحددها أقدم الرواسب وقد شغلت حوالى عام ٧٠٠٠ ق.م مستوى يصعب تحديده، ولكنه يبدو انه كان يتجاوز مستوى الستة عشر مترا فوق سطح البحر.

– وبعد انحسار متسارع استقرت بحيرة جديدة هى «ما قبل بحيرة موريس» Prèmoeris. وحدث ذلك حول عام ٦٠٠٠ ق.م على ارتفاع ١٥ – ١٧ متراً.

واعقبتها فترة انحسار قصيرة ثم ظهرت بعد ذلك «البحيرة السابقة على موريس» Pro-tomoeris فملأت حوض البحيرة بعد مرور ألف سنة، ليصل مستواها فى هذه المرة إلى ٢٤ متراً. ويبدو انها لن تتجاوز أبداً هذا المستوى.

– ويبدو ان المياه قد انحسرت من البحيرة انحساراً ملحوظاً حتى نهاية الألف الخامس. ومن الصعب تتبع هذا الإنحسار وتحديد مداه بمزيد من الدقة.

وفى الفترة من ٤٠٠٠ إلى ٣٥٠٠، عندما استقرت أولى الجماعات البشرية لعصر ما قبل الأسرات على ضفاف بحيرة «مويرس» التى كان قد وصل منسوبها إلى حوالى ١٢ مترا فوق سطح البحر، ظل منسوب المياه يرتفع تدريجياً، وقد كان بطيئاً ولكن ثابتاً، إلى أن وصل إلى مستوى ٢٢ متراً عند نهاية الدولة القديمة، حوالى عام ٢٢٠٠.

واعتباراً من هذه اللحظة، فإن الأعمال التى أقدم عليها ملوك الأسرة الثانية عشرة

(١٧٨٥ – ١٦٨٠ ق.م) ثم قيام بطليموس فى القرن الأول الميلادى بتشييد سدّ اللهون لاستعاده الطمى للأراضى الزراعية، كل ذلك قضى على اتصال البحيرة بنهر النيل وترتب على حرمان البحيرة من مصدر مياهها، أن تناقصت بسرعة، إلى أن وصلت إلى مستواها الراهن.

الصحراء الشرقية : النجاد[٢٧] و «الأمطار الإعجازية».

تشكل الصحراء وسيناء، فى الشرق، وحدة جيومورفولوجية تحت شعار التناوب والتعاقب: نجادا شامخة من الصخور النارية والمتحولة الناتجة من قاعدة حقبة ما قبل الكربونى Pré-carbonifère وهضابا رسوبية يتخللها عدد كبير من الوديان الهامة يسير مجراها، فى سيناء فى اتجاه خليج السويس والعقبة وفى اتجاه النيل والبحر الأحمر، فى الصحراء الشرقية. إن العديد من قمم هذه النجاد يبلغ ارتفاعها ألفى متر وتمتد من خط عرض ٢٩ شمالاً وحتى السودان وتزداد عرضاً بالتدريج. وهى تشكل فى سيناء نواة شبه الجزيرة ويبلغ أعلى ارتفاعها فى جبل سانت كاترين ليصل إلى ٢٦٤١ متراً. كما تشاهد هذه النجاد فى واحة العوينات فى الركن الجنوبى الغربى من البلاد، وإن كانت أقل ارتفاعاً، بالإضافة إلى عدد من الأماكن فى الصحراء الغربية حيث تبرز صخورها القديمة من بين الحجر الرملى النوبى، الأحدث عهداً. وتعود هذه الصخور إلى أقدم دهور الأرض: النايس والشست والجرانيت التى يرتبط تكوينها بنشوء الجبال Orogènèse[٢٨] الذى تسبب فى انثناء هذه الرواسب وتحولها الإقليمى. لقد تسببت حقبة من النشاط البركانى فى تكوين الديوريت والبورفير. فى حين ترسبت فى المنخفضات طبقة سميكة من الجَرْوَق grauwack والصخور الكربوناتية[٢٩]. إن وجود هذه المجموعة هو من السمات المميزة لوادى الحمامات.

ان طغيان البحر الذى اجتاح الجزء الأكبر من مصر فى العصر الطباشيرى الكريتاوى الأعلى منذ ٩٠ إلى ٩٥ مليون سنة، تشهد عليه مجموعات من الحجر الرملى الكوارتزى المتعدد الألوان المنتشر جداً فى النوبة والذى يطلق عليه بالفعل «الحجر الرملى النوبى». إنه يشكل النصف الغربى من منطقتنا، ابتداء من خط ٣٠ ٢٥ْ وحتى ٥ َ٢٣. ان الحمم تتداخل مع الطف[٣٠] tuff عند هذه القاعدة الرسوبية.

أما الصحراء الشرقية فتتميز بمشهد طبيعى متناثر يغلب عليه الشموخ وتعلوه صخور

... الداخلية تصل إلى الرطوبة فتتيح
النسب السوداء وتكاد ... ندرة ... الصمامات ترجع أنها ...
الوديان تشكلاً موسمياً ... الآبار ... كثيفة ... أن هطول الأمطار الغزيرة فجأة في
الفترات التي تعود إلى ... الكشف عن ... لم يكن معروفاً حتى الآن
ساعد على ارتفاع منسوب المياه الجوفية ...

الصحراء الغربية : أرض الواحات المتسعة

أما الجانب الغربي من الوادي فيدل على نقيض الجانب الشرقي، من حيث الاستواء يقف ... إنه هضبة شاسعة من الحجر الجيري ترتفع تدريجياً في الجهة الأخرى ... بهضبة أخرى من الحجر الرملي اتجاه الجنوب لتصل إلى ارتفاع ٥٠٠ متر عند الجلف الكبير ... مرتفعات جبل العوينات الشاهقة وهضبة التي تطل عليها عند الطرف الجنوبي الغربي ... الجلف الكبير التي يصل ارتفاعها إلى ألف متر فوق مستوى سطح البحر.

هذه المساحة الشاسعة من التلال التي تغطي على هذا النحو ما يقرب من ... الكيلومترات وتمتد غرباً إلى ما وراء حدود مصر الرسمية تشكل لوحدها ثلثي مساحة البلاد قاطبة.

لا توجد منخفضات ضخمة تحولت إلى واحات بفضل الآبار الارتوازية لا تمنحها أصالة جيولوجية فحسب بل أتاحت أيضاً سهولة انتقال الجماعات البشرية فتفتح أبواب الوادي أمام الجهات الخالية للصحراء الكبرى، فمن الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي تمتد واحات الخارجة والداخلة والفرافرة والبحرية وسيوة والقطارة، لتشكل عدداً من المحطات على امتداد طريق لم يكن صحراوياً على الدوام.

وفي الواقع فإن جميع هذه المنخفضات، شكلها مثل القديم، تنحدر ناحية الشمال إنحداراً شديداً في حين تنحدر ناحية الجنوب انحداراً سهلاً ليلتقي بالمستوى العام للصحراء. إن وجود حجر جيري صلد هو المسئول عن هذا الإنحدار الشديد، لأنه أكثر صلابة ويقاوم النحات بالمقارنة مع الطبقة التحتية المكونة من الطفل والشست. إن تقعر النحات وسط طبقة الحجر الجيري كان سبباً جازماً في تحديد أصل المنخفضات، ما عدا العامل التكويني، حسب رأي الدكتور رشدي سعيد. ويذهب هذا الباحث إلى أن المناطق التي تكون فيها طبقات الحجر الجيري أقل سمكاً كانت مقاومتها للرياح محدودة بالتالي، فحدثت فيها هذه الإنهيارات.

وباستثناء الآبار الارتوازية وهي مصدر كل حياة في الواحات، لا وجود للماء تقريباً. فالأمطار معدومة ومياه الصرف محدودة والآبار الوحيدة موجودة قرب ساحل البحر المتوسط ومرتفعات جبل العوينات.

إن الجفاف هو الحقيقة السائدة في هذه المنطقة. إنه مسئول عن تكوين الكثبان الرملية في اتجاه الجنوب الجنوبي الشرقي، على امتداد ٥٠٠ كم من الواحات البحرية وحتى الواحات الخارجية. فتبدو هذه الصحراء وكأنها بحر من الرمال، وإن غطتها الحصى، علاوة على ذلك.

هوامش الفصل الأول

(١) الحقبة الرابعة : أخر الحقب الجيولوجية . (المترجم*)

(٢) rift كلمة انجليزية وهى rift valley.
وادى الخسف : بنية جيولوجية تتخذ شكل الأخدود الطويل وتنشأ عن نشاط قوى الشدّ فى القشرة الأرضية فى منطقة بها مجموعتان متوازيتان من الصدوع العادية تذهبان فى اتجاهين متقابلين. وأشهر أمثلة أودية الخسف هو ذلك المنخفض الممتد مسافة ٤٥٠٠ كيلو متر من سوريا إلى شرقى أفريقيا ويتكون من البحر الميت وخليج العقبة والبحر الأحمر وسلسلة من البحيرات فى شرقى افريقيا. (المترجم)*

(٣) أول حقبة جيولوجية تكونت فيها مجموعة من الصخور الرسوبية حوت أحافير أقدم الكائنات المعروفة. (المترجم)*

(٤) حقبة ما قبل الكمبرى Précambrien ويطلق هذا الاسم على جميع الدهور التى سبقت حقبه الحياه القديمة Palaeozioique تتميز بصخورها المتبلورة (النارية والمتحولة). (المترجم)*

(٥) حتات : (فتات): كسرات الصخر الدقيقة التى تنتج من تعرض الحطام الصخرى لعوامل الحت. (المترجم*)

(٦) راجع الملحق فى أخر الكتاب. (المترجم)

(٧) وقد انتهى قبل حوالى ٤٠ مليون سنة. (المترجم*)

(٨) عالم جيولوجيا. أعلن نظريته هذه فى مطلع القرن العشرين. (المترجم)

(٩) أي الخاصة بتشكيل الصخور . (المترجم)

(١٠) راجع الملحق فى آخر الكتاب (المترجم)

(١١) الرسم المائى hydrographie . رسم يوضح سرعة الماء أو سريانه، أو أى خاصية له بالنسبة للزمن. (المترجم*)

(١٢) المرل : marne : خليط طبيعى من الطين وكربونات الكالسيوم. (المترجم)

(١٣) راجع الملحق فى آخر الكتاب. (المترجم*)

(١٤) الجيومورفولوجيا géomorphologie : علم شكل الأرض . علم يبحث فيه عن الأرض من حيث تضاريسها السطحية وعلاقتها بجيولوجيتها. (المترجم*)

(١٥) التحات : العمل الجيولوجى الذى تحدثه المواد فى سطح الأرض حين نقلها بعوامل التعرية. (المترجم*)

(١٦) التسوية aggradation : عملية تسوى فيها الأرض بامتلاء المنخفضات برسابات المرتفعات. (المترجم*)

(١٧) التخفيض dégradation : عملية يتم بها خفض مستوى سطح الأرض أما بعوامل التعرية أو بمؤثرات أخرى. (المترجم*)

(١٨) granulomètrie : علم يبحث فى تصنيف المواد القابلة للتفتت حسب حجم حباتها. (المترجم)

(١٩) الليثولوجيا lithologie : علم الخصائص الحجرية :
العلم الذى يبحث عن وصف الأحجار والصخور وتركيبها المعدنى وحجوم حبيباتها وغير ذلك من صفاتها الحجرية. (المترجم*)

(٢٠) تكوين Formation : الوحدة الأساسية فى التصنيف المحلى للطبقات الرسوبية تحصرها حدود ويمكن تتبعها

فى الحقل وتتميز بصفات صخرية خاصة دون اعتبار للزمن الجيولوجى الذى تكونت فيه. (المترجم*)

(٢١) لقد أخفت «إيزيس» مولودها «حورس» فى مستنقعات «خمنيس» بعيداً عن «ست» الذى كان يبحث عنه للقضاء عليه. (المترجم*)

(٢٢) تكتونى tectonique : جميع المعالم البنيوية التى تطرأ على الصخر مثل الطى والتصدع والتفلق، وتنشأ هذه المعالم من تأثير الحركات الأرضية البسيطة والبانية للجبال. (المترجم*)

(٢٣) التخوية dèflation : اكتساح الأجزاء الجافة المتفككة فى التربة .

(٢٤) ثانى عصور الحقبة الحديثة . (المترجم)

(٢٥) ثالث عصور الحقبة الحديثة. (المترجم)

(٢٦) hominisation : هى مجموعة العمليات التطورية الجسمانية والفسيولوجية والنفسية التى تميز الإنتقال من الرئيسيات إلى «الإنسان العاقل» Homo sapiens . (المترجم)

(٢٧) نجد : massif : كتلة جبلية متعددة القمم. (المترجم*)

(٢٨) عملية تكون الجبال من تحركات الأرض الجانبية. (المترجم*)

(٢٩) صخر يتكون من معدن أو أكثر من معادن الكربونات. (المترجم*)

(٣٠) الطف : صخر تقذف به البراكين فيتصلب حولها ويتكون من حبيبات بركانية متماسكة يقل قطرها فى العادة عن ٤ مليمترات. (المترجم*)

الباب الثانى

العصر الحجرى القديم

الفصل الثانى

أقدم الشواهد على وجود الإنسان

يصعب علينا أن نحدد على وجه الدقة متى ظهر الإنسان فى وادى النيل.

ويذهب البعض («بيبرسون» Biberson «كوك» Coque و «ديبونو» Debono) إلى أن أدوات تيپولوجية[١] Typologiquement موغلة فى القدم، ومصنفة جيولوجيا، على أكمل وجه، كما تبرهن على ذلك، عملية السبر التى أجريت عام ١٩٧٥ فى نجد[٢] طيبة، قد تدفعنا إلى الإعتقاد بوجود البشر منذ العصر الأولدواويى Oldowaien، أى منذ بداية البشرية. فى حين يذهب البعض الآخر، («پوليسن» Paulissen و «ڤرميرش» Vermeersch و «وندورف» Wendorf) إلى أن نوعية الأدوات ذاتها، ما زالت تحتاج إلى البرهنة عليها، بقدر ما فى وسعنا أن نكوّن فكرة عنها، استناداً إلى الرسومات التى تم نشرها.

بحلول المتتالية الأشولية، مع بداية عصر الپليستوسين[٣] قبل ٣٠٠٠٠٠ سنة، أخذ الإنسان فى الظهور فى العديد من النقاط فى الوادى ومنها انتشرت الأدوات ذات الوجهين والشظايا، إلى المسافة الممتدة من القاهرة حتى الخرطوم.

كما نعثر عليها فى اقدم «التكوينات» فى دكه وكورسكو التى كشف عنها «بوتزر Butzer و «هانسن» Hansen وفى حصباء العباسيه كما عرفها الدكتور رشدى سعيد وقد تم صقلها جيولوجياً فى مكانها الطبيعى، ولكنها منقولة أركيولوجياً.

إن لفظة «أشولى» acheuléen[٤] هى من ابتكار «مورتييه»[٥] Mortillet عام ١٨٧٢ لتعريف صناعة الآلات ذات الوجهين فى وادى نهر «لاسوم»[٦] La Somme قد أعاد «بورديس» F. Bordes تعريفها بالنسبة لأوروبا الغربية و «ليكيى M. leakey بالنسبة لشرق إفريقيا ووسطها. إنها تعبر، فى حقيقة الأمر، عن أحد الأطوار التقنية فى صناعة الأدوات ذات الوجهين، التى وجدت دائما جنبا إلى جنب مع انتاج الشظايا الوفيرة والمتخصصة إلى حد ما.

ومن بين تقنيات الحصول على الشظايا، تعبر تقنيات «ليڤالوا» Levallois عن تصور معين ومحدد. لقد صممت النواة بحيث تعطينا شظايا حددت أشكالها سلفاً. إن وجود الشظايا أو غيابها، بكميات متفاوتة، فى صناعات الأدوات ذات الوجهين، قد ساعدت على التمييز بين سحنة[٧] وأخرى. لقد نشأت هذه التقنيات منذ أقدم العصور وتطورت على أكمل وجه إبان العصر الحجرى القديم الأوسط.

تنطوى الطريقة الكلاسيكية لعملية تصنيع الأدوات الحجرية وفقاً للأسلوب «اللفلوازى» على إعداد سطح للطرق الخارجي، وانطلاقا منه سيتم تصنيع الشظايا الملتفة حول المركز والتى تغطى سطح النواة. وبعد أن يتم إعداد هذا المسطح على هذا النحو، ومن ضربة واحدة بالمطرقة فى أحسن الأحوال، تنفصل الشظية التى يطلق عليها اصطلاحاً «ليفالوا» Levallois .

وقليلة هى فى مصر الدراسات التى تتناول هذا العصر المديد. وباستثناء موقع نجع أحمد الخليفة، قرب أبيدوس، الذى قام «فرميرش» P. Vermeersch بالتنقيب فيه، فإن أكثر الأعمال توسعاً قد تم انجازها فى السودان. إن موقع «أركين» ٨ الذى قام الأركيولوجى البولندى « شميليفسكى» Chmielewski بدراسته ومواقع وادى حلفا التى قام بتحليلها «جيشار» J. Guichard و «جيشار» G. Guichard ينظر إليها على أنها أمثلة لأقدم أماكن تواجد البشر، التى فحصت على أفضل وجه.

إن موقع «أركين» ٨ القائم على البر الغربى لنهر النيل، ويبعد عن وادى حلفا مسافة تقل عن ٥٠ كم، يطل على السهل الغرينى، من على ارتفاع ٥١ متراً. وتحتل سلسلة من ثمانية تجمعات بطول أربعين متراً وعرض عشرين مترا – تحتل موقعاً وسيطاً بين الحجر الرملى النوبى الذى ترتكز عليه ورواسب رملية من الوادى تغطيها بسمك عشرين إلى ثلاثين سنتيمتراً. وقد عثر على ٣٤٠٧ أشياء من صنع الإنسان وتم تحليلها. و٧٦٪ منها مصنوع من الكوارتز فى حين صنع الباقى من الحجر الرملى الحديدى. والمناطق المحيطة هى موطن هذين النوعين من الصخور. وبشكل عام، فإن مجموعة «أركين» ٨ هى مثال للصناعة القائمة على الحصى: أدوات قطع، أقراص ونصف أقراص، وأشكال كروية متعددة الأوجه والقليل جدا من الشظايا المشذبة والبعيدة كل البعد، على كل حال، عن تقنية «ليفالوا». ويبدو أن التجمعات الثمانية التى تم تحديدها، ليست سوى جزء من الموقع كله – وتعود على ما يعتقد إلى أزمنة مختلفة، كما لو كان كل منها ينتمى إلى وحدة، أو ما يشبه معسكر مؤقت، وهى الفرضية التى يعضدها وجود كتل من الحجر الرملى تطوق على هيئة نصف دائرة كمية كبيرة من الآلات. ويبدو أننا هنا أمام أولى البنى البشرية التى تم التعرف عليها فى الوادى. فسكان أركين ٨ ينتمون على ما يبدو إلى أقدم العصور. ولايمكن فى هذا التجمع الاستفادة من علم الستراتيجرافيا[٨] Stratigraphie أو التأريخ بالكربون المشع، لأنه يفتقر إلى وجود حيوانات (فونة Faune)[٩] . وبفضل علم التيبولوجيا typologie وحده – لاسيما استناداً إلى وجود أدوات كروية متعددة الأوجه وغياب أية تقنية من تقنيات «ليفالوا» أمكن تحديد زمن أركين ٨ بالمتتالية الأشولية[١٠].

وعلى مسافة قريبة من هذا المكان، وفى قطاع وادى حلفا يلقى أحد عشر موقعا «فوق سطح الأرض» نوراً جديداً على عصر الأدوات ذات الوجين على امتداد وادى النيل.

إن التحليل الإحصائى التيبولوجى لأكثر من ثلاثة آلاف قطعة أتاح لنا أن نميز ما يلى:

– «أشولى» قديم يتميز بوجود أدوات «أبفيلية» ذات وجهين، وأدوات ذات ثلاثة وجوه ومناقير أو معاول.

– «أشولى» أوسط تظهر فيه أشكال مدببة أو رمحية الشكل وأدوات «ميكوكية»[١١] ذات وجهين مع وجود منتج «لفلوازى» محدود.

– «أشولى» أعلى حيث تختلط جميع هذه القطع.

ولا يوجد أى عنصر بنيوى يسمح بتصور قيام معسكر، كائناً ما كان. ولكن المواد الأولية المنتشرة على مقربة من هذه المواقع، وهى عبارة عن حجر رملى حديدى يغطى الجبال الجزيرية[١٢] Inselbergs ، قد يقودنا إلى تصور وجود ورش لقطع الحجارة.

وبالمقارنة مع المجموعات الإفريقية المعروفة، فإن الحضارة الأشولية فى النوبة، كما عرفها «جيشار» J. Guichard و «جيشار» G. Guichard هى جزء من كل ساد وانتشر من «أولدواى» Oldoway (فى تنزانيا) وحتى «أبو» سمبل، مروراً بالخرطوم. ففى كل مكان، نجد بالفعل، نفس هذه النماذج من الأدوات ذات الوجهين. ومع ذلك، هناك لغرابة الأمر، عنصر غائب، ويميز المقاطعة الأشولية النوبية، عن باقى القارة: فالفئوس الصغيرة وهى تلك الشظايا الضخمة المصنعة جزئياً على الوجهين، وتعتبر السمة المميزة للحضارة الأشولية الإفريقية، يندر أن نجدها فى المسافة الممتدة من الخرطوم وحتى مدرجات العباسية.

وفى مصر كما لاحظنا، تفتقر اكتشافات القطع الأشولية فى رواسب الحصى التى تحف المستويات المرتفعة من الوادى، تفتقر إلى سند أركيولوجى راسخ.

وفى نجع أحمد الخليفة، وهو الموقع الوحيد الذى يعود إلى هذا العصر، وخضع للتنقيب، فإن المادة الحجرية المدملقة بعض الشئ، قد اختلطت بالحصى السميكة التى تعلو الرواسب النيلية المرتبطة «بتكوين» دندرة. انها عبارة عن أدوات خشنة ذات وجهين بلا أدنى أثر لتقنية «ليفالوا» إلى جانب بعض الفئوس الصغيرة.

وما يخص الصحراء الشرقية وسواحل البحر الأحمر محدود للغاية. إن البعثية التى قادها «ديبونو» F. Debono ، عام ١٩٤٩، إبان أعمال رصف طريق قفط – القصير، قد توصلت إلى الكشف فوق المرتفعات المطلة على منخفض اللقيطة، عن مواقع فوق سطح الأرض تعود من الناحية التيبولوجية إلى العصر الحجرى القديم الأسفل والأوسط. وجاءت

أعمال التنقيب الأركيولوجى التى أجريت فيما بين ١٩٨٢ و ١٩٨٤ على الساحل المصري البحر الأحمر لتبرهن على القول بوجود تجمعات تعود إلى أقدم العصور، ومنذ الاشولي القديم، تم استغلال ظران تكوينات الحجر الجيرى لعصر الايوسين، من خليج السويس وحتى القصير واستغلال الصخور البركانية، فى الجنوب كما تشهد على ذلك التجمعات أو الإكتشافات المبعثرة لأدوات ذات الوجهين. ولكن هذه الاثار الجليلة الفائدة ليست سوى أسطر قليلة من تقرير مبدئى. وإلى أن تظهر أبحاث متعمقة ستظل حقيقة إقامة البشر بين النيل والبحر الأحمر، موضع تساؤلات لا تنتهى.

وفى سيناء، عثر على أدوات ذات وجهين، على مقربة من جبل لبنى، فى القسم الشمالي من شبة الجزيرة، وأيضا فى شرقها فى وادى قدرة على مقربة من قادش برنيع[12] (Neuville, 1951, 1952) . ولكن لا يوجد موقع واحد حقيقى، كان فوق سطح الارض أم داخل الطبقات الستراتيجرافية، على حد سواء، قد يوفر لنا مزيداً من المعلومات.

وفى الصحراء الغربية، تعرفت «كيتون - تومبسون» فى الواحات الخارجة، على حضارة «آشولية»، مرتبطة بالآبار الأرتوازية. كما تعرف «وندورف» من بعدها، على الشي نفسه، بل توسع هذا الأخير فى استقصاءاته، ناحية الجنوب، على بعد ٣٥٠ كم إلى الغرب من «أبو» سمبل، فأماط اللثام عن العديد من المواقع الأشولية فى منخفض بير صحرا - بير طرفاوى.

وفى هذه المناطق القاحلة والجدبة إلى ابعد حد، حولت الآبار الأرتوازية المنبثقة من الطبقة الخازنة للمياه[14] المخفية فى الحجر الرملى النوبى، على عمق ثمانية عشر متراً تحت سطح الأرض، حولت هذه المنخفضات إلى واحات تغطى قاعها القرى والحقول. وإذا كانت بعض هذه الابار ما تزال نشطة حتى الوقت الراهن، فقد كان عددها أكبر بكثير فى العهود الماضية. ولم يتبق منها سوى أحواض مملوءة بالطين الأحمر والغرين وتبرز منها أشكال مخروطية يبلغ ارتفاعها عدة أمتار، وتتكون من رواسب حتاتيه (أو فتاتية)[15]، وهى شواهد متجمدة لما كان فى الماضى نقاط مياه يتردد عليها البشر. أما المادة الأركيولوجية، التى تحتل بكل وضوح مرتبة ثانوية، فإنها تتركز على سطح الأرض أو تختلط برواسب المجارى.

وفى الطرف الشرقى من حوض الواحات الداخلة، وقرب مدينة بلاط، امدتنا بئران حفريتان على التوالى بـ ٧٠٠٦ و ٢٨٤٧ قطعة، مصنعة فى معظمها فى درنات سيليسية من مجموعات الإيوسين المجاورة. إن الشظايا البدائية إلى جانب صناعة النواة[16] nucleus غير النوعية تشكل جوهر عملية تصنيع الأدوات الحجرية الموجهة إلى إنتاج الأدوات المسننة

والفرص[17] coches والمكاشط. ولكن فى كل مجموعة من هاتين المجموعتين احتفظت الأدوات ذات الوجهين لنفسها بنصيب الاسد إذ تشكل لوحدها ٨٢ و ٦٤٪ من مجموع الأدوات.

وأمكن تحديد وجود خمسة أنواع على الأقل، بدءاً من المجموعة اللوزية الشكل amyda-loïde إلى القلبية الشكل cordiforme مروراً بالأدوات ذات الوجهين بظهر[18] واحد أو بظهرين أو الشبيهة بالمثلث. إنها أنواع خمسة لا تسمح بأية دراسة تصنيفيه بعد ان تم ترتيب وضعها.

وفى بير صحرا - بير طرفاوى، أمكن التحقق من وجود مواقع أشولية أخرى فوق السطح الكربوناتى[19] للهضبة التى تكتنف المنخفضات. ولا توجد هنا تجمعات، ولكن اشكال لوزية عريضة فى الأساس وقلبية ورمحية وهى مبعثره وتنتشر على نطاق واسع وسط مجموعة يندر ان نعثر فيها على مخلفات عملية تصنيع الأدوات الحجرية إلى جانب بعض الفؤوس الصغيرة الجليلة الفائدة.

وإلى الجنوب من بير طرفاوى وفوق الرمال التى تعلو الرواسب البُحيرية، تشكل نفس الأودات اللوزية ذات الوجهين، وإن كانت أصغر حجماً - تشكل تجمعات منقولة، غيرت مكانها. فالفأس الصغيرة لا وجود لها، كما لا توجد الى جانبيها فُونه كما هو الحال بالنسبة لبئر حفرية قريبة، حيث عثر على ١١٣ أداة ذات وجهين من الحجر الرملى الكوارتزى قلبية الشكل أو شبيهة بالمثلث، فى معظمهما، وهى من علامات الحضارة الأشولية الحديثة وقد احتجزت تحت طبقة جيرية تكونت تدريجيا قرب نهاية نشاط البئر، فى مرحلة قل فيها مردود البئر. وتتجاوز بقايا أسنان حيوان مجتر ضخم مع بعض أجزاء بيض نعام وضرس حيوان من فصيلة الخيليات («إكووس أزينوس» Equus asinus) وبقايا فك خنزير برى («فاكوكويروس أثيوبيكوس» Phacochoerus aethiopicus). وكلها عناصر تشير إلى فونة السافانا التى ازدهرت حول نقط مياه نشطة.

ويحتاج الأمر إلى المزيد حتى يعاد صياغة المناخ المندثر لمنطقة محدودة، بل والمزيد أيضا إذا تعلق الأمر بقارة باكملها.

وفى المناطق القاحلة الجدبة حيث يؤثر أى تغيير فى معامل المطر[20] تأثيراً عميقا فى المشهد الطبيعى العام، لا يوجد تحت تصرفنا عند دراسة المناخ القديم paléoclimat سوى أسباب لها سمات ثانوية أو بعض الاستنتاجات.

ولاشك أن المنسوب النسبى للمياه فى البحيرات يعتبر مقياساً على شدة الأمطار وغزراتها، كما تعكس روافد النهر نظامه الهيدروليكى، وتشهد حبوب اللقاح والفونة الحفرية عن بيئة محددة، كذلك محلات البشر وما يمكن استنتاجه من أسلوب حياتهم. ومع ذلك ينبغى التعامل مع جميع هذه المعطيات بحذر شديد، وإذا كانت مياه الأمطار تغير بالفعل منسوب مياه البحيرات، فقد تغذيها أيضا طبقات المياه الجوفية دون تدخل من المناخ المحلى. أما الفونة وهى مقياس جيد للمناخ القديم، فإنها لا تحدد مع ذلك سوى قيم نسبية: أكثر برودة، أكثر رطوبة... دون أن تعبر مع ذلك عن متوسطات المناخ لعصر معين، لاسيما إذا كانت ممثلة بكميات محدودة جداً كما هو الحال فى بير صحرا. أما عن استخدام الفلورة(٢١)، فقد تلاشت القوائم التى تم اعدادها فى عهود سابقة، بعد اكتشاف التلوث اللقاحى فى السبعينات: فحبوب اللقاح التى تجلبها الرياح معها أو حبوب لقاح عصور قديمة paléopollens الناتجة عن طبقات جيولوجية سابقة، قد أدت فى الماضى إلى رسم صورة مبالغا فيها للمشهد الطبيعى. ان وجود حبة لقاح واحدة لا يعنى شيئا على الإطلاق فى الوقت الراهن. إن التكامل فى إطار مجموعة شاملة تم التأكد منها إحصائياً هى وحدها الجديرة بأن تؤخذ فى الحسبان .

ومن ثم، فقد أحالت النتائج المتسرعة صحراء عصر الهولوسين(٢٢) Holocéne إلى محيا(٢٣) biotope لاقليم البحر المتوسط، ذى فونة أثيوبية. وهذه النتائج قد نقضتها الدراسات النقدية الحديثة: صحيح ان مناخاً أكثر رطوبة قد ساد خلال هذا العصر، ولكن العضويات الحية للمناطق المعتدلة كانت غير معروفة.

وفى وادى الكوبانية إلى الشمال من أسوان، ونتيجة لأعمال السبر التى أجريت عام ١٩٧٨، تم استخراج اربع حبات شعير وحبة قمح واحدة وكانت مرتبطة على ما يبدو، بفحم الخشب الذى يرجع تاريخه الى ١٧٠٠٠ سنة مضت. وكان وجود حبوب مزروعة فى مجمع من العصر الحجرى القديم الأعلى، قد قلب رأسا على عقب جميع المفاهيم الخاصة بادخال الزراعة فى وادى النيل ومع ذلك فإن اختبارات تاريخية اكثر وثوقاً فى نتائجها، قد كشفت عن الطابع الدخيل لهذه الحبوب، ومن ثم أعادت هذه المعطيات الى أحجام أقل ثورية...

ماهى طبيعة البلاد التى كان يعيش فى كنفها الإنسان الأشولى على ضفاف النيل والصحراء الغربية؟ ان المعطيات المتاحة قليلة بما لا يكفى لا مكان إعادة صياغة هذا التصور.

وتشهد «التربة القديمة(٢٤) للوادى على وجود ظروف أكثر رطوبة. إن رواسب الحصباء المتعددة الأصول polygeniques فى ضواحى القاهرة تميز «عصراً مطيرا فى العباسية»،

على حد قول الدكتور رشدى سعيد، والذى قد يقع فى عصر البليستوسين pleistocéne(٢٥) الأوسط، فيما بين ١٢٠٠٠٠ و ٩٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وتشهد الدراسات التى قام بها فريق «وندورف» فى الصحراء الغربية على وجود موجات رطبة يفصل بينها طوران جافان، على الأقل. وكانت حضارة «أشولية» قديمة معاصرة للآبار الارتوازية فى الواحات الخارجة التى كانت لا تزال نشطة، إلى جانب رواسب بُحَيْرية فى بير صحرا – بيرطرفاوى، التى كان يوحى مستواها (أفقها) horizon(٢٦) بتكوين تربة فى ظروف نصف جافة، مع تساقط précipitation (٢٧) يتراوح مداه الأقصى بين ٢٥٠ و ٦٠٠ مم.

وقد تعرف «فرميرش» و «بوليسن» على عصر شديد الجفاف مقابل لـ «تكوين»(٢٨) دندرة، وهو أشبه بأزمة سبقت مباشرة مرحلة أكثر رطوبة، حط خلالها الرحال، على ما يعتقد رجال نجع أحمد الخليفة، فى ظل مناخ شبه جاف. (لوحة: ١/أ ضمن ملاحق الكتاب).

والتجمعات الأشولية، فى وسط الصحراء الكبرى، وإن كانت تختلف عن مثيلتها فى مصر والصحراء الغربية تيبولوجيا وتكنولوجيا، إلا أنها ترتبط بالرواسب البحيرية الغنية بالفونة: فوحيد القرن والأفيال والخيليات والظباء والتياتل ترسم مشهداً طبيعياً يصور السافانا(٢٩).

وعلى امتداد مئات الآلاف من السنين، تجمع إنسان البلستوسين(٣٠) حول نقاط المياه، على جانب الأنهار، والابار والبحيرات الموزعة فى أعماق المنخفضات والتى حولت المشهد الطبيعى إلى سافانا رطبة. ورغم ان المناخ السائد لم يكن سوى مناخ شبه جاف، إلا أنه كان يوفر «فونة» من الثدييات الضخمة أصبحت مصدر البروتين للصيادين الأوائل.

هذه الثلة من الصيادين لاقطى الغذاء، لم تعرف الإستقرار فكانت تتقاذفها تقلبات فصول السنة والتغييرات المناخية، واستطاعت أن تجوب مئات الكيلومترات سنوياً، متعقبة كبرى القطعان، واكتفت بصنع الأدوات ذات الوجهين، واستغلت الشظايا الناتجة عنها فى أضيق الحدود.

وفى وسعنا أن نتخيل إلى أى مدى كانت هذه التنقلات تشجع احتكاك واتصال المجموعات بعضها ببعض، وإلى أى حد كان القوم من النيل إلى الأطلنطى يتبادلون الأدوات ذات الوجهين!

ومع ذلك فإن الصورة التى تبرز من التحليل الدقيق لمجموعة الأدوات تقف على طرفى نقيض . إن تنويعات تيبو– تكنولوجية، ترجع إلى المادة الأولية المتاحة، وإلى نوعية البيئة

الخاصة، وإلى التراث الثقافى، أو إلى جميع هذه الأسباب مجتمعه، تميل إلى تفرد بعض المناطق، كما يتضح من أصالة إقليم النيل بالمقارنة مع الصحراء الغربية وتفرد هذه الأخيرة بالمقارنة مع وسط الصحراء الكبرى أو شمال افريقيا. كما فى وسعنا أن نميز وحدات أخرى داخل كل وحدة من هذه الوحدات.

إن الإنسان صانع الأدوات ذات الوجهين الذى تكيف مع بيئته المحيطة، لم يترك فى مناطقنا أى أثر ولو لقطعة صغيرة من العظم.

إن «الإنسان المنتصب»(٣١) Homo Erectus هو الذى ينظر إليه على أنه الأب الشرعى للصناعات الأشولية.

إلى أى الاجناس البشرية كان ينتسب حرفيو المواقع الأشوليه فى وادى النيل والصحارى المجاورة؟

إلى يومنا هذا لم تكشف الطبقات النقاب عن شىء يخص أولئك الذين كانوا وراء نشأتها. إن الموقع الوحيد القائم جيولوجياً فى مكانه، هو موقع نجع أحمد الخليفة، و... يعود تاريخه إلى حوالى ٣٠٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد. إن مواقع الصحراء الغربية، المرتبطة برواسب البليستوسين، تفتقر إلى التأريخ الأكثر دقة. أما مواقع النوبة، فهى مواقع فوق سطح الأرض!

لقد دخلت البشرية إلى «أرض الفراعنة» وسط صمت فريد. وربما يعود هذا الصمت بلا شك إلى تحات(٣٢) érosion المواقع أو إلى الوضع الراهن للابحاث، على ما يحتمل. ولا يوجد ما يحول بيننا وبين احتمال الكشف فى المستقبل القريب عن حفرية آدمية ستساعدنا على التعرف على البشر الأوائل فى وادى النيل، فى هيئتهم الجسدية.

هوامش الفصل الثانى

(١) Typologie : تتابع الطرز: التيبولوجيا: يعتمد الأثرى فى تاريخ مكتشفاته على مبدأ الاستراتيجرافيا stratig-raphie (إن اقدم جزء فى الموقع هو دائما ما وجد فى أسفل مستوى).. ومن ثم فبالحفر من أعلى إلى أسفل يمكن للأثرى أن يقتفى أثر الطرز المختلفة للشىء ويكون من هذه الدراسة تتابعاً للطرز يبين تفاصيل تغير طرز كل من هذه الاشياء. وتعرف هذه الدراسة بالتيبولوجيا typologie (الموسوعة الأثرية العملية، هيئه الكتاب. ط ٢ ١٩٩٨ ص ٤٦) – المترجم.

(٢) نجد Massif كتلة جبلية متعددة القمم. (المترجم*).

(٣) راجع الملحق فى آخر الكتاب (المترجم).

(٤) نسبة إلى مكان يسمى Saint - Acheul فى شمال فرنسا (المترجم).

(٥) «مورتييه» Gabriel de Mortillet (١٨٢١ – ١٨٩٨) عالم أركيولوجيا فرنسى. توصل إلى ترتيب زمنى للعصور الحجرية قائم على انماط الادوات. الحضارة الشيلية نسبة إلى مكان يسمى Chelles - sur Marne والموستيرية نسبة إلى Moustier والسولتيرية نسبة إلى Solutré والمجدلينية نسبة إلى la - Madeleine (المترجم).

(٦) فى شمال فرنسا. (المترجم).

(٧) سَحنه Faciés مجموعة الخواص الصخرية والمعدنية أو الحفرية التى يتميز بها صخران أحدهما عن آخر تكونا فى زمن جيولوجى واحد، أو أزمنة مختلفة تبعاً لظروف التكوين وبيئة الترسيب (المترجم*).

(٨) الستراتيجرافيا: يعتمد الأثرى فى تاريخ مكتشفاته على مبدأ الاستراتيجرافيا، ويتضمن هذا المبدأ أن أقدم جزء فى الموقع هو دائما ما وجد فى أسفل مستوى، بينما تركت العصور الأخرى مخلفاتها فوق هذا المستوى مرتبة حسب ترتيبها التاريخى من أسفل إلى أعلى (الموسوعة الأثرية العالمية – هيئة الكتاب ١٩٩٨ ص ٤٦) (المترجم).

(٩) الحيوانات – فونة Faune أنواع الحيوان فى مكان بعينه أو زمان بعينه. (المترجم*).

(١٠) الحضارة «الشيلية» أو «الابفيلية» – نسبة إلى بلدة Abbeville إوالحضارة «الاشولية» هما من مراحل العصر الحجرى القديم الأسفل. أما حضارة «ليڤالوا» فتتفق مع العصر الحجرى القديم الأوسط. تاريخ الحضارة المصرية. العصر الفرعونى. النهضة المصرية ص ٤١ – ٤٢ (المترجم).

(١١) «ميكوكية» نسبة إلى «لاميكوك la Micoque» فى وسط فرنسا. (المترجم).

(١٢) الجبال الجزيرية: تلال ناتئة من أرض واسعة منبسطة كأنها الجزر فى المحيط، وتتميز بأنها ذات قمم بارزة إلا أنها مستديرة ملساء وذات جوانب شديدة الانحدار تكاد تكون رأسية (المترجم*).

(١٣) عين قُديس، حالياً (المترجم)

(١٤) الطبقة الخازنة للمياه nappe aquifère : طبقة مسامية تحمل الماء بين طبقتين صماوين. وهى غير «المياه الجوفية» eaux Souterraines : وهى المياه المستقرة فى مسام صخور قشرة الأرض وشقوقها. وهى مستمدة من مياه الأمطار أو المياه السطحية التى تتسرب تسربا سفلياً وتستمر فى تسربها فى جوف الأرض حتى تقابلها طبقة غير منفذة للمياه تتجمع فوقها. (المترجم*).

(١٥) حتاتى (فتاتى) détritique نسبة إلى كسرات الصخور الدقيقة التى تنتج من تعرض الحطام الصخرى لعوامل الحت أثناء النقل وغيره والتى تكون مادة الصخور الرسوبية (المترجم*).

(١٦) وهى الصناعة التى كان أصحابها ينتفعون أساساً بنواة الزلطة أو أضخم جزء فيها بعد إعدادها لهذا الغرض (المترجم).

فرضة، وهو الحز فى العود أو نحوه – المعجم الوسيط (المترجم)

(١٧) الفرض (بضم الفاء وفتح الراء) ، ج : فرضة، وهو الحز فى العود أو نحوه – المعجم الوسيط (المترجم)

آلة مشظاة من جانب واحد وقد أعد الآخر للإمساك بها (المترجم).

(١٨) آلة بظهور a' dos هى آلة مشظاة من جانب واحد وقد أعد الآخر للإمساك بها (المترجم).

(١٩) الكربوناتى : أى يتكون من معدن أو أكثر من معادن الكربونات (المترجم).

(٢٠) معامل المطر: متوسط ما يسقط من المطر فى مكان معين لفترة معينة مقدراً بالنسبة المئوية من المعدل ال...

(المترجم*).

(٢١) الفلورة flore : النباتات: أنواع النبات فى مكان ما فى زمن معين (المترجم).

(٢٢) راجع ملحق الكتاب (المترجم).

(٢٣) مَحْيا : بيئة بيولوجية محددة توفر للأحياء من حيوان ونبات ظروف للإقامة ثابتة نسبياً (المترجم*).

(٢٤) «التربة القديمة» paléosol . تربة ناتجة عن تطور قديم، وتشكلت فى ظروف اختفت واندثرت، وقد تبرز ...

سطح الأرض او تكون مغطاة برواسب أحدث عهداً (المترجم*).

(٢٥) راجع الملحق فى آخر الكتاب (المترجم).

(٢٦) مستوى – أفق : horizon طبقة غليظة أو مجموعة من الطبقات الرقيقة يستدل بها على مرحلة معينة ...

الزمن الجيولوجى أو التتابع الاستراتيجرافى (المترجم*).

(٢٧) التساقط: ما يسقط من ماء السماء على سطح الأرض فى صور مختلفة كالمطر والثلج والبرد... وغير...

(المترجم*).

(٢٨) تكوين Formation : الوحدة الأساسية فى التصنيف المحلى للطبقات الرسوبية تحصرها حدود يمكن ...

تتبعها فى الحقل، وتتميز بصفات صخرية خاصة دون اعتبار للزمن الجيولوجى الذى تكونت فيه، مثل تكوين ...

إسنا (المترجم*).

(٢٩) السافانا: إقليم يتاخم الإقليم الإستوائى ويفصل بينه وبين الإقليم الصحراوى، وتنمو فيه الحشائش ...

(المترجم*).

(٣٠) راجع الملحق فى آخر الكتاب (المترجم).

(٣١) وجدت أقدم البقايا لمخلوقات شبيهة بالإنسان فى افريقيا ويرجع تاريخها إلى ما بين ٥ر٣ و ٤ ملايين ...

مضت. ويطلق عليه Australopithecus afarensis . وفى الفترة الممتدة من ٥ر٢ مليون سنه ومليون سنة ...

عاش فى افريقيا أربع أنواع شبيهة بالانسان على الأقل.

١ – Australopithecus rodustus

٢ – Australopithecus boisei

٣ – Australopithecus africanus

٤ – Homo habilis

خلال المليون سنة التاليه تطور Homo habilis (الإنسان الماهر) إلى Homo erectus (الإنسان المنتصب) ...

الذى قام بمعظم الهجرات. ثم ظهر الانسان العاقل Homo sa piens وينقسم إلى

١ – Homo sa - Piens sapiens

٢ – Homo sapiens Neanderthal

وقام Homo sapiens sapiens بمعظم الهجرات قبل ٤٠٠٠٠ سنه. ونتحفظ حول جميع هذه المعلومات ال...

تزال محل جدل عنيف (معجم المصطلحات الفنية والعلمية. أكاديما . لبنان ١٩٩٣) – (المترجم).

(٣٢) التحات érosion العمل الجيولوجى الذى تحدثه المواد فى سطح الأرض حين نقلها بعوامل ال...

(المترجم*).

الفصل الثالث

نشأة التنوع وبدايته

كما يتضح فى بير طرفاوى من البئر التى تضم ١١٣ أداة ذات وجهين فإن نهاية العصر الأشولى اتفقت مع الإنحسار التدريجى لمنابع المياه ثم نضوبها. وفى الوادى لم يعد النيل يرسب الحصباء الغليظة، بل رواسب ناعمة، مما يدل على أن شدة تيار الماء قد تضاءلت، ويمكن التحقق من هذا الطور الجاف اللاحق للأشولى فى منخفضات بير طرفاوى – بير صحرا – حيث تغطى المراكز الموستيرية قاع حوض تخوية[1] dèflation ضخم، ويشهد بير طرفاوى، مستوى أدنى أيضا من المياه بالمقارنة مع ما هو عليه فى الوقت الراهن. عندئذ يهجر الإنسان واحاته القديمة ليلجأ إلى أماكن متميزة، على امتداد الوديان والشطآن.

إن عودة الرطوبة النسبية تتفق مع الإقامة من جديد فى نقاط المياه من جانب جماعات تخلت تدريجيا من الناحية التقنية عن الأدوات ذات الوجهين لتستبدلها بالأدوات المصنوعة من الشظايا، التى كان الحصول عليها، يتم فى أغلب الأحوال عن طريق تقنيات «ليفالوا».

هذا التطور فى اتجاه أدوات أخف وأكثر تخصصاً وأفضل ملاءمة وتكيفاً، هو الذى يميز العصر الحجرى القديم الأوسط فى افريقيا وأوروبا على حدٍّ سواء، والذى تشكل الموستيرية le Moustèrien فيه بسحناتها المتعددة جوهر وأساس المجموعة الصناعية.

ومع ذلك، شهد شمال إفريقيا تطور نماذج خاصة حيث نجد قطعاً ذات عنق على شظايا وأسنة مشذبة ذات وجهين تختلط مع مجموعة موستيرية تقليدية. ان العاطرية وقد استمدت اسمها من موقع العاطر فى الجزائر، قد انتشرت فى اقطار شمال افريقيا الثلاثة، وزحفت عبر الصحراء الكبرى حتى وصلت النيجر، ثم نلتقى بها فى غرب ليبيا، وسنلاحظ أنها ستصل فى طورها الأخير إلى واحات الصحراء الغربية ووادى النيل.

ومنذ ١٩٤٦، فإن «كيتون تومبسون» و«جاردنر» توصلا استناداً إلى معايير تيبولوجية صرفة إلى وجود عصر حجرى قديم أوسط فى مصر. وجاءت أعمال «ونىورف» و«بوتزر» Butzer و«ڤرميرش» فأسسته على قواعد جيولوجية أكثر وثوقا.

وعلى امتداد نهر النيل فإن الصورة العامة توفرها سلسلة من إرسابات غرين النيل التى تفصل بينها مواد مجلوبه جانبياً من الوديان وتختلط بها عناصر أركيولوچيه من واقع هذا المكان.

ولكن إماطة اللثام عن صناعات العصر الحجرى القديم الأوسط قد تمت أيضا فى النوبة.

وفى قطاع وادى حلفا قام «جيشار» J.Guicharod و «جيشار» G.Guichard بتعريف «عصر حجرى قديم اوسط فى النوبة» على أسس تيبولوچية، واعتمادا، كما حدث بالنسبة للأشولى، على تمركزات قائمة فوق قمة جبال جزيرية inselbergs . ويتميز هذا العصر الحجرى القديم الأوسط بوجود ثلاثة أنماط سائدة فى إطار مجموعات تؤكد على وجود عملية تصنع لأدوات «ليفالوازية». وقد ظهر إلى الوجود أسلوب جديد فى إعداد النواة، حيث كان يختلف عن طريقه «ليفالوا» الكلاسيكية فى الحصول على الشظايا، ويطلق عليه اصطلاحاً الطريقة «النوبية» وقام بوصفها «تيكسييه» Tixier و «اينيزان» Inizan و «روش» Roche (1980,50 et fig.9). ويذهب هؤلاء الباحثون إلى انها تقوم على فصل شظيتين عمداً وعن قصد، وهى تتجاوز فى دقتها أدق انتاج أسنة «ليفالوا». وهكذا تتجمع بنسب متفاوته القطع الورقية الشكل، والمكاشط وأدوات النواة «النوبية»، جنبا إلى جنب وبطرق مختلفة، مع الأدوات الأشولية ذات الوجهين.

وأمكن التمييز بين مجموعتين سواء هيمنت الأدوات ذات الوجهين (المجموعة I) أو القطع الرقيقة الورقية الشكل (المجموعة II).

ورغم بعض أوجه الشبه مع الصناعات الصنغاوية sangoennes فوق الشواطىء الشرقية لبحيرة فيكتوريا، فى أوغندا (المجموعة I) والعاطرية فى شمال افريقيا (المجموعة II) يشكل العصر الحجرى القديم الأوسط فى النوبة كما عرفه آل جيشار مجموعة شديدة التفرد.

إن الموقع الوحيد الذى تم دراسته دراسة تفصيلية، هو موقع أركين ٥ ، على البر الغربى. إنه عبارة عن تمركز سطحى يضم صفائح عريضة من الحجر الرملى الحديدى ويبلغ ٧٠ متراً طولاً و٢٠ متراً عرضاً. إن خندقاً مساحته ٦٠٠م٢ ويبلغ ٥٠سم عمقاً حتى مستوى الحجر الرملى النوبى، يكشف عن ثلاثة تمركزات ثانوية يبلغ قطر كل واحد منها حوالى ثلاثة أمتار ونصف.

وقد أتى منه ٩٧٦٩ شيئا صنعها الإنسان من الكوارتزيت المحلى. والغالب عليها بشكل مطلق منتجات وقطع غير كاملة، وهو مايشهد على ما يظن أنه موقع منجمى، لم نتحقق من وجود أى موئل تابع له. ان عدد الأدوات والأدوات ذات الوجهين الورقية الهيئة تحملنا إلى عقد المقارنة مع القطع العاطرية ذات الوجهين.

والعاطرية واضحة أيضاً فى خور أبو عنجة على البر الغربى من النيل، إلى الشمال من نقطة إلتقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض. وقام «أركل» بدراسة الموقع. وهنا توصلت البعثة

الرابعة لجامعة «كولودارو» Colorado (Carlson, Sigstad, 1973) إلى إماطة اللثام عن متتالية استراتيجرافية من رواسب الحصباء بالتناوب مع أطوار من التكلس والتحات التى تحتوى على عناصر أركيولوچية. وقد لوحظ وجود بعض الأدوات ذات الوجهين من الطراز الأشولى فى الطبقة السفلى، أما فى الطبقة الوسطى المكونة من الحصباء فقد لوحظ وجود بعض الأدوات ذات الوجهين من الطراز الاشولى فى الطبقة السفلى، أما فى الطبقة الوسطى المكونة من الحصباء فقد لوحظ وجود القليل مما صنعه الإنسان ويشبه الإنتاج الصنغاوى وانتاج العصر الحجر القديم الأوسط من النوبة (المجموعة I). فى حين تضم الطبقة الأخيرة قطعاً ورقية الشكل أو ذات عنق تذكرنا فى أن واحد بالـ «لومپنبيا»، وهى من السحنات الثقافية المعروفة فى زائير وانجولا وبالعصر الحجرى القديم الأوسط فى النوبة (المجموعة II) وبالعاطرية.

وفى أعقاب آل «جيشار»، قام «ماركس» A.Marks بالتنقيب فى القطاع الممتد من الجندل الثانى وحتى الجندل الثالث، فكشف عن أحد عشر تمركزاً، تتجمع كلها إلى الشمال من وادى حلفا. وبتحليلها أمكن التعرف على صناعة «موستيرية» مسننة وصناعة موستيرية النوبة تنقسم إلى سحنتين: السحنة الأولى بدون أدوات ذات وجهين، مع قدر كبير من الأدوات من نمط العصر الحجرى القديم الأعلى (مكاشط، محافر، أزاميل) والمعروفة اصطلاحاً بالسحنة « أ » فى حين تضم الأخرى بعض الأدوات ذات الوجهين وتعرف اصطلاحاً بالسحنة«ب».

وعلى عكس ما حدث فى «أركين» ٥، فإن نسبة الأدوات بالمقارنة مع عملية تصنيع الأدوات الحجرية لا تشير إلى أن هذه التمركزات كانت مناجم مكشوفة. وربما كانت بالأحرى أماكن حط فيها القوم الرحل، وإن لم يتبق منها للأسف أى أثر يدل على إقامتهم. فلا يوجد دعامات حجرية ولا حفر للأوتاد. أما العناصر العضوية فقد حالت حموضة التربة دون الحفاظ عليها.

وفى نفس القطاع على كل حال، وعلى مقربة من الجندل الثانى، توجد خمسة مواقع تحمل اسم نفس المكان الذى تم الكشف فيه عنها وهو خور موسى، وهى تتميز بوضع چيولوچى أصيل بالمقارنة مع المواقع السابقة، إلى جانب مادة أركيولوچية على أكبر قدر من الأهمية. لقد تحددت ثلاثة منها وغطيت، فى آن واحد، برواسب النيل الفرينيه فيما بين أحد عشر وثمانية عشر متراً فوق السهل الحالى، فى حين يقع الموقعان الآخران وسط الكثبان الرملية. وتحتل هذه المواقع الخور موسوية مساحات شاسعة (من ٣٠ إلى ٢٥٤م٢) وتوفر عناصر من الفونة وبعض الأدوات من العظم المصقول واجزاء من حجر الدم (الهيماتيت) hématite وكل ذلك وسط مجموعة من الصناعات الحجرية تسود بينها الصناعة الليفالوازية، مع نزعة واضحة إلى تفضيل الإزميل.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وتندرج معظم المواقع فى إطار مجموعة تتخللها الرمال الكثبانية والرواسب الغرينية التى تكونت فى عصر كان يرتفع فيه النيل عن مستواه الحالى بثمانية إلى عشرة أمتار. وكانت الصحراء المحيطة شديدة الجفاف. وقد جلبت الرياح الرمال التى اوقفتها التكوينات النباتية فى الوادى، لتكون الكثبان التى أرسبت فوقها المياه الموسمية على فترات متباعدة، طبقات من الطمى، واستمرّ هذا التصبع[٤] البينى interdigital من خلال مرحلتين يفصل بينهما طور من الجفاف. وكانت المستويات الدنيا تضم منتجات موستيرية.

وهناك ثلاثة تجمعات يمكن من الناحيتين التيپولوچية والتكنولوچية أن نعزوها إلى العصر الحجرى القديم الأوسط. لقد أمدنا الموقع E-82-5 بألف واربعمائة وثمانين قطعة صنعت أساساً من الكوارتز والكوارتزيت والحجر الرملى الحديدى، وتشبه الأدوات الموستيرية المسننة. وباستخدام أسلوب التاريخ بواسطة التألق الحرارى[٥] thermoluminescence الذى أجرى عند قاعدة الكساء الرملى الذى يغطيه حدد عام ٨٩٠٠٠ قبل الميلاد . أما الموقع E-82-4 فإنه يمثل استناداً إلى وضعه، أحدث عملية إرساب، فى هذا القطاع، وتعود إلى العصر الحجرى القديم الأوسط. انه تمركز محدود يتكون من ٢٤ قطعة، فى عدادها بعض المكاشط والأزاميل، التى تذكرنا «بالعائلة» الخورموسوية. ولنذكر أخيراً، مجموعة صغيرة من ٤٦ قطعة من الكوارتز من صنع الإنسان وجدت تحت الهيكل العظمى للموقع E-82-6.

ان أعمال التنقيب التى قام بها «المشروع البلجيكى لعصور ما قبل التاريخ فى مصر الوسطى» Belgian Middle Egypt Prehistoric Project ، تحت إشراف «فرميرش» P.Vermeersch، قد كشفت النقاب عن عدد من مواقع العصر الحجرى القديم الأوسط. كانت مغلفة برواسب متراكمة خشنة إلى حد ما، وكانت ترتفع عن مستوى النهر الحالى بعدة أمتار. وتشكل مواقع بيت علام، قرب أبيدوس، ونزله خاطر ١و٢و٣، قرب طهطا والمخادمة ٦، قرب قنا، ونزلة شهابة ، قرب دندرة، تشكل جميعها مواقع استغلال الحصى التى جلبتها مياه النيل أو قذفت بها الوديان. وتتكون المجموعات على نطاق واسع من نويات وشظايا: وتتميز جميعها بأنها عملية تصنيع الأدوات الحجرية طبقاً لأسلوب «ليڤالوا»، من الطراز النوبى بالنسبة لبعضها، وطبقاً للطريقة «الكلاسيكية» فى فصل الشظايا الملتفة حول المركز[٦] بالنسبة لبعضها الآخر. والأدوات هى أساساً فرض أو أدوات مسننة، ولا وجود للأدوات ذات الوجهين.

وفى نزلة شهابة، حفرت آبار عمقها متر واحد عبر طبقة من الرمال السفوية[٧] èolien وصولاً إلى حصى الظران الموجودة فى المدرج التحتانى. ان كثرة الفضلات والبقايا التى

تخلفت عن عملية تصنيع الأدوات الحجرية، داخل الآبار لتشهد على أن استغلال المادة الأولية قد تم فى نفس هذا المكان.

ولكن إلى أين نقلت الأدوات بعد تجهيزها؟ أين صقلت، وجمعت واستخدمت؟

إننا نجهل كل شىء، فى حقيقة الأمر، عن هؤلاء الذين اقدموا على استغلال هذه الحصى وربما انتقلوا إلى مواقع، فى الوادى، تقع إلى الأسفل قليلا، وتغطيها اليوم رواسب من عهود أقرب.

ومع ذلك يرجع الفضل إلى إحدى آبار الإستغلال هذه، فى تل الترمسا، على مقربة من دندرة فى الكشف عن الإنسان الذى يمكن اعتباره أقدم مصرى معروف وأقدم دفنة فى وادى النيل (٥٥٠٠٠ سنة تقريبا). إنه عبارة عن طفل فى حالة سيئة جداً من الحفظ، تبدو عليه السمات التشريحية للإنسان الحديث، القريب الشبه من الجماعات البشرية لخواتيم العصر الحجرى القديم فى شمال إفريقيا. إن وضع الطفل ولكن خصوصاً عمق الحفرة التى عثر عليه فيها (١٠٠سم من سطح) يوحيان بأن الطفل لم يكن قد سقط هنا بعد أن لقى حتفه مصادفة، بل كان قد دفن. ولم توفر لنا الصحراء الشرقية أية معلومات حقيقية. ومن ثم لم يختلف الأمر عما كان عليه فى «الأشولى». وتشهد محطات قطع الأحجار حيث توجد كميات كبيرة من النويات والشظايا وأدوات «ليڤالوا» (مكاشط، أسنة، سكاكين ذات ظهر، وفُرض) – شهد على وجود نشاط مواقع منجمية، دون أن نعرف المزيد لافتقارنا إلى أى تحليل أكثر عمقاً حول أى تجمع من التجمعات.

أما الأوضاع فى سيناء، فهى ليست أفضل بكثير. فقد قام «هنرى» Henry و «جولدبرج» Goldberg بالتنقيب فى ورشة «موستيرية» فى شمال شبه الجزيرة وفى وادى تميلة. ولكن قلة مواقع العصر الحجرى القديم الأوسط قد تعود أساساً إلى فجوة فى الوثائق أكثر من كونها فراغاً أركيولوچيا حقيقيا.

وفى المقابل، فإن دراسة عشرات التجمعات فى الصحراء الغربية التى تعود إلى العصر الحجرى القديم الأوسط والمرتبطة بتطور البحيرات، توفر لنا ذخيرة من المعلومات حول سكان هذه المناطق، وتوضح أكثر من أى مكان آخر، حقيقة التعقيد المناخى لهذا العصر.

وفى بير صحرا، تم التعرف على خمسة مستويات horizon «موستيرية» متصلة بالرواسب البُحَيْرية. وقد لحقت بها أضرار بالغة من جراء التخوية dèflation . وقد وفرت هذه التمركزات مادة تتكون أساساً من الحجر الرملى الكوارتزى، الرمادى أو الأسمر، وتكويناتها ناتئة فوق سطح الأرض على امتداد ٢٠كم فى اتجاه الشمال الشرقى. لقد جلبت كتل المواد الأولية من الأماكن التى تقع فيها المحاجر وشكلت وصقلت فى المواقع ذاتها . ورغم كل ما يعترى هذه

الأخيرة من نقص، إلا أنها مازالت تؤكد سمتها الموستيرية من خلال كم كبير من عمليات تصنيع الأدوات الحجرية الليفلوازية. ففى كل مكان تهيمن على هذه المجموعة الأداة المسننة. ان التطور الوحيد الذى نلمسه من موقع إلى آخر هو التناقص التدريجى لحجم القطع.

ان الكشف فى الطبقات الموستيرية عن جزء من عظم قصبة ساق جمل ذى سنامين إلى جانب حصاة مهياة كأداة، ليشهد على وجود هذا الحيوان فى أقدم العصور، وإن ظل مجهولاً لدى مصريى العصور الفرعونية.

وفى بير طرفاوى، تبرز فى القطاع الشمالى من الرواسب المتصلبة للبحيرة التى تشار إليها برقم B.T.14 – تبرز أسنة عاطرية وسط مجموعات موستيرية وآلاف العظام.

وهكذا تم تحديد سبع مساحات استناداً إلى اعتبارات جيولوجية بالنظر إلى الكثافة النسبية لما تم العثور عليه.

لقد ظلت المادة الأولية فى كل مكان، هى هذا الحجر الرملى الحديدى المميز لأماكن بروزه من سطح الأرض، والقريب من هذه المنطقة، إذ انه يبعد مسافة تقل عن ستة كيلو مترات.

وفوق المساحة الشاسعة من المارل(٨) الجيرى (المنطقة A) فإن الأدوات المسننة والمكاشط والأسنة الموستيرية، دون غيرها من أدوات، تتداخل مع بقايا الغزلان والبقريات والظباء والخراتيت التى فصلت عنها، عن قصد واضح، أجزاؤها الأمامية والأكتاف والحوض.. من أجل أن تؤكل بلاشك، فى مكان آخر! إن القطاع A من بيرطرفاوى، هو منطقة تقصيب الثدييات الضخمة، ومنطقة شاسعة للقيام بأعمال الجزارة، إنه بمثابة قطاع للتوقف أو لعمليات توقف متعاقبة، وتتفق على ما يعتقد مع الفصل الجاف، وربما كان فى وسعنا أن نفترض أنه كان أشبه بمكان مخصص للتخزين، لو أننا كنا نعرف فى أى مكان وعلى بعد أية مسافة، كانت تستهلك هذه المنتجات.

إن العاطريين الذين حطوا الرحال على مقربة من كبرى البحيرات الداخلية فى الصحراء الكبرى والذين نلتقى بهم أيضاً على مقربة من الآبار الأرتوازيه فى الواحات الخارجة، يبدو أنهم كانوا قد تكيفوا مع المساحات الشاسعة المفتوحة. ولما كانوا يسيرون خلف القطعان، متنقلين من نقطة ماء إلى أخرى، ومن بحيرة إلى مستنقع، ومن بئر إلى أخرى، فقد مهروا بتوقيعم، إذا صح القول، كل مكان مروا به بهذا المسجل الثقافى الذى كانوا يتميزون به، وهو بلاشك هذه الأداة ذات العنق التى جهزوا بها قاعدة الأسنة، ولكن أيضا المكاشط والمباشر المختلفة الأشكال والفُرَض أو الأدوات المسننة أو القطع ذات الوجهين، بالإضافة إلى بعض الأزاميل فى شمال إفريقيا. إن هذا الشاهد المباشر على تركيب مقابض

للأدوات، يدفعنا إلى تصور مدى سهولة حركة هذه الجماعات المجهزة بأدوات أخف وزناً وأكثر فاعلية.

وفى الوادى، لم يتأكد وجود العاطريين فى وادى الكوبانية سوى من خلال تجمع سطحى صغير. لقد عثر على ما يشير إليهم فى «أركين» ٥، إلى جانب الموقع ٤٤٠ فى خورموسى (راجع أيضا Carlson et Sigstad, 1973) . وفى حدود العصر الحجرى القديم الأوسط فى النوبة، كما قام آل «جيشار» بتعريفه، نلاحظ أن التنوع هو القاعدة الأساسية للموستيرى النوبى وموستيرى الصحراء الغربية والخورموسوى.

والقاسم المشترك، هو أن الجميع قد أخذوا يتخلون بالتدريج عن الأدوات ذات الوجهين، وفى نفس الوقت تزايد استخدام الشظايا التى يتطلب الحصول عليها تخطيطاً تمهيدياً. فقد تم فى الحالة الأولى تطوير تقنية «نوبية» فى اعداد النواة، فى حين تم الاعتماد فى الحالة الثانية، على العكس من ذلك، على أسلوب «ليفالوا» الكلاسيكى، مع الإحتفاظ بالأدوات ذات الوجهين، والإقلال من حجم الأدوات والميل إلى تفضيل الأزاميل والأدوات المسننة أو إعداد أدوات ذات عنق لتسهيل تثبيت مقبض. وهكذا، استقرت كل مجموعة داخل محيا biotope وتكيفت معه باكبر قدر من الفاعلية.

وفى غياب دراسة قائمة على استراتجرافيا وأرقام تاريخية، أكثر عدداً وأكثر دقة، فى آن واحد، يصعب علينا أن نحدد إطاراً للتتابع الزمنى.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن التغييرات الحادثة من موقع إلى آخر، ومن تجمع إلى آخر، يمكن تفسيرها بعبارات التنوع الوظيفى أو الفوارق الزمنية، على حدّ سواء. ان المواقع التى درسها آل «جيشار» فى النوبة، بالإضافة إلى المحلات التى قام بتحليلها «فرميرش» P.Vermersch فى مصر الوسطى، تقدم «قبل كل شىء» صورة لنشاط منجمى. إن وجود أو غياب أو الوفرة النسبية للأدوات المسننة والمكاشط وبعض الأدوات مثل الأزاميل والمخارز (المثاقب) والمباشر التى تعود بالفعل إلى العصر الحجرى القديم الأعلى، قد تعكس، على حد سواء، فوارق تقنية إقتصادية بين مجموعات معاصرة أكثر من كونها تطورا زمنياً. وتحضرنا فى هذا الصدد المساحات المخصصة لأعمال الجزارة فى بيرطرفاوى! أما المواقع الخورموسوية، فإنها تكشف فى المقام الأول عن نشاط مجموعات تتجه إلى استغلال بيئة مباشرة، وقد وقع اختيارها على الأزاميل لأسباب أكثر تعقيداً بلاشك من مجرد الفاعلية.

ولنفس هذه الأسباب، فإنه من الصعب التحقق مما إذا كان حلول صناعات العصر الحجرى القديم الأوسط محل صناعات العصر الحجرى القديم الادنى، قد جاء نتيجة تطور محلى أو انها صناعات مجلوبة من الخارج. ولا يتيح لنا موقع واحد سواء كان معلوماً

استراتيجرافياً أو كان انتقالياً ان ننتقل من عصر إلى آخر. ورغم وجود الأدوات ذات الوجهين، التى لا تظهر أبداً فى العصر الحجرى القديم الأوسط كأداة سائدة لها الغلبة، فلا يوجد ما يسمح بتصور انتقال «وئيد» من الأدوات ذات الوجهين إلى الشظايا. ومع ذلك، وأياً كان قدر التنوع الذى بلغته صناعات مصر والنوبة، فإنها تتميز أيضاً عن المناطق المجاورة، أو على الأقل عن تلك المناطق التى تتوفر عنها معلومات عن عصور ما قبل التاريخ.

ووفقاً لحقائق بير صحرا - بير طوفاوى، ينتسب الموستيرى والعاطرى إلى مرحلتين متعاقبتين للنشاط البُحيْرى. ومن حيث وضع العاطرى فوق الرواسب، فإنه يتفق مع الطور الأخير من تجفيف البحيرة.

ولا تتميز الآفاق (المستويات)(٩) horizons الموستيرية الخمسة إلا بتضاءل القطع. ولن يستمر هذا المنحى فى العاطرية، حيث لا يبدو، على الإطلاق أن الأدوات التى صنعها الإنسان، خلال هذا العصر، هى أقل حجماً، اذا قورنت بتلك التى تعود إلى آخر الجماعات الموستيرية.

ويذهب «فرميرش» Vermeersch و «پوليسن» Paulissen و«ڤان پيير» Van Peer (1990,1991) إلى امكانية تقسيم العصر الحجرى القديم الأوسط فى النوبة، وفقا لمورفولوچيا القطع إلى ثلاث مراحل ثانوية: فتتناظر المرحلة الأقدم العصر الحجرى القديم الأوسط كما عرفه آل «جيشار»، ثم تحلّ بعد ذلك المجموعات الموستيرية كما حددها مارقس Marks، لنصل أخيراً إلى المرحلة الخورموسوية.

فما من تاريخ يكفل لنا أن ندرج الموقع 440 فى خورموسى، بقدر نسبى من الوثوق، ضمن التتابع الزمنى للعصر الحجرى القديم الأوسط. ويقدر «شينر» J.L. Shiner أن شغل الموقع كان فيما بين ٣٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ B.P. (قبل - الزمن - الحاضر) على أساس تقديرات چيولوچية، مع التأكيد مع ذلك، على حقيقة انه قد تعذر تأريخ التكوينات الرسوبية التى تضم الصناعات تاريخاً دقيقاً.

إن العناصر الوحيدة التى وفرتها عمليات التأريخ بالكربون المشع التى تمت فى بير صحرا - بيرطرفاوى، تعود إلى ٤٣٠٠٠ سنة مضت، بالنسبة للموستيرى والعاطرى، على حدّ سواء. ونعرف ان دقة عمليات التأريخ بواسطة الكربون ١٤ تتراجع وتنحسر بالنسبة للأزمنة التى تعود إلى أبعد من عشرة آلاف سنة، طالما لم يساندها «علم التأريخ الشجرى» dendrochronologie ومن ثم، فلابد من اللجوء إلى أساليب أخرى (التألق الحرارى -thermolu minescence) أو الاعتماد على الطرق الجديدة بواسطة التسارع. وبالفعل، ففى ذلك الزمن،

قبل ٤٠٠٠٠ سنة، ظهرت على مايبدو العاطرية فى شمال إفريقيا. ونؤكد على «مايبدو»، فهنا أيضاً تفتقر عمليات التاريخ إلى الدقة.

فلنتذكر الموقع E-82-5 فى وادى الكوبانية، ويقع - استناداً إلى التالق الحرارى - فى تاريخ سابق على ٨٩٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، وأيضا الطبقات الخورموسوية التى أعيد تاريخها بواسطة الكربون ١٤، بما يقارب ٤٠٠٠٠ - ٣٥٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.p. ومن ثم ويعد أن ألفنا التواريخ الضبابية، غير الواضحة، يمكن أن نعود بصناعات العصر الحجرى القديم الأوسط، فى مصر والنوبة والصحراء الغربية إلى تاريخ يقع فى نقطة مابين ٩٠٠٠٠ و ٣٥٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P.

ولكن ما قولنا عن الظروف المناخية؟

إن الرواسب التى جلبها النيل وهى أنعم وأدق بالمقارنة مع العصر الأشولى، لتشهد على ظروف بيئية رطبة، وإن كانت أقل وضوحاً بالمقارنة مع العصر الحجرى القديم الأدنى.

وتكشف الفونة الخورموسوية، على ضفاف النيل، عن مشهد طبيعى، أشجاره أكثر كثافة بالمقارنة مع الوقت الراهن، وفى وسعه أن يستوعب الحيوانات المجترة الضخمة وأفراس النهر المرتبطة بالمياه الدائمة فى البرك والأنهار. ولكن الغزالة ذات الجبين الأصهب كانت تعيش فى المناطق شبه الصحراوية. إن شدة عملية الترسيب التى تميز المواقع الخورموسوية، بالإضافة إلى وجود الكثبان، تعتبر دليلا على انتشار مناخ جاف نسبيا، وهو ما قد يفسر متاخمة هذه المواقع لشاطىء النهر.

وتوفر متتالية بير صحرا - بيرطرفاوى، أكثر من أى مكان آخر، تعاقب طورين جافين، يفصل بينهما طوران رطبان لما بعد الأشولية، يتفق الأول مع الموستيرى والثانى مع العاطرى. إن وفرة الفونة وهى - إذا استثنينا الخنزير البرى - متماثلة فى الطورين الرطبين، وتشكل موطنا حديا مفتوحا من السافانا أو السهوب. وبين الخرتيت الأبيض المولع بالماء، ساكن السافانا المعشبة أو المغطاة بالأدغال، وبين الغزلان والجمال ذات السنامين التى تميل إلى البيئة شبه الصحراوية، يوجد الخرتيت الأسود الذى يكتفى بشجيرات المناطق الجافة، ذات الأشواك، التى نجدها على بعد ٥٠كم من أى مصدر للتزود بالماء. كانت الأحواض الداخلية خاضعة للتغيرات الموسمية فتصبح ذات فائدة كبيرة بعد هطول الأمطار وان كان ذلك بلاشك لفترة قصيرة. كانت الصحراء تغطى عندئذ، من مكان إلى آخر، بنقاط ماء تنمو من حولها نباتات من الأنواع التى تنتشر فى السهوب. وعلى عكس ذلك، كانت الحياة تنسحب فى موسم الجفاف لتستقر حول الآبار الأرتوازية والبحيرات الدائمة، كما كان الحال بالنسبة لبير صحرا - بير طرفاوى أو كبرى الأنهار.

إن وجود طور واحد أو عدد من الأطوار الرطبة، فى وسط الصحراء الكبرى، وفى شمال إفريقيا أيضاً، مرتبطة مع الصناعات الموستيرية والعاطرية، يبدو من الأمور المؤكدة.

وفى بحيرة تشاد، تشير الرواسب البحيرية إلى سلسلة من البحيرات تمتد من ٤٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، مرتبطة مع هذا الطور أو ذاك، فى بير طرفاوى.

وفى «أدرار بوس» Adrar Bous ، ووسط الصحراء الكبرى، كان موقع «ليفلوازى» قائما فى مكانه فى مواد طينية جيرية ذات أصول بحيرية. كما وجدت فى نفس هذا القطاع أشياء من صنع الإنسان العاطرى مرتبطة برواسب تدل على عصر أكثر جفافاً ذى نشاط سفوى (ريحى) eolien ملحوظ.

وفى عرق[١٠] Erg الشيخ الواقع فى القسم الغربى من الصحراء الكبرى، عثر أيضاً على مجموعات عاطرية، كانت مختلطة برواسب بحيرية.

وقد وفر لنا الساحل الشمالى فى شمال إفريقيا العديد من المواقع ذات الفونة المشتركة. ان طابعها العام السائد هو السافانا الأثيوبية (الجاموس الضخم ونوع من الظباء الإفريقيه والبقر الوحشى الإفريقى وفصيلة الخيليات) إلى جانب بعض أنواع النطاق الشمالى القديم Paléoartique (خرتيت ميركس وضرب من الثيران كانت تعيش فى أوروبا aurochs والخنزير البرى).

وفى وادى عكاريت، على مقربة من البحر المتوسط، توجد صناعة موستيرية وفيرة، جنبا إلى جنب، مع حبوب اللقاح، الأمر الذى يكشف عن بيئة عشبية من نوع السهوب، مع أشجار الأثل وبعض الأشجار النادرة.

ولكن كما أكدنا من قبل لا يمكن النظر إلى الفلورة أو إلى الفونة، على حد سواء، على أنها تعبير عن بيئة مصغرة[١١] micro- environnement، كما أننا نفتقر إلى تتابع زمنى دقيق يربط فيما بين هذه الوقائع التى نلمسها من موقع إلى آخر.

وبصفة عامة، فإن المنحى العام لمناخ العصور القديمة يسير فى اتجاه زيادة الجفاف الذى بدأ منذ ٤٠٠٠٠ سنة قبل (الزمن) الحاضر .B.P بفترة طويلة. واستناداً إلى عمليات التاريخ التى تمت بواسطة التألق الحرارى لمتتالية العصر الحجرى القديم الأوسط فى وادى الكوبانية، تقع نقطة انطلاق هذا التطور القاسى فى حدود ٦٠٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P. ان العصر الحجرى القديم الأوسط، رغم موجات الرطوبة التى مر بها، لم يعرف رطوبة شبيهة بتلك التى سادت فى الطور الأشولى.

وفى أعقاب المتتالية العاطرية فى بيرطرفاوى جاءت فترة من النشاط السفوى (الريحى) éolien.

وفى مصب وادى الكوبانية، تشهد رواسب من الحقبة الرابعة[١٢]، يبلغ سمكها عشرين متراً، على ظاهرة تسوية[١٣] aggradation النيل وكانت هذه الظاهرة معاصرة لعملية سفوية éolisation يمكن ملاحظتها على هيئة كثبان تتخلل المجرى الغرينى فى المسافة الممتدة من إسنا إلى أرمنت. ومع ذلك، فإن وجود وديان نشطة، على البر الشرقى، قد يفسره تساقط الأمطار على نجاد البحر الأحمر، وهو ما يتفق مع تحركات رياح، هى من الظواهر المميزة للعصور الشديدة الجفاف.

ومن ناحية أخرى، فإن هذا العصر الشديد الجفاف كما عرفته الصحراء الغربية، موثق إلى حد ما توثيقاً محكماً: تحركات الكثبان وتراجع مناطق السهوب والسافانا فى اتجاه الجنوب وغياب أى أثر آدمى على امتداد الشريط الواقع جنوب الصحراء الكبرى فى افريقيا.

وفى كل مكان فى الصحراء الكبرى اختفت البحيرات. وحتى بحيرة تشاد نضبت نضوباً كاملاً، وتكونت فى مالى والنيجر أحزمة متصلة من الكثبان، كما تم أيضا اجتياح حوض النيل الأبيض.

وفى شمال إفريقيا، أخذ عدد السكان فى التناقص فيما بين نهاية العاطرى السابق على عام ٢٥٠٠٠ وبداية الإيبرمعرى iberomaurusien حول عام ١٥٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P.

ومع ذلك، توحى متاخمة المواقع للمناطق الساحلية والمناطق الجبلية بوجود بيئة صالحة للسكنى ، فيما وراء الحدود غير الواضحة لشمال غرب الصحراء الكبرى. (Camps, 1974,60).

لقد كان انحسار الأمطار على امتداد العصر الحجرى القديم الأوسط، أمراً لا مناص منه وإن كان غير منتظم، مما أدى إلى النضوب التدريجى للبحيرات والآبار ومنابع المياه، دافعاً البشر وقطعان الماشية إلى الارتداد فى اتجاه نقاط المياه الدائمة. وتتميز المرحلة اللاحقة على العاطرى، فى الصحراء الكبرى، بأنها شديدة الجفاف، فبعد ان افرغتها من الماء، قامت بإفراغها من البشر. عندئذ تحول وادى النيل وحتى عصر الهولوسين المطير، إلى الملجأ المفضل، ونقطة تجمّع نميل فى واقع الأمر إلى النظر إليها على أنها كانت بوتقة ثقافية.

وفى هذا الصدد، يثبت موقع نزلة خاطر ٤، التى جرت فيه أعمال التنقيب من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٢ من جانب «المشروع البلجيكى لعصور ما قبل التاريخ فى مصر الوسطى»، يثبت أنه على درجة كبيرة من الأهمية.

انه موقع منجمى يقع على مسافة ٢٠ كيلو مترا إلى الشمال الغربى من طهطا فى مصر

الوسطى، ويرتبط بمجموعات صناعات العصر الحجرى القديم الأعلى استناداً إلى ما تخلف
من شظايا غير ليفلوازية وأدوات نذكر منها المسننة على سبيل المثال والأزاميل والبلطات.
وقد أجريت تسع عمليات تأريخ على الفحم الخشبي الذي تم الحصول عليه من المواقد
القائمة بجوار آبار الاستغلال، ومن ثم فقد تحدد تاريخه في الفترة الزمنية الممتدة من
٣٤٤٠٠ إلى ٣١٥٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، أي في عصر باتت فيه شروط استمرار
الحياة في الصحراء غير متوفرة على الإطلاق.

لقد استقر «مواطنو» نزلة خاطر ٤، فوق رواسب سميكة في الوادي، وحفروا خندقاً يبلغ
٩ أمتار طولاً ومترين عرضاً، كما حفروا دهاليز وآبارا ليستخرجوا منها حصى الظران التي
يضمها مدرج النيل المخفي، مستخدمين مختلف التقنيات هذه.

كما نلتقي في قورينائية بميلاد عصر حجرى قديم أعلى وإنتاجة من الشظايا في مواقع
الضبة وهوى فتيح التي قدر أنها تعود إلى الفترة الممتدة من ٣٨٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ قبل الزمن
الحاضر B.P. وفي سيناء (المواقع اللقامية)(١٥) وفي النقب («بوكر» Boker A-P) وفي طبقات
تعود إلى ٣٥٠٠٠ و ٣٣٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، عثر على صناعة نصال مشابهة. ومع
ذلك يضاف إليها في نزلة خاطر قطع مجهولة، كما ان نسبة الأدوات المسننة هي أقل بكثير.
وعلى كل حال، فمن الصعب أن نعقد مقارنة بين أشياء متباينة وظيفياً. ان نزلة خاطر ٤
هي موقع منجمي، في حين يرجح أن مواقع أخرى هي موائل. ويظل من الواضح مع ذلك،
أن هذه المناطق المحظوظة التي توفر فيها الماء بصفة دائمة (مناطق ساحلية وجبال أو
أنهار، كما هو الحال في مصر)، في حين كانت محاطة ببيئة تناصبها العداء، يظل من
الواضح ان مثل هذه المناطق قد شهدت ميلاد تطور تكنولوجي على جانب كبير من الأهمية:
فقد استطالت الشظايا لتصبح نصالاً لتكون بدورها ركيزة للأدوات.

وعلى بعد ٤٠٠ متر إلى الشمال من الموقع المنجمي، كان يرقد أحد أقدم المصريين
المعروفين إلى يومنا هذا. وكان مسجىً على ظهره والرأس في اتجاه الغرب. وقد وضعت بلطة
ذات وجهين بجوار وجهه. فكانت أول هبة جنائزية في بلد سيعرف الكثير غيرها.. وقد عثر
على مقبرة أخرى على بعد ثلاثين متراً إلى الشرق من الأولى فلم يظهر سوى هيكل عظمى
مسجى على ظهره، وقد سحق سحقاً وتنقصه الجمجمة، وكانت تصاحب هذه الرفات
الناقصة البسيطة بعض عظام أجنة وأغلفه بيض نعام. وأصبح من الصعوبة بمكان الوصول
إلى أي تأريخ زمني من واقع فحص هذه الرفات. فقد اتضح ان ما تحتويه من كربون
عضوى غير كاف. الأمر الذي اقنع الباحثين بالعدول عن اجراء نفس التجربة على أول فرد
يعثر عليه شبه كامل. ومع ذلك فإن العناصر غير المباشرة تتيح لنا ان نفترض انه كان
معاصراً للموقع المنجمي. لقد حفرت الدفنة في الطفال المقوى على عمق ستين سنتيمتراً،

تحت المستوى الحالي للتربة، وكانت قد غطيت بكتل ضخمة من الحجر ومن خلال الفجوات
الموجودة بين هذه الكتل تسربت رمال سفوية éolien فملأت المكان. ويمكن مقارنة هذه الرمال
بتلك التي غمرت دهاليز وآبار وخنادق استخراج الأحجار. أما البلطة التي تشبه في كل
شيء بلطات الموقع المنجمي، فلم تعد موجودة في صناعات خواتيم العصر الحجرى القديم
التي ستحتل الوادي اعتباراً من ٢٠٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P وتختلف عن بلطات العصر
الحجرى الحديث التي ستظهر في وقت لاحق. وأخيراً، وإن كان هذا الهيكل العظمى يمثل
الإنسان الحديث إلا انه تظهر عليه بعض آثار الماضي ونذكر على سبيل المثال ان الفك
السفلى عريض جداً. (Thoma, 1984).

ها هو إذن أول ساكن منتصب القامة معروف اقام على ضفاف نهر النيل. إن سعة
تجويف الجمجمة ١٤٠٠سم٣ على الأقل، وملامحه تميل إلى الملامح الزنجية، كما يظهر
بوضوح من تجويف المنطقة الأنفية Praenasal وبروز الفك السفلى عند منبت الأسنان. إنه
عامل منجم على دراية بعمله ويعرف موقع عروق حجر الصوان. لم يكتف بحفر بعض الآبار
المحدودة العمق، كما كان يفعل أجداده في «أركين» ٥ أو في صحابة، بل ابتكر عدداً من
الأساليب للوصول إلى المدرجات المخفية أسفل الرواسب، وقد عرف كيف يعثر فيها على
النويات المناسبة لإعداد أدواته.

هوامش الفصل الثالث

راجع الملحق فى آخر الكتاب.

(١) B.P أى Before Present أى قبل ١٩٥٠ وهو خلاف B.C أى قبل الميلاد.

(المترجم).

(٢) ريوليت rhyolite: صخر بركانى نارى فاتح اللون من تركيبة الجرانيت ذاتها (المترجم*)

(٣) تربة متجمعة colluvions: فتات من صخور مختلفة تتجمع فى حضيض المرتفعات. (المترجم*)

(٤) interdigital: تتكون هذه الكلمة من شقين: inter وتعنى بين، أو ما بين، و digital: وهو مصطلح فى الچيولوچيا،

ترجمه معجم الجيولوجيا (مجمع اللغة العربية) بكلمة «تصبع» ويعرفها بأنها «طيات محدبة مضطجعة ثانوية تتشعب

من طية مضطجعة رئيسية وتشبه الأصابع. (المترجم*)

(٥) من الأساليب المستخدمة فى التأريخ فى علم الآثار. (المترجم).

(٦) راجع الفصل الثانى: الفقرة السابقة (المترجم)

(٧) أى تجمعت من سفى الرياح. (المترجم*)

(٨) مارل marne بالفرنسية و marl بالإنجليزية. وهى كلمة دخيلة تعنى: الصخر الطينى أو الرمل الطينى حينما يكون

مشوباً بكربونات الكالسيوم. (المترجم*)

(٩) الأفق (المتسوى): طبقة غليظة أو مجموعة من الطبقات الرقيقة يستدل بها على مرحلة معينة من الزمن الچيولوچى

أو التتابع الإستراتيجرافى. (المترجم*)

(١٠) عرق Erg : اسم أطلقه العرب على الصحراء الرملية والرمال المتنقلة فى الصحراء الكبرى الإفريقية.

(المترجم*).

(١١) منطقة محدودة يختلف مناخها عن بقية المناطق المحيطة بها. (المترجم).

(١٢) الحقبة الرابعة Quartenaire : آخر الأحقاب الچيولوچية.

(١٣) تسوية : عملية تسوى فيها الأرض بامتلاء المنخفضات بأسابات.

المرتفعات . ويستعمل الإصطلاح غالبا فى حالة الأنهار. (المترجم*)

(١٤) نسبة إلى جبل لقامة. (المترجم)

الفصل الرابع

التنوع أو التكيف مع البيئة النيلية

يتفق الإنتقال إلى العصر الحجرى القديم الأعلى مع تطور تكنولوجى وظهور «الإنسان العاقل العاقل» Homo sapiens sapiens فى تاريخ البشرية. إن انتاج النصال الذى بدأ من قبل، منذ «الموستيرى»، أخذ فى التعاظم، ليصل شيئا فشيئا، إلى مستوى رفيع من الجودة، مع تقليص تدريجى للفاقد من المادة الأولية. إن أدوات كالباشر والمثاقب والأزاميل على سبيل المثال، التى عرفت منذ عهود سابقة، قد أخذت فى التنوع معبرة عن تعدد وظيفى متزايد. لقد تمت هذه الخطوة الحاسمة فى أوروبا تحت سماء ملبدة بالثلوج: الدورين الثالث والرابع من العصور الجليدية طبقا لـ «ڤورم» Würm .

وكما نعرف فقد أخذت الصحراء تخلو من البشر وتشبثت انشطتهم بمشارف نقاط المياه الدائمة.

ورغم ذلك، فإن المواقع التى تم التحقق من وجودها وتعود إلى الفترة الممتدة من ٤٠٠٠٠ إلى ٢٥٠٠٠، قليلة جداً، ويصعب علينا تتبع مسار الإنتقال التكنولوجى. ان المواقع المختلطة التى توفر فى آن واحد قطعاً ليڤالوازية ونصالا، هى مواقع نادرة وتحديد تاريخها أمر غير مؤكد. ومن هذه الزاوية، فإن ظهور تقنية لتصنيع الأدوات الحجرية تعرف اصطلاحا بال «الحلفاوية»، قد تلقى ضوءاً جديداً على ظاهرة الإنتقال.

لقد أكتشفها «مارقس» A. Marks فى صناعة الأحجار القزمية micro lithique فى وادى حلفا. وسوف يتاح لنا فيما بعد أن نفحص هذه الصناعة. ويرتبط هذا التطور بعملية تصنيع الأدوات الحجرية الليڤالوازية وبأسلوب انتزاع النصال. فلنتصور نواة ذات سطحين متقابلين للطرق، فتنفصل من السطح الأول حوالى ستة نصال صغيرة رقيقة ومتوازية، ثم يتم إعداد السطح الآخر بحيث تصنع منه مجموعة من الشظايا تتجمع حول نقطة واحدة لتسبغ على هذا الطرف من النواة «مظهراً» ليڤالوازيا ثم يستخرج منها شظية أولى ضخمة، يحمل طرفها الأقصى بعض آثار نصال صغيرة. وتتراكب شظية ثانية ضخمة على الأولى، وتحمل ضلوع نصالية خلفية وكعب «مجنح» وهو الشكل المميز لانتزاع شظية من شظية أخرى. وإن كانت التقنية «الحلفاوية» غير معروفة فى أى مكان آخر غير مصر، إلا أنها غير موجودة مع ذلك فى نزلة خاطر ٤، وهو أقدم موقع معروف حتى وقتنا الراهن من العصر الحجرى القديم الأعلى فى الوادى.

وعلى بعد بعض كيلومترات إلى الغرب من قنا، يقع موقعا شويخات فى منطقة تماس بين الطمى الخشن الغامق الذى تكون من تسوية aggradation النيل – ويشهد على مناخ شديد الجفاف – وبين إرسابات أهم وديان الصحراء الشرقية. وقد قام فريق «فرميرش» بالتنقيب فى هذين الموقعين عام ١٩٨٥.

إن موقع شويخات ٢ هو مجرد تمركز سطحى لانتاج النصال، وموقع شويخات ١ هو وحده الذى تم دراسته.

إن كل ما صنعه الإنسان فى شويخات ١، مندمج فى الطمى، ومثبت بواسطة تربة قديمة Paléosol ، ويكشف عن عملية تصنيع النصال، اختفى منه تماماً أى أثر للتقنية الليفالوازية. لقد صنعت الادوات المسننة والمباشر والأزاميل من خام النصال هذا، المستخرج من حصى الظران التى جلبت من الوديان المجاورة. ان النوى ذات السطحين المتقابلين المعدين للطرق هى الأكثر انتشاراً. وفى وسط العظام أمكن التعرف على بقايا نوع من الأبقار الضخمة المندثرة aurochs والغزلان وسمك القرموط. واستناداً إلى بقايا طمى محروق عثر عليه فى أماكن الإقامة امكن تحديد تاريخ ٢٤٧٠٠ ± ٢٥٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P .

كما لاحظ فريق « وندورف » وجود مواقع فى منطقة إسنا – إدفو تشبه موقع الشويخات ١، من الناحية التيبولوجية (تتابع الطرز)، دون التوسع، مع ذلك، فى التحليلات التى تساعد على عقد مقارنات اكثر تعمقاً . إن تاريخ صلصال محروق قد أعطى ٢١٥٩٠ ± ١٥٢٠ قبل الزمن الحاضر B.P ، وهو مالا يتعارض مع وجود مجموعة متناسقة بين قنا وإدفو، تتكون من أفراد يمارسون الصيد النهرى والبرى، بعد أن هجروا التقنية الليفالوزية أو تخلوا عنها، دون أن يتوصلوا إلى «عجائب» الأدوات الحجرية القزميه!

ماذا يتبقى إذن من «مرحلة الإنتقال الحلفاوية، إذا كان لا يتبقى أى أثر للتقنيه الليفلوازية فى نزلة خاطر ٤، أو الشويخات ١، أو أى موقع آخر قريب الشبه منها، على حد سواء، وإذا كنا لم نجد نواة واحدة تبرز أطراف نصالها؟

ويقترح « فرميرش » ان نبحث عن هذه المجموعات المختلطة فى مواقع «وندورف» و «شايلد» الأدفوية ذات الانتاج الليفلوازى.

لقد تم رصد ستة تمركزات فى سهل الكلح الشاسع (Wendorf, 1976, 27 et sq) فوق تلال رملية تطل من على ارتفاع خمسة إلى سبعة أمتار على السهل الغرينى الحالى.

ان الموقع E 71 - P1 هو وحده الذى جرت فيه أعمال تنقيب شملت كل صغيرة وكبيرة،

من خلال خنادق مختبرية. إن نصف النوى هى من الناحية التكنولوجية، نوى ليفلوازية، ومنها بعض النوى من النوع الحلفاوى. والنوى الأخرى هى ذات سطح واحد أو سطحين للطرق للحصول على شظايا ونصال صغيرة. وتضم الأدوات قائمة شديدة التنوع، بدءاً من الأزاميل والمباشر والنصال والشظايا المشذبة وصولا إلى القطع التى تكسرت بصلتها[١]. وتظهر هنا لأول مرة هذه النصال الصغيرة المشذبة التى أطلق على تشذيبها اسم «أوشتاتا»[٢] الرقيق.

والمشكلة أن هذا التجمع الذى تتعاقب عليه الأبقار البرية والأبقار الضخمة المندثرة وأفراس النهر وسمك القرموط، قد أعطى خمسة تواريخ، بعد استخدام الكربون المشع على صدف من نوع «الأونيو» Unio ، تتدرج من ١٥٠٠٠ إلى ١٥٨٥٠ ± ٣٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P ، فى حين يميل «فرميرش» vermeersh و «بوليسن» paulissen و «فان بير» Van Peer إلى الرجوع، بهذه التواريخ إلى الوراء فيما بين ٤٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠، استناداً إلى اعتبارات تقنية تيبولوجية.

ومما لاشك فيه انه من السهل الطعن فى عملية التأريخ بواسطة صدف لا نعرف على وجه اليقين ما تحتويه أصلاً من كربون.

وعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار عنصراً آخر لا يمكن اسقاطه فى التفسير الخاص بهذا الموقع وان كان أساسياً مع ذلك: إنه تمركز الأنماط وفقاً للقطاعات. ففى الشمال، لاحظ المنقبون فى الموقع E 71 - P1 ، فى القطاعين A و B ، وجود شواهد ليفالوازية ضخمة، وغياب الأزاميل وندرة النصال «أوشتاتا». وفى الجنوب، وفى القطاعين C و D ، تضم الأدوات عدداً ضخماً من النصال الصغيرة « أوشتاتا» والأزاميل وقطع تكسرت بصلتها piéces esquillées وهذه الأشياء لايمكن القول عنها سوى إنها «قد صنعت على ما يبدو كقطع وسيطة مطروقه» (Dictionnaire de la- Préhistoire) . فهل يمكن النظر إلى قطاعات التوزيع هذه باعتبارها انعكاسا لمناطق نشاط أم هى، كما يقترح «فرميرش» محلات اقامت فيها جماعات مختلفة على فترات متعاقبة؟

إن النظر إلى العصر الحجرى القديم الأعلى على أنه ناتج إنتقال بطىء من تقنيات صناعة الأدوات الحجرية الليفالوازية إلى صناعة أدوات حجرية على هيئة النصال عن طريق النويات الحلفاوية ، مازال حتى هذه اللحظة، كما هو واضح ، أمرا افتراضيا، إلى حد بعيد.

إنها صياغة ترضى العقل وإن كانت لا تجد لها تأكيدا أركيولوجيا، يثبت صحتها. فنحن لا نعرف تقنية حلفاوية واحدة تعود يقينا إلى زمن سابق على ٢٠٠٠٠ سنه، فى حين تعود أولى صناعات النصال إلى ٣٥٠٠٠ سنة مضت.

تحت تأثيرات خارجية. ويحضرنا فى

فمصر المعزولة جغرافياً، لم يُتح لها أبداً ان تقع تحت تأثيرات خارجية. ويحضرنا فى هذا الصدد بلا شك، موقع بوكر تاشيط Boker Tachitt فى النقب، حيث نشاهد الإنتقال من عملية تصنيع أدوات حجرية ليڤالوازية تنتج النصال إلى عملية تصنيع حقيقى لنصال من خلال نويات أحادية القطب. فتصبح أسنة ليڤالوا أسنه اميرية Emireh لتختفى فى المستويات الأحدث عهداً، وذلك فيما بين ٤٥٥٠٠ و ٤٠٠٠٠. ولكن إذا كانت صناعات النقب تتميز بأسبقيتها، فلا يوجد ما يدعونا الى النظر إليها على أنها الأسلاف الأقدمون لنزلة خاطر ٤ أو لمجموعات شويخات - إدفو التى تختلف أدواتها من الناحية التكنولوچية ومن الناحية التيپولوچية، على حد سواء.

وعلى طريقة وادى النيل، ولعله كان متأثرا تأثرا غير مباشر بظواهر ثقافية خارجية، متطوراً تطوراً محليا على الأرجح، أكثر مما يبدو فى ظاهر الأمر، فى حدود الوضع الحالي لمعارفنا - إذ مازلنا بعيدين عن تحديد الدور الصحيح الذى لعبته التقنية الحلفاوية، فعلى طريقته هذه، ولج وادى النيل إلى حقبة الإنسان المعاصر.

فمنذ ٢٠٠٠٠ سنة مضت - اى قبل أوروبا بـ ١٢٠٠٠ سنة، سوف ينطلق هذا الإنسان مسلحاً بعتاده من النصال الأخف والأكثر فاعلية، فى آن واحد، والمتنوع إلى حد كبير، سوف ينطلق فى مغامرة تكنولوچية جديدة: فبعد أن كان النصل منتجاً ناتجا من عملية تصنيع أصبح، خاماً وسناداً! وهو ما يطلق عليه **الصناعة القزمية** microlithisme **أو كيف تستخرج أكبر كمية من القواطع من أقل قدر من المادة الأولية: أو كيف يتم الموازنة والتجميع وتحديد الأشكال للحصول على أكبر النتائج من خلال أقل جهد.**

فلنعد ادراجنا إلى وادى حلفا فى النوبه السفلى. لقد قام فريق «وندورف» بدراسة ستة تمركزات مرتبطة بالرواسب الرملية الكثبانية لتكوين بلانة، وقد ظهرت فيها ادوات حجرية قزمية: إنها الحلفاوية، التى جاءت منها النويات الشهيرة التى تنتمى فى جانب منها إلى الليڤالوازى وفى جانبها الأخر إلى صناعة النصال، فاعطت للتقنية الحلفاوية اسمها.

وبالنظر إلى الوضع الچيولوچى النسبى لكل موقع من هذه المواقع، فقد اعتقد «ماركس» A. Marks ان فى امكانه ان يميز تطوراً - دون أن ينكر مع ذلك ما تنطوى عليها هذه الرؤية من تبسيط يعود إلى عدد المواقع المرجعية.

وتعود أهمية المجموعات إلى وجود تيپولوچية ليڤالوازية وحلفاوية وأدوات قزمية مكونة أساساً من نصال ذات ظهر جنباً إلى جنب.

وهكذا يمكن التمييز بين خمسة أطوار تتجه تدريجيا نحو تناقص انتاج الشظايا الحلفاوية وتزايد انتاج النصال من الحصى الظرانى. إن الجنوح إلى تجهيز أدوات من هذه

النصال ذات الظهر (ادوات مشطوفة الزوايا أو مسننة أو رُفض مثاقب لا يتجاوز ١٠٪ من مجموع هذه الأدوات، تاركاً نصيب الأسد للمكاشط والأزاميل والأدوات المسننة أو الرفض والشظايا المشطوفة الزوايا إلى جانب قطع تكسرت بصلتها.

ويبدو أن اختيار الحصى الظرانية كمادة أولية يتواءم مع الاتجاه إلى اختيار الأدوات القزمية فى بيئة يتوفر فيها الحجر الرملى الحديدى والخشب الحفرى وحصى الكوارتز والعقيق.

الطور الأول، ووجوده مجرد افتراض وينبنى علي التطور الظنى للانتاج الحلفاوى انطلاقاً من أساس ليڤالوازى. ولكن لا يوجد موقع واحد يتفق مادياً وبشكل ملموس مع هذه المرحلة الأولية.

- الطور الثانى، ويمثله الموقعان ١٠٢٠ و ١٠١٨ وتسود فيه النويات والشظايا الحلفاوية، ورغم وجود عدد محدود من الشظايا القزمية والنصال الصغيرة ذات الظهر، فما زالت الأدوات تصنع أساسا من الشظايا.

- أما الطور الثالث، فإن الموقع ٦٢٤ هو الشاهد الوحيد عليه. فخلال المرحلة الثانية منه أضيفت قطع تكسرت بصلتها ستحتل نسبة ثابتة فى الطورين التاليين ونويات ذات نصال من طراز خاص يطلق عليها اصطلاحاً «ودج كورس» "wedge cores" (النواة ذات الحد الباتر) نظرا لشكلها المميز.

- وفى الطور الرابع - الموقفان ٤٤٣ و ٢٠١٤.

- تسود أدواته النصال ذات الظهر. وتظهر الشظايا الحلفاوية على هيئة حفريات. وتبلغ الـ «ودج كورس» "Wedge cores" أوج ازدهارها.

- ثم نصل إلى الطور الأخير. وممثله الوحيد هو الموقع ١٠٢٨. وتختفى خلاله بشكل شبه تام التقنية الحلفاوية لحساب الصناعة القزمية.

كما أماطت المحلة ٤٤٣ اللثام عن تكوينات بنائية فى التربة: موقد، على عمق ٢٣ سم تحت مستوى السطح، وست حفر عمقها ٣٠سم فى الرمال النقية، وتضم مراكز حجر محروق وعظام وفحم خشب وأدوات من النصال وخمس حلقات من أغلفة بيض نعام فى مختلف مراحل التصنيع. كما لوحظ وجود أجزاء محروقة من الحجر الرملى النوبى وقد نتج عنها مادة على هيئة مسحوق أحمر (أوكسيد الحديد) يشكل خضاب يشبه حجر الدم (الهيماتيت). ومن المحتمل أن اثنتى عشرة كسفة من الميكاشيست[٢] micaschiste جاءت من بطن الحجر قد استخدمت أيضا كمادة ملونة، بعد خلطها بدهن حيوانى.

ونتج عن ثلاث عمليات تأريخ بواسطة الكربون ١٤ متوسط يتروح بين ١٩٥٠٠ و ١٧٥٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P لمجموع المواقع الحلفاوية.

* * *

وفى عام ١٩٢٣ كشف «فينيار» E. Vignard فى سهل كوم أمبو عن مجموعة أدوات حجرية أطلق عليها اسم مدينة السبيل القريبة من المواقع المعنية. هكذا اصبحت السبيلية جزءا من عصور ما قبل التاريخ المصرى، طارحة سلسلة من الأسئلة مازال بعضها إلى يومنا هذا دون إجابة شافية، بل هى أبعد ما تكون عن ذلك.

إننا مازلنا أمام تمركزات سطحية، ولكنها مطابقة للعديد من مستويات مدرجات بحيرة تكونت من جراء الحاجز العتبة(٤) seuil فى جبل السلسلة(٥) . ومع ذلك فقد استند «فينيار» إلى معايير تقنية تيبولوجية عندما حدد ثلاث مراحل من التطور، بدءاً من الصناعة ذات السحنة الموستيرية انتقالا إلى صناعة من النمط «التردنوازى» tardenoisien أى الصناعة القزمية.

ولمزيد من التفاصيل، نقول أن السبيلى ١، يتكون من أدوات من الديوريت والكوارتز والحجر الرملى النوبى. والنويات الصغيرة الحجم، هى على هيئة، قرص ولكنها لا تنتمى إلى تقنيات تصنيع أدوات حجرية «ليڤالوازية» الأسلوب. وتشتمل الأدوات على الشظايا الناتجة عن تصنيع الحجارة على هيئة قرص، وتتخذ فى الغالب شكلاً مدبباً مشطوفاً عند القاعدة. وسوف يتطور ليتخذ شكل شبه المنحرف أو المثلث، مع الأخذ بعين الإعتبار شطف حافة واحدة أو الحافتين. ان الأشكال شبه المنحرفة أو المثلثة لا تشير هنا سوى إلى أشكال هندسية، دون الرجوع إلى الإدوات القزمية كما هو الحال فى المصطلحات التى اعتاد عليها علماء عصور ما قبل التاريخ فى الوقت الراهن. والنصال نادرة والأدوات القزمية غير موجودة. ان بعض المطارق وسنداناً واحداً هى فى عداد ما تم حصره.

وفى السبيلى ٢ حل الظران فى واقع الأمر محل مختلف المواد الأولية الأخرى. واخذت قائمة النويات فى التنوع، فاضيفت إلى الأنماط القديمة، نويات ذات الشظايا أو النصال والسطوح المتقابلة المعدة للطرق. واختفت شظايا ليڤالوا، فى حين بدأت فى الإنتشار الشظية المدببة المصقولة عند القاعدة التى تلغى البصلة bulbe ، إلى جانب عملية شطف جانبى و/أو طرفى، وصولاً إلى أشكال شبه هندسية قد تبدأ من المثلث المختلف الأضلاع إلى قطاع من دائرة. هنا ظهرت تقنية الأزاميل القزمية. ومازالت الأرحاء واحجار السحن تحمل آثار المغرة، كما تعددت السنادين والمطارق. وقد لوحظ وجود عدد ضخم من المواقد المدعمة بكتل من التربة وهى «توحى لنا نظراً لكمية الرماد المتراكمة بطول إقامة أصحابها،

(Vignard, 1923, P. 37) وترتفع أكوام من المحار والعظام المكسورة لتشكل «بقايا مطبخ» حقيقية يصل حجمها إلى عدة أمتار مكعبة.

أما السبيلى ٣ فقد قصر نفسه على استخدام الظران والعقيق الأبيض calcédoine دون غيرهما. واصبحت النويات التى على هيئة قرص نادرة وحلت محلها النويات ذات السطحين المتقابلين الصالحين للطرق. وأخذت الأدوات تتطور فى اتجاه أدوات قزمية ذات اشكال هندسية «حقيقية»، ومرتبطة بتقنية الأزاميل القزمية. وظهرت بوفرة النصال والنصال الصغيرة المشذبة. وتطور التشذيب أحيانا إلى حز يبرز ساقا فيعطى لبعض القطع شكل أسنة رماح أحادية الجانب. والمباشر المصنوعة من الشظايا موجودة جنبا إلى جنب مع الأدوات القزمية المتماثلة. وقد وصلتنا ستة مواقد من هذا المستوى. أما «مخلفات المطبخ» فهى أقل بكثير بالمقارنة مع الطور الثانى وقد أمدتنا ببعض القطع من العظم المصقول «نتيجة عمل الإنسان ولكن أيضا بفعل الرمال» (Vignard, 1923) : إن سلامياً مثقوبا لحيوان من فصيلة البقريات (صِفَّارة؟) وأجزاء من أرحاء من الحجر الرملى وصَدَفة (Corbicula Consobrina) بثقبين، ولوحا مثقوبا من الظران، وإناءً صغيرا محفورا بالطبع فى الحجر الرملى ومازال يحمل اثار المغرة الحمراء، تلك هى القائمة الغنية للسبيلى ٣.

وبالنسبة لـ «فينيار» فإن المستوى الأول من السبيلى مشتق من الموستيرى Moustérién المصرى، وفى خط متواز مع أوروبا فإن جذوره تضرب أطنابها فى العصر الحجرى القديم الأوسط. وكان السبيلى ٢ يمثل الأورنياسى Aurignacien والمجدلينى Magdalénien والسولترى Solotérien والأزيلى Azilien . فى حين ان السبيلى ٣ هو المقابل للتردنوازى tardenoisien ، وهكذا ذهب «فينيار» إلى أن السبيلى كان يغطى مجمل الفترة الزمنية للعصر الحجرى القديم الأعلى الأوروبى، ليشكل جسراً نموذجياً بين الثقافات ذات التقاليد الليڤلوازية وحضارات الأدوات القزمية.

ولم تترك هذه الصياغة اى مكان لصناعات النصال التقليدية التى تعود إلى العصر الحجرى القديم الأعلى، وبالتالى فقد حرمت منها مصر.

ومع ذلك، فإن أعمال الچيولوچيين «بوتزر» Butzer و « هانزن» Hansen والچيولوچيين «هاينزلين» Heinzelin و «پاپيه» Paepe ، فى الستينات، قد القت الضوء على المتتالية المعقدة لدورة «الترسب – التحات» لنهر النيل. إن عدداً من عمليات التأريخ بواسطة الكربون ١٤ قد رسمت لوحة خلفية للتتابع الزمنى ، بدا فيها السبيلى وقد اتخذ ابعاداً مختلفة كل الإختلاف.

وفى قطاع وادى حلفا تعرف «ماركس» A.Marks على تسعة مواقع قد تعود إلى الطور الأول والثانى حسب «فينيار»، وقد تم تأريخها بواسطة الكربون المشع فأعطى فترة زمنية

تدور حول ١٢٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P . ويمكن القول استناداً إلى أسس استراتيجرافية ان اقدم هذه المواقع تعود إلى ٢٠٠٠٠ سنة مضت، ولكن ليس أبعد من ذلك، إذ تنتمى كل هذه المواقع إلى تكوين صحابا الذى يتميز برواسب من الرمل والطمى غنية بالصدف والقواقع ويتحدد تاريخها فيما بين ٢٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠ قبل الزمن الحاضرB.P.

وإذا أخذنا بعين الإعتبار هذا الفارق فى التتابع الزمنى يصبح من الصعوبة بمكان ان ينشأ السبيلى ١ من الموستيرى.

وإذ اتجه «وندورف» صعوداً إلى الشمال، على بعد حوالى عشرة كيلو مترات، من أبو سمبل، على البر الغربى، فقد قام بدراسة ثلاثة تجمعات سبيلية من قطاع بلانة. وقد امدنا الموقعان ٨٨٩٩ و ٨٨٩٨ بشظايا عريضة من الحجر الرملى ناتجة عن نويات قرصية الشكل مع كميات محدودة من تقنيات ليڤالوا. كانت الأدوات تضم قطعا مشطوفة الزوايا وشظايا ذات ظهر وبعض الأزاميل القزمية وهى تشبه السبيلى ١ و ٢، حسب تصنيف ڤينيار، وكان الموقع ٨٨٩٩ يتكون من مستويين (أفقين) سبيليين استراتيجرافيين، وبفضله أمكن تحديد مكان السبيلى بعد الحلفاوى وقبل القادوى[٧]. ولكن يظل هذا الموقع، يعانى كل المعاناة من غياب أى تأريخ.

وفى اتجاه الشمال أيضا، وفى سهل دشنا، قرب قنا، كشف موقعان سبيليان يعودان إلى الطور الأخير من تكوين صحابا عن أدوات حجرية ضخمة، لها قرائن ليڤالوازية ملحوظة، وتلعب فيهما القطع المشطوفة الزوايا دور «الحفريات المرشدة» (Hassan 1972)

وعلى غرار النوبة، تنتمى هذه المجموعة إلى السبيلى ١ و ٢ – ولا سيما إلى الطور الأول.

وقد أمدنا الموقع E-71-P3 ، القائم بين إدفو وإسنا، ويرتبط على ما يحتمل بتكوين صحابا، أمدنا بمادة تشبه السبيلى ١ حسب تصنيف «ڤينياز»، مع وجود عناصر قزمية لا يستهان بها، رغم ذلك.

وعلى ضوء هذه الإبحاث الجديدة يبدو أن هناك أمراً مقرراً: التخلى عن السبيلى ٣ لحساب الصناعات التى تميل أكثر إلى القزمية الخالصة . ويدمجه «دون هنرى» Don O. Henry (1974) بكل بساطة فى السلسلى.

وقد ذهب البعض إلى أن منشأ السبيلى كامن فى الخارجى (الليڤالوازى فى الواحات الخارجة كما عرفته «كيتون تومبسون») . ولكن مثل الموستيرى فى وادى النيل يظل الفارق فى التتابع الزمنى كبيراً جداً! وقد عقدت المقارنة مع صناعة مماثلة، وإن أظهرت أدوات ذات وجهين: التشيتولى Tshitolien كما وصفه «كلارك» J.D.Clark (1970) بالنسبة لا نجولا

والموجود أيضا فى شمال الكونجو وفى الجابون، والذى يعود إلى حوالى ١٥٠٠٠ سنة مضت. ولكن المسافة الفاصلة بين المركزين الثقافيين كبيرة ولم نتوصل الى يومنا هذا إلى أى معلم يسمح بإعادة رسم الطريق الذى قد يربطهما.

ويبقى، رغم كل ذلك، أن السبيلية وهى صناعة خاصة بوادى النيل دون سواه، تظهر فى المنطقة الممتدة من وادى حلفا إلى قنا، بمظهر الدخيل، بما عرف عنها من ادوات حجرية ضخمة ذات أشكال هندسية، فتقنيتها تشبه تقنية ليڤالوا، مع وجود خافت ومتردد للأزاميل القزمية. ان الثقافات التى تزدهر فى الوادى فى الفترة من ٢٠٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P ، هى فى الأساس ثقافات الأدوات الحجرية القزمية.

فهل تجد هذه الأصالة تفسيرها فى خصوصية هذه الجماعات التى يرى فكرى حسن[٨] (Hassan, 1974, 219) أنها كانت تتكون من صيادى الثدييات الضخمة، وتنتقل بسهولة من مكان إلى آخر، إذا أخذنا بعين الاعتبار الحجم الصغير نسبيا للمواقع التى تم دراستها؟

أم يتعين علينا بناء على اقتراح «فرميرش» و «پوليسن» و «فان پيير»، العودة بالسبيلى إلى الوراء فى الزمان، تماما كالحلفاوى (الطور الثانى) والموقع E71 - P1 فى أدفو؟

وإزاء وجه هؤلاء العلماء بغموض عمليات التاريخ وعدم دقتها، حيث تستند فى الغالب على الترسب الكربوناتى والصدف (بفتح الصاد)، فقد اعتمدوا أكثر فأكثر على المعايير التقنية التيپولوجية، فقادتهم ظنونهم إلى وجود عصر حجرى قديم أوسط أكثر تعقيداً قد يمثل السبيلى والحلفاوى والإدفوى بمكوناته الليڤالوازية وجوانبه الدقيقة.

وذلك ما قد يفسر غياب كل تقنية ليڤالوازية فى صناعات العصر الحجرى القديم الأعلى فى وادى النيل.

إن وجودها الخافت فى ثقافات الأدوات القزمية فى وادى الكوبانية، التى أمكن تحديد تواريخها تحديداً دقيقاً، قد يبدو إذن وكأنه عودة إلى الظهور من جديد.

* * * *

وفى وادى الكوبانية، أوجد التراكم الكثبانى منذ ٢٠٠٠٠ سنه مضت ذراعاً كبيرا بحيث تكونت بحيرة، كانت تغذيها فى بداية الأمر فيضانات النيل، وطبقة المياه الجوفية بعد ذلك، وعندما تزايدت التكوينات الرملية، اصبحت البحيرة محرومة من مياه النهر.

وفى مثل هذه البيئة المواتية حط البشر الرحال فى أعلى الكثبان ، ليكونوا فى مأمن من الفيضان، أو فى السهل الغرينى حيث لم يقيموا فيه إلا بصفة موسمية، فى فصل الجفاف.

وعام ١٩٧٨ قامت « البعثة المشتركة لعصور ما قبل التاريخ » Combined Prehistoric

Expedition ، برئاسة «وندورف» بأول حملة تنقيب، فأماطت اللثام عن عدد من المواقع تزخر بالنصال التى اصبحت سحنتها العامة تعرف بـ «الكوبانى»، الذى تحدد تاريخه بدقة بواسطة الكربون ١٤ فيما بين ١٩٠٠٠ و ١٧٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P .

ان الكشف عن أرجاء وسط هذه الطبقات وإمكانية وجود حبوب مزروعة قد دفع البعثة الأمريكية إلى العودة إلى هذه الأماكن فى السنوات ١٩٨١ – ١٩٨٤.

وهكذا ظهر بوضوح للعيان وجود مواقع سابقة على «الكوبانى» بفترة قصيرة تم تحديدها وتعريفها عام ١٩٧٨، ومعها هيكل عظمى يعود إلى هذا الطور من تاريخ البشرية الذى يتراوح بين ٣٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P .

وتتميز هذه المواقع التى تعود إلى الطور القديم من الكوبانى (E - 81 - 3 , E - 81 - 4) بشيوع استخدام الكوارتز: وتشكل النويات ذات السطح الواحد المعد للطرق، نصف عمليات تصنيع الأدوات الحجرية. ويتكون مركز ثقل الأدوات من النصال الصغيرة ذات الظهر المشذبة مثل الـ «أوشتاتا» والمخاريز من النصال ذات الحافتين المائلتين والرُقَض والأدوات المسننة، إلى جانب قطع تكسرت بصلتها. وبفضل العديد من عمليات التأريخ بواسطة الكربون ١٤، أمكن تحديد زمن هذه الصناعة التى تبرز من الناحية التيبولوجية أوجد شبه مذهلة مع الفاخورى الذى قام «لوبل» D. Lubell (1971) بتعريفة استناداً إلى مواقع ضواحى إسنا، وأمكن تحديد هذا الزمن فيما بين ٢١٠٠٠ و ١٩٠٠٠ سنة قبل الزمن الحاضر B.P . ورغم أن التواريخ التى حددها الفاخورى هى أقرب عهداً ١٨٠٢٠ ± ٣٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P و ١٧٩٥٠ ± ٣٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، إستناداً إلى الصدف «أونيو» Unio وأن التكنولوجيا مختلفة (أهمية الإنتاج الثنائى القطب)، يميل بعض الباحثين إلى ضمه إلى سحنة الكوبانى القديم.

ومن بين الحقول الثمانية التى تم رصدها ودراستها عام ١٩٧٨ والتى تشكل *الكوبانى* الكلاسيكى فقد حددتها جميعاً عملية تصنيع النصال على النويات ذات سطح الطرق الواحد أو ذات سطحى الطرق المتقابلين وأدوات تغلب عليها النصال المشذبة بأسلوب «أوشتاتا». إن القطع التى تكسرت بصلتها نادرة بل غير موجودة على الإطلاق، ما عدا فى الموقعين E - 78 - 2 و E - 78 - 4 حيث ترتفع نسبتها إلى حد كبير. إن المباشر المصنوعة من الشظايا والقُرضى والأدوات المسننة موجودة بكميات لا يستهان بها، إلى جانب بعض الأزاميل.

ويشكل صوان[٩] حصى النيل والوديان ٨٠٪ من المادة الأولية المستخدمة أما الـ ٢٠٪ المتبقية فتتكون من الخشب الحفرى والظران[١٠] والعقيق الأبيض calcédoine والعقيق

اليمانى agate والجرانيت والحجر الرملى والبازلت. وإن كان الظران محدود فى عمليات تصنيع الأدوات الحجرية، فيبدو إنه قد أحضر على هيئة نواة سبق إعدادها من أجل صناعة بعض الأدوات الخاصة: شظايا ليفلوازية وحلفاوية وأزاميل. لأن هذه التقنيات تعود إلى الظهور فى هذه الإستخدامات المحدودة. إن نسبها مرتفعه نسبيا فى الموقع E- 78 - 2، حيث تقترب نسبها الكبيرة من نسب القطع التى تكسرت بصلتها التى سبق الإشارة إليها. ونسبها محدودة فى المواقع E-78 - 3 و E-78 - 9 و E- 78 - 4 . ان ظهور هذه التقنيات من جديد فى وسط تسود فيه الأدوات القزمية تلحظة فى إسنا – الموقع E-71 - K -13 – حيث استخدمت الشظايا الليفالوازية كخام للأزاميل!

وكانت ستة مواقع من بين ثمانية تحتوى على أرحاء من الحجر الرملى. ومجموعها ٣٤ رحىً ثابتة و ٣٢ حجر سحن موزعة على محلات الإقامة المرتبطة بالتكوينات الكثبانية.

ولا يشكل وجود أدوات للسحن، حدثاً فريداً فى حد ذاته. فقد سبق أن لوحظ وجود كسف أرحاء فى السبيلى فى كوم أمبو، مرتبطة بالمغرة، وفى القلح. ومع ذلك فإن أهميتها العددية وتحديد مكانها يعطيها هنا أبعادا جديدة.

ورغم ان الأدوات الحجرية متجانسة، فإن الوضع الاستراتيجرافى للحقول أو الطبقات وبقايا الفونة قد سمحت باستخلاص مجموعتين تفصل مواقع الكثبان عن مواقع السهل الغرينى.

المواقع الأولى، فى مأمن من الفيضان وتبدو وكأنها أماكن مرتفعة مخصصة للصيد النهرى: كانت البحيرة تغمرها المياه فى موسم ذروة الفيضان (أغسطس – ديسمبر) وتعج بالأحياء المائية وبالأسماك التى تجد نفسها محاصرة ومعزولة عند انحسار المياه فيسهل صيدها. وفى هذا الصدد، فإن كثرة عظام الأسماك، تتحدث عن نفسها. وقد برهن «فان نير» W. Van Neer (1986) أن الصيد النهرى كان يتم أيضا عند بداية الفيضان عندما يأتى سمك القرموط "Clarias" ليضع بيبضه فى المياه القريبة من الشاطىء. ومما هو جدير بالإهتمام، أن وجود الرؤوس اذا ما قورن بالهياكل العظيمة التى بلا رؤوس، يشهد على أن فصل رأس الأسماك كان يتم فى هذا المكان، ثم يجفف السمك ويدخن لينقل بعد ذلك ليستهلك فى مكان آخر، فى مناطق لم ينجح الباحثون فى التعرف عليها، رغم ما بذلوه من جهود . هذا النشاط الذى ثبت وجوده فى مواقع E-71-K1 و E-71-K3 فى إسنا وفى المخادمة ٤، يمثل الخطوة الأولى نحو شكل من أشكال التخزين المرتبطة باستخدام الأرحاء على نطاق واسع وهو الاستخدام المتعلق بالدرنات أو العساقل[١١] إن هذا النشاط لأفراد الكوبانى، يضعهم على بداية طريق تقاليد «الصيادين – جامعى – وخازنى الطعام» الفنية بنتائجها.

وبالرجوع إلى انواع الطيور التى عثر عليها، يعتبر صيد الطيور نشاطاً شتوياً، إذ تأتى جميعها مهاجرة إلى صعيد مصر فى أشهر الشتاء. وفى المقابل، فالطيور التى تم ملاحقتها عبر السهول كانت قليلة. وبالفعل لا تضم هذه المواقع سوى القليل من عظام الطـيور، وقليل من الأسماك بالمقارنة مع قطاع الكثبان. ويشـهد وجود الجـاموس (alcelaphus buselaphus) ونوع من الأبقار الضخمة القديمة (bos primigenius) والغزلان (gazella rufifrons) لصالح أنشطة منصبة على القنص، وربما ازدادت هـذه الأنشطة فى الموسم الذى تترك فيه الحيوانات مناطق الصحراء القليلة الإرتفاع، بعد أن سادها الجفاف لترتوى على مقربة من النهر.

وهكذا، فإن العشرين متراً من إرسابات وادى الكوبانية، تتيح لنا أن نتتبع مسار وقائع حياة هذه الجماعات ونشاطها فى «**صيد البر و صيد النهر وجمع الطعام وتخزينه**»، على نحو من الدقة، لم تعهده، فى غيره من الأماكن. وقد تأقلمت هذه الجماعات، على نحو يثير العجب، مع ظروف بيئتها التى كانت تتغير بانتظام. وكان افرادها شبه مقيمين إقامة دائمة فى مواقع لا تبعد كثيراً عن بعضها البعض.

كان تنوع مصادر التموين (صيد الثدييات الضخمة والطيور والصيد النهرى وجمع الغذاء والتقاطه) يسير جنبا إلى جنب مع عملية التخزين.

لقد أو ضح «تستارت» A.Testart (1982) فى الدراسة التى خصصها للقنا صين - جامعى الطعام مدى تباعد المنتج المختزن عن منتجه (بكسر التاء). فالخيار القائم على إرجاء استهلاك منتج ما إنما ينطوى على حدوث تحول إيديولوجى واجتماعى. ويلاحظ وجود تغيير فى العادات (P.45) ، والتخلى عن قاعدة التقسيم أو تطويرها، وتغيير فى الموقف من الآخرين، وتراجع الإعتماد على وشائج القرابة أو المصاهرة أو الصداقة عند تأمين المستقبل، وتغيير فى الموقف من الزمان، وتزايد أهمية الماضى، أى الخيرات التى سبق تكديسها، بالمقارنة مع الحاضر من أجل ضمان الإعاشة، وتغيير فى الموقف من العمل، مع هيمنة العمل المخزون (الميت)، بالمقارنة مع العمل الحى، وتغيير فى الموقف من الطبيعة، والإقلال من الإعتماد عليها، كأعظم مصدر للطعام، مع تزايد الإعتماد على عمل الإنسان.

لقد حدث مثل هذا التحول دون أى تغير يذكر فى الآلات الحجرية، ماعدا الأرحاء. وكانت النصال هى السائدة من موقع لآخر، وقد قطعت من نفس النوع من المادة الأولية. ان الموقعين E - 78 - 2 و E - 78 - 4 وحدهما هما اللذين يعكسان النسب لصالح القطع المصنوعة من كسر العظام، التى لا توجد فى أماكن أخرى وتسبغ الدوائر المصنوعة من كسر بيض النعام قدراً من الأصالة على الموقع E - 78 - 4 ، فقد لوحظ أن وجودها قد ادخل اهتمامات ومشاغل بعيدة عن دائرة توفير مقومات الإعاشة أو القيام بأود الأفراد.

وتم التحقق من وجود بقايا نباتية فى هذين الموقعين، كما كانت من الوفرة بمكان فى الموقع E - 78 - 4 ، كخشب شجر الإثل والسنط (واسمه العلمى Salsola baryosma)) .

* * *

وفى أكتوبر ١٩٦٢ وأبريل ١٩٦٣، عاد فريق «سميث» P.E.L. Smith الكندى إلى تعقب خطى «فينيار» فى سهل كوم أمبو.

ففى المجرى الأدنى من وادى شعيت[١٢]، على مقربة من جبل السلسلة استطاع ان يميط اللثام عن موقع استراتيجرافى (طباقى)، ذى أفقين (مستويين)، أطبقت عليه إرسابات لاحقة من النيل G.S. III .

ولاحظ الباحث وجود صناعة قزمية، عند القاعدة، مرتبطة بتقنية الأزاميل القزمية: إنه السلسلى الذى يتميز بأوجه شبه ملحوظة مع صناعة قام «وندورف» (855 - 831 , 1968) بالتعرف عليها فى النوبة، على بعد حوالى خمسين كيلومترا إلى الشمال من وادى حلفا: البلاّنى[١٣]. وتظهر المثلثات و أشباه المنحرف إلى جانب الأزاميل.. ولكن الآلة الأكثر شيوعاً هى قطعة مدببة مستخرجة من نصل أو نصل صغير، وأحد ظهريها مائل كلياً أو جزئياً. ولا وجود قط لتقنية ليڤالوا. والنويات هى صغيرة الحجم فى الغالب، وثنائية القطب، وقد صنعت من حصى العقيق الأبيض أو العقيق اليمانى أو اليشب أو العقيق الأحمر.

والعديد من التجمعات القائمة على السطح تتفق من الناحية التيبولوجية مع هذه الصناعة.

ونظراً لافتقارنا إلى دراسة منشورة تلم إلماماً شاملاً بهذا الحقل (الطبقة) الذى يحمل اصطلاحاً نفس الإسم ، فعلينا أن نرجع إلى الدراسة التى أصدرها «فيليبس» J.philips و «بوتزر» K.Butzer (1973) من الموقع القائم على السطح G.S. 2 B. II فى سهل كوم أمبو والدراسة (Wendorf, 1976: 269 - 272, Fig 181 - 183) حول الموقع E - 71 - K - 20 فى ضواحى إسنا. وتتميز مجموعة الآلات بوفرة النصال المشطوفة القاعدة ونصال صغيرة ذات ظهر وتقنية الأزاميل القزمية التى تعود إليها الأسنة التى تعرف اصطلاحا بالمياوية[١٤] *وهى نصال صغيرة إحدى حافتيها مائلة ومشذبة شذبا شديد الإنحدار ينتهى بشوكة ثلاثية أمامية أو خلفية* (Tixier, 1963, 106) وكثيرا ما نلتقى بها فى الحقول الإيبرمغرية iberomaurusiens فى شمال إفريقيا.

إن الفونة المشتركة المكونة من القرموط والبط أبو ملعقة والأوز والحمار الوحشى وفرس النهر ونوع من الأبقار الضخمة المندثرة والغزلان ونوع من البقر الوحشى (نقلا عن

(Churcher, 1972) تشير إلى اقتصاد قائم على الصيد البرى والصيد النهرى، وكان موقع G.S.2B. II قائما فى مجرى مائى ضيق قديم متصل بالنيل، ومن الراجح ان الإقامة فيه كانت خلال جانب من العام، إبان الموسم الجاف.

وعلى بعد ٢٥ كيلو متراً، هبوطاً فى النهر، إلى الشمال من نجع حمادى، يمثل موقع عرب الصحابة الذى قام «فرميرش» (1985) بدراسته، أقصى التمركزات من «النمط السلسلى» تطرفاً ناحية الشمال، والتجمع عبارة عن حقل سطحى، عند قمة مدرج من الطمى، ويتميز بأنه يميل بشدة إلى استخدام الآلات الحجرية القزمية (وطول القاطع يقل فى الغالب عن ١٥ مليمترا) مع هيمنة النصال الصغيرة ذات الظهر، المدببة فى الغالب والقطع المشطوفة القاعدة. وتبرز بعض الآلات القزمية «الحقيقية» على هيئة مثلث مختلف الأضلاع، إلى جانب النصال أو النصال الصغيرة ذات القاعدة المشذبة أو المستديرة أو على هيئة قوس قوطى. ان تقنية الأزميل القزمى واضحة كل الوضوح فى هذه المجموعة التى لا تعرف تصنيع الأدوات الحجرية الليفالوازية. ولا يوجد موقد واحد ، أو بقايا فونة تساعدنا على تقدير اى تتابع زمنى بدقة، حيث انه لايعتمد هنا سوى على التقنية التيبولوجية.

إن خمس عمليات تاريخ بالكربون المشع أجريت فى النوبه، على فحم الخشب، قد قدمت تقديرات تتراوح بين ١٨٠٠٠ و ١٦٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P ، فى حين قدم لنا تاريخ على فحم الخشب فى منطقة كوم أمبو تقديرات تعود بنا إلى ١٥٣٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P وتأريخ آخر على صدفة «أونيو» Unio وصل بنا إلى ١٤٤٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P . ويسلم «فرميرش» (1991, 3) بما يلى: «فرغم أن التواريخ غير متوافقة، إلا أنه يبدو ان هذه الصناعة قد تعود إلى فترة زمنية تتراوح من ١٦٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P.

* * *

وفى ضواحى إسنا، وبمحاذاة بحيرة حفرية ربما كانت مرتبطة مع تكوين «الصحابة - دراو» فان التجماعات الستة التى تضم الأدوات الحجرية التى قام « ونـدورف » (1976, 280 - 7) بدراستها . كانت الأصل الذى نشأت عنه «العافى»، عن اسم قرية «توماس عافية» Thomas Afia الواقعة على مقربة منها.

ونلتقى بهذه الصناعة فى كوم أمبو (GS - 2B - I) حيث توجد الأرحاء، بالإضافة إلى ذلك، وأيضافى وادى الكوبانية (E - 83 - 4) . أما صناعة المخادمة ٤ فهى قريبة الشبه منها.

أما النويات فهى فى معظمها ذات سطوح متقابلة معدة للطرق لانتاج الشظايا المستطيلة والنصال الصغيرة(٥٠٪). وتحمل بعضها آثار بعض المعالجات التى تذكرنا بالليفالوازى. ومع ذلك فان النويات الليفالوازية «الحقيقية» موجودة أيضا (٢٠٪)، ولكنها من نمط متفرد يطلق عليه اصطلاحا «الليفالوزى المقوس» "Bent Levallois" الذى يعطى شكلاً مقوساً لتصنيع الأدوات الحجرية.

ونصيب الأسد لهذه الآلات يخص الشظايا القزمية والنصال الصغيرة ذات الظهر. إن العافى هو صناعة الآلات القزمية ذات الأشكال الهندسية (مثلثات مختلفة الأضلاع وجزء من دائرة)، تلعب فيها تقنية الأزميل القزمى دوراً بارزاً ويوحى بوجود مرحلة معروفة تطورت إبانها، مختلف الآلات.

إن عملية تأريخ واحدة أجريت بواسطة الكربون المشع على الفحم واثنتين على الصدف، قد حددت تاريخا لكوم أمبو يتفق و ١٣٠٠٠ سنة تقريباً قبل الزمن الحاضر B.P وهو ما يبرهن على صحة عشرات عمليات التاريخ التى اجريت على الكربون والتى تحدد للمخادمة ٤ تاريخاً يقع بين ١٣٥٠٠ و ١٢٥٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P .

* * *

وقام «شينر» J.L Shiner (1968, 535 - 629) بدراسة ستة عشر تمركزا قادياً (موقع ينسب إلى قادى). والمقصود بذلك، صناعة قائمة على آلات قزمية من الشظايا، صنعت فى معظمها تقريبا من حصى النيل. ان السمة الأساسية للقادى هى وجود آلات على هيئة جزء من دائرة. وهذه الآلات القزمية الهندسية لها على حد قول «تيكسيه» J.Tixier (1963, 129) الملمح الإطارى لجزء من الدائرة أو نصف الدائرة، ويتم اعداد قوسها نتيجة شذب شديد الانحدار، فى حين ان وترها هو جزء من الحد القاطع المستقيم غير المصقول.

إن اللمعة lustre المرتبطة فى الغالب بأجزاء الدائرة هذه، إلى جانب وجود عدد كبير من الأرحاء على أرض الواقع فى الموقع 8095 فى توشكا، ليبرهن على الدور الذى لعبه جمع والتقاط النجيليات البرية فى الإقتصاد منذ ١٤٠٠٠ سنة قبل الزمن الحاضر B.P .

ويفرق «شينر» بين ثلاثة أطوار لشغل الموقع، يمثل كل طور منها ثلاثة أو أربعة تجمعات، قد تمتد لزمن مديد عبر آلاف السنين بدءاً من ١٤٠٠٠ وحتى ١٢٥٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P ، وهو العصر الذى انضمت بعض شقف الفخار إلى الأدوات الحجرية، مبشرة بالثقافة التالية: وهى الأبكية[١٥]. وإذا كان يبدو أن التقديرات التى تعود بنا إلى أبعد حد إلى الوراء فى الزمان، يؤكد صحتها الموقع المشابه فى وادى الكوبانية E-78-10 ،

الذى يعود تاريخه إلى ١٢٥٠٠ قبل الزمن الحاضر، فإن التطور المديد الذى استشفه «شينر» مازال يحتاج إلى ما يؤيده تأييداً قاطعاً.

* * *

فلنعد إلى ناحية إسنا لتلفت النظر إلى إحدى الصناعات وهى **الإسنوى** الذى يتميز على غرار **السبيلى** بآلاته الضخمة فى وسط تسوده الصناعة القزمية بكل وضوح. إن تاريخه الذى تحدد بـ ١٢٥٠٠ سنة قبل الزمن الحاضر لا يستند سوى إلى ارتباط المواقع السطحية بتكوين صحابة - دراو.

لقد جادت لنا ثلاثة قطاعات تشغل مناطق إسنا ونقادة وسهل دشنا - جادت بأدوات خشنة، ناتجة عن زلط من الظران من تكوينات حجر جيرى **إيوسينى** من مرتفعات النجد الطيبى.

إن النويات التى يتجاوز حجمها فى الغالب سبعة سنتيمترات تتخذ شكلا كرويا الناتج عن عملية تصنيع الشظايا الضخمة. ان النماذج ذات السطح أو السطحين المعدين للطرق، والنصال أيضا نادرة. ان المباشر الضخمة الناتجه عن معالجة الشظايا شديدة الانتشار هى الفُرض والآلات المسننة. اما النصال الصغيرة فإنها نادرة، إن لم تكن غير موجودة على الإطلاق. ومن الملاحظ وجود بعض أجزاء، أرحاء فى وسط تتألق فيه الفونة السمكية نظرا لندرتها (لم نعثر على بقايا الاسماك سوى فى موقع واحد)، ولكن حيث نلاحظ ان ١٥٪ من القطع المصقولة تحمل على حدها القاطع اللمعة المميزة التى تسببه سيقان النجيليات عند قطعها. وجدير بالملاحظة وجود لوحة صغيرة من الظران حفرت على سطحها خطوط أوحى تكوينها إلى من اكتشفوها، أنها تصور رأس فيل!

* * *

وقد عثر «سميث» P.E.L. Smith فى قطاع جبل السلسلة على آلات مماثلة «للإسنوى». ومما هو جدير بالملاحظة وفرة المباشر (٥٦،٥٪) وسط مجموعة من النصال والشظايا، بلا أدوات قزمية، وقد اطلق عليها **المنشاوية** نسبة إلى قرية المنشية الواقعة فى سهل كوم أمبو والتى سبق لـ «فينيار» ان لاحظ وجود مثل هذه التجمعات على مقربة منها ونشر عنها دراسة.

ونظرا لافتقارنا إلى دراسة متعمقة - فالتقرير المبدئى (Smith, 1967) لم يفرد سوى ما يقرب من عشرين سطرا خصصت للصناعة - يصبح من الصعب أن نقف على «الوزن الثقافى» الحقيقى للمنشاوية.

والشىء نفسه يقال عن **السبيكية** وهى مستوى إشغال لم يتم تعريفه تعريفا جيداً ويقع التجمع السلسلى فى G.S.III ‏(Smith, 1966, 1976) .

* * *

وفى المقابل، كانت مواقع **المخادمة** فى قطاع قنا، محل استقصاءات متوسعة من جانب علماء الأركيولوجيا البلجيك (Vermeersch, 1989, 87 - 114) .

إن تداخل مدرجات النيل وإرسابات الوديان قد كونت شكلا خارجيا معقداً تندرج فى إطارها مواقع المخادمة ١ و٢ و٣ و٤ و٥.

إن المخادمة ١ ، وكان «وندورف» قد قام بالتنقيب فيها، فى زمن سابق، تمثل من حيث وضعها الاستراتيجرافى ومن الناحية التيبولوچية، اقدم المواقع محل الدراسة. (الموقع 6104 - Wendorf, 1976) . وفى عامى ١٩٨٣ و ١٩٨٤ قام الفريق البلجيكى بأعمال التنقيب فى موقعى المخادمة ٢ و ٤، الواقعين عند منتصف منحدر إرسابات أحد الوديان.

وفى المخادمة ٢، حيث المادة الأركيولوچية موزعة على مجمل المساحة التى تم الكشف عنها، بلا تمركز واضح، تم التعرف على ثقبى وتدين وموقدين. ان الأدوات الحجرية (٢٠٠٠ قطعة على وجه التقريب) وقد صنعت من حصى المدرجات، الغنية بالصوان، توفر لنا انتاجاً من الشظايا والنصال صنعت من نويات ذات سطح واحد معدّ للطرق (٦٦٪). والآلات محدودة(٤٦)، وهى أدوات مسننة فى المقام الأول، ومصنوعة من النصال (٩) ومن الشظايا (٧) ومقاشط - مسننة (٨).

وفى المخادمة ٤، حفرت العديد من الحفر، تخترقها أحياناً ثقوب أوتاد. وتتكون الطبقات الأركيولوچية من مواد ناعمة مترسبة تميل إلى اللون الأسمر الناتج عن الرماد والفحم وإرسابات الطمى الأسود. وعلى غرار المخادمة ٢ يكوّن حصى المدرجات المادة الأولية المستخدمة. والنويات ذات السطح الواحد المعد للطرق لها الغلبة وسط انتاج من النصال والشظايا. لقد تم توزيع ١٦٨ آلة (القطع المشذبة تشذيباً متصلا لم يتم استبعادها من الحصر) - تم توزيعها على ٣٦ مجموعة، وعلى رأسها الأزاميل (٣٧٪). إن مجموعة النصال الصغيرة ذات الظهر ممثلة ببعض العناصر غير النمطية، والشظايا أكثر من النصال الصغيرة. وهناك بعض المجموعات الهامة: الرفض والأدوات المشطوفة الأركان. والأدوات الحجرية القزمية الهندسية نادرة، وهى على هيئة شبه منحرف وجزء من دائرة ومثلث. إن تقنية الأزاميل القزمية لا وجود لها على الاطلاق.

وتقودنا دراسة الفونة إلى تفوق الدور الذى يلعبه الصيد النهرى على غيره من الأنشطة

فى اقتصاد هذه المواقع. ان ثلاثة أشياء من العظم المصقول، ذات طرفين مدببين ومقطع بيضاوى، يمكن النظر إليها على أنها شصوص. ومن بين الأسماك التى أمكن التعرف عليها، يحتل القرموط نصيب الأسد . والثدييات أقل بكثير: الأرانب البرية وافراس النهر وانواع من الأبقار الضخمة المندثرة والظباء، ومن بينها آكله اللحوم الصغيرة وبقايا كلاب الماء. ان وجود صدفة كائن بحرى من صنف مَعديَات الأرجل[١٦] (واسمه العلمى Engina mendicaria) يكشف عن وجود علاقات مع البحر الأحمر.

إن تحديد سبعة تواريخ بواسطة الكربون ١٤ من خلال فحم الخشب يسمح بتقدير زمن شغل هذه الأماكن بفترة تتراوح بين ١٢٤٥٠ و ١٢٠٥٠ سنة قبل الزمن الحاضر B.P .

وتقع الخادمة ٢ و ٤ بعيداً عن الفيضانات المدمرة لنهر «النيل المتوحش»، وقد شبههما العلماء البلجيك «بمزارع الحلزونيات»[١٦] فى شمال إفريقيا، ولكن هنا قد تقوم الأسماك مقام «الحلزون»، وتولى هذان الموقعان استثمار موارد النهر استثمارا حقيقيا. وتفيد دراسة الفونة السمكية التى تولاها «ڤان نير» W. Van Neer أن نسبة القرموط فى الأسماك ٩٩٪ فى الخادمة ٢ و ٣٠٪ فى الخادمة ٤ حيث يغلب فيها السمك البلطى بنسبة ٦٨٪. وهذا النوع الأخير من الأسماك يفضل المياه العميقة التى يتوفر فيها الأوكسجين، فى حين يعيش القرموط فى الترع والقنوات الضحلة. وبالتالى، فإن ارتفاع نسبة السمك البلطى فى الخادمة ٤، يجد تفسيره فى أن أعمال الصيد كانت تتم فى موسم ارتفاع منسوب المياه التى تغمر السهل الغرينى. ومع ذلك، فإن وضع الموقعين فوق المنحدرات كان يساعد على امتداد موسم الصيد، فتبقى المياه لأطول مدة فى البرك والمستنقعات التى تتكون مع انحسار الفيضان. عندئذ تقع القراميط فى الأشراك. ومن الواضح أن الأسماك كانت تجفف وتُدخن، كما يتضح ذلك من ضخامة كميات فحم الخشب. ألا يمكن أذن النظر إلى وتدى الخادمة ٢ باعتبارهما جزءاً من المجموعة المحتملة لمنطقة التجفيف؟

إن مواقع الخادمة قريبة الشبه من «العافى - السلسلى» حيث تسود الأدوات المشطوفة. ومع ذلك يتردد الباحثون البلجيك على المستوى التيپولوچى، فى دمج هذه الأنشطة الموسمية والمتخصصة فى كبرى المجموعات التى سبق تعريفها حتى الأن.

* * *

وهكذا، وصلنا على مقربة من سنة ١٢٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P ونحن نتعقب «أفواجاً» من الجماعات الصغيرة المكونة من «القناصين – الصيادين – جامعى الطعام» الذين يتنقلون فى أضيق الحدود نسبياً، وإن كانوا لا يزالون يستمدون ما يلزمهم من بروتيين من قنص الثدييات الضخمة، وكانوا «يضغطون» أكثر فأكثر على بيئتهم الصغيرة

بفضل الاستغلال المكثف للموارد المائية، والإتجاه الواضح نحو التخزين وجمع النجيليات البرية، على نفس القدر من التكثيف.

ولا تعكس مصطلحات مثل «الحلفاوى»، و «السبيلى، و «القادى»، وما شابه ذلك – لا تعكس سوى نوعية الأدوات فى منطقة محددة. إنها نوعية ثقافية أو وظيفية، ولكنها تندرج فى إطار أكثر رحابة من الثقافات التى تميل الى الصناعات القزمية التى مازالت تحتفظ بمكونات ليفلوازية، على قدر ما من الأهمية. ومن وجهة نظر اخرى، كان فى الإمكان ان تعيد تصنيف هذه المجموعات تحت عدد محدود من المسميات.

لاحظ فكرى حسن (1980) فى دراسته حول مساحة المواقع أن متوسط المحلات كان يتراوح فى الفترة من ١٨٠٠٠ إلى ١٦٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P بين ٤٠٠ و ٨٠٠م٢. وفى غضون الألفى سنة التالية، تعاظمت من ٨٠٠ إلى ٢٥٠٠م٢ لتصل إلى حوالى ١٢٠٠٠م٢ خلال فترة، كانت تسير على ما يبدو فى خط مواز للتطور المتزايد للأرحاء، أو ما يعادل الفترة الممتدة من ١٤٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P .

وإذا كان من المتفق عليه، أن المتوسط العام للمساحة من ٢٠ إلى ٤٠٠م٢ يعادل وحدة إشغال تتراوح بين ٥ و٤٠ فرداً، فان اكبر المواقع، التى تتميز بالأدوات المتجانسة، قد تقدم الدليل على أنه قد تكرر إعادة شغلها بصفة منتظمة، وموسميا على ما يظن. ومن الواضح ان عدد السكان قد أخذ فى التزايد باطراد خلال الفترة محل دراستنا، جنبا إلى جنب مع تسارع استخدام الدرنيات وعملية التخزين.

وتم لفت الإنتباه، بشأن وادى الكوبانية، إلى النتائج والدلالات الإجتماعية والأيديولوجية معا التى قد ينطوى عليها الاقبال على استهلاك منتج ما.

ومما لا شك فيه أن الأمان الذى وفرته تدابير التخزين، كان المحرك الذى دفع القوم إلى تكثيف أعمال التخزين، وجنبا إلى جنب مع هذا التكثيف ولنتيجة مباشرة له، زادت الموارد الغذائية المتاحة، فى نفس الوقت الذى كان الإنتقال إلى حياة الاقامة الدائمة[١٧] يخطو إلى الأمام.

ومع ذلك وسيتاح لنا أن نعود إلى هذه النقطة عندما نتناول بالدراسة العصر الحجرى الحديث - يبدو، أن الانتقال إلى حياة الاقامة الدائمة، سواء نظرنا إليها من الناحية الإثنولوجية أو من الزاوية الأركيولوجية قد لعبت دورا جوهريا فى زيادة عدد السكان. فالتخلى عن كثرة الإنتقال، قد ساعد على زيادة نسبة المواليد. فمن المؤكد فى حقيقة الأمر أن انتقال النساء المستمر سواء كن يقتفين أثر القنا صين أو أثناء قيامهن بجمع الطعام، قد استلزم فسحة من الوقت بين كل مولود وآخر.

وتؤكد جميع المعطيات التى تحت أيدينا على أن فكرة التكيف مع البيئة النيلية، ولانها ساعدت على إيجاد شكل من أشكال الإنتقال الجزئى إلى حياة الإقامة الدائمة وعلى تطور عملية التخزين - تؤكد أن هذا التكيف يقف عند بدايات عملية تطورية ممتدة، دخل وادى النيل عند نهايتها إلى ،حقبة، العصر الحجرى الحديث.

ولكن ما هى دلالة المنحى العام القاضى بالتقليل من طول الأدوات ومن أين يستمد أصوله؟

لقد ظهرت صناعة الأدوات القزمية كتعبير عن تقدم تكنولوجى عظيم الشأن، إذ انها عكست العلاقة بين المادة الأولية المتاحة والحد القاطع للأداة المستخدمة. إن الأداة التى تتفتت إلى أجزاء صغيرة تصبح مكونة من عدة عناصر وتنطوى على استخدام مواد خام من الخشب أو العظم. فبعض الشدف المثبتة فى مجرى مقبض تشكل منجلاً. وفى السنوات العشر الأخيرة، جاء التطور الذى حققه علم التراكيولوجيا traceologie ليساعد فريقا من «المركز القومى (الفرنسى) للبحث العلمى» CNRS فى التوصل إلى أن وجود المغرة بصفة مستمرة على الطرف غير الفعال لمجموعة من النصال **القفصية**[١٨] capsiennes الصغيرة (الألف الثامن - الألف الخامس قبل الميلاد) كان نتيجة الإحتكاك مع الخشب أو الجلد. وهى دلالة على وجود مقبض من الخشب ورباط من الجلد، فمن المحتمل ان أثر المغرة قد تركه الرباط عند تحلله أو استخدم على العكس، للاسراع من تجفيف الرباط ووقف عملية تحلله (S. Beyries et M . L . Inizan. 1982).

وبدءاً من التقليل من حجم الأدوات وصولا إلى الأدوات القزمية، التى تعرف إصطلاحاً بالقزمية «الحقيقية»، هناك الإنتقال من المادة الخام القزمية (شظية أو نصل صغير) الناتجة بحذافيرها من النواة وصولا إلى أجزا المادة الناتجة عن الشظية أو النصل أو النصل الصغير، وفى الحالة الأولى فإن القطعة سواء كانت مشذبة أم لا - تحتفظ باثار عملية الطرق. فى حين اختفت هذه الأثار فى الحالة الثانية، كما أن شطف زواياها قد أعطى أشكالا هندسية على هيئة شبه المنحرف والمثلث وأجزاء الدائرة. وعندئذ تبلغ الصناعة القزمية أوج دلالتها. فليس المقصود به هنا مجرد أداة فحسب، بل تقنية. لقد قام «تيكسييه» J. Tixier (1963, 39 et sq.) بدراستها وتعريفها تعريفاً دقيقا فيما يخص خواتيم العصر الحجرى القديم فى شمال افريقيا، وتقوم هذه التقنية على عمل ثلمة، فوق نقطة ارتكاز صلبة، وإحداث صدع مائل انطلاقا منها. إن الجزء الذى ينفصل ويسقط قد اتخذ - خطأ - اسم الأزميل القزمى، لانه يحمل أثار انحناء يذكرنا بالأزميل. إننا فى واقع الأمر أمام مخلفات أعمال الطرق، فقد كان قاطع الأحجار يركز كل همه فى معالجة الجزء الباقى فى يده، المدبب بسطوحه الثلاثة، فبعد معالجته بمختلف لمسات الشذب، سيوفر المادة الخام

العديد من الأدوات التى تشكل السمة الأساسية لهذه العصور. ولما كانت الأزاميل القزمية مدرجة فى عداد الأدوات وإن لم تكن ضرورية لمجموعة الأدوات الحجرية القزمية، فإنها تشير - دون مظنة خطأ - إلى ممارسة هذا الأسلوب فى قطع الأحجار وتساعد على تقييم أهميته.

إين يقع إذن المكان الأصلى الذى نشأت فيه صناعات النصال والأدوات القزمية هذه؟ فهيهات أن تكون محصورة فى حدود وادى النيل وقاصرة عليه، لانها السمة الأساسية فى الصورة العامة للثقافات المجاورة فى الشرق الادنى وشمال إفريقيا. أنها منتشرة من الفرات وحتى جبال الأطلس، على امتداد البحر المتوسط، وتغطى اعتباراً من عام ٢٠٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P ، مجمل القارة الإفريقية مع بعض التنوعات الاقليمية. ففى جنوب إفريقيا، كشفت صناعة «هويسونس پورت» Howieson's Poort عن انتاج من النصال الصغيرة وأجزاء الدائرة وأشباه المنحرف التي قد تعود إلى تاريخ سابق على ٥٠٠٠٠ سنة مضت (Clark, 1978) . وفى افريقيا الشمالية وفى قورنيائية[١٩] Cyrénaïque جاء الإيبرمعرى ibéromaurusien فى أعقاب العاطرى بعد انقطاع زمنى طويل. وبلا وسيط تتراكب نصاله الصغيرة ذات الظهر فوق الأسنة الليفلوازية ذات الساق. لأن نسبة النصال الصغيرة ذات الظهر كبيرة، إذ تصل من ٤٠ إلى ٨٠٪ من جملة الأدوات. ومن بينها تحتل أسنة الميا والتشذيب ،الأوشتاتا، نسبا متغيرة. وفى جميع الحقول توجد الأزاميل القزمية - وان كانت بكميات محدودة. أما الأدوات الحجرية الهندسية القزميه فهى ضئيلة فى الغالب وتقتصر على أجزاء الدائرة. أما القطع التى تكسرت بصلتها فهى موجودة بنسب متفاوتة وتلتقى بالأزاميل وهى قليلة جداً، وبالمباشر وهى قصيرة فى المعتاد ومعدة من الشظايا - تلتقى بها فى كل مكان، وان كانت بكميات محدودة. وجميع هذه الأدوات أعدت من حصى الظران ومن الحجر الرملى والكوارتزيت والصخور البركانية. والنويات صغيرة الحجم ولها فى الغالب سطح واحد للطرق. والعظام المصقولة تتخذ شكل المقدّ أو المصقلة أو الدبابيس أو المثاقب أو الشصوص أو المخارز. ومن حيث التتابع الزمنى يمتد **الإيبرمعرى** من الألف السادس عشر - وحتى الألف العاشر قبل الزمن الحاضر B . P (Camps, 1974, 68) إننا نشاهد على امتداد ستة آلاف سنة من الوجود قدراً من التطور (Camps 1974, 70 - 80) ولكن ارتداد مقومات الآلات القزمية وانعكاس تطورها لا أثر له على الإطلاق.

وفى كهف **هوافتيح**، فى قورنيائية، فإن **الوهرانى الشرقى** Eastern Oranian لـ «ماك بورنى» Mac Burney (1967) المعاصر **للإيبر معرى** يكشف عن نفس السمات المميزة: إذ ترتفع نسبة النصال الصغيرة إلى ٩٨٪.

الوهرانى الشرقى وموازٍ

إن الضبعى ، وهو سابق على

للعاطرى يكشف منذ وقت مبكر، حول عام ٤٠٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P – عن وجود نصال ونصال صغيرة ذات ظهر. وفى طوره الأحدث عهداً، الذى يمتد من ٣٢٠٠٠ إلى ١٧٠٠٠ سنة قبل الزمن الحاضر B.P يظهر ويتطور ما يقرب من ١٨٪ من الأدوات القزمية ذات الزاويتين المشطوفتين، لتقترب من شكل المستطيل، فى حين تتروح نسبة الأزميل من ١٨ إلى ٤٠٪.

أما فى الشرق، فقد سبق أن أشرنا إلى موقع «بوكرتاشيت» فى النقب، الذى يقف شاهداً فى السنوات القريبة من ٤٠٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B. P ، على الإنتقال من تصنيع الأحجار بالأسلوب الليفلوازى، إلى النصال، وهى تقنية أحادية القطب، تعود بكل وضوح إلى نمط العصر الحجرى القديم الأعلى (Marks, 1983) .

ويتميز الطور الأخير من العصر الحجرى القديم فى المشرق بمجموعتين : الأحمرى، الذى تطور إنطلاقاً من الموستيرى المحلى كما تم تحديده من واقع حقل فى صحراء الضفة الغربية من فلسطين، والعرق الأحمر الذى تسيطر عليه صناعة تمت فى العراء، خارج الكهوف، قوامها نسبة كبيرة من الأدوات المصنوعة من النصال. وباستثناء موقعين فى النقب، يتمركز الأورنياسى[٢٠] Aurignacien المشرقى فى الشمال، وتغلب الشظايا، على ما جاد به بالمقارنة مع النصال. وتظل المباشر والأزاميل تشكل نسبة تفوق الـ ٥٠٪، وتظهر بعض أسنه الوادى لاسيما فى المستوى رقم ٧ فى قصر عقيل، فى لبنان ويعود تاريخه إلى عام ٣٢٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B. P . (Inizan - Tixier, 1981, 360).

إن هاتين المجموعتين، اللتين تجمعان عدداً من المواقع ونفس القدر من التنويعات، أخذتا فى التطور دون انقطاع على امتداد الفترة من ٣٩٠٠٠ إلى ١٧٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P .

والتقاليد الأحمرية المتواترة هى وحدها الممثلة فى شبه جزيرة سيناء. فالمواقع التى تجمعت عند سفح جبل لقامة، على هيئة حقول صغيرة تتباين مساحتها من عشرة إلى مائة كيلومتر مربع، تتخذ هنا لنفسها اسم المواقع «اللقامية». وقد ساعد مناخ أكثر برودة وأكثر رطوبة بالمقارنة مع الوقت الحاضر، على تفجر عينى ماء – هما الآن حفريان وأصبحا نقطتى جذب للجماعات التى كانت تعيش فى هذه الأصقاع. إن الآلات الحجرية، التى تغلب عليها النصال الصغيرة التى عولجت بلمسات صقل، قد قدمت بعض أسنه «الوادى، والمباشر والأزاميل. ويتراوح تاريخ كل ذلك بين ٣٤٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P ، بفضل أسلوب التأريخ القائم على المواقد. وقد قام «فيليبس» J. (1987) Philips بدراسة هذا النوع من المحلات فى قادش برنيع الواقعة على بعد ١٠٠ كم إلى الشرق من جبل مغارة.

وحلت بعد ذلك حقبة جافة تشير إليها ظاهرة التحات فيما بين ٢٨٠٠٠ و ١٤٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P ، وتبدو موازية للطور الجاف فى شمال إفريقيا. ففى الشرق وفى الغرب، على حد سواء، افرغت الصحارى من سكانها. وعادت آثارهم إلى الظهور، حول عام ١٤٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P على هيئة تصنيع أدوات حجرية قزمية تعرف اصطلاحا فى المشرق باسم الكبارىّ (بتشديد الياء) الهندسى. ويشير الكبارىّ، بالمعنى الدقيق للكلمة أى غير الهندسى، إلى مجموعة من صناعات خواتيم العصر الحجرى القديم، لوحظ وجودها منذ ١٩٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P فى بلاد الشام وإن كانت متعددة السحنات Facies وتتميز بنسبة ضخمة من الأدوات الحجرية القزمية غير الهندسية (٨٥٪) على خلفية من انتاج النصال. وتكتمل القائمة ببعض المخاريز من العظم المصقول والأرحاء والمداق. وفى أعقابه، ومن ١٤٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ قبل الزمن الحاضر، B.P ، ظهر الكبارىّ غير الهندسى « ا »، حيث تعاظمت نسب الآلات الحجرية القزمية «الحقيقية» حتى بلغت من ٦٠ إلى ٨٠٪ من مجموع الأدوات.

وأينما وجد فى وضع استراتيجرافى ، نلاحظ انه يتراكب مع الكبارى . وفى «بيرود» ٣ Yabroud III وفى الخيام، نجد أنه اسفل الناطوفى وهى أولى الثقافات التى عرفت حياة الإقامة الدائمة وتأكد وجودها فى هذه المناطق، حول عام ١٢٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P.

وفى جبل مغارة نلتقى بهذا الكبارى الهندسى «أ»، مقترنا بأحراء فى لقامة الشمال «٨».

ان مجموعة من المواقع تجمعت فى وادى مشابية فى قطاع جبل مغارة أيضا، قد أمدتنا بصناعة نصال تستخدم إلى حد كبير تقنية الأزميل القزمى. ومن ١٤٠٠٠ إلى ١٢٥٠٠ قبل الزمن الحاضر تبرز النصال الصغيرة المقوسة ذات الظهر، وأسنة «الميا، وأشباه المنحرف غير المنتظمة مقترنة ببيض النعام والأصداف التى تذكرنا بالأنياب التى يطلق عليها «دنتاليوم» dentalium . هذه المجموعة التى يطلق عليها اصطلاحاً المشأبىّ (بتشديد الياء)، وتشبه الطور الأخير من الكبارى الهندسى، وهو الكبارى الهندسى «ب»، نظراً لوجود الأزاميل القزمية، ولكن الشىء الذى يميز الطور الختامى من الكبارى وهو جزء الدائرة، يظل غائباً.

ومن بين هذه الشبكة العريضة من صناعات النصال الصغيرة، تفردت مراكز عديدة: من حيث قدمها أولاً، ثم لانها توضح الإنتقال من صناعة إلى أخرى، ثانياً. ونشير هنا إلى «هويسونس پورت» Howieson's Poort ، فى جنوب إفريقيا، وربما كانت أقدمها، وإلى «بوكر تاشيت» Boker - Tachitt ، فى النقب، وإلى الأحمرى فى المشرق، وإلى الضبعى فى

قورنيائية الذى أدخل النصال والنصال الصغيرة على تقاليد متواترة ليفالوازية موستيرية راسخة، وإلى السبيلى فى مصر الذى ظل يستخدم الاسلاوب الليفالوازى، وان أخذ منذ ذلك الوقت، بلمسات الشذب الحادة وتقنية الإزميل القزمى، وإلى الحلفاوى، فى زمن يدور حول ١٩٠٠٠، والذى يضم نسبة كبيرة من النصال الصغيرة ذات الظهر والشذب بأسلوب «أوشتاتا» إلى جانب التقاليد الليفالوازية. وفى إطار هذه المجموعة يظهر الإيبرمعرى على أنه من السحن التى تأخر ظهورها بالمقارنة مع غيرها.

واقترح «تيكسييه» (J. Tixier (1972) ، أن ينظر إلى شمال السودان بصفته أحد المراكز الأساسية للتمايز الملحوظ الذى نشأت عنه صناعة نصال شمال إفريقيا القريبة الشبه إلى حد كبير بأواخر العصر الحجرى القديم فى صعيد مصر. وهنا، يصبح أيضا فى وسعنا أن ندرك إلى أى مدى تحتاج أوضاع التتابع الزمنى غير المستقرة للسبيلى إلى تحديد دقيق، وان كان لايسعنا أن ننكر أصالة التقنيات الحلفاوية فى تطور خام أو ركائز الأدوات القزمية!

وتظل نقطة مثيرة للقلق ألا وهى الفراغ الأركيولوجى الذى تعانى منه مصر الوسطى والوجه البحرى. فلما كانت دلتا النيل منطقة عبور بين المشرق وشمال إفريقيا، يستحيل الإلتفاف من حولها، فقد لعبت على ما يعتقد دوراً جوهرياً فى تطور ثقافات الأدوات الحجرية القزمية. ويذهب البعض إلى ان ازدهار المشابى فى سيناء تعود أصوله إلى الدلتا.

كان وادى النيل مركز تمايز وتباين، فى الجنوب، ومنطقة اشعاع فى الشمال، وقد اندمج فيما بين ٢٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P ، فى عملية تقنية ثقافية كبرى، كان يشكل على ما يبدو، أحد محركاتها الأساسية.

وقد حدث حول عام ١٢٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P تغير ملحوظ فى المناخ: عودة هطول الأمطار، كفاتحة منذ ١٤٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، «لعصر الرطوبة الأعظم الذى يتفق وبدايات الهولوسين ، من ١٢٠٠٠ حتى ٧٥٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P (لوحة ١ ب).

ومن ثم سيعود الناس تدريجيا إلى شغل أصقاع سواحل شمال افريقيا والصحراء الكبرى التى كانوا قد هجروها، من قبل.

ومن المفارقات، أن يحدث إبان هذا العصر، على وجه التقريب، وهو يتفق ونهاية الفيضانات المدمرة «للنيل المتوحش»، أن يختفى من وادى النيل أى أثر للمحلات التى يشغلها البشر، أو يكاد.

فقد كشف «بوتزر» K B K.Butzer (1980) عن وجود فيضانات خرجت عن المألوف، بلغت من ٨ إلى ٩ أمتار فوق مستوى السهل الحالى، وقد تميزت بارسابات من الطمى الطينى، وذهب إلى أن هذا الأمر هو انعكاس لظروف مناخية شاذة فى افريقيا جنوب الصحراء الكبرى، فيما بين ١٤٠٠٠ و ١٢٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P وربما كانت مواقع مخادمة ٢ و ٣ و ٤ معاصرة لهذه الفيضانات العاتية.

وفى أعقاب هذه المرحلة، حل طور قصير من الجفاف، حول عام ١١٥٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P ، وخلاله أخذ النيل يعمق مجراه، ليقلل إلى حد كبير من عرض السهل الفرينى، وأدت نهاية حقبة المياه العالية إلى خلل فى التوازن، غاب فيه التكيف مع البيئة النيلية. وفى الفترة الممتدة من ١٢٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ قبل الزمن الحاضر لم يتم الكشف عن أى موقع، إذا استثنيا الحقول القادية فى وادى حلفا. وظن البعض لفترة قصيرة ان هذه المواقع كانت مقامة على امتداد واد ضيق، فدفنت تحت الإرسابات الحالية. ومع ذلك فاستناداً إلى افتراض أخر، تقدم به «كونور» و «ماركس» D.R Connor et A., Marks (1986) ، فقد تقوض التكيف مع بيئة تعرف بمياهها العالية وقائمة على إمكانيات ضخمة من الموارد، مما دفع المجموعات البشرية إلى الإنتقال بحثا عما يحفظ الرمق، مفجراً توازن الجماعات الهش. ولم يحدث ذلك دون أن يقترن بلا شك بمنافسة اتخذت طابقا عنيفاً.

فهل تعزز إذن هذا الإفتراض الهياكل العظمية التسعة والخمسون فى جبل الصحابة؟

فعلى بعد ثلاثة كيلومترات إلى الشمال من وادى حلفا، وإلى الجنوب من جبل الصحابة، يشكل الموقع رقم ١١٧ واحد من أقدم الجبانات فى تاريخ الوادى. فقد تم الكشف عن تسعة وخمسين هيكلاً عظمياً. (Wendorf, 1968, 954 - 995) . كانت جميع الأجساد مسجاة فى وضع نصف منحنى، على جنبها الأيسر، والرأس متجه ناحية الشرق، والنظر ناحية الجنوب، وترقد فى حفر بسيطة، مغطاة ببلاطات من الحجر الرملى. وتكونت قشرة متكلسة، فربطت هذه البلاطات ربطاً، وغطتها أنقاض من المنحدرات القادمة من الجبال الجزيرية inselberg المجاورة. ولما كانت هذه الأنقاض قد تاكلت بفعل التذرية، فقد كشفت، هنا وهناك عن طبقة الحجر الرملى للدفنات. ونظراً لأن هذه القشرة لا تغطى أبداً فى النوبة المواد التى تعود إلى حقبة العصر الحجرى الحديث أو العصور التاريخية، أمكن، تحديد تاريخ هذه الجبانة بعصور سابقة على العصر الحجرى الحديث، أن تقديراتنا حول التتابع الزمنى تستند إلى تيبولوجية المواد الحجرية المقترنة بالهياكل العظمية. وبفضل الأزاميل والأدوات المشطوفة المصنوعة من الشظايا، والشظايا والنصال ذات الظهر، والمباشر ومختلف القطع الحجرية القزمية ذات الأشكال الهندسية (ومنها أجزاء الدوائر) يمكن مقارنة كل ذلك

«بالقادوى» ولاسيما طوره الأكثر تطوراً، أى ١٢٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P على وجه التقريب.

إن ١١٠ قطعة، منها ٩٧ قطعة هى مجرد شظايا غير مصقولة، كانت فى حقيقة الأمر ملتصقة التصاقا مباشرا بالأربعة وعشرين هيكلاً عظمياً وتشكل هى والعظام كتلة واحدة، داخل تجويف الجمجمة. فكانت على ما يظن، وراء وفاة أصحاب هذه الهياكل العظمية. وإلى جانب هذه الدلائل التى ترجح حدوث وفاة عنيفة، يضاف إليها الدفنات التى تجمع بين عدد من الأفراد: كانت دفنتان تضم أربعة، كما دفنت ثمانية أجساد دفعة واحدة وهى لرجال ونساء وأطفال دون أى تمييز. ومما يعزز أيضا صورة العنف هذه، الكسور الموجودة فى السواعد إلى جانب اثار تشققات فى بعض عظام السيقان الطويلة، وهو ما يوحى بنفاذ آلات حادة فى اللحم.

وتساءل «وندورف» عن أسباب مثل هذا المسلك، فقد نظر إليه على اعتباره حدثاً استثنائيا. ولما كان النساء والأطفال يشكلون ما يقرب من ٥٠٪ من هؤلاء السكان الذين وافتهم المنية، يبدو من الواضح إذن ان تعميم مثل هذا المعدل فى الوفيات بالإضافة إلى نسبة الوفيات «المعتادة» بعد تقديرها بالنسبة لجماعات «الصيادين – جامعى الغذاء» يعنى أن المحصلة النهائية هى انقراض هذه المجموعة انقراضاً تاماً.

فإما أن الموقع ١١٧ يمثل لحظة مأساوية إستثنائية، وكان من الصعب اعتبار تعويض التوازن الذى حل فى أعقاب تدفق مياه «النيل المتوحش» غير مسئول عما حدث، أو كان المقصود به أن يكون مكاناً متميزاً، وخصص لمن ماتوا ميتة عنيفة، ودليلا على عادة الدفن الأنتقائى. ففى الحالة الأولى، ينحصر زمن استخدام الجبانة فى فترة انخفاض ملحوظ ومفاجىء لعدد سكان المجموعة ويتزامن معها. وإذا أخذنا بالفرضية الثانية، فمن المحتمل أن مدة استخدام الجبانة كانت أطول بكثير، وتعكس عودة منتظمة لجماعة أو جماعات الصيادين – جامعى الطعام.

وفى نفس الفترة (١٩٦٢ – ١٩٦٣) تم استخراج ٣٩ هيكلا عظمياً من دفناتها، على البر الغربى من النهر، قبالة جبل الصحابة فى واقع الأمر.

ورغم أنها كانت قد سجيت أيضا فى وضع منحنٍ، فإن وجهة الأجساد كانت مع ذلك مختلفة، إلى جانب انخفاض عدد الدفنات التى تضم عددا من الأفراد، لتصل إلى ثلاث دفنات مزدوجة. إن غياب «القذائف» المندمجة فى العظام ووجود حالة واحدة للإصابة بجروح، لتكشف عن بيئة أكثر هدوءً وتكشف الدراسة الانثروبولوجيه للجماعتين عن أوجه شبه كبيرة.

إن الهيكل العظمى الذى عثر عليه فى وادى الكوبانية (الموقع : 6 - 82 - E .Close, 1986) وكان مكشوفاً جزئياً عند سطح الأرض ومندمجاً فى كتلة من الحجر الرملى المتكلس، يفصح عن بعض أوجه الشبه مع المجموعات السابقة.

إنه ذكر يتراوح عمره من ٢٠ إلى ٢٥ سنة، وقد ووري التراب ووجهه ملاصق للأرض، ومن الواضح أنه كان فى وضع ممدد – وقد هشمت ساقاه جزئياً ، وكان مسجًى فى بئر بسيطة حفرت فى إرسابات طمية، يعود تاريخها إلى حوالى ٢٠٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P ، وكان يحتفظ فى الجانب الأيسر من تجويف البطن ببعض النصال الصغيرة من النوع الذى ساد فى خواتيم العصر الحجرى القديم، وهى التى أدت إلى وفاته على ما يعتقد. ولا ينبغى مع ذلك أن يغيب عن بالنا العنف الذى أدى إلى وفيات جبل الصحابة. وهو العنف الذى لا يمكن لكسر الزند الأيمن لانسان وادى الكوبانية ولا للشظية الحجرية التى أتلفت جزئياً عضده الأيسر، إلا أن يعززه.

وفى توشكا، على بعد ٢٥٠ كم إلى الجنوب من أسوان، يتطابق الموقع 8905 على البر الغربى، ومحلة شاسعة انتقالية من النمط القاوى، قائمة على مقربة من مكان كله مستنقعات.

وفوق مرتفع بيضاوى ومن حوله، قطره خمسة أمتار، وارتفاعه ٣٠ سنتيمتراً كانت الإحدى وعشرون دفنة تمثل مرحلتين، على الأقل . كانت الأقدم معاصرة، على ما يبدو، لتكوين Formation صحابة، وتعود إلى تاريخ سابق على تكوينات نباتية ازدهرت فى عصر وصل فيه منسوب ارتفاع المياه إلى أقصاه. ومن الصعوبة بمكان ان نحدد بكل دقة تاريخ المجموعة الثانية، ولكن من الواضح انه أحدث عهداً بكثير.

لقد سُجّى افراد المجموعة الأولى على جنبهم الأيسر، وهم يتطلعون بأنظارهم جهة الشرق، وفى وضع منحنٍ بالنسبة لأغلبهم، ورغم انهم فى حالة سيئة جداً من الحفظ إلا أن أوجه شبه مورفولوجية تجمع بينهم وبين الهياكل العظمية المجاورة فى جبل الصحابة. كما عثر على قرون حيوانات من الفصيلة البقرية بجوار رؤوس شاغلى الدفنات أرقام ١٢ و ١٣ و ١٨. وفى هذا الصدد استهوت الباحثين فكرة أن هذه الظاهرة هى التجليات الأولى للعلامة الحميمة التى ربطت الإنسان بهذا الحيوان منذ أقدم عصور الحضارة المصرية. فقد كان «الأثير» الذى حظى برعاية رعاة أعالى النيل حتى الأزمنة الراهنة. ولكن الحذر واجب. «إذ يؤكد الباحثون، أنه قد لوحظ أن القرون كانت موجودة فى جميع الحالات فوق الهياكل العظمية ولم تكن ابدا مرتبطة بها بوضوح» (Wendorf, 1968, 875) . وقد عثر على هيكلين عظمين قرب إسنا، يرتبطان على ما يبدو **بالفاخورى** (Lubell, 1971) .

ومن الناحية الأنثروبولوجية، فإن جميع الأفراد المرتبطين فى وادى النيل بصناعات الآلات القزمية (ومجموعهم ١١٣ فرداً إلى يومنا هذا!) قريبو الشبه من نمط إنسان «مشتى العربى» – ويقال أيضا «مشتى العفولى» – الذى تم تعريفه اعتماداً على نحو ثلاثين هيكلاً عظمياً عثر عليها فى واحدة من أكبر أماكن تربية الحلزون(٢١) وتعود إلى العصر القفصى الأعلى، فى «مشتى العربى»، بالجزائر. هذا الكائن الشبيه بالكرومانيون(٢٢) Cromagioïde الذى عاش فى شمال إفريقيا، هو الممثل الوحيد للـ «إيبرمعرى» ويشكل خلع الأسنان القواطع سمة ثقافية تخص هذه المجموعة وهى سمة مجهولة تماماً عند أهل وادى النيل.

كيف نحدد وضع «مشتويى»(٢٣) وادي النيل؟

ان العديد من السمات تميزهم عن «مشتويى» شمال إفريقيا، لاسيما الوجه الأكثر ارتفاعاً وبروز الفك السفلى أكثر من المعتاد. كما أنهم لم يعرفوا أبداً من ناحية أخرى عملية خلع الأسنان القواطع.

من أين جاءوا؟ لم يأتوا بكل تأكيد من شمال إفريقيا لأنهم يسبقون حاملى الثقافة *الإيبرمعرية* بعدة آلاف من السنين. هل ينتسبون إلى ما قبل الكرومانيون فى قفصة؟ (Vanodoermeerch : 1981 انظر أيضا Tillier : 1992) . من المحتمل. أهو تطور محلى؟ إننا لا نعرف شيئاً للأسف عن الجماعات السابقة حتى نقرر ذلك.

وهكذا وفى جو من التكتم الفريد، ظهر الإنسان الحديث وحط عصا الترحال على امتداد وادى النيل، دون أن ندرى الكثير عن الأصول التى انحدر منها.

هوامش الفصل الرابع

(١) قطع تكسرت بصلتها Pieces esquillées: (bulbe) : قطع من الظران تظهر على حافتيها آثار طرق عنيفة مما يدل على انها قد استخدمت على ما يرجح كقطعة وسيطة. (من حوار على المؤلفة) (المترجم).

(٢) تشذيب «أوشتاتا» retouches Ouchtata: اسم مكان فى تونس حيث عثر على صناعة من خواتيم العصر الحجرى القديم. ومعنى ذلك أن الأدوات كانت تتكون من نصال صغيرة وأدوات قزمية. والقطعة المميزة هى نصل صغير مشذب تشذيباً رقيقاً اطلق عليه «أوشتاتا» نسبة إلى المكان الذى عثر فيه على النصل (من حوار مع المؤلفة) (المترجم).

(٣) صخر يتكون من الميكا و الكوارتز (المترجم)

(٤) ارتفاع فى قاع النهر (المترجم).

(٥) يقع هذا الجبل إلى الشمال من كوم أمبو ويقترب من شاطىء النهر. (المترجم).

(٦) نسبة إلى مدينة Fére - en - Tardenois فى شمال شرق فرنسا (المترجم).

(٧) نسبة إلى بلدة قادى فى النوبة (المترجم).

(٨) عالم مصرى فى عصور ما قبل التاريخ. عمل مع «وندورف» فى الثمانينات. أستاذ الأركيولوجيا فى جامعة كوليج فى لندن (من حديث مع المؤلفة) (المترجم).

(٩) صوان chert : حجر صلد من المرو مَكْسره غير مستو (المترجم*)

(١٠) ظران silex : جسم صلد من المَرْو خفى التبلور، يشبه الصوان مَكْسره محارى مستو، فى هيئة حبات رسوبية كبيرة من الصوان (المترجم*).

(١١) العساقل ومفرده : العُسقول : جزء من ساق نباتية أو من جزء نباتى يكون جاسياً مكتنزاً منتفخاً، محتوياً على مواد غذائية مختزنة. المعجم الوسيط (المترجم).

(١٢) إلى الشرق من وادى النيل (المترجم).

(١٣) نسبة إلى البلانة (المترجم).

(١٤) نسبة إلى وادى الميًا فى وسط الجزائر (المترجم).

(١٥) نسبة إلى أبكة عند الجندل الثانى (المترجم).

(١٦) gastéopode : تتكون هذه الكلمة من جذرين gastéro : ومعناه بطن و pode : ومعناه رجل. وهو صف من شعبة الرخويات يضم البزاق والحلزون والقواقع (المترجم).

(١٧) الإقامة الدائمة (التوطين Sédentarisme : الإقامة فى مجتمعات مستقرة. (موسوعة علم الإنسان.) الترجمة بإشراف الدكتور محمد الجوهرى. المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨) (المترجم).

(١٨) نسبة إلى قفصة فى وسط تونس إلى الشمال من شط الجريد (المترجم).

(١٩) تقع هذه المنطقة فى شرق ليبيا وتمتد من البحر المتوسط من خليج سرت وحتى جبال تيبستى جنوباً قرب الحدود التشادية (المترجم).

(٢٠) نسبة إلى مدينة «أورينياك» Aurignac فى جنوب فرنسا (المترجم).

(٢١) الحلزون (واحدته حلوزنه) : حيوان بحرى رخو. المعجم العربى الأساسى (المترجم).

(٢٢) الكرومانيون . Cro - magnon انسان عاش فى حوض الدوردونى بفرنسا فى أواخر العصر الحجرى القديم. عثر على جماجمه لأول مرة فى «كرومانيون» Cro-ma-gnon . فى حوض الدوردونى. (المترجم*).

(٢٣) نسبة إلى «مشتى العرب». (المترجم) .

الباب الثالث

العصر الحجرى الحديث

الفصل الخامس

تشكل العصر الحديث

أولاً : العصر الرطب العظيم الهولوسيني

١٢٠٠٠ - ٨٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P

من موريتانيا وحتى الأخدود الأفريقى، مروراً بشمال افريقيا ووسط وجنوب الصحراء الكبرى وادى النيل وأثيوبيا، نلاحظ أن مجمل الدورات الرطبة التى بدأت منذ ١٤٠٠٠ سنة قبل الزمن الحاضر B.P، تشكل ظاهرة يمكن تعميمها على مناطق افريقيا التى أصبحت فى الوقت الراهن قاحلة أو شبه قاحلة. وفى كل مكان، أخذ منسوب المياه يرتفع فى البحيرات الصحراوية، حتى بلغت أقصى ارتفاعها حوالى ٩٥٠٠ - ٩٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P (Muzzolini, 1983).

لقد عرفت أنجاد الصحراء الكبرى الواقعة بين جبال الأطلس ووادى النيل، حول الألف السابع قبل الميلاد، مناخاً رطباً إلى حد ما، ساعد على انتشار الغابات المورقة، عند قممها، ونباتات البحر المتوسط عند ارتفاعات أدنى. ان نظام الصرف[1] الكثيف كما هو واضح تحت الرمال بفضل صور الأقمار الصناعية - وهو حفرية عصر «البليو- بليستوسين Plio - pleistocène»، قد عاد إليه النشاط، كما أن تغذية البحيرات بالمياه العذبة، قد وفرت مقومات تجدد الفونة والفلورة والجماعات البشرية. غير ان هؤلاء الرجال قد حملوا معهم المظاهر الأولى للعصر الحجرى الحديث المتمثلة فى الأوانى الفخارية المزخرفة بخطوط متموجة والتى اشتهرت اصطلاحاً باسم «ويفى لاين» Wavy line بفضل حفائر « أركل» A.J. Arkell، فى الخرطوم، عام ١٩٤٩.

إن الأبحاث المكثفة التى تمت خلال العشرين سنة الأخيرة، فى وسط الصحراء الكبرى، قد ألقت ضوءاً جديداً على هذه الظاهرة.

الصحراء الكبرى

فى جبال العير[٢]، يقع موقع «تاجالا جال» Tagalagal الذى كشف عنه «روزيت» J.P.Roset عام ١٩٧٨، على ارتفاع ١٨٢٠ متراً. ويعطى مساحة تقدر بحوالى ٢٠ فى ٤٠ متراً ويبدو الموقع بعد إخلائه من كتل ضخمة من الجرانيت، مليئاً بالأحجار المشظاة وبقايا

أرجاء وشقف من الأوانى الفخارية تحمل آثار خطوط متموجة. وفى الجنوب، احتفظ مطلّ صخرى، على رواسب أحفورية، يقل سمكها عن المتر الواحد بقليل، وتغطى مساحة عدد من الأمتار المربعة. ومن المحتمل أنه كان مستودع قمامة، فقد تكدس فيه فحم الخشب إلى جانب كسف من هذه المادة الأركيولوجية التى تغطى المساحة بأكملها. إن تاريخين تم تحديدهما بالكربون ١٤، قد قدما نتائج مبهرة: ٩٣٧٠ ± ١٣٠ قبل الزمن الحاضر B.P و ٩٣٣٠ ± ١٣٠ قبل الزمن الحاضر B.P. وتشير الدراسة الأولية إلى أوانى فخارية على قدر من التطور، منذ ذلك الزمن، وهى ذات أشكال مفلطحة وملمومة، كروية القاع وقصيرة الرقبة فى بعض الأحيان ومنفرجة الفوهة. ان الخط المتموج المثبت بممشط لين الخيوط يغطى كل سطوح معظم الأوانى. كما نشاهد أيضاً الزخارف الحلزونية أو على هيئة بقع مستطيلة لامعة أو خطوط متعرجة متقابلة أو أركان وزوايا أو خطوط متوازية محفورة حفراً سطحياً.

إن «عدم كفاية» الأدوات الحجرية يقابلها تنوع الخزف. إن نوعية الصخور المتاحة، كالصخور البركانية والكوارتز قد لوعبت بلاشك دوراً بارزاً، ومع ذلك فإن البحث عن صخور حبيباتها أكثر تجانساً، من أجل إعداد نماذج جميلة من أسنة الرماح لتعبر تعبيراً صادقاً عن موهبة صقل الحجر. وبوجه عام، فقد وقع الإختيار على الإستخدام الصرف والبسيط للشظايا السميكة غير المشذبة والمباشر والمقاشط المستعرضة وبعض أزاميل الزوايا . كما قد نكتشف الإستخدام المعمم بأسلوب عقلانى لهذا «التصنيع العرضى[٣]» فى أزاميل «سرت». ولا أثر لأية أدوات حجرية قزمية، ولكن هناك عدداً لا بأس به من الفؤوس والقدائم ذات الحدّ المصقول. والزراعة لا وجود لها، وإن وجدت كمية كبيرة من آلات الطحن وهو ما يعزز المكانة التى احتلتها النجيليات البرية فى نظام التغذية.

لا يمكن النظر إلى «تاجالاجال» باعتبارها حالة فردية معزولة، بل يبدو بكل وضوح أنها كانت جزءاً من كل متجانس، على غرار المراكز القائمة عند تخوم العير، وتتكون من مواقع مشابهة، وقد أمكن البرهنة بفضل التأريخ بالكربون المشع على أنها تعود إلى نفس العصر.

لقد أمكن تحديد تاريخ موقع «أمكنى، فى الهوقار[٤]» (Camps,1968) القائم عند ملتقى واديين بفضل العديد من المواقد المدعمة بالأحجار: ويمكن الأخذ بعام ٦٧٠٠ قبل الميلاد كنقطة بدء لهذه المحلة التى استمرت لحوالى ثلاثة آلاف سنة! (تعود المستويات الحديثة إلى ٣٥٠٠ قبل الميلاد).

فلا أثر للاستئناس فى أقدم المستويات ولكن تظهر فونة، ترسم صورة لبيئة المستنقعات والسافانا، تعززها أيضاً تحديدات حبوب اللقاح لأنواع منتشرة فى البيئة المعتدلة. ولا تعود أهمية تجهيزات الطحن، على هيئة منخفضات محفورة فى الطبقة الجرانيتية للقاعدة الصخرية للمحلة، بالإضافة إلى الكشف على عمق ١٤٠سم عن حبتى دُخْن[٥] (واسمه العلمى

Pennisetum) مزروعتين – لا تعود هذه الأهمية إلى أنها تعزز المكانة التى احتلتها النباتات، ولكن يمكن الإستدلال منها على احتمال وجود نشاط زراعى. ومن هذا المستوى القديم وصلتنا شقف عديدة من خزف[٦] Cèramique تبدو أشكالها بعد أن أعيد تركيبها فى منتهى البساطة، فهى واسعة على هيئة قصعة كبيرة وذات أبعاد كبيرة . ان قطر بعض الفوهات يزيد على ٥٠سم ان فخار «أمكنى» مصنوع من عجينة صلبة بها مزيل معدنى للزوجة فى المقام الأول (حبات من الكوارتز) وهى مزخرفة على الدوام بزخارف اجريت على العجينة اللينة بالمشاط أو ببعض الأدوات الطبيعية ومنها على سبيل المثال أشواك بعض الأسماك وأغصان أشجار أنتزعت منها أوراقها...

وكما هو الحال فى «تاجالا جال» فإن عدم كفاية الأدوات الحجرية المشذبة لا يضاهيه فى شيء سوى ثراء الأوانى الفخارية. كما أن قلة الإمكانيات الصخرية المحلية لم تساعد أيضاً على أعمال قطع الصخور: الصخور البركانية والكوارتز والسبج obsidienne والبلور الصخرى. وفى الطبقات السفلى، فإن أدوات الكوارتز ممثلة بنصال صغيرة مائلة الحواف، وينبغى أن نضيف إليها بعض المباشر وأسنة الرماح. وقد بدأت هذه الأدوات القزمية المسيطرة، بلا أزاميل قزمية فى التراجع، تاركة المجال، شيئاً فشيئاً، لهيمنة الأدوات المصنوعة من الحصى، بكل تنويعاتها. فظهرت الأزاميل والمساحج ثم المثاقب، بينما ازدادت أسنة الرماح زيادة محدودة. وفى المقابل كانت نوعية الأدوات العظمية وجودتها ممتازة، كما يشهد على ذلك جمال أدوات الصقل والمثاقب ودبابيس الرأس وأنواط[٧] الأقراط والخرز التى تملأ الموقع. وتستكمل هذه القائمة الثمينة حلقات من أغلفة بيض النعام المستخدمة كأوعية.

وقد دفن بالموقع ثلاثة أفراد من النوع الشبيه بالزنوج، الفرع السودانى، ويضمون امرأة وصبيين، وقد دفنوا قرب نهاية الألف السابع، كما يؤكده تاريخ ٦١٠٠ قبل الميلاد، الذى تحدد بالنسبة لدفنه أحد الصبيين.

أما عن حياة أولى جماعات العصر الحجرى الحديث هذه، وإذا افترضنا أنها كانت بالفعل من المزراعين، فلم يكن ينقصها سوى تربية الماشية ، فلنترك الحديث لمنقب من المنقبين: «كان الصيد البرى والصيد النهرى وجمع الطعام والزراعة، أنشطة خارجية. وفى المحلة التى كانت تقيم فيها هذه الجماعات، وبين الأكواخ التى جهزت وسط الكتل الحجرية، كانت النساء يَدْققن الدُخن ويطحنّ حبوب النجيليات البرية ويقمن بطهى العصائد فى أوعية ضخمة صنعت من الطمى الذى تم الحصول عليه من ضفاف النهر. كان إعداد جلود الوعول والأبقار، وصناعة السلال التى كانت تحتاج إلى مثاقب من العظم عند إعدادها، تترك أيضا متسعاً من الوقت ليتسكع القوم أو يغفوا قليلاً. وقرب نهاية الربيع، بينما كانت ثمار أشجار

الميس[٨] micocoulier تنضج، كانت تقطف بكميات كبيرة من الأحراج المجاورة. ولكن ربما أعطت نوعا من الجعة بعد أن تختمر داخل أوعية كبيرة (Camps, 1974, 234).

وقد تم الكشف عن حقول مشابهة فى نجد الهوقار، وهى معاصرة، ان لم تكن أقدم (راجع Maître, 1971).

وفى النجاد الجرانيتية فى «تادرات – أكاكوس Tadrate-Acacus»، فى الجنوب الغربى من ليبيا، كشفت العديد من المواقع، عن صناعة تعود إلى خواتيم العصر الحجرى القديم ومعها خزفيات ذات خطوط متموجة منقوطة (Dotted Wavy Line)، وهى نمطية إلى حد ما، ورفيعة الجودة. ان تاريخ ٨٦٤٠ ± ٧٠ قبل الزمن الحاضر B.P بالنسبة لـ «تين تورها، Ti-n Torha (Barich, 1974)» و ٨٠٧٠ ± ١٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P بالنسبة لـ «فوزيقيارين، Fozzigiaren (Mori, 1965)» يحددان تاريخها بعصر «أمكنى» ذاته، وهو النصف الثانى من الألف السابع قبل الميلاد.

الصحراء الغربية

بعد الإنقطاع اللاحق للعاطرى تبدو محلات خواتيم العصر الحجرى القديم، فى الواحات الخارجة، معاصرة لتكوينات سبخات[٩] playa الهولوسين، حول عام ٩٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P ومن المحتمل أنها دامت حتى ٧٢٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P.

إن «جاردنر E.W. Gardner» و «كيتون تومپسون» G. Caton-Thompson (1952) اللذين قاما باستقصاء المنطقة، قرب نهاية الأربعينات، قد أظهروا بوضوح، من خلال دراسة المواقع السطحية، وجود مجموعتين ثقافيتين مختلفتين. تتميز الأولى بالادوات القزمية من نصال ونصال صغيرة ذات ظهر، بما فى ذلك الطراز ذى الحافتين المائلتين، ونسبت إلى «البدو أصحاب الأدوات القزمية». ولا تضم هذه المجموعة أية أدوات ذات أشكال هندسية «حقيقية» ولا إزميلاً قزمياً واحداً، إلا أنها تضم أسنة رماح مصنوعة من شظايا مستعرضة وأسنة «أونان» Ounan وركائز جميلة على شكل مُعَيّن، مشذبة على الوجهين. إن كُسف حجر السحن وحلقات من أغلفة بيض النعام، تستكمل ملامح عصر خواتيم العصر الحجرى القديم التى خُلعت على هذه المجموعة، الأمر الذى يعززه غياب الأوانى الفخارية غياباً مطلقاً. ومن ناحية أخرى، فمن مميزات المجموعة الثانية، وجود الأوانى الفخارية إلى جانب تمركزات أدوات «العصر الحجرى الحديث»، من فؤوس مشذبة ومناحت ومساحج وسكاكين ذات وجهين وأسنة رماح مقعرة القاعدة إنها مجموعة «فلاحى العصر الحجرى الحديث». إن الشقف وهى متاكلة، ولا تحمل زخارف أبداً، تكشف عن خزفيات سمراء مائلة إلى الحمرة، لم يصلنا منها سوى القليل.

وفى واحة سيوة، إلى الشمال قليلاً، كشفت الأبحاث التى قادها فكرى حسن (1976, 1978) عن عدد ضخم من المواقع، تشترك مع إرسابات من عصر الهلوسين القديم، ظلت سالمة فى عدد من النقاط.

وعلى مسافة ٣٠ كم إلى الشرق من مدينة سيوة تشكل مجموعة من التمركزات مجمّع حطية[١٠] أم الحيوض. وتسودها أعداد كبيرة من النصال الصغيرة ذات الظهر المستقيم (المواقع 75/5 - 75/6-75/31) . والأزاميل والأزاميل القزمية والمثاقب لها وجود ملحوظ، إلى جانب الأسنة ذات الوجهين. ان عملية التأريخ بواسطة الكربون ١٤ التى أجريت على أغلفة بيض النعام - وهى موجودة بكثرة – قد حددت تاريخ هذه المجموعات فى بداية الهولوسين: ٨١٥٤ قبل الزمن الحاضر B.P ± ٦٥. وفى الموقع 75/31 تزيد أعداد الأزاميل على المثاقب والأزاميل القزمية والنصال الصغيرة ذات الظهر.

وتتكون واحة «قارة»، على بعد ١٣٠كم من سيوة من منخفض تغذيه عيون ماء زعاق وقد تكونت فيه مساحات كبيرة من السبخة. وقد كشف مجمع من سبعة مواقع بالإضافة إلى تمركزات ثانوية، عن مجموعة من الأدوات تتكون فى المقام الأول من الأزاميل إلى جانب الأدوات المسننة والمثاقب والنصال والنصال الصغيرة ذات الظهر والمباشر وقطع تكسّرت بصلتها Pièces esquillées والرُفضَ. ولا يوجد فى عدادها إزميل قزمى واحد، وإن عثر على العديد من الأسنة الصغيرة المصنوعة من النصال ذات الساق (Hassan, 1976, fig 70,01). وقد أجريت عملية تاريخ على بيضة نعام، فأعطت ٨٢٥٨ قبل الزمن الحاضر B.P.

وفى «شياطة»، وهو منخفض آخر على بعد ٣٧كم من سيوة تحدد مكان موقع فوق أحدور صخرى يطل على بحيرة صغيرة مالحة تشغل جزءاً من قاع المنخفض. إن نصف دائرة من بلاطات من الحجر الجيرى، قطرها ١١,٧ متراً، تطوق تجمعاً من القطع الحجرية. والمادة التى عثر عليها غير منتشرة فوق سطح المكان باكمله، بل موزعة على قطاعات: أنوية متنوعة ناتجة عن عملية تصنيع الأدوات الحجرية، وهى معزولة بدورها عن النصال. وعن الأدوات وعن أغلفة بيض النعام. إن عملية التأريخ التى أجريت على أحدها قد أعطت لهذه المحلة المؤقتة عام ٨٨١٧ ± ٧٧ قبل الزمن الحاضر B.P. وصناعات خواتيم العصر الحجرى القديم فى سيوة وإن كانت قريبة الشبه من مجموعات الآلات القزمية فى الصحراء المصرية إلا أنها تتميز عنها بكثرة الأزاميل.

وفى مكان أقرب إلى الوادى، كشف فريق «وندفورد» F.Wend ford (1980,236-211) النقاب فى سبخة Playa نبته[١١] عن ثلاثة أدوار مطيرة تفصل بينها فترات قصيرة من الجفاف، وذلك فيما بين ٩٠٠٠ و ٥٨٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P. وإلى الشمال قليلاً، وعلى

بعد عشرين كيلو مترا، يكشف حوضان صغيران فى القرطين و البيض، مملوءان بإرسابات السبخة، يكشفان عن نفس المتتالية. (Wend Ford et al. 1984).

إن كيانين أركيولوجيين يرتبطان فى هذه القطاعات ذات التكوين الكثبانى والإرسابات السبخيه. الكيان الاول له مقومات خواتيم العصر الحجرى القديم، وينتسب الثانى إلى العصر الحجرى الحديث.

إن التجمعات الستة (E-75-6، E-75-7، E-75-9، E-77-3، E-77-6، E-77-7) التى تم دراستها دراسة تفصيلية تتفق والطور الرطب الأول (السبخه رقم Playa 1).

تتصدر النسبة المئوية للأدوات المصنوعة من النصال، رغم اختلافها من موقع إلى آخر، قائمة هذه المجموعات التى تغلب عليها النصال ذات الظهر. ويعود نصيب الأسد لتقنية الأزاميل القزمية. ومن الملاحظ وجود الإزميل القزمى المعروف إصطلاحاً بازميل «كروكوفسكى» Krukowski وقد عرّفه «تيكسييه J.Tixier» على النحو التالى: *طرف نصل أو نصل صغير، حافته مائلة، وقد انفصل نتيجة تقنية «طرقة المحفر القزمى» التى سددت على جانب الحافة المائلة*. (1963, 142, n° 103). ويشمل مجال الأدوات القزمية الهندسية أجزاء الدائرة وأشباه المنحرف والمثلثات. والأسنة الصغيرة المصنوعة من نصال ذات ساق، قريبة الشبه من أسنة ونان فى شمال افريقيا (Tixier, 1963, P.149, n° 844) ومن أسنة الحريف فى سيناء. وفى حين توفر الصخور النارية والكوارتز تشكيلة من المواد الأولية، فى بيئتها الأ صلية، فإن هذه الأدوات التى يعود نمطها بكل وضوح إلى العصر الحجرى القديم الأعلى، قد صنعت من حجر صوان إيوسينى (١٢) جميل جاء من الجبل، الأمر الذى كان يتطلب نقله. إن وجود الأرحاء وأحجار السحن، وإن بكميات محدودة، بالمقارنة مع الحقبة التالية، ليشهد مع ذلك، على تواصل البحث عن النجيليات واستخدامها. وفى المقابل، توجد أغلفه بيض النعام بكميات كبيرة، إما على شكل كِسَر مزخرفة بفراغات أو على شكل حلقات فى مختلف أطوار التصنيع. وتشهد مجموعة متجانسة من عمليات التأريخ بواسطة الكربون ١٤ التى أجريت على الخشب وبيض النعام على شغل المكان بصفة متصلة ابتداء من ٨٩٦٠ وحتى ٨٣٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P.

ولا يرتبط أى موقع من مواقع هذه العصور بإرسابات الوديان، أو يشغل منخفضات بير صحرا وبيرطرفاوى، التى كانت شديدة الثراء فى العهود السابقة. ويبدو، فى الحقيقة، أنه قد حدث تغيير فى استراتيجية شغل المواقع، إذ انتقلت المحلات إلى الأطراف أو إلى مسطحات السبخات Playas التى تغمرها المياه بانتظام.

إن إعادة صياغة المشهد الطبيعى القائم على الچيومورفولوچيا (علم شكل الأرض)

وبقايا الفلورة والفونة، على حد سواء، تصور لنا فى منطقة نبته، عالما من النباتات مكوناً من الشجيرات والأجمات، ويتركز حول نقاط المياه التى تطل عليها صخور الجبل الجيرية الإيوسينية، وتخترقها مسطحات الحجر الرملى النوبى المكشوفة. إن الفونة التى تتكون أساساً من الغزلان والأرانب البرية تدل على أن هذه البقعة كانت منطقة شبه جافة، من مناطق السهوب دون الصحراوية، تتخللها الأجمات والشوك (النباتات الشائكة). وتأسيساً على ذلك، يبدو فى حقيقة الأمر، أن النقاط الرطبة الوحيدة كانت تتكون من هذه البحيرات الوقتية التى كانت تغطى قاع السبخات.

وتحملنا النسب المحدودة للتمركزات، بالإضافة إلى بنية شياطة فى واحة سيوة، إلى الأخذ بالرأى القائل بأن شغل هذه الأماكن كان بصفة مؤقتة، وان له طابعاً فردياً. وقد يوحى وجود مواقد وأرحاء إلى تكرار شغل الأماكن التى تم دراستها، بصفة منتظمة (؟).

وفى أعقاب هذه المحلات ظهر عصر من الجفاف والتذرية dèflation يتميز بتكوين الكثبان. وجاءت عودة الرطوبة لتعلن عن نفسها على هيئة النباتات التى اجتاحت هذه الكثبان.

عندئذ جاءت جماعات جديدة لتحط الرحال فى أغلب الأحيان فى المواقع القديمة لخواتيم العصر الحجرى القديم، وكانت تقاليدها فى الصناعات الحجرية تختلف إختلافا محدودا عن تقاليد أسلافهم، ولكن تسجل استراتيجية شغل الأرض، بالإ ضافة إلى الآثار الأولى للأوانى الفخارية والحبوب المزروعة، نقطة تحول جذرية.

وتندرج خمسة مواقع من سبخة نبته Nabta Playa فى إطار هذا الطور الثانى من السترا تيجرافيا الصخرية lithostratigraphie (السبخة رقم Playa II.٢). واذ واصل فريق «وندروف» أبحاثه واستقصاءاته إلى الغرب قليلاً، فى منطقة بير كسيبة، فقد استطاع من خلال دراسة ثلاثة عشر موقعا إضافياً، ان يوضح ويمحص أعمال سبخة نبته.

كان منخفض كسيبة المحطة الرئيسية على درب الأربعين الذى يربط وادى النيل بالسودان، مروراً بالواحات الخارجة، وتطوقه من جهاته الشمالية والشرقية والغربية حافة ضخمة من الحجر الرملى النوبى شديدة الإنحدار يعلوها رصيف من رصيص(١٣) (كونجلوميرات) وفّر حصاه الصوانى الموجود بكميات كبيرة، وفّر مادة أولية رفيعة الجودة للجماعات التى حطت الرحال عند مشارف الأحواض فى قاع المنخفض.

إن أقدم وحدات العصر الحجرى الحديث التى تم التعرف عليها (الحجرى الحديث من نمط العضم لـ «وندروف» .1984, 409 et sq) هى المقابلة لمواقع السبخة التى تم رصدها عند

سفح حافة كسيبة (E-77-7 فى جبل البيض و E-80-4 و E-79-8 فى العظم). وتشير عشر عمليات تاريخ بواسطة الكربون المشع أجريت فى ثلاثة مواقع إلى تقديرات تتراوح بين ٩٥٠٠ و ٩٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P.

إن ٦٠٪ من الأدوات هى من حجر الصوان الإيوسينى، وتظل إلى حد كبير من الأدوات القزمية، مع هيمنة النصال ذات الظهر وهى مدببة فى الغالب. والأزاميل القزمية لها نصيب الأسد إلى جانب المباشر والمثاقب والرقش.

وفى المقابل فالأزاميل قليلة ضمن هذه المجموعة التى من النادر أن تضم الآلات المشطوفة الزوايا والمسننة أو ذات الأشكال الهندسية. إن الأرحاء وأحجار السحن موجودة بكميات كبيرة، إلى جانب الخرز المصنوع من **أغلفة بيض النعام**، فى مختلف مراحل التصنيع. وفى وسعنا، دون ان نجازف بالوقوع فى الخطأ، أن نضم إليها هذه الحلقات ذات الحزّ، اللازمة عادة لإعداد حلقات بيض النعام. إن حزّ الزخارف على بيض النعام محشو أحيانا بالمغرة. ففى موقعين من هذه المواقع (E-79-8 و E-80-4) **ظهرت فى تواضع شديد أولى الأوانى الفخارية التى تم ر صدها إلى يومنا هذا، فى هذا القطاع**: ثلاث شقف مزخرفة فى الموقع E-79-8، وأربع شقف متآكلة جداً بلا زخارف ظاهرة، فى الموقع E-80-4، وتعود جميعها إلى طبقات يمكن تحديد تاريخها بعام ٩٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، وهو ما يعنى ان ظهور أولى الأوانى الفخارية قد حدث فى النصف الثانى من الألف الثامن قبل الميلاد، على غرار «تاجالاجال». وهى مصنوعة من عجينة رملية، حرقت حرقاً جيداً، مع إضافة الميكا micas، ويتفاوت لونها من الأسمر المائل إلى الإحمرار إلى الأسمر المائل إلى الرمادى. وتتكون العناصر الزخرفية على السطح الخارجى من أشرطة متوازية من خطوط منحنية، هى أشبه بالفاصلة[١٤] الطويلة وهى مائلة بالنسبة للحافة.

ومن بين بقايا العظام التى تم التعرف عليها، يحتل الغزال مركز الصدارة فى الموقعين. وقد تكون بقايا الثيران "Bos" من النوع المستأنس المعروف علميا باسم «بوس بريميجنيوس» Bos Primigenius.

وتتعاقب بعد ذلك، خمسة مواقع فيما بين ٨٨٠٠ و ٨٥٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P استناداً إلى أربع عمليات تاريخ بواسطة الكربون المشع أجريت على فحم الخشب وبيض النعام فى ثلاثة مواقع (العصر الحجرى الحديث من نمط موقع القرطين لـ «وندروف»، Wendorf, 1984).

وتظل التيبولوجيا متمثلة فى الآلات القزمية. وأكثر الآلات تميزاً هى الأسنة الصغيرة ذات القاعدة المدببة المصنوعة من النصال، التى سبق أن التقينا بها فى خواتيم العصر الحجرى

القديم، والتى تذكرنا بأسنة **الحريف** وأسنة **و نان**. واستمرت تقنية الأزاميل القزمية مستخدمة، وتلتقى بالرُقَش والأدوات المسننة، ولكن بالقليل من الأشكال الهندسية والأزاميل والمثاقب. ومازال الغزال مهيمناً، إلى جانب نفس أنواع الثيران "Bos"، التى تم استئناسها، على ما يظن، ولم يعثر على أى شقفة من الفخار فى هذه المحلات المحدودة المساحة، التى يوحى تمركزها داخل السبخات بأنها كانت تُشغل خلال فصل الجفاف.

وتغطى سبعة مواقع، من الخارجة إلى كسيبة، الطور التالى، من ٨٥٠٠ إلى ٨٢٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، وفقاً لعملية تاريخ بالكربون ١٤ فى ثلاثة مواقع (الحجرى الحديث من نمط موقع الغراب لـ «وندروف»). والمثلث المختلف الأضلاع هو الأداة المهيمنة وسط مجموعة مازالت تتكون من الأدوات القزمية. وتشغل النصال ذات الظهر، المدببة فى الغالب، والأشكال شبه المنحرفة والأزاميل القزمية نسب ملحوظة، فى حين ان المباشر والمثاقب والأزاميل نادرة. وتعود العديد من شقف الفخار إلى الموقع E-79-4، وقد جاء البعض منها بزخارف على هيئة خطوط محفورة أو منقطة. ولا يوجد سوى القليل من بقايا الفونة، باستثناء بعض الثيران Bos فى الموقع E-79-4. ويعزز موقع E-72-5 فى قطاع «دايك» Dyke، على بعد ٥٠٠كم تقريبا إلى الغرب من نبته، يعزز بالشواهد أنه قد تم شغل هذه الأماكن لفترات طويلة إبان حقبة من الجفاف، ممتدة إلى حدّ ما، أو أعيد شغلها موسمياً.

ويبدو، أخيراً، أن انعطاف الألف الثامن، يتفق والوقائع الأخيرة من المرحلة القديمة من العصر الحجرى الحديث كما حددته أبحاث «وندروف» F.Wendorf بالنسبة لجنوب الصحراء الغربية فى مصر.

إن مجموعة، خمسة مواقع فى سبخة نبته Nabta-Playa وبير كسيبة، قد أمدتنا بتسعة عشر تاريخاً بواسطة الكربون المشع، فحددت الفترة من ٨١٠٠ إلى ٧٩٠٠ قبل الزمن الحاضر B.p لشغل المكان. (الحجرى الحديث من نمط موقع النبتة لـ «وندروف»، Wendrof, 1984).

ورغم ان تقنية الصناعات الحجرية، القائمة على عملية تصنيع النصال والنصال الصغيرة من النويات ذات سطح الطرق الواحد أو السطحين، لا تختلف قط مقارنة بالمواقع السابقة، فإن التيبولوجيا تكشف عن تغير جذرى: إن القطع المشذبة تشذيبا متصلاً، من أزاميل ومثاقب، التى ظلت حتى هذه اللحظة من الأدوات المحدودة الفائدة مقارنة بغيرها، قد بدأت تحتل مكان الصدارة، إلى جانب النصال الصغيرة ذات الظهر، وبعض الأشكال الهندسية، ومنها فى المقام الأول المثلثات المختلفة الأضلاع.

والفخاريات منتشرة فى هذه المواقع، وتحمل زخارف هى عبارة عن خطوط منقطعة أو

آثار خدوش بالمشط على سطوح شقف كانت على مايبدو جزءاً من أشكال بسيطة، من نوع القصعات الكبيرة.

وتبرز بقايا الفونة تعاظم دور الأرنب البرى بالمقارنة مع الغزال مع وجود بعض الثيران Bos.

واتسعت أبعاد المواقع، ونلاحظ على وجه الخصوص أن السمة البنائية(٥٥) للموئل، وإن لم تعبر عن حياة الإقامة الدائمة إلا أنها تظهر على الأقل، استمرارية نسبية. وفى هذا الصدد، يعتبر موقع E-75-6 فى نبته بليغ الدلالة.

ويتحدد موقعه وسط السبخة Playa، فوق مساحة لا تغمرها مياه الفيضان، وكانت الألف متر مربع التى تم الكشف عنها، تضم بقايا واحدة من أوائل القرى التى تم التعرف عليها إلى يومنا هذا فى هذه المنطقة (Wendorf, 1980, p131, fig. 3.60). *ويشير تجهيز التربة* وتنظيمها إلى حياة اقامة دائمة نسبيا، بالإضافة إلى بناء اجتماعى، لامراء فيه. وأسافل الأكواخ، هى عبارة عن أحواض، يبلغ قطرها ثلاثة أمتار ومزودة بموقد أو موقدين، ومحاطة أحيانا بثقوب للأوتاد، تنتظم فى صفوف متوازية تفصلها مسافات متفاوتة. كما وجدت إلى جانبها مطامير(٥٦)، وهى عبارة عن حفر دائرية قطرها متر ونصف، فى حين كانت هناك بئران لهما درجات محفورة، تتيح الوصول إلى طبقة المياه الجوفية.

ان مجموعة الأدوات الحجرية المرتبطة بها صنعت أساساً من الكوارتز وأيضاً من الصوّان الرمادى الفاتح، وتكشف عن وجود مثاقب، لاسيما ذات الظهر المزدوج والنصال ذات الظهر والرُقَض والأدوات المسننة المصنوعة أحياناً من الشظايا الضخمة أو من النصال. أما الآلات ذات الأشكال الهندسية، فتمثلها أساساً المثلثات. أما الأزاميل والقطع التى تكسرت بصلتها، فهى أقل أهمية. كما نجد القليل من الأدوات المشطوفة الزوايا وأما المباشر والأزاميل القزمية فنادرة، وأخيرا هناك بعض الأسنة ذات القاعدة المدببة.

والأوانى الفخارية موجودة، وإن كان وجودها متواضعاً، وتتمثل فى عشرين شقفة، وكلها مزخرفة بحفر عميق على هيئة حرف V تغطى سطوح الأوانى بأكملها ذات الأشكال البسيطة ومن نوع القصعات. وقد عثر على بقايا أغلفة بيض النعام على هيئة كسر أو خرز جنبا إلى جنب مع أسنة من العظم.

والفونة ممثلة بالأرانب البرية والغزلان بالإضافة إلى بعض الثيران.

وأخيرا، يمكن الربط بين وجود أدوات السحن والطحن بكميات كبيرة وبقايا نباتية تضم حبتى شعير نواتى ستة صفوف، بمعنى أنهما سبق أن زرعتا»!.

ماذا كان يحدث إذن فى الوادى خلال هذه الفترة؟

إن استقصاءات الباحثين البولنديين فيما بين عامى ١٩٦٣ و ١٩٦٥، قد عادت بنا إلى منطقة أركين، عند الجندل الثانى، وعلى وجه التحديد فى المنطقة الممتدة من شرماكى إلى قرب نجع العرب حيث تغطى أربعة مواقع فترة أربعة آلاف سنة!.

إنها تعود إلى تكوين أركين، المكون من إرسابات غرينية مخلوطة برمال ميكائية(١٧) micacés، وهى تراكمات مميزة لتسوية النيل. وبلغت المياه حول ٩٥٠٠ – ٩٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P أعلى منسوبها لتنحسر تدريجياً على امتداد آلاف السنين التالية.

وفى شمال السودان، فإن موقع دبيرة غرب رقم ١، الكائن فى البر الغربى، فى أكثر الطبقات إرتفاعاً، وسط الغرين والرمال، يمثل أقدم سحنة صناعية ضمن هذه المتتالية. ويطلق عليه الأركينى. إن عمليات التاريخ بالاعتماد على فحم الخشب قد اعطتنا تاريخ ١٠٥٨٠ ± ١٥٠ قبل الزمن الحاضر B.P (Wendorf et al. 1979).

إن ثلاثة ارتفاعات موازية للنيل، كانت تكون على ما يعتقد جزيرة أو شطاً، على أقل تقدير، محمياً من ارتفاع منسوب المياه العاتية. وكانت مغطاة بالأدوات والحجر المحروق وبقايا عظام، وتضم ثلاثة عشر تمركزاً أمدتنا بما مجموعه ٩٧١٥٧ منتجاً حجريا.

إن مصدر المادة الأولية، يأتى فى المقام الأول من حصى النيل المتوفرة فوق أرض الموقع. ومع ذلك، فقد كان حجر الصوان والعقيق واليشب والأحجار النارية والخشب الحفرى والحجر الرملى الحديدى، من المواد الإضافية التى استخدمت لإعداد الأدوات الحجرية القزمية، حيث تحتل المباشر مع ذلك (من ٢٦ إلى ٥٢٪) نفس أهمية النصال ذات الظهر، (من ٢٩ إلى ٥٣٪)، ويحتفظ أحدها، على حافته غير المشذبة، بأثر «لمعة الحصاد» "Lustre des moissons". ومن الملاحظ أهمية الأدوات التى تحمل لمسات شذب «أو شتاتا» Ouchtata والقطع التى تكسرت بصلتها والتى تشكلت منها ٥٠٪ من المباشر. أما الأدوات الهندسية الشكل فهى ممثلة تمثيلاً محدوداً على هيئة أجزاء الدائرة التى تتراوح نسبتها من ٥,٧٩ إلى ٦,٩٤٪. وتقنية الأزاميل القزمية، لا وجود لها على الإطلاق. ويظهر على سطح بعض حصى الكوارتز الضخمة انخفاض طفيف، يحتفظ فى مركزه بآثار تشظية، مما يدل على أنها استخدمت كسندان، الأمر الذى قد يرتبط بوجود أعداد كبيرة من القطع التى تكسرت بصلتها. وتنتشر على سطح المكان العديد من كسف الأرحاء المحروقة أو المكسورة. ان رحاً واحدة مازالت تحتفظ باثار السحن والطحن، أما الأخرى فقد أصابها التحات بتشوهات

بالغة. وتمثل ثلاث مصاقل مجموعة العظام المجلية فى الموقع بأسره. ورغم التجانس الذى لا جدال فيه، يبدو التفاوت فى النسب المئوية واضحاً، من تمركز إلى آخر. وقد يعود هذا التفاوت أحياناً لأسباب طبيعية: ويبدو أن تراكم النصال الصغيرة عند أطراف بعض التمركزات يعكس بوضوح «عمليات التنظيف» بواسطة تدفق مياه النيل. ولكن وجود أشكال هندسية على هيئة أجزاء دائرة سميكة فى التمركز رقم «ب» B فقط، دون أى مكان آخر، يعبر عن نمط آخر من التفسير، الزمنى أو الوظيفى.

ويذهب الباحثون البولنديون إلى النظر إلى هذا الموقع المتميز المعزول على أنه معسكر موسمى صغير حيث يهيمن الجاموس وسط بقايا ثيران العصور القديمة والغزلان وأفراس النهر والأسماك وبعض الأبقار.

ويندرج «الأركينى»، من الناحية التيپولوجية، فى إطار صناعات خواتيم العصر الحجرى القديم لشمال إفريقيا، إذ تساعدنا البنية الداخلية الإحصائية لمجموعة النصال الصغيرة ذات الظهر بعقد مقارنات مع الإيبرمعرى Iberomaurusien . ولكن لا تشكل أوجه الشبه هذه سوى عنصر واحد، فالنسبة العالية للمباشر المقترنة بندرة الأزاميل والأزاميل القزمية وهيمنة الأدوات على هيئة جزء الدائرة، ضمن الأدوات ذات الأشكال الهندسية، تجعل «الأركينى» قريباً من «الكريمى» فى افريقيا الشمالية: وفى بادىء الأمر، كانت صناعة «كف القدم» هذه، فى الجزائر، تنضوى تحت مجموعة «الإيبر معرى» العريضة. إلا أن «تكسييه» J.Tixier قد فصلها عنها وكانت مبرراته هى على وجه التحديد، العدد الضخم من المباشر والنصال الصغيرة ذات الظهر. ان عمليات التأريخ بواسطة الكربون ١٤ التى اجريت فى الموقع الكريمى فى «بوعيشم»، قد حددت ١٠٢١٥ و ٩٨٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، وهى إن كانت سابقة بعض الشىء على دبيرة – غرب رقم ١، إلا أنها تظل مع ذلك فى إطار نفس الدائرة الزمنية. ولما كانت تفصل بين الموقعين ٣٣٠٠ كيلو متر بالإضافة إلى فترة زمنية تصل إلى عدة قرون، يصبح من غير الوارد ان نقيم علاقات مباشرة بين المجموعتين على أساس أوجه الشبه التيپولوجية فقط، وإن أخذنا بعين الإعتبار الظروف المناخية السائدة آنذاك والتى كانت تميل إلى الرطوبة. كما توجد علاوة على ذلك، اختلافات نذكر منها، على سبيل المثال، ان القطع التى تكسرت بصلتها Pièces esquillées لا وجود لها فى «الكريمى». ومن الأفضل ان نتوخى الحذر والتبصر فى حديثنا، فنستخدم فى مرحلة أولى، عبارات من قبيل «الرصيد المشترك»، تاركين لمرحلة لاحقه من الأبحاث المتعمقة تقييم أوجه الشبه على أساس النسب المئوية للأنماط.

* * *

تشكل مواقع دبيرة – غرب التى تحدد مكانها فوق الشطآن الإنحسارية[١٨] -regression nelles على ارتفاع ١٢٠ – ١٣١ متراً بالنسبة لدبيرة – غرب 51، و ١٢٧–١٢٨ متراً بالنسبة لدبيرة – غرب 53، و ١٢٦ - ١٢٧ مترا بالنسبة لدبيرة – غرب 3، 3A، 6 بالإضافة إلى دبيرة – غرب 50، ولما كان هذا الموقع الأخير ينتمى إلى العصر الحجرى الحديث، فإن هذه المواقع الخمسة (بعد استبعاد دبيرة – غرب 50) تشكل «الشرماكى»، نظراً لأنها توفر لنا نسباً متقاربة من نفس أنواع الآلات.

ومن مادة أولية تتكون بنسبة ٨٠ إلى ٩٠٪ من حصى النيل، أُعدّت نصال صغيرة ذات ظهر بكميات كبيرة. ويحمل بعضها تشذيب «أوشتاتا»، كما أعدت الأزاميل وبعض الأدوات ذات الأشكال الهندسية كأشباه المنحرف.

وعلى عكس «الأركينى»، فالمباشر قليلة كما يوجد بعض الأزاميل القزمية «كروكفسكى». وتوجد بعض أسنة «بوسعده»، وأسنة سهام حدها مستعرض وبعض القطع التى تكسّرت بصلتها، وأدوات السحن والطحن قليلة. وعلى العكس من ذلك، فإن كُسر وخرز بيض النعام تزخر بها المواقع، ولاسيما دبيرة – غرب 3A. كما توجد بعض أسنة «ونان» فى دبيرة – غرب 3.

ومن ناحية التتابع الزمنى، فإن قطاعاً استراتيجرافياً، يربط دبيرة – غرب 53 و 51 المغطيين بمائة وعشرين سنتيمتراً من الإرسابات بدبيرة – غرب 50 الواقعة فوقهما. إن عملية تاريخ بواسطة الكربون المشع قد أعطت ٧٧٠٠ ± ١٢٠ قبل الزمن الحاضر B.P بالنسبة لدبيرة – غرب 51 و ٥٦٠٠ ± ١٢٠ بالنسبة لدبيرة غرب 50، الأمر الذى يفترض ألفى سنة من التطور، وهو ما يكفى لتفسير الفوارق التى ما فتئت تظهر من موقع إلى آخر. ومع ذلك، فإن عمليات تاريخ جديدة قد أعطت تاريخاً أقدم بكثير بالنسبة لدبيرة – غرب 51: ٨٨٦٠ ± ٦٠ قبل الزمن الحاضر B.P (Wendorf et al. 1979). وبالمثل، فإن المساحات المشغولة، وكانت مساحتها فى حدود ألف ومائتى متر مربع، مع تخصيص مناطق واضحة لعملية تصنيع الأدوات الحجرية، قد زادت من أربعة إلى خمسة أضعاف، فيما بين بداية المرحلة ونهايتها، مما يؤكد أن أسلوب الحياة قد تطور تطوراً ملحوظاً. ولا نعرف سوى النزر اليسير عن إقتصاديات هذه المواقع، حيث تحتل الظباء الإفريقية مكانة بارزة.

ولما كان الشرماكى يندرج ضمن العائلة الكبرى للصناعات التى تعتمد على النصال فقد تم الجمع بينه وبين «القفصى»، الذى ازدهر فى شمال افريقيا فيما بين الألف الثامن والألف الخامس قبل الميلاد. كذلك، فقد تم الربط بينه وبين هذه الصناعات الشرق الإفريقية القائمة

على النصال الصغيرة المصنوعة من حجر السبج، فهذه الأدوات قريبة من «القفصى»، ولذا أطلق عليها «القفصى الكينى» (نسبة إلى كينيا) (Clark, 1970). ولكن تتوقف أوجه الشبه بالنسبة لهذه المجموعات وتلك عند «الرصيد المشترك»، دون أن نصل إلى حدّ التأثير المباشر. وفى مناطق أقرب من الوادى، تظهر مشابهات تيبولوجيه مع «البدو من أصحاب الأدوات الحجرية القزمية» فى الواحات الخارجة. ومع ذلك، فإن هؤلاء الآخرين مختلفون عن المواقع النوبية بفضل أدواتها الدفاعية الجميلة ذات الوجهين.

* * *

فلنهبط النهر متجهين إلى قلب مدينة الكاب الفرعونية، إلى داخل اسوار المدينة، حيث شدت تمركزات الظران silex المصقول انتباه رجال الحفائر البلجيكيين، عام ١٩٦٧. وخلال السنتين التاليتين، كشف فريق «فرميرش» P.Vermeersch النقاب عن صناعة جديدة تعود إلى خواتيم العصر الحجرى القديم epipalèolithique: هى الصناعة «الكابية».

تم رصد ودراسة أربعة تمركزات، واقعة فى غرين النيل الذى ترسب عند مصب وادى هلال[١٩]. وقد اصيب بعضها بالضرر من جراء حفر المقابر فى عصر ما قبل الأسرات.

إن الأدوات متجانسة فى مجملها، وقد صنعت فى معظمها من الحصى المستديرة المدملقة، من وادى هلال، وبنسب أقل من الصوان، من نفس هذا الوادى. وتقتصر الأدوات تقريباً على النصال والنصال الصغيرة، مما يسبغ عليها مظهر صناعة الأدوات الحجرية القزمية، وان كان عدد الأدوات ذات الأشكال الهندسية محدوداً نسبياً. والنصال الصغيرة ذات الحواف المائلة هى السائدة على الدوام، وهى حادة ذات ظهر مستقيم أو هى نصال صغيرة ذات حزّ. والمخارز ذات الحافتين المائلتين، قليلة جداً، وان كانت موجودة مع ذلك، بالإضافة إلى ان الأدوات ذات الأشكال الهندسية تمثلها المثلثات المستطيلة المختلفة الأضلاع وأجزاء الدائرة. والأزاميل القزمية موجودة بوفرة. كما نلاحظ وجود الأزاميل القزمية من طراز «كروكوفسكى» Krukowski، وهى وان كانت قليلة إلا أنها موجودة على الدوام. كما أن الرُفض والأدوات المسننة موجودة بكثرة. وفى المقابل، فإن الأزاميل والمباشر والأدوات المشطوفة الزوايا إما أنها غير موجودة على الإطلاق، أو موجودة بكميات محدودة. ان أجزاء الحجر الرملى المصقول والخشن ترتبط بالضرورة بسحن الصخور كما يحملنا إلى الظن بذلك، وجود المغرة على هذه القطع. وتكتمل القائمة «فى المعتاد فى أغلب الأحوال» بوجود المصاقل - المساوط[٢٠] المصنوعة من العظم بالإضافة إلى أجزاء من أغلفة بيض النعام.

واستناداً إلى عمليات التاريخ بواسطة الكربون ١٤، يتحدد زمن محلات مختلف المستويات فى الكاب حول عام ٨٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، أو ما يعادل الألف السادس قبل الميلاد، دون مزيد من التوضيح.

وقد أكدت دراسة الآثار التى خلفتها الفونة على وجود الأسماك (الشال واسمه العلمى synodotis وقشر البياض واسمه العلمى lates و القرموط واسمه العلمى Clarias. وجميع هذه الأنواع مازالت موجودة فى الوقت الراهن) إلى جانب ضرب من الثيران القديمة والغزال المصرى والبقريات ذات الأحجام المتوسطة (الكبش البرى؟) والسلاحف وأفراس النهر وبكميات أصغر بنات آوى والخنازير. وكانت مناطق الصيد تضم، كما هو واضح، السافانا المعشبة والمشجرة من ناحية والسهل الغرينى من ناحية أخرى، حيث لا تتردد غزلان المرتفعات شبه الجافة فى الحضور لترتوى فى الفصول الحارة إبان الفيضانات السنوية. كما أن صيد القرموط الذى كان يتم فى المياه الضحلة للسهل المغمور بمياه الفيضان إنما يوحى بشغل هذه المواقع صيفاً (من منتصف يوليو وحتى منتصف نوفمبر). ويأتى غياب الطيور المهاجرة ليقدم الدليل على صحة هذه الفكرة، على افتراض كما يؤكد «فرميرش» «أنها لا تقوم على *عينة خاطئة*». كذلك فإن الظباء الإفريقية غائبة أيضاً، وإن كانت موجودة بكل تأكيد فى الأركينى والشرماكى، حيث أن مناطق الصيد هنا، هى شديدة الشبه بمثيلتها فى المناطق السابقة: لوجود السهل الغرينى. ويعزو «جوتييه» A.Gautier (1978,111) الأمر إلى أنه نظراً إلى أن البشر كانوا لا يشغلون المواقع إلا صيفاً، تكون الظباء الإفريقية قد غادرت هذه الأماكن خلال هذا الفصل من فصول السنة، حيث كانت تعج بالمستنقعات. فما كان فى الإمكان أن يتصادف وجودها، فكان الصيادون يحتاجون إلى التركيز على ثيران العصور القديمة وافراس النهر والغزلان وكانت مصدرهم الأساسى من البروتين كما يبرهن على ذلك الحساب العبقرى لتواتر الأنواع الحيوانية.

كان صيادو الأحياء البرية والمائية هؤلاء، من البدو الذين يرحلون بصفة دورية فى اتجاه الفرع القديم للنيل الجارى طمره، المتمثل فى موقع الكاب والذى تغمره مياه الفيضان خلال أشهر الصيف. وكان يحدث إيراد إضافى خلال فصل الشتاء عن طريق وادى هلال. وقد تميزت محلات إقامتهم بالبساطة: فالمواقد مدعمة فقط بكتل من الحجر الرملى، مع غياب أى عنصر يتعلق بجمع الحبوب (يبدو أن الأرحاء كانت مخصصة لسحن الصخور) وكانت أدواتهم من النصال الصغيرة المدببة، مخصصة فى المقام الأول للصيد البرى، كل ذلك، يقدم لنا صورة لنمط حياة من العصر الحجرى القديم، يتعارض مع أولى القرى وأولى الأوانى الفخارية فى الصحراء الكبرى، كما سنتعرف عليها فى الشرق الأدنى المجاور.

ثم نتجه شمالاً، منحدرين فى النهر، مسافة ٦٠٠كم، حيث تشكل واحة الفيوم، المرحلة التالية، لتزويدنا بالوثائق.

وكانت هدفاً لأربع بعثات استكشافية، فيما بين ١٩٢٤ و ١٩٢٨، من جانب «جاردنر» E.W. Gardner و «كيتون تومبسون» G.Caton-Thompson (1934) اللذين أعجبا بتراجع البحيرة على مراحل متعاقبة. وبناء عليه، فإن مجموعة، تعود بكل وضوح إلى العصر الحجرى الحديث، وتعرف اصطلاحاً بالفيوم «أ»، وقائمة عند أطراف شاطىء، ترتفع عشرة أمتار فوق سطح البحر، وجدت نفسها سابقة على محلة لها سمات خواتيم العصر الحجرى القديم، وتعرف اصطلاحاً بالفيوم «ب»، ولكنها تقع عند مستوى أدنى، عند ارتفاع مترين فوق سطح البحر. ومن هنا جاءت فكرة «اضمحلال» الفيوم «أ» إلى الفيوم «ب».

وقد انقضت ثلاثون سنة، قبل أن يتوصل «أركل» Arkell و «أوكو» Ucko (1965) ثم «وندورف» (1976) من بعدهما إلى إيضاحات تعكس ما قاله الرائدان البريطانيان، وذلك بفضل عمليات التأريخ بالكربون المشع من ناحية، وبالتحليلات الجيومورفولوجية الجديدة، من ناحية أخرى. إن تاريخ مختلف بحيرات الفيوم فى فترة الهولوسين، هو فى واقع الأمر أكثر تعقيداً، فقد تغير إبانه منسوب المياه، متناوباً بين ارتفاع وانخفاض حاد.

إن الإستكشاف الذى قام به فريق «وندورف»، فى السبعينات، فى عدد من المواقع إلى الشمال من بحيرة قارون، فوق هضبة قصر الصاغة، قد أماط اللثام عن محلة تعود إلى خواتيم العصر الحجرى القديم، مرتبطة ببحيرة «ماقبل مويريس»[٢١] PrèMoeris، التى أطلق عليها القارونى. ويذهب «وندورف» (1976,182) إلى أن تمركزات الأدوات فى الموقع E 29-H 1 قد تتفق والفيوم «ب» وفقاً لـ «كيتون – تومبسون» ويمكن تحديد تاريخها بـ ٨١٠٠ ± ١٣٠ قبل الميلاد. أن الحصى الواردة من رصانص[٢٢] conglomèrats عصر الأوليجوسين فى جبل القطرانى المطل على هضبة قصر الصاغه قد وفرت المادة الأولية لصناعة اعتمدت فى ٥٠٪ منها على النصال والنصال الصغيرة ذات الظهر حيث يمثل الظهر المحدب بقواعده المصقولة نسبة كبيرة (من ١٨ إلى ٣٠٪)، تليها النصال الصغيرة ذات الظهر المستقيم (من ١٤ إلى ١٨٪). وتمثل الرُقَض والأدوات المسننة نسبة لها وزنها (من ٩ إلى ١٧٪)، فى حين لا تظهر الأدوات ذات الأشكال الهندسية المكونة أساساً من المثلثات وأشباه المنحرف سوى بكميات محدودة، شأنها شأن الأدوات المشطوفة عند أطرافها والمصنوعة من النصال الصغيرة (من ٣ إلى ٩٪) والأزاميل القزمية (٤٪) – لاسيما الأزاميل «كروكوفسكى» القزمية. والمثاقب نادرة والمباشر قليلة. ولا وجود للأزاميل. كما صنعت بعض الخطاطيف من فكوك أسماك القرموط.

ومن ناحية أخرى، فإن تحليل الفونة يؤكد على وجود اقتصاد قائم أساساً على صيد السمك، ويحتل قنص الثدييات الكبيرة وجمع الثمار مكانة أقل شأناً (Brewer, 1987).

وفى الأعوام ١٩٦٦ – ١٩٦٨، تعرف معهد الباليثنولوچيا فى روما إلى الشمال الشرقى، من المواقع التى درسها «وندورف» على مجموعة تمركزات مشابهة للقارونى، وإن كانت نسب أنواع الأدوات المستخدمة – تختلف إختلافاً كافياً للإيحاء بوجود قطاعات أنشطة أخرى (Mussi, Caneva, Zarattini, 1984).

وبعد مرور سنة، كشف فريق من الباحثين المصريين والإمريكان والبولنديين العاملين فى إطار Combined Prehistoric Expedition فيما بين قصر الصاغة وكوم أوشيم – فى الموقع E29 G1 – كشف عن دفنة مرتبطة بمستوى المحلات القارونية. (Henneberg et al. 1989).

كان الهيكل العظمى مسجىً على الجانب الأيسر، فى وضع محنىٍ والرأس جهة الشرق، وينظر إلى الجنوب، وكان مدفوناً فى الرمال البحيرية لبحيرة «ما قبل مويريس»، على ارتفاع ١٧ متراً تقريباً. انها امرأة فى الأربعين من عمرها تقريباً، يبلغ طولها حوالى ١٦٠سم، من نوع أحدث من أنواع « المشتى »[٢٣] الكلاسيكية. إنها أكثر نحافة، ولها أسنان عريضة مثبتة على فكين عريضين، وتشبه فى بعض ملامحها الزنوج الحاليين.

* * *

وعلى مسافة لا تبعد كثيرا عن الفيوم، فإن محلات حلوان الواقعة على بعد حوالى ٢٥ كم إلى الجنوب من القاهرة، وترتبط بالتطورات المعاصرة التى شهدها عالم الشرق، قد جادت على علماء الآثار، فى الفترة من ١٨٧١ و ١٩٥٠، بآلاف النصال والنصال الصغيرة والآلات القزمية الهندسية الشكل، والجانب الأكبر منها على هيئة جزء الدائرة. ولكن من بينها تلك القطعة الشديدة التميز وهى *«نصل مدبب شُذِّب جانباه أو لم يشذبا، ونقر نقرا متقارباً على الجانبين»* (Brezillon, 1971, 252) . وقد أطلق عليها اصطلاحاً «أسَلَة (سن) حلوان »، ويبدو كما لاحظ «برزيون» M.Brezillon (1971, 320) أنها لا تختلف كثيرا عن «أسلة الخيام». وفى ختام تحليل تيپولوچى يتتبع التطور الزمنى للسهام المنقورة فى سوريا، يقترح «كوڤان» M.C.Cauvin (1974) التخلى بكل بساطة عن تسمية «أسلة حلوان» الشديدة الغموض. وذهب «جارود» D.Garrod (1932, 1937) إلى وجود أوجه شبه كبيرة بين هذه الصناعة والناطوفى فى فلسطين. إن «ديبونو» F.Debono (1948) الذى كان من أواخر من استكشفوا هذه المواقع، قد لاحظ وجود مواقد وعظام حيوانات وبقايا أغلفة بيض نعام إلى جانب نوع من الأصداف (المعروف بالدانتاليوم dentalium) وهو ما يؤكد بشكل من الأشكال، وجود روابط

بالبحر. ومن الصعوبة بمكان أن نكون فكرة أكثر وضوحاً عن صناعة حلوان، بالنظر إلى افتقارنا إلى النشر العلمي، وإن كانت لن تتجاوز على كل حال «الرصيد المشترك» لصناعات النصال الصغيرة والأدوات الهندسية الشكل.

الشرق الأدنى

عرف الشرق الأدنى المجاور، فيما بين ١٢٠٠٠ و ٧٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، تطوراً حضارياً ملحوظاً. تولى فريق «كوفان» J.Cauvin، من مدينة ليون Lyon الفرنسية دراسته دراسة مستفيضة. وعنه ننقل النقاط الرئيسية للمعطيات التالية.

لقد بدأت حياة الاقامه الدائمة، حول ١٢٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P في فلسطين، مع ظهور الناطوفي.

ومع ذلك، يرى «كوفان» J.Cauvin (in: Aurenche, 1981) أن مختلف ثقافات خواتيم العصر الحجري القديم التي سبقتها: الكباري الهندسي «أ» و المشأبي في سيناء والكباري في النقب، هي «تحديد مكاني *للنطاق الجغرافي للثقافة الناطوفية*».

ومنذ ذلك العصر، ارتسمت الملامح التي سوف تشكلها: الموئل الذي خرج، منذ ١٤٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، بعيداً عن الملاجىء الطبيعية في المغارات ليستقر في الأماكن المفتوحة، على هيئة بنىً من الحُفر وأدوات السحن.

ولكن في الفترة من ١٢٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P أزدهرت قرى بأكلمها، فوق مواقع على قدر من الأهمية مثل «ملاحة» و «حايونيم»، وكانت مساحة هذه القرى تتراوح بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠م٢، وقد أقيمت عند شاطىء البحيرات أو مجاري المياه، وتتكون من منازل دائرية أو بيضاوية نصف مدفونة، ويتراوح قطرها من ٢٥٠سم إلى سبعة أمتار ومجهزة بأرضية من البلاط وحُفر وأجران ومواقد مبنية. وتشهد بقايا جدران من الحجر الغفل المتراص دون ملاط، وحائط من الطوب اللبن شيد فوق أساسات من الحجر في إحدى الحالات (**بيضة**) وجدار عليه طبقة من الطلاء، في حالة أخرى (**ملاحة**) – تشهد بما يكفي بالمستوى الذي بلغته أبعاد شغل هذا المكان، وتندرج هذه القرى لأول مرة، كمحلات للسكن، وإن لم تكن دائمة إلا إنها رئيسية، على الأقل، وقد تكون هذه المحطات التي تفتقر إلى أي أثر معماري، مجرد محلات موسمية.

وتظل الأدوات المرتبطة بهذه الموائل، هي الأدوات القزمية، في إطار التقاليد السابقة، وقد صنعت من نصال صغيرة ذات ظهر، وإن تعددت الأدوات على هيئة أجزاء الدائرة التي

ظل ينظر إليها لأمد طويل على أنها «الآلة النموذجية» المميزة لهذه الثقافة. وإلى جانب الأدوات الحجرية القزمية، المنتشرة في كل مكان، فإن النصال ذات الظهر، وأسلات «الخيام»، والأدوات المشطوفة والمباشر والأزاميل والمثاقب والرُقَض والأدوات المسننة، والنصال والشظايا المصقولة، بالإضافة إلى كل ما تضمه من تنويعات داخلية، التي تعكس في شمولها مجموعة الأدوات «الكلاسيكية» التي كانت تحت تصرف الصيادين – جامعي الطعام الذين عاشوا قرب نهاية العصر الحجري القديم، بدأت تتسلل بعض الجماعات الجديدة التي يمكن النظر إليها على أنها من إرهاصات أومقدمات الأزمنة الأحدث: القواطع الحادة للمناجل بحافتها اللامعة وأسنة الرماح والمعاول والأدوات ذات الوجهين.

واستخدم الحجر الجيري والبازلت والحجر الرملي في اعداد أواني ذات أشكال بسيطة (قصعات وطاسات واقداح) ومدقات وأرحاء وأحجار للسحن ومصاقل. وإذا بدا أن الأواني الحجرية الأولى، كانت تلازمها المدقات، منذ المستويات الكبارية في النقب التي يعود تاريخها إلى ١٥٧٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، فقد أخذت أعدادها تزداد منذ الناطوفي، على وجه التحديد.

أما الصناعات العظمية فإنها ممثلة على نطاق واسع بالخطاطيف والمثاقب والشصوص والمصاقل ومقابض المناجل.

وأخيراً فقد عرف الفن ازدهاراً، دون مقدمات تمهد له، ودون استمرارية وتواصل، فيما بعد مباشرةً. لم يكن الأمر مجرد حليّ من الأصداف والأسنان المثقوبة وعناصر من العظم وأنواط[٢٤] الأقراط ذات الفصين أو على هيئة عُصَيّة التي تحتاج إلى صقل وجلْي، ولكن أيضاً التماثيل الآدمية الصغيرة، وعلى نحو خاص، التصاوير الحيوانية المجسمة التي تزخرف أحياناً أطراف الأدوات. «لقد اسهم (الفن) بفضل نوعية تجلياته وتباينها في التشديد على الإنطباع العام بما حققه الناطوفي من نجاحات مادية» (Vala, 1975, 111).

وكان «القناصون – جامعو الطعام – الصيادون» الذين استقروا في مناطق البيئة الطبيعية للقمح والشعير وراء هذه «النجاحات المادية»، ولما يستخدموا الحبوب.. أو الفخار ولما يستأنسوا الحيوان.

وتثير الدفنات داخل القرى قضية علاقاتها الحقيقية بالمنازل. إنها عبارة عن دفنات وحيدة أو متعددة، أولية أو ثانوية، على هيئة حفر بسيطة. ولا يلتزم الوضع على هيئة الجنين ولا اتجاه الجسد بنظام ثابت. وتتكون التقدمات الجنائزيه الوحيده من بعض الحليّ.

واستحدث الطور اللاحق من ١٠٣٠٠ إلى ٩٦٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، ابتكارات معمارية وتكنولوجية، على قدر كبير من الأهمية، على خلفية ناطوفية، ظلت باقية. وأخذ شغل المواقع يزداد ندرة تدريجياً، يعوضه ظهور تجمعات سكنية ذات مبانٍ ضخمة، ومنها أريحا على سبيل المثال، حيث ترتفع الجدران المشيدة من الحجر المصقول أو قوالب الطوب اللبن. وأخذت الآلات الحجرية القزمية تتناقص إلى أن اختفت تماماً، فى حين تزايدت أسنة الرماح وظهرت أولى الفؤوس المصقولة. وتراجع الفن الناطوفى، وكان فناً حيوانياً فى المقام الأول، لتحل محله، فى مريبات، بوادى الأردن، فيما بين ١٠٠٠٠ و ٩٨٠٥، قبل الزمن الحاضر B.P، التماثيل النسائية الصغيرة، النمطية فى بساطتها، وهى مصنوعة من الحجر الجيرى، أو الفخار وذلك قبل حوالى ألف سنة على اختراع الفخار كمتاع منزلى! إن هذا التجسيد للملامح النسائية التى تميل إلى حدّ كبير إلى جمود القولبة، إلى جانب الكشف منذ ١٠٣٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، على جماجم عجول مطمورة فى الأرائك الطينية داخل المنازل، كشواهد على وجود اهتمامات ذات دلالات رمزية، قد أوحت لـ «كوفان» .J.Cauvin (1972، 1994)، بأن هاتين الصورتين وهيمنتهما إبان العصر الحجرى الحديث فى الشرق الأدنى، قد ظهرتا لتؤكد على مكانة المرأة والثور.

ولكن أولى التجارب الزراعية ظهرت فى سوريا عند أطراف الناطوفى، منذ ٩٨٥٠ قبل الزمن الحاضر B.P. (Aurenche et Cauvin, 1989). واذا كان طور مريبات الثالث، فى منطقة الفرات الأوسط، يشهد على تصاعد حاد للعناصر ذات اللمعة وأدوات السحن وحبوب الغلال التى مازالت برية، فقد أمكن التحقق، فى المقابل، أن القمح البرى المعروف باسم «إمر» - الحنطة - (واسمه العلمى Triticum dicocum) والبسلة (واسمها العلمى Pisum sativum) والعدس (واسمه العلمى lens culinaris) كانت موجودة فى قرية تل الأسود ذات المنازل الدائرية نصف المدفونة، وهى معدة من الناحية المورفولوجية للاستخدام المنزلى. ويمكن ان نقول نفس الشىء، عن شعير «نتيف حجلود» فى وادى الأردن الأسفل، والقمح البرى والشعير من مستوى PPNA (أى عصر ما قبل فخار العصر الحجرى الحديث « أ »، Pre - Pottery - Neolithic A) فى أريحا.

إن الفترة من ٩٦٠٠ إلى ٨٦٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، المطابقة لـ PPNB فى أريحا، سوف تشهد الإنتقال إلى العمارة المستطيلة الشكل وظهور السلاح المطور بأسنته ذات اللمسات المصقوله المنبسطة، وتعميم الزراعة ومستودعات الجماجم البشرية المُشكَّلة، فى اريحا. واستقرت ظاهرة الإنتشار الأولى فى إتجاه الشمال الشرقى، فى جنوب شرق الأناضول، وفى الجهة المقابلة، فى اتجاه الجنوب الشرقى.

واستئناس الماعز والخراف، فى ذلك العصر، لم يثبت بالدليل القاطع، وإن كان ممكناً. ولو لاحظنا وجود آثار للخراف والماعز فى شتى المواقع، إلا أن البراهين المورفولوجية الدالة على استئناسها لم تظهر بعد واضحة جلية.

وفيما بين ٨٦٠٠ و ٨٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، سوف تتفجر بواكير العصر الحجرى الحديث المشرقى، فتخرج من إطار بؤرتها لتشغل وسط الأناضول والشريط المطل على البحر المتوسط فى المشرق، مع تأسيس «بيبلوس» وتشغل القطاعات الصحراوية من سيناء إلى المنطقة السفلية من بلاد الرافدين التى كانت قد هُجرت قرب خواتيم العصر الحجرى القديم، وهكذا فقد تأكدت بوضوح تربية الخراف والماعز، كما ظهرت تربية الأبقار حوالى عام ٨٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P. وأخيراً وإلى جانب «أدوات الطعام البيضاء» من الجص أو الجير، الذائعة الصيت، بدأت تلوح الأوانى الفخارية الأولى، فى بعض مواقع الشمال الشرقى (LE Mière, 1979). ولكنها ستقوم إبان المرحلة اللاحقة، على نحو خاص، فيما بين ٨٠٠٠ و ٧٦٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P بفرض تنوع أشكالها وزخارفها فى ربع الشرق الأدنى.

وحول ٨٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، انتهى «عصر ما قبل فخار العصر الحجرى الحديث - ب» PPNB، فى سيناء وفى قسم كبير من الشرق الأدنى، نهاية مفاجئة، مردها على ما يظن إلى تطور مناخى فى اتجاه الجفاف، كما يظهر ذلك فى الشمال الأفريقى.

إن إعادة شغل مناطق صحراوية، فى هذا العصر، من جانب جماعات تمارس اقتصادا يختلف عن إقتصاد الذين عرفوا حياة الإقامة الدائمة من المزارعين - الرعاة الذين شاهدنا مراحل تكوينهم، ليطرح قضية البداوة الرعوية فى بلاد المشرق بعبارات جديدة. ويبدو أن العودة إلى المنازل ذات البنى المستديرة والقواعد الحجرية والأدوات المتميزة - فى مواقع ذات «الأزاميل» - واتضاح القيام بتربية الماعز والخراف فى بعض المواقع أو مجرد وجود بعض الأنواع التى تم اصطيادها فى أماكن أخرى - كل ذلك هو بمثابة قرائن تنم عن استراتيجية تقوم على التجوال، تكيفت مع بيئة أقل مواءمة.

وقد ظل العلماء لزمن طويل، يحددون الشرق الأدنى الباهر بصفته الموقع الذى تعود إليه أصول العصر الحجرى الحديث فى وادى النيل. فحياة الإقامة الدائمة والزراعة واستئناس الحيوان و صناعة الفخار كانت معروفة فيه «من قبل»، وما كان الأمر يحتاج سوى ان ينتشر كل ذلك فى اتجاه الغرب.

ومع ذلك، يبدو سياق العمليات من واقع الصورة التى رسمناها لتو نا على ضوء الأبحاث القريبة العهد، أكثر تعقيدا مما افترضه العلماء فى بادىء الأمر.

بل إن مفهوم «العصر الحجرى الحديث» ذاته قد اكتسب فى السنوات الأخيرة تعقيدا استوجب إعادة طرح العديد من التصورات على بساط البحث. فقد كان الإتجاه العام منذ «ثورة العصر الحجرى الحديث» التى قال بها «جوردون شايلد» Gordon Childe، عام ١٩٣٠، يميل إلى النظر نظرة لها دلالتها إلى الإنتقال من «وضع جامع الطعام» (الصيادين جامعى الطعام) إلى «وضع منتج الطعام»، وأنها طفرة جوهرية، ترتبت عليها مجموعة من التحولات الإجتماعية والثقافية. ولنا أن نتصور إلى أى مدى يعانى هذا التعريف من التبسيط الذى يكتفى بالخطوط العريضة، لأن البشر كما لاحظنا ذلك، فى افريقيا والشرق الأدنى، على حد سواء، يتجمعون، ويحطون الرحال، ويجددون وسائلهم التكنولوجية قبل أن يطوعوا النبات ويستأنسوا الحيوان.

إن ظواهر من قبيل حياة الإقامة الدائمة sédentarisme وزيادة السكان وتمركزهم والتحولات التى تطرأ على الأدوات والسيطرة على النبات والحيوان التى تمثل فى «أوج العصر الحجرى الحديث» كلاً واحداً، قد اختلفت أدوارها، من منطقة إلى أخرى، وخطت إلى الأمام بخطوات متباينة. ويكفينا أن ننظر إلى احتلال حياة الإقامة الدائمة مركز الصدارة، إلى جانب أعمال الصقل كعلامة من علامات الأبهة، فى الناطوفى بفلسطين، وتصدر تربية فصيلة الماعز فى أولى القرى التى شيدت فى زاجروس[٢٥]، منذ الألف الثامن قبل الميلاد (Dolfus, 1989).

وتظهر فى الحالة الأولى علامتان من العصر الحجرى الحديث، تسجلان على خلفية من الأدوات الحجرية القزمية، فى مجتمع، تظل استراتيجيته الغذائية «المتشعبة» هى استراتيجية خواتيم العصر الحجرى القديم. وفى الحالة الثانية، يتخذ الإنتقال إلى أسلوب جديد شكل البؤر البيئية فوق المرتفعات، بلا زراعة وبلا أوانى فخارية وبلا حجر مصقول، وبدون أن يستأنس من الأنواع الحيوانية سوى الماعز. «فالشىء المهم إذن - كما يلاحظ آل «كوفان» J. et M.C. Cauvin (1985 - 1073) - ليس مفهوم العصر الحجرى الحديث، الذى يشير، بكل ما ينطوى عليه من دلالة، إلى اكتمال عملية معقدة، بقدر ما يقصد به مفهوم تشكل العصر الحجرى الحديث الذى يشدد على دينامية العملية ذاتها، ويقر بتنوع المسارات الخاصة».

وفى مواجهة هذا الغليان الشرقى، واصل وادى النيل تقاليده، فظل محتفظا بأسلوب قائم على الصيد البرى والصيد النهرى وجمع الطعام (الأركيني والكابى والقاروني)، ليقيم بصفة موسمية فى مواقع قائمة على التغير المنتظم والطبيعى الذى يطرأ على الإطار البيئى من جراء فيضانات النيل. هذا الإستغلال القائم على نظام ثابت للمجارى المائية التى خلفها الفيضان والزاخرة بالقراميط، وللسافانا المجاورة المأهولة بثيران العصور القديمة،

ولترقب عودة الغزلان إلى ضفاف النهر مع بداية موسم الحر الشديد، وحصاد الغلال البرية التى تنمو عند حواف مدرجات النهر، واستخدام الموارد الحجرية المحلية إلى أقصى حد، كل ذلك قد جعل هجرات العصر الحجرى القديم لا طائل منها، وأوجد حساً ما، ساعد على إدراك معنى الإرتباط بالأرض الذى جاء التعبير عنه، فى أوج فترة الجفاف، من خلال «التكيف النيلى»، وجاء أقوام خواتيم العصر الحجرى القديم، ليصبحوا ورثته، إذا صح التعبير. يضاف إلى ما سبق، الدور المتزايد الذى لعبته الغلال البرية فى عملية التغذية، والميل إلى شغل الأرض لمدة أطول، وممارسة عمليات التخزين مما يوحى بعملية إنضاج بطيئة.

إن المعطيات التى توفرت خلال العشرين سنة الأخيرة[٢٦]، من العمل غرب النيل، قد ألقت ضوءا جديدا على قضية تشكل العصر الحجرى الحديث فى وادى النيل.

وعند حافة المناطق الجبلية من الصحراء الكبرى، وفى قاع المنخفضات التى تغذيها بحيرات السبخة playas، ظهرت منذ الألف الثامن قبل الميلاد، جماعات شبه بدوية وفدت من المناطق التى ظلت مأهولة إبان فترة الجفاف فى عصر مابعد العاطرى، وكانت تعيش على الصيد البرى وصيد الأسماك وجمع الطعام وتحمل معها أولى الأوانى الفخارية المعروفة فى هذه المنطقة، والتى لا نعرف على وجه التحديد من أين جاءت. ويذهب «روزيه» J.P.Roset إلى أن أوانى تاجالاجال الفخارية، ليست نموذجاً لأولى المحاولات فى هذا المجال، بل أنها تشهد، على العكس من ذلك، على امتلاك ناحية أساليب الانتاج. وفى جزء آخر من العالم، برهن «تستارت» A.Testart (1977)، فى أستراليا، على أن الإبتكار المبكر للأوانى الفخارية كان يسير جنبا إلى جنب، مع السيطرة على عالم البنات، منذ نهاية العصر الحجرى القديم. لقد لاحظ «روزيه» بخصوص تاجالاجال، أننا أمام أحد أمرين، فإما علينا أن نبحث عن بدايات الأوانى الفخارية فى مكان آخر، وهو أمر غير مستبعد، وإما أن صانعى الأوانى فى هذا الموقع لا يبعدون كثيراً عن بداية فنهم. وإلى الشرق قليلاً، فى القراطين، عثر على نفس النوع من الأوانى الفخارية فى بيئة مغايرة تقوم على تقليد راسخ فى صنع الأدوات الحجرية القزمية، لا وجود له فى أواسط الصحراء الكبرى، حيث كانت تكنولوجيا الحجر على علاقة عكسيه مع نوعيه الأوانى الفخارية. ومع ذلك فإن أسنة الرماح الجميلة الصنعة تحملنا على القول بوجود ثقافة خاصة بهذه المنطقة.

ولكن ماذا نقول عن وجود حبتين من الشعير العارى[٢٧] ذى الستة صفوف، فى نبته، وتعودان إلى العصر الحجرى الحديث القديم، حول عام ٩٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P؟

من المتفق عليه بعامة (نموذج «بريدوود» Braidwood) أن بدايات الزراعة، مثل بدايات استئناس الحيوان، لا يمكن أن تكون قد حدثت إلا فى أنساق بيئية مواتية، أى حيث الأنواع

المتوحشة القابلة للإستئناس ممثلة على نطاق واسع، أو فى المناطق الهامشية (نموذج «بنفورد» Binford)، من جراء الإنفجار الديموغرافى وهجرة الصيادين – جامعى الطعام الذين عرفوا ما يشبه حياة الإقامة الدائمة، فى اتجاه أصقاع أقل مواتاة. ولا تنطبق أوصاف منخفض «نبـتـه» على هذا النموذج أو ذاك فالموئل الطبيعى للشعير البرى فى إفريقيا ينحصر اليوم فى حدود منطقة قورينائية (برقة) كما أن القمح لا وجود له (El Hadi-di, 1980). ومع ذلك، لا يصح ان نستنتج من ذلك، أن هذا النوع أو ذاك، أو كليهما، كان لا وجود له، فى النطاق محل دراستنا. إن انتقال السكان هو، على كل حال، من الامور التى يمكن أن تدخل على كل حال فى الحسبان، وإن كان من الصعوبة بمكان أن نلم به، فى حدود معارفنا الراهنة. ويبدو مع ذلك انه من عدم التبصر وقلة الفطنة أن نذهب إلى الحديث عن الزراعة استناداً إلى وجود حبتين لهما مورفولوچية مستأنسة. وإذا كان «نوع من الشعير»، كما يؤكد «موزّولينى» Muzzolini (1989, 156) «كان ينبت فى منطقة محدودة من سهوب وسط الصحراء الغربية، كسمة مميزة لها، فإن جمعه، وإن تم على نطاق واسع، أو حتى زراعته زراعة «أولية»، لم يكن يحمل بالنسبة لأهل خواتيم العصر الحجرى القديم من دلالة سوى دلالة مماثلة لجمع ثمار التجليات البرية الأخرى».

وتُطرح قضية البقريات على نحو مختلف، فقد ذهب «جوتييه» A.Gautier (1984,69-72) إلى أن استئناسها فى منخفضات الصحراء يبدو أمراً ممكناً.

فبعد أن يستدل «جوتييه» إلى أن البيئة كانت من القسوة بمكان، حتى تستطيع ان تتحمل وجود قطعان ثيران العصور القديمة – فمتوسط الأمطار يقل عن ٤٠٠ مليمتر فى السنة، فى حين يحتاج الأمر إلى ما يتروح بين ٤٠٠و٦٢٥ فى منطقة كردفان – دارفور لحياة القطعان المتوحشة وأن معطيات «قياس العظام» Ostéometriques توفر تصنيفاً للعجول المتوحشة «الصغيرة» وللعجول المستأنسة «الكبيرة»، ينتهى «جوتييه» إلى احتمال أن تكون أنواع من فصيلة البقريات قد جلبت بمعرفة البشر. ويظهر وادى النيل على اعتباره موطناً أصليا محتملا: فقد تأكد أن القطعان المتوحشة موجودة فيه، وأن علاقة رمزية تربط الإنسان بهذا الحيوان، منذ أقدم الأزمنة، كما يتضح ذلك من قرون الجبانة رقم ٨٩٠٥ فى توشكا، وأخيراً، فإن الأدوات الأركينية تسجل تشابها مع الشمال الإفريقى والصحراء الكبرى. ويذهب المؤلف إلى أنه من غير المستبعد إذن، أن عمليات استئناس «أولية» لفصيلة البقريات قد أدخلت من وادى النيل إلى إلى شرق الصحراء الكبرى، من جراء الروابط التى قامت بين صيادى الصحراء الكبرى وساكنى ضفاف نهر النيل (المواقع الأركينية) التى تحتل عندهم فصيلة البقريات مكانة متميزة، منذ عصور موغلة فى القدم. ومن الراجح أن عجلاً مستأنساً استئناساً تاماً، قد أعيد إدخاله إلى وادى النيل، فى زمن

لاحق، عندما طرد الصيادون – جامعو الطعام من الصحراء الكبرى تحت وطأة الجفاف الزاحف، قاصدين ضفاف النيل، ليستقروا بها، فى هذه المرة. صحيح أن هذه الصورة المقترحة التى أعاد رسمها «جوتييه» تغرينا بقبولها، إلا أنها تحتاج أن تدعم بوثائق أركيولوجية يمكن الركون إليها أكثر من ذلك. فإلى يومنا هذا، لم يتم العثور على عجل مستأنس واحد فى المواقع الأركينية، ولا فى أى نقطة على امتداد الوادى، تعود إلى هذه الحقبة. أما رفات جبانة توشكا، فقد سبق أن لاحظنا أن ارتباطها بالهياكل العظمية لا يمكن النظر إليه على أنه أمر مؤكد. أما «موزولينى» الذى لم تقنعه حجج «جوتييه» فإنه يقترح نموذجاً آخر (1989, 154): «نموذج قطيع من ثيران العصور القديمة يعيش بجوار السهوب التى سبق الإشارة إليها، وان كان يرتبط إرتباطاً مؤكداً بنقاط المياه فى سبخة نبته: إن نوع المعيشة هو إذن من النوع الذى تتوفر عنه أوصاف غزيرة، معيشة الصيادين المجدليين[٢٨] الذين كانوا يحيون فى الغالب على قطيع من حيوان الرنة[٢٩] الموجود فى زريبة طبيعية».

وحتى الألف العاشر قبل الميلاد، أكتسب بالتدريج تطور الإنسان على امتداد نهر النيل خصو صياته و صفاته المميزة، ولكنه لم يختلف اختلافا جوهريا عن تطور المناطق المجاورة. إن التعقيد والثراء اللذين تلمسهما فى عصره الحجرى القديم الأوسط يفتحان الباب أمام مجالات رحبة من البحث. لقد سبق أن رأينا مدى الدينامية التى استطاع أن يتميز بها هذا التطور فى إدخال وتقدم ثقافات الآلات الحجرية القزمية.

ومن الألف العاشر إلى الألف السادس، قبل الميلاد، افلت هذا التطور من الطفرات الهائلة التى أصابت الشرق والغرب، ليوا صل تقاليد العصر الحجرى القديم. ومن الراجح أن سبب هذه الحقيقة يعود إلى وفرة الموارد الغذائية الطبيعية. فقد كان الصيد النهرى والصيد البرى وجمع الطعام تشكل أسلوبا فى الحياة، كان أبناء وادى النيل قد تكيفوا معه إلى أبعد الحدود، منذ آلاف السنين. إن طور الجفاف الذى حل عند منتصف حقبة الهولوسين، سوف يقلب هذه الأو ضاع رأسا على عقب، ليقذف، مرة أخرى، جماعات الصحراء الكبرى والصحراء الشرقية، بلا أدنى شك، فى اتجاه هذه المنطقة الملاذ الأمن.

ثانيا طور الجفاف في منتصف الهولوسين
٨٠٠٠/ ٧٥٠٠ – ٧٠٠٠/ ٦٥٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P

وحول عام ٨٠٠٠/٧٥٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P سادت فترة جديدة من الجفاف، افرغت الصحراء من البشر، لتدفع بهم نحو نقاط المياه الباقية.

وتحول النيل مجددا إلى وظيفته كمنطقة ملاذ آمن.

ان هذا الطور المناخى القاسى، الذى ساد وانتشر، قد تم توثيقه فى أرجاء الصحراء الكبرى توثيقاً جيداً (Muzzolini, 1983, 108-110)، ولكن التعرف عليه فى الصحراء الغربية يحمل المزيد من التباين والدقائق بفضل أعمال «وندورف» وفكرى حسن، التى لخصها فكرى حسن (1986). ان فترات قصيرة غير رطبة إلى حدٍ كبير تتخلل التطور العام نحو مناخ أكثر جفافاً بالمقارنة مع العصر السابق. وهكذا، فإن فترة الجفاف الثانية، فى سبخة نبتة تنحصر فى مدى قصير، من ٧٩٠٥ إلى ٧٧٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، تعقبه النبضة الرطبة للسبخة رقم ٣ Playa III، التى شهدت ازدهار العصر الحجرى الحديث الأوسط، ثم المتأخر، الذى قدم «وندورف» تعريفاً محددا له، فيما يخص هذا القطاع (1984).

الصحراء الغربية

فى واحة سيوه، كشف فكرى حسن، عن فترة من التحات، فيما بين ٨٠٠٠ و ٧٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، انخفض خلالها مستوى البحيرات وزحفت تكوينات كثيبية، على امتداد الشواطىء. وفى الواحات البحرية (Barich et Hassan, 1987)، تشهد العديد من أجيال السبخة، كما فى نبته، على تعاقب الأطوار الرطبة وغير الرطبة، بالتناوب.

وبصفة عامة تظهر مواقع الصحراء الغربية المرتبطة بهذا العصر تغيراً جذرياً فى أدواتها: فقد تم التخلى تدريجيا عن الآلات الحجرية القزمية لصالح تكنولوچيا صنعت من الشظايا لتكوين الرُقَض وآلات مسننة، وقطع عريضة مشذبة أصبحت إلى جانب الأدوات ذات الوجهين من المجموعات السائدة.

هذا هو حال المواقع الستة فى بير كسيبة (E-79-5A/ ، E-79-6,7 / E-796 /2,4 بير مر رقم ١) وفى المستوى الأدنى من E-75-8، فى نبتـه و E-77-5,5A فى القرطين التى تمثل «العصر الحجرى الحديث الأوسط» كما عرَّفه «وندورف». إن خمس عشرة عملية تاريخ بواسطة الكربون ١٤ أجريت على فحم الخشب تحدد تاريخه فيما بين ٧٧٠٠ و ٦٢٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P. وبدلاً من الكوارتز المحلى والصوان والصخور المتحولة الموجودة فى البيئة المحيطة التى استخدمت إبان العصور السابقة، فقد استورد الظران المستخرج من الحجر الجيرى الإيوسينى بكميات كبيرة من أجل صناعة شظايا تحمل لمسات صقل، ومثاقب والرُقض والأدوات المسننة وبعض أسنة الرماح ذات الوجهين إلى جانب النصال ذات الظهر التى أخذت أعدادها فى التناقص. وأخيراً، أخذت الفؤوس المصقولة فى الظهور!

وتشهد أحجام أدوات السحن على أهميتها المتعاظمة كما أن الأوانى الفخارية التى مازالت موجودة تبرز عناصر زخرفية على هيئة حصيرة مطبوعة تغطى السطح الخارجى باكملة.

وتتكون الفونة أساساً من الغزال المصرى Dorcas[٢٠] والأرانب البرية، وهى لاتختلف عن العصر السابق. وتكشف أبعاد المواقع إما عن وحدات معزولة وسط السبخات، وإما عن محلات أكثر إتساعاً، حيث يدل تراكب الآبار، على أنه قد أعيد شغلها، على فترات. وإستناداً إلى مكان وجود هذه الآبار، عند حافة السبخات، نستطيع ان نستدل على أن شغل هذه المحلات كان يتم إبان فصل الشتاء.

وفى الواحات البحرية (Hassan, 1979)، فإن مجموعة من الآلات التى عثر عليها فوق سطح الأرض والتى تعود إلى ٧٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، تتكون من تكنولوچيا قائمة على النصال والشظايا. والأدوات السائدة تتكون من المباشر والرُقض والأزاميل والمسننات. ويضاف إليها بعض القطع ذات الوجهين، ولكن لا وجود للآلات القزمية على الإطلاق.

وفى أم الدباديب، فى القطاع الشمالى من الواحات الخارجة، تشهد بعض المواقع المرتبطة بإرسابات السبخة، على وجود نبضة رطبة فيما بين ٨٦٠٠ و ٧١٠٠ قبل الزمن الحاضر، وقد تم فحصها من جانب فكرى حسن وهولمز Holmes (1985). وهنا أيضاً، نجد أن الأدوات تمثلها الرُقَض والمباشر والشظايا المشذبة وبعض الأسنة ذات الوجهين، ولكن لا وجود للأدوات القزمية.

وادى النيل

إننا لا نعرف شيئاً عما يحدث فى الجزء المصرى من وادى النيل. والسبب فى ذلك، كما يقترح فكرى حسن (1988) هو أن النيل كان منخفضاً فى ذلك العصر بصورة غير معهودة، فجاء ارتفاع منسوب المياه الذى ساد فى الطور الرطب الثانى، ليأتى على المواقع القائمة عند حافة النهر.

العصر الحجرى الأوسط Mésolithique في الخرطوم

ومن ثم يتعين علينا أن نولى أنظارنا شطر الجنوب، عند مستوى الخرطوم، حيث أزدهرت منذ الألف السادس قبل الميلاد، أولى الثقافات التى لها ملامح العصر الحجرى الحديث، فى وادى النيل.

وفى الأربعينات، كانت الحفائر التى قام بها «أركل» A.-J.Arkell عند إلتقاء النيل الأز
بالنيل الأبيض، قد أماطت اللثام عن محلة شاسعة، تعرف فى أوساط المتخصصين تحـ
اسم "Early khartoum" أى «الخرطوم الباكرة».

كانت تقع فوق قمة مرتفع يتكون من خليط من الطين والرمال، بمحاذاة النيل الأز
وتبدو فى شكل طبقة رمادية يتراوح سمكها من متر إلى مترين، و «محشوة» بشظايا الكوارتز
وشقف من الأوانى الفخارية المتميزة السمراء اللون، ذات الزخارف المحفورة على هيئة
خطوط متموجة، وبقايا الأصداف والأرحاء المصنوعة من الحجر الرملى. ويذهب «أركل» إلى
أن المياه كان من الممكن أن تغمرها إبان المرحلة الأولى من شغلها، فلا يتردد عليها القوم إلا
خلال الفصل الجاف. ولا شىء يدل على وجود موقد أو ثقب وتد، ولكن فقط آثار حواجز من
أوتاد وأغصان، وسبع عشرة مقبرة عثر عليها فى القطاع الذى تم التنقيب فيه، وكانت
محفورة فى الموئل ذاته.

وكشفت بقايا الفونة الكثيرة عن أهمية الأحياء المائية المكونة من التماسيح والسلاحف
وافراس النهر. وترسم حيوانات النِّيص[٣١] والخنازير البرية والجاموس لوحة لمشهد طبيعى
يصور السافانا الرطبة. وإن كانت الطيور والوحوش الضارية آكلة اللحوم ممثلة تمثيلاً
محدوداً، فان كمية بقايا الأسماك، تكتسح فى المقابل غيرها من الفئات. ومن بين مختلف
الأنواع السابقة الموجودة، يبرز العديد من أنواع القرموط، ومنها أيضاً سمك الشال (واسمه
العلمى synodontis) بزعانفه الصلبة المسننة بكل دقة والتى استخدمت لطبع نماذج الزخارف
المنقطة فى العجينة اللينة للأوانى الفخارية.

إن ما يقرب من ٣٠٠ كسفة[٣٢] لرؤوس خطاطيف من العظم، لتقدم الدليل على الدور
المحورى الذى قام به الصيد النهرى فى هذه الجماعات التى كانت تعيش حياة شبه مستقرة.
وخطاطيف الخرطوم مزودة بصف من النتوءات الشوكية – أو بصفين فى القليل النادر –
يساعدانها على البقاء مغروزه فى جسد الفريسة: انه تقدم تكنولوجى ملموس سوف يزيد
من فرص النجاح عند قنص الصيد الصغير. ويذهب «أركل» إلى وجود طرازين من التثبيت
قد يتفقان مع وظيفتين متباينتين: وسائل الإمساك «الذكور»[٣٣]، من ناحية وبها نقرات
أحياناً، وهى معرقة بأخاديد متوازية، وأشبه بالمزاريق. وهناك، من ناحية، أخرى،
زجاج[٣٤] المثقوبة، المعدة ليثبت فيها سير مرتبط بقناة – وكانت هذه الطريقة تسمح
نفصال السلاح عند إصابة الفريسة، ومن ثم كان فى الإمكان متابعة الإمساك من على
افة أكبر – فهى إذن خطاطيف، فى حقيقة أمرها. وإذا كان العديد من الأحجار التى
ل حزوزا وأخاديد، تمثل فى واقع الأمر، أثقال شباك، فهذا يعنى أن شاغلى الخرطوم

الأقدمين، كانوا صيادين أكفاء ومرهوبى الجانب. ومن جانبه، يقترح «أركل» النظر إلى مزاريق الخطاطيف على أنها أسنة رماح حقيقية معدة للصيد النهرى بواسطة القوس.

كما مارسوا أيضاً الصيد البرى. ونخرج من تحليل آلاف شظايا الكوارتز إلى ما يؤكد وجود صناعة قائمة فى جوهرها على الآلات الحجرية القزمية، تهيمن عليها آلات أجزاء الدائرة. إن حصى الكوارتز والصوان الصغيرة، هى من الصخور المحلية، ولا يبدو أن البحث عن المواد الأولية كان، فى هذا الصدد، عملاً مضنياً إلى حدّ كبير. وفى المقابل فقد كان الأمر على هذا النحو عند البحث عن «الريوليت» rhyolite[٣٥] وهو من مكونات الآلات المستخدمة (الشظايا التى تحمل لمسات الصقل) والتى تقع محاجرها على مقربة من الجندل السادس على بعد ثمانين كيلو متراً من الخرطوم! ويبدو أن الأرحاء وأحجار السحن كانت ترتبط أساساً بطحن مواد الخضاب، التى عثر عليها فى الموقع أكثر من ارتباطها بالتغذية القائمة على النجيليات البرية. وأخيراً فمن المحتمل ان العديد من الحلقات الحجرية، ويبلغ قطرها العشرة سنتيمترات، قد تكون قد ثبتت على عصى واستخدمت لحفر التربة، فشكلت على هذا النحو، إرهاصاً غير مباشر لرؤوس الدبابيس التى سيكون لها أصداء متأخرة فى الشمال فى الدبابيس (أو المقاطع) القرصية فى عصر نقادة الأول (؟)

وكان الموتى المدفونون فى وضع الانثناء لا تصاحبهم سوى تقدمات محدودة. وفى إحدى الحالات عثر على حلّى لزينة الجسد يتكون من حلقات من أغلفة بيض النعام.

ومن الناحية الأنثروبولوجية، لم يتبق من الهياكل العظمية التى أتت من الدفنات السبع عشرة سوى أجزاء من بقايا تحولت إلى ركاز . وفى إحدى الحالات (M 20) أمكن إعادة تشكيل الجمجمة. فتبدو طويلة وضيقة – ويمكن المبالغة فى هذا الملمح بالنظر إلى غياب عناصر تشريحيه ضامة – مع وجود فك سفلى ضخم، والجزء الخلفى الصاعد من الفك السفلى ramus عريض ومنخفض، ويذهب «ديرى» إلى انها بقايا ذات سمات شبه زنجية. وتزداد هذه السمات وضوحاً بالنظر إلى إستئصال قواطع الفك العلوى. وهذه السمة نجدها بين سكان افريقيا الحاليين، وعلى الهياكل العظمية فى جبل مـويـه، فى جبانة لا نعرف تاريخها على وجه التحديد، وتقع إلى الغرب من سنّار، وتظهر هذه السمة عند النساء، على نحو خاص.

ولكن ما ذهب إليه «ديرى» فى تحديد «جنس» شبه زنجى، إنما يستند إلى مفهوم، هو موضع جدال فى الوقت الراهن، وسوف يتاح لنا أن نتعرض له فى مكان آخرمن هذا الكتاب.

وتتخذ الأوانى الفخارية أشكالاً عريضة ومفتوحة – من نوع القصعات – وقد صنعت من عجينة سمراء، حرقت حرقاً جيداً مع احتوائها على الكوارتز وحافتها أرق من باقى

الوعاء. وكانت ملساء من الداخل ولكنها لم تصقل أبداً، وان زخرفت من الخارج بخطوط متموجة لتضفى عليها، على ما يبدو، صورة السلال.

أما الخط المتموج المنقط (Dotted Wavy Line)، وهو تطوير للخط السابق ومشتق منه فى الغالب، فقد أعدّ بواسطة مشط واجهته مقوسة، ولن يتكرر وجوده فى الغالب، سوى فى مواقع العصر الحجرى الحديث، للفترة اللاحقة.

ونظراً لأن «أركل» A.-J..Arkell، لم يجد تحت تصرفه أسلوب التأريخ بواسطة الكربون المشع الجليل الفائدة، فقد اعتمد أساساً على الثقافة المادية، عندما أراد ان يحدد تاريخ هؤلاء القوم من صيادى البر – وصيادى النهر – وصانعى الأوانى الفخارية الجديرين بإعجابنا والذين عاشوا كما تشهد عليه الفونة، فى ظروف أكثر رطوبة مقارنة مع العصر الحالى، وكانوا يجهلون استئناس النبات والحيوان: فلم يعد انتماؤهم إلى العصر الحجرى القديم واضحا حق الوضوح، كما لم يكن انتماؤهم حتى الآن إلى العصر الحجرى الحديث واضحاً ، ومن هنا فقد أطلق عليهم أبناء «العصر الحجرى الوسيط» mèsolithiques.

وعند تطبيق هذا المفهوم على مرحلة الإنتقال من العصر الحجرى القديم إلى العصر الحجرى الحديث فى أوروبا، يتفق العصر الحجرى الوسيط، مع تراجع المثلجة[٣٦] glaciers وضرورة تكيف البشر مع الظروف الإيكولوجية[٣٧]. وفى زحمة التعريفات، فإن وجود الأوانى الفخارية – وفى إطار إفريقى، فضلاً عن ذلك – لا يتفق على الإطلاق والفكرة التى صيغت عن العصر الحجرى الوسيط، وهو ما لم يتردد بعض المتخصصين فى التأكيد عليه (Balout, 1965, 156). وهى تعكس فى المقابل، مفهوم «تشكل العصر الحجرى الحديث»، طبقاً للتعريف الذى أخذنا به نحن و «آل كوڤان» les Cauvin. وتسهيلاً علينا، وبدافع من التبسيط، سوف نحتفظ بعبارة العصر الحجرى الوسيط التى تمتاز بأنها قد لقيت قبولاً فى الدراسات المتخصصة، على أن يكون معلوماً لدينا ما نقصده بهذه العبارة من حيث مضمونها.

والأبحاث التى أجريت على مدى السنوات العشرين الأخيرة، قد أثرت هذا العصر بمواقع جديدة وأتاحت لنا أن نحدد بمزيد من الدقة موقعه من التتابع الزمنى بفضل حوالى اثنتى عشرة عملية تأريخ بواسطة الكربون ١٤.

إن مواقع سوروراب ١و٢، وشابونة وشقادود وصجاى، وتاجرا، وبطريقة غير مباشرة، وفى زمن أحدث مواقع أبو دربين وعنيبس عند ملتقى النيل الأزرق والعطبرة، تغطى جميعها فترة زمنية تقارب الألفى سنة، بدءاً من ٩٣٧٠ ± ١١٠ قبل الزمن الحاضر B.P و ٩٣٣٠ ± ١١٠ قبل الزمن الحاضر B.P فى سوروراب ٢ وحتى ٦٤٠٨ ± ٨٠ قبل الزمن الحاضر B.P فى سوروراب ١. وتقع معظم هذه التواريخ إبان الألف السابع قبل الميلاد وقرب نهايته.

لقد قام الفريق الإيطالى من معهد الپاليثنولوجيا فى روما بدراسة موقع صجاى دراسة متعمقة (Caneva, 1983). ويقع هذا الموقع، على البر الأيمن من النيل، على بعد ٤٠كم إلى الشمال من الخرطوم، ويكون من ٧٠ إلى ١٣٥سم من الرواسب الأركيولوجية على مساحة ما يقرب من ٣٦٠٠٠م٢، فوق مرتفع طبيعى، عند ملتقى النهر والأودية. وكما هو الحال فى الخرطوم، لا يوجد أى أثر لبناء فى الأرض، يساعدنا على تصور الموئل تصورا دقيقاً، ولكن بعض الإختلافات بين القطاعات توحى بشغل المكان على مراحل متعاقبة.

والفونة مماثلة لنفس الأنواع التى تعيش حالياً فى السودان، ولكن على بعد ٤٠٠كم جنوباً.. فى بيئة من السافانا المؤلفة من شجيرات، ويبلغ تساقطها Précipitation السنوى من ٤٠٠ إلى ٨٠٠ مم.

ان حوالى ثلاثين من الحيوانات الثديية ممثلة هنا: النموس وأنواع القردة ذات العُذُر[٣٨] البيضاء وبنات آوى والقطط البرية والخنازير البرية والأسود وأفراس النهر والزرافات والثيران وينحصر أغلبها فى نوعين من ذوات الحوافر.[٣٩] ومنها الظباء الصغيرة وهى لا تعيش أبداً بعيداً جداً عن نقاط الماء.

وإلى جانب السلاحف والتماسيح، فإن الفونة السمكية وفيرة[٤٠] ومن بين الأنواع العشرة التى تم التعرف عليها تبرز بعضها وأسماؤها العلمية Polypterus (من أسماك الأنهار المدارية) و Clarias (القرموط) و synodontis (الشال) و Lates (قشر البياض). ولامراء أن استخدام تقنيات أكثر ملاءمة لعمليات الصيد النهرى على مدار السنة يمكن أن يفسر هذا التنوع الشديد الذى نجده أيضا فى الخرطوم، ومع ذلك يدفعنا التاريخ الرسوبى للموقع ووجوده فى منطقة من حوض النهر تغمرها مياه الفيضان – يدفعاننا إلى تصور أن شغل هذا المكان كان يتم فى فصل التحاريق، الذى كان أيضا موسم الصيد المكثف بالخطاف وشباك الصيد بلا أدنى شك. فى حين كان السكان ينتشرون إبان موسم الفيضان فى داخل البلاد، ليوسعوا بذلك من دائرة الصيد البرى وصولاً إلى تخوم السافانا الجافة، حيث يعيش نوع من الثيران والظباء الصغيرة، بعد أن يعبروا الأحراج التى تأوى بعض أنواع القردة ذات العُذُر البيضاء.

إن تراكم الأصداف (من النوع الذى يعرف علميا باسم «پيلاڤيرنى Pila wernei») ونسبة عالية من مادة الـ «سترونسيوم» strontium[٤١] التى تم قياسها عند فحص عظام الهياكل العظمية يحملنا على التأكيد على الدور الهام للذى احتله الرخويات[٤٢] فى النظام الغذائى السائد. إن بعض النماذج التى يعود أصلها إلى البحر الأحمر ودخلت كعناصر مكونة للحلَى، لتبرهن على وجود علاقات مع المناطق الشرقية التى مازال استكشافها يقف إلى يومنا هذا عند مستوى متدنٍ جداً.

وهم ثلاثة رجال وثلاث نساء وصبى فى مقتبل العمر – لاحظ ضيق الجمجمة فى المنطقة القذالية occipital البارزة وقوة تكوينها الأمامى مع بروز الفك السفلى بعض الشئ، واستطالة محجر العين. وكما هو الحال فى صجّاى، تشير قوة الفكين، هنا أيضاً، إلى تكيف وظيفى، والضغط الشديد الناتج من عملية المضغ. كما لوحظ وجود حالة تسوس الأسنان وحالة خراج اصاب جذور الأسنان وحالة التهاب عظام اليد والقدم وضلع التحم ثانية. وكما هو الحال فى الخرطوم، فقد لوحظ أن القواطع العلوية لإحدى النساء مخلوعة.

إن الصناعة الحجرية تمثلها الأدوات القزمية بنسبة ٣٦,٦٪ وهى من الكوارتز المحلى، ولاسيما على شكل أجزاء الدائرة وشبه المنحرف. أما حجر الـ «ريوليت» الموجود على مسافة بعيدة جداً فانه يستخدم فى صناعة بعض القطع العريضة على هيئة الأهلة، وبعض القطع ذات الظهر والمثاقب ونوع مميز من المكاشط. وفى المقابل فإن الحجر الرملى المستخدم فى صناعة الارحاء وأحجار السحن لايبعد سوى لمسافة أربعين كيلو متراً تقريباً. وبأسلوب شديد الأصالة، فقد صقلت قطعة من حجر الدم hématite مثلثة الشكل وثقبت عند أحد أطرافها.

وتشكل الخطاطيف ذات صف النتوءات الشوكية الواحد، سلسلة متنوعة من حيث الحجم، وهى ذات أطراف مدببة من الممكن أن تزود بمقبض، مع وجود حفر ضماناً لعملية التثبيت أحياناً. وتكتمل قائمة العظام المصقولة بكسفات من الإبر والمكاشط.

لقد تم تحليل ٢٠٩٤ شقفة، وجد أن العجينة التى تتكون منها نوعان، يضم الأول مكونات معدنية والثانى مكونات نباتية. وهى غير مصقولة وان كان سطحاها – الداخلى والخارجى – قد عولجا مع ذلك، قبل الزخرفة والحرق، فأصبحا أملسين. ومن المحتمل، أنه قد أضيف إلى الفخار المصنوع من عجينة معدنية مادة ملونة حمراء. فهل علينا أن ننظر إلى الأمر على أنه استخدام لحجر الدم المجلوب إلى الموقع؟ ورغم أنه لم يتبق وعاء واحد كامل، فقد أمكن إعادة تكوين أشكالها، فبعضها مجرد قصعات نصف كرويه، والبعض الآخر آنية كروية. وإذا كان الخط المنقط هو السمة البارزة أساساً للأوانى الفخارية المصنوعة من عجينة معدنية، التى تميز العصر الحجرى الوسيط فى الخرطوم، فإن الآثار القلبية الشكل تحتل ٧٥٪ من بطون أوانى الفئة التى ما فتئت تذكرنا «بالأساليب التى تحاكى السلال» التى تعرف عليها «أركل» Arkell فى الخرطوم ولم تعرفها صجّاى. ويلاحظ «كلارك» Clark أن كل شىء يحدث كما لو كان الخرطوم يمثل الحد الشمالى لهذا التقليد المتواتر.

وهنا أيضاً تتكون الفونة من أحياء مائية – كالأسماك والسلاحف والتماسيح وأفراس النهر والأورال والثعابين. ان وجود الظبى الحصانى (واسمه العلمى Hippotragus equinus)

والجاموس يوحيان بمشهد طبيعى لسهول تتخللها الأحراج الصغيرة والأجمات. وتعيد الخنازير البرية والأفيال إلى الأذهان أراضياً مغمورة بالمياه..

وكمؤشر غذائى محتمل، تشير قائمة الحصر المطلق للعظام، بميل واضح إلى تفضيل السحالى ثم الظباء. وهنا أيضاً، فإن غزارة أصداف «بيلا ڤيرنى» Pila Wernei يجعل من استهلاكها المنتظم أمرا محتملاً لا وقد يدل وجودها فى بعض الآبار على تخزينها..

أما فيما يتعلق بعالم النبات، فإن بقايا الحبوب المتفحمة وآثارها فى عجينة الفخار لتدل على وجود نوع اسمه العلمى «ديجيتريا» Digitaria، وهو أحد أنواع العائلة الـ «پانيكويدا» Panicoidae، من الفلوره البرية التى مازالت موجودة إلى يومنا هذا، فى المناطق المطرة، فى السودان الحالى، والتى نذع أحد أنواعها فى افريقيا الغربية.

ولما كانت شابونة تقع، على غرار الخرطوم وصجّاى، فى هذه المنطقة من الوادى، التى تغمرها مياه الفيضان، فقد كان إشغالها يتم بصفة منتظمة، فى موسم التحاريق بلاشك، من قبل آخر جماعات صيادى البر – صيادى النهر – جامعى الطعام، وأول حاملى الأوانى الفخارية على ضفاف نهر النيل.

وبصفة عامة، تبدو جميع هذه المواقع، على اعتبارها مواقع للسكنى نصف المؤقتة، تكيفت على النهر وإطاره البيئى، حيث يبدو أن الغلال البرية قد لعبت دوراً حاسماً فى النظام الغذائى (تكوين الأسنان ووجود حبوب فى عجينة الأوانى الفخارية وأدوات الطحن).

وتطور العصر الحجرى الوسيط فى الخرطوم» فى عصر كانت الصحراء الكبرى تتمتع فيه بظروف مناخية مواتية لبيئة البحيرات. والخطاف صورة ذات مغزى للدلالة على إقتصاد قائم على الصيد النهرى إلى جانب الصيد البرى وجمع الطعام. وقد وصلتنا أقدم نماذجه من إيشانجو Ishango فى الكونغو (Heinzelin, 1957) من طبقات يتراوح تاريخها (بين ١١٠٠٠ و ٨٥٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P. ومن ثم، نلتقى بها فى «جامبلز كيف Gamble's Cave، فى كينيا، وبعد ذلك فى مواقع «عصرنا الحجرى الوسيط». ان وجوده فى وسط الصحراء الكبرى وحتى موريتانيا، هو أمر يستحق ان يدرس دراسة دقيقة، سواء من الناحية التيبولوجية أم من حيث رصد تاريخه. (Huard et Massip, 1964). ويمكن قول الشىء ذاته عن «انتشار» الأوانى الفخارية ذات الخطوط المتموجة: وكان «أركل» قد لاحظ ان الأوانى الفخارية ذات الخطوط لمتموجة وذات الخطوط المتموجة المنقطة، وغير المصقولة، كانت النمط المميز «للعصر الحجرى الوسيط» فى الخرطوم، فى حين ان الأوانى الفخارية ذات الزخارف المتماثلة التى تعود إلى العصر اللاحق، كانت مصقولة. غير أننا نلتقى فى الأغلب الأعم، فى وسط الصحراء الكبرى، بأوان فخارية مصقولة، تحمل زخارف الخطوط

المنطقة، حيث أن الخطوط المتموجة، بمعنى الكلمة ونصها، كانت محصورة فى نطاق السودان النيلى. ويبدو إذن من الصعوبة بمكان، بالنظر إلى افتقارنا إلى عمليات تاريخ متعددة ودقيقة، ان نحدد حركات انتشار الأفارقة الأوائل صناع الأدوات الفخارية.

ولكن هل هذا حقاً أمر ضرورى؟

فى بادىء الأمر، وفى أعقاب كشوفات «أركل»، ذهب البعض إلى النظر إلى السودان، باعتباره مركزاً لتيار بدأ يتشكل من خلاله العصر الحجرى الحديث الذى يعتقد انه أخذ يهاجر فى اتجاه الغرب وأن عبارة «العصر الحجرى الحديث وفقاً للتقاليد السودانية» ترسم صورة للساكنين عند ضفاف النيل وهم يتركون واديهم الغنى لينتقلوا إلى الصحراء الكبرى الشاسعة، حاملين معهم اختراعهم الجليل الفائدة. وحتى الوقت الراهن، فإن وسط الصحراء الكبرى قد سلب الأوانى الفخارية الأولى من منطقة النيل التى كما يلاحظ «زاراتينى» Zaratini (1983,256) تظهر وسط الجماعات التى تنحو إلى حياة الإقامة الدائمة بفضل الإعتماد على اقتصاد أكثر شمولاً فى بيئات شاطئية مماثلة، من النيل إلى موريتانيا. إن أسلوب الحياة «المائى» هذا، قد أوعز إلى «سوتون» Sutton (1974) بوجود وحدة ثقافية، هى مهد التوزيع الحالى للغات النيلية الإفريقية. صحيح أنه من المفترض ان معدلات نمو السكان فى بؤر بيئية مواتية قد شهدت إرتفاعاً ملحوظاً وأن الإتصالات بين الجماعات البشرية كانت أمراً لامناص منه. ولكن لو أننا لاحظنا تنوع الخطاطيف والأوانى الفخارية من الناحية التيبولوجية لأدركنا إلى أى مدى كانت هذه الجماعات محدودة وأكثر مما قد يبدو لأول وهلة.

ويظل السؤال حول أصل ثقافة الفخار الأولى هذه، يطرح نفسه بلا إجابة شافية.

وفى هذا القطاع من الوادى، لا وجود لموقع واحد، يعود إلى خواتيم «البليستوسين»، من نمط تلك المواقع التى نلتقى بها إلى الشمال من وادى حلفا. ويعتبر الجندل الثانى، كما يظهر فى حقيقة الأمر، كما لو كان حداً فاصلاً لانتشار صيادى البر - جامعى الطعام، من عصر خواتيم العصر الحجرى القديم، فى اتجاه الجنوب، ومصداً يقف فى وجههم، ويمكن ان نفهم ذلك اذا ترجمناه إلى عبارات طوبوغرافية وجيولوجية، حيث تنفتح ناحية الجنوب منطقة بطن الحجر الشاسعة التى يخترق النيل صخورها الجرانيتية، وهو يضع إرسابات محدودة للغاية. إلا أن الحجر الرملى النوبى يعود إلى الظهور، بعد منطقة يسودها الجفاف على امتداد ١٢٥كم، وتتسع الشواطىء، لتحتضن من جديد مناطق نباتية كثيفة. ومع ذلك، فإنه لم يكشف موقع واحد، يدل على إقامة البشر، من خواتيم البليستوسين، على امتداد ١٢٥كم، فى المنطقة الواقعة بين مدينة دال والخرطوم، فى حين سيصبح هذا القطاع الأخير هو قطاع أول من صنعوا الأوانى الفخارية.

هل علينا، ان نقتفى أثر «كانوفا» Caneva, (1988 362) ونبحث عن سبب ذلك، فى الظروف الإيكولوجية السابقة على الألف السادس قبل الميلاد؟ إن مجرى النيل الذى كان نهراً جامحاً آنذاك، وعدم انتظام الفيضانات قد طمسا أو دفنا آثار الأجداد الذين كانوا لا يترددون إلا لماماً، على شواطىء النهر التى كانت لا تغرى كثيراً بالإقامة على أرضها. وكما نلاحظ، لا تصبح البقايا الأركيولوجية واضحة مرئية، إلا عندما بدأ النهر يشق الوادى، أى عندما أخذت أولى ثقافات الأوانى الفخارية فى الإزدهار.

ومن الراجح، حقاً، أن أولى الإتصالات التى تمت مع أول من صنعوا الأوانى الفخارية - بل الرماة - فى الصحراء الكبرى قد جرت فى هذا الإطار.

ولكن هناك أيضاً إلى الشرق من الخرطوم منطقة شاسعة مروية رياً جيداً، لم تكفّ عن شد الأنظار إليها: إنها العطبرة وبوتانا على نحو خاص، هذه المروج الهائلة الواقعة إلى الشرق من النيل الأوسط وإلى الغرب من نجاد إريتريا.

وتوصل «ماركس» Marks (1987)، عندما قاد بعثة إليها عام ١٩٨١ إلى أن يكشف فيها عن عدد كبير من المواقع التى تمت بصلة إلى خواتيم العصر الحجرى القديم، ولكنها بعيدة من الناحية التيبولوجية عما يوجد إلى الشمال من الجندل الثانى وتختلف اختلافاً جذرياً عن المجموعات الثقافية التى يمثلها «العصر الحجرى الوسيط فى الخرطوم».

الصحراء الشرقية

لقد بدأت الأبحاث فى هذا القطاع وأخذت تسلك طريق التطور وتبشر بإتاحة إلقاء الضوء على ظواهر انتشار العصر الحجرى الحديث. ونذكر فى هذا الصدد اكتشافات «فرميرش» P.Vermeersch للماعز والخراف فى مستويات مغارة سودمين»، قرب البحر الأحمر، والتى تعود تاريخها إلى ٧٠٠٠ سنة قبل الزمن الحاضر B.P. وحتى التسعينات من القرن العشرين، كانت الأبحاث التى اجراها «ديبونو» F.Debono فى عام ١٩٤٩ (Debono, 1951 1950) هى وحدها التى فى وسعها أن تعطينا فكرة عن عصور ما قبل التاريخ فى هذه المنطقة. فكانت تقودنا إلى منطقة اللقيطة حيث لوحظ وجود أسنة مصنوعة من النصال الصغيرة والمحافر القزمية التى تكشف دون أدنى تحديد عن وجود صناعات خواتيم العصر الحجرى القديم.

هوامش الفصل الخامس

(١) الصرف : التصريف الطبيعى للمياه التى تسقط على سطح الأرض . (المترجم*).

(٢) وتقع إلى الجنوب من الصحراء الكبرى وفى شمال النيجر . (المترجم).

(٣) نتيجة خطأ حدث أثناء عملية التصنيع والرسم يوضح ذلك (المؤلفة).

(٤) فى جنوب الجزائر . (المترجم)

(٥) نبات من فصيلة النجيليات (المترجم)

(٦) خزفيات : مواد تنتج بمعالجة مواد لا فلزية وغير عضوية (الصلصال أصلاً) عند درجات حرارة مرتفعة (المترجم*)

خزف : ما عمل من طين وأحرق فصار فخاراً. المعجم العربى الأساسى. (المترجم)

(٧) النوط : هو كل ما يتعلق بشىء. المعجم الوسيط (المترجم)

(٨) المَيس: شجر عظام حَرَجى، من الفصيلة البوقيصية، له ثمر أسود صغير حلو. المعجم الوسيط. (المترجم)

(٩) سبخة : Playa: أرض ذات ملح ونزّ(*) لا تكاد تنبت، وتوحيل عقب سقوط الأمطار الغزيرة أو فيضان الأنهار، ثم تجف عندما يحرّ الجو.

(*) «نز» : ما يتحلب من الماء الفائر إلى السطح. (المترجم*).

(١٠) تعنى كلمة «الحطية» محلة أو قرية صغيرة تحيط بها الحدائق التى تعتمد فى ريها وزراعتها على عين أو أكثر من عيون المياه.

(د. أحمد فخرى . واحة سيوة ترجمة د. جاب الله على جاب الله – هيئة الآثار ١٩٩٣ – ص ٢٢٤) – (المترجم).

(١١) قرب الجندل الرابع (المترجم)

(١٢) نسبة إلى عصر الـ«إيوسين» eocène (المترجم).

((١٣) رصيص conglomèrat : صخر رسوبى يتكون من حطام صخور قديمة فى هيئة حصى مستدير مدملق متراص رصاً محكماً فى محيط من مادة رسوبية لاحمة قد تكون مجهرية الجسيمات أو مرئيتها . (المترجم*).

(١٤) من علامات الترقيم (المترجم).

(١٥) البناء : structure : تنظيم دائم نسبياً تسير أجزاؤه فى طرق مرسومة ويتحدد نمطه بنوع النشاط الذى يتخذه. (معجم العلوم الإجتماعية. د.أحمد زكى بدوى. مكتبة لبنان. بيروت ١٩٨٦ – المترجم).

(١٦) مطمورة وجمعها مطامير: مكان تحت الأرض قد هيىء ليطمر فيه البرّ والفول أو المال ونحوه..

والمطامير هى إيضا صيغة الجمع للكلمة مطمار وهو الخيط الذى يمد على البناء فيبنى عليه ويطلق عيه أيضا المِطْمَر (ج) : مطامر – المعجم الوسيط (المترجم).

(١٧) نسبة إلى الميكا mica وهو مجموعة من المعادن الفيلوسليكاتية. (المترجم*).

(١٨) أى التى انحسرت عنها المياه بعد أن كانت تغمرها . (المترجم*)

(١٩) ويقع شرقى النيل إلى الشمال قليلاً من مدينة الكاب. (المترجم).

(٢٠) المسْوط : (ج) مساوط : خشبة أو غيرها يحرك بها ما فى القدر وغيرها ليختلط. مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط. (المترجم).

(٢١) راجع الفصل الأول . (المترجم).

(٢٢) رصيص (كونجلوميرات) : صخر رسوبى يتكون من حطام صخور قديمة فى هيئة حصى مستدير مدملق متراص رصاً محكماً فى محيط من مادة رسوبية لاحمة قد تكون مجهرية الجسيمات أو مرئيتها . (المترجم*).

(٢٣) نسبة إلى «مشتى العربى» فى الجزائر. راجع نهاية الفصل الرابع (المترجم).

(٢٤) ج : نوط : وهو كل ما يتعلق بشىء . المعجم الوسيط . (المترجم).

(٢٥) سلسلة جبال تمتد غربى إيران . (المترجم).

(٢٦) أى منذ بداية السبعينات . (المترجم)

(٢٧) أى العارى من أغلفته. راجع : وليم نظير : الثروة النباتية عند قدماء المصريين. الهيئة المصرية للتأليف والنشر. ١٩٧٠، ص ٧٩ . (المترجم).

(٢٨) نسبة إلى الحضارة المجدلينية (المترجم).

(٢٩) حيوان ثديىّ من فصيلة الظبى يعيش فى المناطق الباردة . (المترجم)

(٣٠) لمزيد من التفاصيل راجع : وليم نظير: الثروة الحيوانية عند قدماء المصريين. الدار القومية للطباعة والنشر . د.ت. ص ٨٠ – ٨١ . (المترجم).

(٣١) القنفد الضخم . المعجم الوسيط (المترجم).

(٣٢) الكسفة : القطعة من الشىء . المعجم الوسيط (المترجم)

(٣٣) تشير كلمة: «أنكر» من الناحية التقنية. إلى كل جزء من أداة ينفذ إلى داخل غيره. (المترجم)

(٣٤) زج . (ج) أزجاج. الجزء السفلى من الرمح. المعجم الوسيط . (المترجم)

(٣٥) «ريوليت» صخر نارى بركانى حمض، دقيق الحبيبات، يماثل صخر الجرانيت الجوفى فى التركيب الكيمائى والمعدنى. (المترجم*)

(٣٦) تجمع جليدى عظيم غير ثابت قد يتحرك فى مجار تشبه الأنهار . (المترجم*)

(٣٧) إيكولوجيا (علم البيئة) ècologie العلم الذى يدرس الترابط بين الأحياء والبيئة الطبيعية. (المترجم*).

(٣٨) العذار ج : عُذر : الشعر الذى يحاذى الأذن (المترجم).

(٣٩) ذوات الحوافر ongulés : الاسم العام لجميع الثدييات التى لها حوافر بما فيها مجموعات الأصابع المزدوجة ومجموعات الأصابع المفردة. (المترجم*)

(٤٠) الفونة السمكية : ichtyofaune. (المترجم)

(٤١) فلز ترابى قلوى فعّال أبيض فضى. (المترجم*)

(٤٢) الرخويات : mollusques شعبة من الحيوانات اللافقرية الرخوة التى لها قواقع طباشيرية للحماية. ويوجد منها ما يزيد على ٨٠.٠٠٠ نوع . وهى تصنف فى ثلاثة صفوف رئيسية : بطنيات الأرجل Gastéropodes وذوات المصراعين Bivalves ورأسيات الأرجل Cephalopodes (المترجم*).

الفصل السادس

أوج العصر الحجرى الحديث : الألفيــة الخامسـة

حول عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد بدأت موجة رطبة، أضعف منها من العصر السابق، ولكنها تسببت مع ذلك، فى ارتفاع منسوب بحيرات الصحراء الكبرى وطبقة المياه الجوفية. ووجدت هذه المرحلة المناخية الجديدة تعبيراً لها فى زيادة فى معدلات المطر، ولكنها احتفظت بدرجات حرارة مرتفعة. بل تبدو بالأحرى، كما لو كانت سلسلة من الذبذبات الرطبة فى بيئة تظل ما دون الرطبة. وكما يوضح «موزولينى» (Muzzolini (1983, 113 ، فقد توقف سيلان ماء منطقة العير[1] وتيبستى چادو والإندى فى اتجاه تشاد. لقد بدأ الإضمحلال النهائى للبحيرات.

ان الشاغلين الجدد للصحراء الكبرى ينتمون الآن كل الإنتماء، إلى العصر الحجرى الحديث. انهم هؤلاء الرعاة، أصحاب الصور والنقوش الذين سيسعون إلى بعث الحياة فى النجاد الممتدة من الأطلنطى إلى البحر الأحمر.

العصر الحجري الحديث فى الفيوم.

إن الإستقصاءات والأبحاث التى أشرفت عليها السيدة «كيتون - تومپسون» G. Caton - Thompson و «جاردنر E. W. Gardner (1934) فيما بين ١٩٢٤ و ١٩٢٨، إلى الشمال من البحيرة، قد أماطت اللثام عن قطاعين من الموئل، على هيئة كومين مستطيلين إلى حد ما (كوم W وكوم K) حيث أن كمية ضخمة من الأدوات التى عثر عليها عند سطح الأرض، تلامس تجهيزات السكن: إنه الفيوم «أ» A الذى أطلق عليه إصطلاحاً هذا الاسم بالنسبة إلى الفيوم «ب» B ، الذى نظر إليه خطأ، على أنه صناعة جاءت فى أعقاب السابقة أو «تدهور» أصاب الأولى. وكانت الشظايا الظرانية والآلات والمطارق المصنوعة من الكوارتز والدولريت والخشب الحفرى تختلط بالأصداف وكسف العظام والشقف. وفيما بين هذين

الكومين، خصصت منطقة للمطامير وهى مكونة من مجموعتين متميزتين طوبوغرافيا(١) ولكن لا تبعدان كثيرا الواحدة عن الأخرى وكانتا تضفيان على كل ذلك، أكبر قدر من الأهمية.

وكشفت أعمال التنقيب التى أجريت فى كلا الكومين عن مجموعة ضخمة من المنخفضات على هيئة وهدات، حفرت فى الارسابات البُحيرية: ٢٤٨ بالنسبة للكوم W و ٦٠ بالنسبة للكوم K وكان بعضها يحتوى على خشب الفحم ومن الواضح أنها استخدمت كمواقد. وفى كثير من الأحوال، كانت الجرار فى مكانها، وفى أحوال أخرى كان قاعها مملوءاً بأشياء من صنع الإنسان، ومماثلة لتلك التى عثر عليها على السطح أو من خلال التنقيب.

ومن واقع الدراسة المنشورة حول الأدوات الحجرية، يتضح أننا أمام ادوات تشكل قطيعة مطلقة مع ثقافات الأدوات الحجرية القزمية السابقة. وكان مجمل ادوات الجماعة البشرية يعتمد على آلات ذات وجهين، وتتكون من سبعة عشر سن رمح، قاعدة معظمها مقعرة – وإن كان ٣٥٦ نموذجاً مشرشراً قد عثر عليها على السطح – بالإضافة إلى واحد وثلاثين عنصراً من مكونات المناجل اسنانها ذات بريق، إلى جانب فؤوس مصقولة. وعلاوة على ذلك، توجد أسنة على هيئة أوراق الشجر، وأيضا ما يشبه شكل الطبَر(٣) ويعتبر إرهاصاً غريباً للحراب المتشعبة التى شاعت فى عصر ما قبل الأسرات.

وتشكل الفؤوس وحدها ٤٠٪ من الأدوات المستخدمة. إن احجامها صغيرة واشكالهامستطيلة فى المعتاد أو مثلثة، وقد صنعت من الدولريت والحجر الجيرى ومن الصخور البركانية ومن الظران. إن ثلاثة نماذج عثر عليها على السطح كانت جميع أجزائها مصقولة، ولكنها معظمها – ستين نموذجاً – كانت تجمع بين القَطْع الخشن والصقل، بحيث كان سطح الأداة خشناً وحدّها فقط هو المصقول.

كما جمعت بعض المناقير(٤) بين تقنيتى القطع الخشن والصقل.

إن نواة صغيرة ذات نصال صغيرة وخمسة نصال صغيرة – منها اثنان لهما ظهر مزدوج – تذكرنا بعالم خواتيم العصر الحجرى القديم.

وكما رأينا، فإن أصل هذه التقنيات يعود، كما هو واضح، إلى الشرق الأدنى المجاور. وفى حقيقة الأمر، فإن وجود الصقل ثابت – كما ظهر من مظاهر الأبهة – منذ الناطوفى، ولاسيما أن ممارسة صقل حد الفؤوس المقطوعة قطعاً خشناً، هى سمة مميزة لليرموكى، وهى السيماء الثقافية لفلسطين، منذ مطلع الألف الخامس.

ومع ذلك، لا ينبغى أن يغيب عن بالنا، أنه لو تاكدت الكشوف الحديثة فى تاجالا جال، فاننا نلتقى منذ منتصف الألف السابع قبل الميلاد بفؤوس وقدائم ذات حد مصقول.

ومن ناحية أخرى، فإن الصور التى تؤكد على تقليد للأدوات الحجرية ذات الوجهين، كما تنبثق من دراسة كيتون توميسون» يحجبها، فى حقيقة الأمر، الاختيار الذى يقوم به عالم الآثار لقطع بارزة من بين مجموعة أكثر شمولا وتنوعاً.

إن الأبحاث التى اجرتها البعثات البولندية لجامعة كراكوڤيا، قد ساعدت على تحديد تعريف لوحدتين من العصر الحجرى الحديث فى منطقة قصر الصاغة: الفيومى، المطابق للفيوم «أ» A وفقاً «لكيتون تومپسون» و «الموبرى»(٥) Moérien الذى يعود إلى تاريخ لاحق. وتمثل الأولى، صناعة قائمة على الشظايا بنسبة أكثر من ٩٠٪، وهى شظايا ناتجة من نوايا ذات سطوح طرق غير مجهزة، متقابلة أو على هيئة قرص أو ما دون القرص، تم الحصول عليها من حصى المدرجات. ويقف على رأس قوائم الأدوات الرُفْض والأدوات المسننة و المكاشط والشظايا المشذبة، ولا وجود للأدوات ذات الوجهين إلا لماماً. وللتحقق مما توصلوا إليه، أجرى الباحثون البولنديون اختباراً على مقربة من الكوم W والمناطق التى استكشفتها «كيتون تومپسون» وحصلوا فى كل مرة على مجموعة ضخمة من الآلات المصنوعة من الشظايا.

ينبغى إذن إعادة النظر كلياً، حول تعريف صناعة الأدوات الحجرية فى الفيوم ذاته، التى من الضرورى ان ينظر إليها على أنها ليست صناعة قائمة على الأدوات ذات الوجهين بل قائمة على الشظايا، مع مكون محدود من الأدوات ذات الوجهين، الأمر الذى يغير من اتجاهات البحث فيما يتعلق بأصل أولى ثقافات العصر الحجرى الحديث هذه، فى مصر.

إن كمية كبيرة من الشقف، المبعثرة على السطح، القادمة من خنادق التنقيب والكثير من المنخفضات تنضم إلى الأشكال الكاملة، لتميط اللثام عن أوانى فخارية صنعت من عجينة خشنة مكونة من طمى مخلوط بقش مقطع. والسطح الخارجى – أو الداخلى بالنسبة للكؤوس – مغطى فى الغالب بصَقْل أحمر، أو أسود فى النادر القليل، أو مجرد أملس، ولكنه غير مزخرف أبداً.

وأمكن التمييز بين مجموعات خمس وفقاً لأشكالها. تتكون الأولى من كؤوس وقصعات كروية الشكل، قاعها مسطح أو مستدير. ثم ننتقل إلى الفئة الثانية، وتضم أوعية وقصعات «الطهى»، التى يطلق عليها اصطلاحاً هذا الاسم لأنها عثر عليها، فى مكانها، وكانت وسط مواقد الأكوام. انها شبيهة بالأوانى السابقة، ولكنها أكبر حجماً، وجدار هذه الأوعية هو فى الغالب أكثر سمكاً. وتتكون المجموعة الثالثة من قصعات لها قائم على شكل حلقة، ولم يعثر سوى على نموذج واحد كامل. ويمكن أن يقال نفس الشىء عن المجموعة الرابعة، التى

لم يصلنا منها سوى نموذج واحد: إن قصعة واحدة صغيرة ذات قائمة ثلاثية الفصوص، ومكونة من نتوءات غير منتظمة، تعتبر النموذج الوحيد شبه الكامل. أما الفئة الأخيرة فتضم أطباقا مستطيلة كبيرة عولجت حافتها بحيث شكلت فى زواياها الأربعة «أذينات» قد تكون الإرهاص القديم المحتمل لآذان أو مقابض الأوانى.

إن ست أرحاء من الحجر الرملى، ومع كل منها مِسحقها، تختلف عن الصلايات المصنوعة من الحجر الجيرى أو الديوريت. وتعيد الأولى إلى الأذهان سحق الحبوب (الأرحاء المصنوعة من الحجر الرملى) والثانية سحق الخضاب (الصلايات بآثار الألوان). وعثر على كمية من الأشياء من العظم المصقول [إبر بدون ثقب ودبابيس ومثاقب وخطاطيف رفيعة صغيرة، بدون نقرات أو آثار حزّ عند القاعدة، وهى أقرب إلى الناطوفى منه إلى العصر الحجرى الوسيط فى الخرطوم)، وتوجد جميعها، جنبا إلى جنب، مع أصداف بحرية كانت تستخدم كمعالق كما يبدو، نظرا لانه قد عثر عليها داخل أوعية. وتكتمل هذه القائمة بعدد من أجزاء أغلفة بيض النعام – ومنها كسفتان مثقوبتان. وعدد من اقراص الحجر المثقوب، بالإضافة إلى الخرز المصنوع من الفلسپار الأخضر. ان وجود هذا الحجر الجميل نصف الكريم ذى اللون الأخضر المائل إلى الزرقة، قد أوحى فى بداية الأمر بوجود علاقات مع تيبستى. ومع ذلك فقد لاحظ «لوكاس» Lucas و «هاريس» Harris (1962,393- 4) ان هذا الحجر موجود فى حوض النيل.

وتقع منطقتى الأهراء عند منتصف المسافة تقريبا بين الكومين وتضمان ١٦٨ مطمارا ينبغى أن يضاف إليها ١٨ حفرة للأوانى الفخارية.

والمطامير الموجودة فى المستوى الأعلى وعددها ٦٧ محفورة فى رواسب الحصى لشاطىء البليستوسين، وكانت فى معظمها (٥٧) مبطنة بالحصر والقش. وكان قطرها يتراوح بين ٣٠سم و ١٥٠سم، وعمقها بين ٣٠سم و ٩٠سم. ان بعض الحبوب وهى متفحمة أحياناً تكشف عن الشواهد الأولى لوجود النباتات المزروعة فى مصر. وتشمل القمح (triticum dicocum) والشعير ذا الستة صفوف (Hordeum hexastichum) وذا الأربعة صفوف (Hordeum vulgare) وذا الصفين (Hordeum distichum) [٦] كذلك من الثابت وجود الكتان (linum usitatissimum) . وإلى عام ١٩٥٥، تعود تجربة الكربون ١٤ الثورية التى اختبرها «لايبى» Libby على الحبوب المتفحمة التى حصل عليها من هذه الصوامع. فتوصل إلى تحديد تاريخ ٥١٤٥ ± ١٥٥ قبل الميلاد. وفى حالات كثيرة، استخرجت أغشية الحصر من قاع التجويفات المبطنة بالطمى، إلى جانب غيرها من الأشياء مثل الصوان والشقف والأصداف. وقد عثر فى مكانها، على سلة على هيئة قارب، كانت مملوءة بالأصداف، بالإضافة إلى ثلاث صوان من القش وسلة على هيئة برميل صغير. وكشف

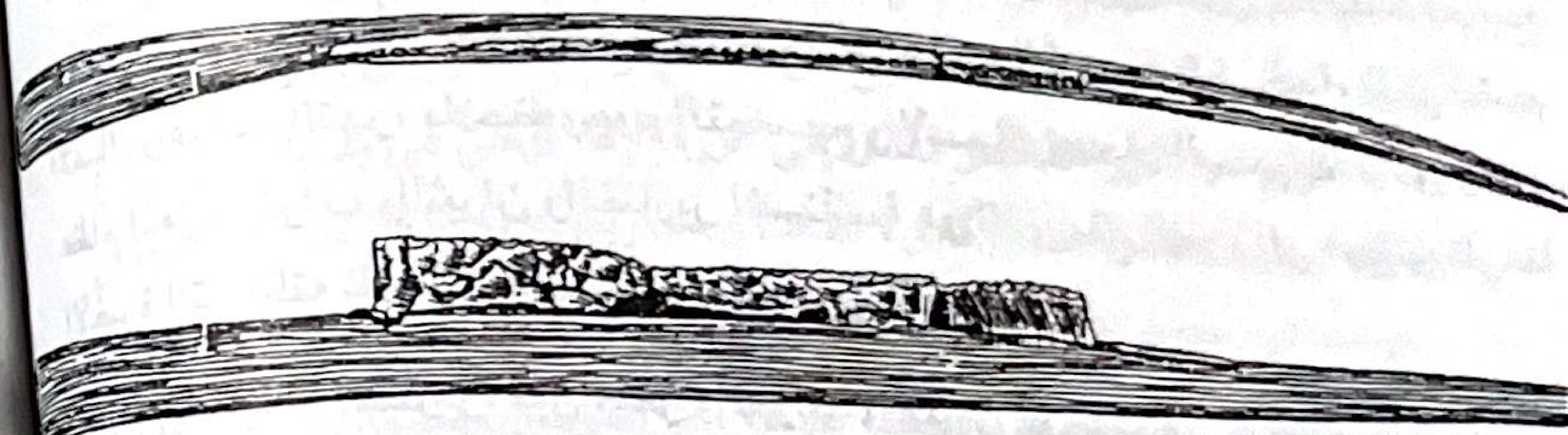
متماثلان عن مقبض مقوس تقويسا خفيفاً، من خشب الأثل tamaris ، طول الواحد ٥٠سم، وفى شق أوسط، ادخلت ثلاثة عناصر من الظران ذات الوجهين، والمسننة أحدها وهو الأوسط مستطيل والإثنان الآخران طرفهما مثلث الشكل. (الشكل رقم ١). كما عثر على العديد من كسف عِصِى من خشب الأثل، مقوسة أو متشعبة، والتفسير المحتمل أنها مضارب لضرب الحبوب وتذريتها.

أما الأوانى الفخارية التى عثر عليها فى نفس المكان فهى من نفس نوعية تلك التى عثر عليها فى الكومين .

إن أهراء المستوى الأدنى الواقعة أسفل السابقة، بحوالى تسعة أمتار، تتكون من ١٠٩ مطامير و ٩ حفر للأوانى الفخارية، وإن كانت حالة حفظها أسوأ بكثير، إلا أن أوجه التماثل معها واضحة بما يكفى، للقول بأنها معاصرة لها.

أما فيما يتعلق بالفونة، فإن العينة التى قام علماء الاثار البريطانيون بتحليلها، لم يتح لها، إلى يومنا هذا، أن تفحص من جديد. وإلى جانب الثدييات الضخمة، التى تضم الأفيال وأفراس النهر، يلاحظ وجود التماسيح والأسماك ومحار البحيرات. ولكن وجود عظام المعز والخراف والثيران والخنازير المستأنسة هو الذى دفع الفيوم إلى اجتياز المرحلة الأخيرة التى نقلته نقلاً إلى قلب العصر الحجرى الحديث.

وباستثناء الخنزير، فإن المعز والخراف والثيران موجودة فى عداد عينات الباحثين البولنديين فى عام ١٩٨١، ولكنها لا تشغل سوى دور ثانوى. إلا أنه يبدو أن هذين الحيوانين – الماعز والخروف – كانا بعد الكلب،من أول الحيوانات المستأنسة، ويظل مكان استئناسهما هو هذا الشرق الأدنى الذى كان الإطار البيئى الذى عاش فيه أجدادهما كحيوانات متوحشة – وذلك، رغما عن المدافعين عن الخروف الإفريقى. وقد سبق ان لاحظنا، فى واقع الأمر، أنه قد ثبت وجود الماعز المستأنس فى «جانج داريه» فى إيران، فى المستويات التى يعود تاريخها إلى ما بين ٧٣٠٠ و ٦٨٠٠ قبل الميلاد. وربما وجد فى الأناضول، إلى جانب الخروف، فى المستويات الأعلى فى «كايونو»، حول عام ٧٠٠٠ قبل الميلاد، حيث نلاحظ، كما يقول «جوتييه» A. Gautier (1990, 131) العالم المتخصص فى حيوانات العصور القديمة، تضاؤلاً فى حجم الماعز بالمقارنة مع احجام مثيلها فى المستويات الأدنى. ويبدو أن تربية المعز والخراف كانت ممكنة فى منطقة الشام – استناداً إلى حجم الحيوانات – منذ (عصر ما قبل الأوانى الفخارية للعصر الحجرى الحديث «ب» (Pré - Poterie Néolithique B) PPNB فى أريحا والبيضة.



الطول ٦٢,٧ سم

شكل ١

ومن ثم لا يمكن لمعز وخراف الفيوم أن تكون قد أتت إلا من الشرق المجاور. إننا لم نعش حتى الوقت الراهن على أى بيّنة تؤكد وجود الخراف والمعز المتوحشة فى إفريقيا، باستثناء الأروى (أو الكبش البرى)[٧]، (واسمه العلمى Amnotragus lervia) الذى لا علاقة له بالمعز والخراف المستأنسة.

ونعرف أن «كيتون – تومپسون» و «جاردنر» قد بنيا على واقع الانخفاض التدريجى لمنسوب البحيرة استنتاجاً منطقياً يذهب إلى أن الصناعات التى تعود سماتها إلى خواتيم العصر الحجرى القديم والتى تقع عند مستوى أدنى هى صناعات لاحقة من الناحية الزمنية. وترتب على ذلك وجود تتابع من الفيوم «أ» A إلى الفيوم «ب» B ، حيث يبدو أنه يمكن النظر إلى هـذا الأخير على اعتباره «تدهوراً» أصاب الأول. وكان «جاك ڤاندييه» J. Vandier (1952, 94) قد سجل فى الخمسينات ملحوظة حول هذا الموضوع فكتب يقول: «لم يسر التطور دائما فى اتجاه ما اصطلح على تسميته بالتقدم، بالنظر إلى ممثلى المجموعة «ب» B ، وإن كانوا قد عاشوا بعد ممثلى المجموعة «أ» A بما لا يدع مجالا للشك، إلا أنهم كانوا على الصعيد الثقافى، بعيدين كل البعد عن أن يكونوا على قدم المساواة مع من سبقوهم».

لقد سبق أن رأينا أن تقلبات منسوب البحيرة، كانت أكثر تعقيداً، وتنعكس فى تتابع الانخفاض والإرتفاع، فأمكن تمييز خمس مراحل على الأقل، بدءاً من بحيرة «مويريس القديمة» Paléo - Moeris وحتى بحيرة «مويريس» Moeris . لقد أتاحت الأبحاث الأمريكية البولندية خلال الثمانينات، بفضل عدد كبير من عمليات التأريخ بواسطة الكربون المشع، التحقق من صحة هـذا التتابع الزمنى وتحديد صورة أولى لثقافات العصر الحجرى الحديث هذه.

وانطلاقا من تحليل إرسابات الهولوسين البحيرية، فى إمكاننا أن نميز بين وحدتين ستراتيجرافيتين وجيومورفولوچيتين مرتبطتين بتقلبات مناخية.

الأولى (واسمها العلمى lacustrine Marl - Diatomites – LMD) التى ازدهرت فيما بين ٨٨٣٥ ± ٩٩٠ و ٧٤٤٠ ± ٩٠ قبل الزمن الحاضر B.P ، تتفق وطور انحسار، فى عصر جاف. انه الإنتقال من «ما قبل بحيرة مويريس» Pre' - Moeris إلى «البحيرة السابقة على موريس» Proto - Moeris ، على حد قول «وندورف» Wendorf و «شايلد» Schild . وتشترك فيها العديد من مواقع خواتيم العصر الحجرى القديم التى تتفق تواريخها مع المحلات القارونية. وهناك انقطاع يفصل هذا التكوين عن تكوين آخر، من الطمى الرمادى المتصلب، الذى يضم آثار اقدم أماكن سكنى العصر الحجرى الحديث. ويوضح الوضع الستراتيجرافى لهذه المواقع ان العصر الحجرى الحديث القديم، الذى يعرف اصطلاحا

بالفيومي، قد ظهر إبان مرحلة مازال يسودها الجفاف ليتطور تطوراً متوازياً مع الرطوبة، كما يشهد على ذلك تصريف مياه وديان الصحراء الغربية في تاريخي ٦٤٨٠ ± ١٧٩ و ٥٥٤٠ ± ٧٠ قبل الزمن الحاضر B.P ويقابلها قبل الميلاد ٥٢٠٠ و ٤٥٠٠، يؤكدان من ناحية، على أن ألف سنة تفصل بين نهاية العصر الحجرى القديم حول عام ٧٤٤٠ ± ٩٠ قبل الزمن الحاضر B.P وبداية الحجرى الحديث، ويؤكدان من ناحية أخرى، على التطور المديد لهذا العصر على ٩٠٠ سنة، إلى ان اقيمت أولى محلات عصر ما قبل الأسرات.

وأمكن رصد المواقع **الفيوميه** بفضل تمركزات المادة التي خلفتها عند سفح طبيعية، فكانت هدفاً لعمليات الجمع والتنقيب. وان نتناول من جديد صناعة الحجرية التي ورد الحديث عنها عندما تطرقنا إلى الفيوم «أ» A. وتوضح كسف تنوعاً ما، في تكوين العجينة ذاتها. وبشكل عام، فإنها تعود إلى التكوينات المحلية الجيولوجية الثالثة وطين النيل، عندما ترسبت هذه التكوينات إلى الشرق من المنطقة الدراسة. ولمعادلة لزوجه التربة، تستخدم في الغالب مواد عضوية تتكون أحياناً من الرمل أو أجزاء صغيرة جدا من الأصداف. ومن الصعوبة بمكان في معظم الأحوال نتعرف على الأشكال، وإذا حدث ذلك، فإننا نتعرف على الفئات التي حددتها «كيتون تومبسون». وعلى امتداد الألف سنة تقريبا التي شغلتها المحلة التي يمثلها الفيوم يتوفر لنا أي أثر لاماكن السكنى أو لمطمار واحد.

وإلى الشمال الشرقي من المنطقة التي تم استكشافها، فإن العديد من المواقع في أعلى تكوين من الطمى الابيض الرملى، وهي صورة لمرحلة جديدة من الإنحسار متتالية زمنية تمتد من ٥٤١٠ ± ١١٠ قبل الزمن الحاضر B.P إلى ٤٨٢٠ ± ١١٠ قبل الزمن الحاضر B.P وهو تطور دام ٦٠٠ سنة في ظل مناخ جاف. ومن الناحية التيبولوجية، توفر المخلفات المادية لهذه المواقع تجانساً يختلف إلى حد كبير بالمقارنة المواقع السابقة، بحيث يصبح من الصعوبة تجميعها تحت تسمية مشتركة: «المويرى» صناعة الادوات الحجرية من نصال مشظاة من حصى صغيرة من الظران، تظهر نواة ذات سطح بسيط أو سطحين للطرق. والأدوات مصنوعة أساساً من النصال أو من النصال الصغيرة: إن النصال ذات الظهر، والنصال والنصال الصغيرة التي تحمل لمسات شذب قزمية، والنصال المشذبة والمثاقب، تشكل ثلثي الأدوات. وإذا وجدت المباشر والأزاميل والادوات المشطوفة الزوايا فهي ليست سوى حالات فردية معزولة، في حين ان الشظايا التي تحمل لمسات صقل تشكل فئة ثابتة وإن كانت محدودة العدد. ان كسفة منجل أو نصل وسن سهم قاعدته مقعرة، هي النماذج الوحيدة ذات الوجهين، ومع ذلك، لا تظهر التقنية سوى على هيئة شظايا صغيرة ناتجة من عملية تصنيع الأدوات الحجرية.

ويظهر الشقف أواني فخارية أتت عجينتها من الطين المحلى للحقبة الجيولوجية الثالثة. وتكشف الأشكال التي أمكن إعادة تكوينها عن قصعات نصف كروية وأوعية أسطوانية تخرج منها عنقها، ولكن لا وجود لأدوات الاكل ذات القوائم ولا الصحون الكبيرة التي تميز الفيوم «أ» A.

وكما يتضح من عمليات التاريخ بواسطة الكربون المشع، هناك انقطاع يقارب قرناً من الزمن، يقع عند أطراف نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، ويفصل بين مجموعتي العصر الحجرى الحديث: **الفيومى و المعويرى.**

وعلى ضوء هذه المعطيات الجديدة، أصبحت معلوماتنا حول إشغال الفيوم في العصر الحجرى الحديث دقيقة، وتم تصويبها مع تحديد إطارها الزمنى والبيئى القديم.

ومع ذلك، تظل مسائل أصوله مطروحة على بساط البحث.

إن وجود الماعز والخراف المستأنسة، بالإضافة إلى تقنيات التشظية ذات الوجهين مع استخدام الصقل، قد اشار، في بداية الأمر إشارة قاطعة إلى الشرق الأدنى بعد انتقاله إلى العصر الحجرى الحديث. ولكن «كيتون - تومبسون» ذاتها، إذ كانت تتجنب الانسياق وراء النزعة الشرقية، لم تكن تستبعد إمكانية وجود أصول محلية صميمة، في دلتا النيل. لقد أوضحت الصفحات السابقة مدى الحجب الكثيفة التي كانت تحيط بالألف السادس قبل الميلاد، في الوادى، (الألف الثامن قبل الزمن الحاضر B.P) وليس في استطاعتنا أن نرفض رفضا قاطعا فكرة وجود أحد الأجداد الأولين من العصر الحجرى الحديث، وهو لايزال مدفونا تحت إرسابات النهر. وربما استطاعت اعمال التنقيب الجارية في الوقت الراهن في أعمق طبقات الدلتا، أن تميط اللثام عنه... وكما يقترح «ونكية، وآخرون Wenke et al (1989) فقد كانت الظروف البيئية مواتية آنذاك لظهور الغلال والحيوانات المستأنسة من أنواع الشرق الأدنى، بعد أن تأقلمت.

إن وجود ثقافات، في الغرب، شديدة القدم عرفت الأواني الفخارية وربما أيضا الثيران المستأنسة، قد تسمح بأن تحوم فوق رؤوسنا فكرة إمكانية ظهور عصر حجرى حديث وافد من شرقي الصحراء الكبرى، قد يكون الفيوم على ما يفترض إحدى المناطق الأولى التي تم شغلها، أثناء إنتقال المجموعات البشرية في اتجاه النهر تحت ضغط ظروف الجفاف التي سادت في الألف السادس. وهكذا، فسر «كوزلوفسكى» Kozlowski و «جينتر» (1986) Ginter «المويرى» كأصداء متأخرة لتقاليد الصحراء الكبرى، بما يضمه من تكنولوجيا قائمة على النصال والنصال الصغيرة التي تعيد إلى الأذهان ما عثر عليه في واحة سيوه، تاركاً للفيومى أصولاً شرقية محتملة.

وعلى وجه الإجمال، تذهب «هو لمس» D. Holmes (1989, 377) إلى ان صناعة الأدو الحجرية فى الفيوم كانت سمتها الغربية واضحة كل الوضوح. وتذكرنا الصناعة الـ على الشظايا مع وفرة القطع المشذبة، والرُقَض و الأدوات المسننة والأسنة ذات القا المقعره والأرحاء وبيض النعام – تذكرنا بمجموعات الأدوات الحجرية فى الواحـ الخارجة، أو تلك التى يعثر عليها فى المناطق الأكثر تطرفا ناحية الغرب ، والتى قام بـ الـ B.O.S (٨) بأعمال التنقيب.

فلنتناول بالبحث العصر الحجرى الحديث فى الفيوم، عند ملتقى ثلاثة دروب: در الصحراء الشرقية، ودرب الشرق الأدنى، ودرب الوادى.

ومن ناحية إشغال الأرض، فإن مساكن كومىّ K , W ، بالإضافة إلى المطامير، ور قائمة فوق مرتفعات طبيعية، تشكل أماكن، كان يمكن شغلها على مدار السنة، ولكنها كانت توفر، ملاجيء ممتازة، إبان الموسم الرطب، على نحو خاص، عندما يرتفع منسوب البحيرة. ومع ذلك، لا تظهر اثار تذكر، عن نوع المساكن نصف المدفونه التى نلتقى بها فى الشرق الأدنى، منذ الناطوفى. ومن الواضح أن حياة الإستقرار Sedentarisation التى بلغت شأواً عظيماً – حيث نجد أنفسنا أمام قرى بكل معنى الكلمة – والتى كانت تميز العصر الحجرى الحديث فى الناطوفى، كانت غريبة على الفيوم، حيث أن «استراتيجية شغل الأرض» كانت ترتبط فى المقام الأول، على ما يبدو، باستغلال موسمى واسع النطاق ومع أن الزراعة واستئناس الحيوان كانا أمراً مؤكداً، يظل فى الحقيقة، مركّب الصيد النهرى – الصيد البرى – جمع الطعام، الذى تشهد عليه الأدوات وانواع الحيوانات الممثلة – يظل وجود هذا المركّب وجوداً فاعلاً ومهيمناً. وبهذا المعنى، فإن العصر الحجرى الحديث فى الفيوم، يعيد إلى الأذهان مثيلة، فى شرق الصحراء الكبرى. ان المواقع التى ظهرت إلى النور بفضل أعمال البعثات الأمريكية البولندية، والمتمركزه فى القطاعات التى لا تغمرها مياه الفيضان، قد استخدمت على ما يرجح كقواعد للإقامة القصيرة الأجل، وهو ما قد يفسر غياب أو اختفاء كل أثر يدل على السكن.

ويقترح «بريوير» D.J Brewer (1989) **، عالم حيوانات العصور القديمة** archéozoologue **فى دراسته الحديثة حول فونة مواقع الفيوم، يقترح نموذجا للإستغلال القائم على استخدام موسمى شديد الدقة لموارد البحيرة.**

ويستنتج من هذه الأبحاث أن السمك هو أكثر الأنواع تمثيلا. ومن بينها يمثل القرموط (واسمه العلمى «كلا رياس» Clarias **) الذى يعيش فى مياه المستنقات القليلة الأوكسجين، ٦٦٪ من مجموع الفونة السمكية لبعض المواقع. ولكن وجود بعض الأسماك النيلية (قشر**

البياض Lates Nilotica**)، وهى تفضل العيش فى المياه العميقة، يؤكد الدراية بتقنيات الصيد، الأكثر تنوعا. إن القرموط وهو سمك كبير الحجم ويسبح فى المياه القليلة العمق، يمكن صيده بالخطاف أو الإمساك به بالشباك، بل باليد. أما قشر البياض فإنه يحتاج إلى تجهيزات أكثر تعقيدا من شباك المياه العميقة، وهو ما يفترض أن الصيد كان صيدا جماعيا، وعلى متن القوارب، بلا شك. إن دراسة دقيقة قائمة على دورات نمو القرموط، قد أتاحت الإقتراب، أكثر فأكثر، من استراتيجية الصيد التى أخذ بها صيادو الفيوم. إذ يختلف الشوك الصدرى لهذه الأسماك مع دورات النمو، فيكون رقيقا وغامقا إبان اشهر الشتاء، عندما يظل الحيوان بلا نشاط فى المياه الباردة، ويكون عريضا وفاتحا إبان الموسم الحار، عندما ينشط ويتغذى ويزداد حجمه بشكل ملحوظ. لقد كشف التحليل الإحصائى، سواء فى مواقع الفيوم «أ» A أو فى مواقع الفيوم «ب» B أن صيد هذه الأنواع كان يتم، من ناحية، قرب نهاية فصل الربيع - بداية فصل الصيف، ومن ناحية أخرى، قرب نهاية الصيف. وإذا صح أن البحيرة كانت متصلة بالنيل، وعرضة مثله إلى تقلبات منسوب المياه، فقد كانت بدايات الصيف تتفق تماما مع انخفاض منسوب المياه، وتكوين المنخفضات الشاسعة، ومناطق المستنقعات حيث يكثر القرموط. وفى المقابل، كانت نهاية فصل الصيف تتفق وموسم وضع البيض، عندما يتجمع القرموط، ويصبح صيده من السهولة بمكان. وعلى صعيد ممارسات الصيد هذه، كان ابناء العصر الحجرى الحديث، فى الفيوم، لا يختلفون سوى فى أضيق الحدود عن أهل خواتيم العصر الحجرى القديم فى الفيوم «ب» B.**

ولما كان ابناء العصر الحجرى الحديث الأوائل المعروفين فى مصر، قد ارتبطوا بالغرب بحكم وضعهم إلى الغرب من الوادى، وبتكنولوجيتهم الحجرية وباستراتيجيتهم فى شغل الأرض، فقد استعاروا من الشرق الأنواع الحيوانية التى قاموا باستئناسها. وإذ كانوا يمتلكون أوانى فخارية أصيلة، فيبدو أنهم تأثروا بعوالم عديدة.

إن منخفض الفيوم، كواحة فى الصحراء الكبرى، مرتبطة بالوادى وان اختلفت عنه، وواقعة عند المنفذ الغربى لطريق الشرق الأدنى، القادم عبر الدلتا غير المستقرة، قد جاء علينا بعصر حجرى حديث أصيل، يتكون من أفراد ربما جاءوا من الغرب، بعد أن طردتهم الأحوال المناخية القاسية للألف السادس قبل الميلاد، ووجدوا هنا ظروفا بيئيه ساعدت على ازدهار انواع مستأنسة ربما سبق لها أن وجدت فى الدلتا المجاورة.

وفى هذا الصدد، فلا مراء، أن فرضية وجود أحد الأجداد الأولين مدفونا فى الطمى، تحتاج إلى مزيد من الاستقصاء والتنقيب..

قام «يونكر» H.Junker بالكشف عنها، فى إطار أعمال «بعثة ڤيينا لغرب الدلتا» "Wiener Westdelta Expedition" . ان هذا الموقع الكبير، فى غرب الدلتا، كان موضوع أعمال التنقيب على امتداد سبعة مواسم، من ١٩٢٩ وحتى ١٩٣٩، وجرت أربعة منها بمشاركة سويدى «المتحف المصرى» Egyptiska Museet فى استوكهولم.

لقد اقتصرت أعمال النشر على تقارير أولية (Jun ker, 1929, 1930, 1933. 1934, 1940) وقد عانت الكثير من جراء انفجار الحرب العالمية الثانية التى أدت إلى ضياع القسم الأكبر من الوثائق. ويظل الباقى مبعثراً فى عدد من المتاحف: فى القاهرة وستوكهولم وهيدلبرج وڤيينا، وذلك فيما يتعلق بالمادة التى تعود إلى العصر الحجرى القديم.

وفى السبيعنات، أجرت مصلحة الاثار المصرية، أعمال إنقاذ سريعة فى قطاع معرض للخطر. (Badawy, 1978) . واستأنف المعه د الألمانى ، فى القاهرة ، تحت إشراف «إيڤنجر» J. Eiwanger (1984, 1988, 1992) معضلة أعمال التنقيب من ١٩٧٧ إلى ١٩٨٣، وكانت مفصلة الستراتيجرافيا الصعبة على جدول الأعمال.

إن طبقة المونل التى نقب فيها «يونكر» كان يبلغ سمكها ثلاثة أمتار فى بعض المواضع، وكانت تغطى ما يقرب من ٦٤٠٠ مترا مربعاً لمنطقة تبلغ فى مجملها ٢٠٠٠٠٠ متر مربع . ولكن عالم الاثار النمساوى لم يلحظ وجود تغيرات استراتيجرافية (Junker, 1940) ، سوى فى وقت متأخر، وقد قام حينئذ بتحديد ثلاثة مستويات إشغال.

وسوف تضع البعثات الألمانية نصب عينيها، فى المقام الأول، أن تستأنف هذه الدراسة الستراتيجرافية من خلال سلسلة من عمليات السبر فيما بين المنطقتين الشاسعتين اللتين نقب فيهما «يونكر».

وعلى بعد ٤٥ كم إلى الشمال الغربى من القاهرة، وبين الرياح البحيرى وحافة الصحراء، تقع المحلة فوق مدرج على هيئة نتوء، مكون من الحصى التى جرفها وادٍ يصب إلى الشمال، فى وادى النيل. وهى تتطور داخل وحدة من المواد المترسبة مكونة من الرمل الأبيض، وناتجة من فعل الرياح.

ويضم المدرج أشياء مدملقة من صنع الإنسان تعود إلى العصر الحجرى القديم، وقام «شميدت» K. Schmidt (1980) بدراستها. وقد وفرت من ناحية أخرى المادة الأولية لصناعة الأدوات الحجرية فى مستوى الإشغال الأدنى، الذى أطلق عليه الباحثون الألمان اسم أورشيشت[٩] Urschicht .

وتفضى دراستهم، فى واقع الأمر، إلى استخلاص خمسة مستويات، تحدد أطواراً ثلاثة أساسية لاشغال المكان.

ويختلف المستوى الأول (I) (Eiwanger, 1984) الـ «أورشيشت» Urschict إختلافا ملحوظا عن الطبقات العليا، ويكشف عن ثقافة لم نعهدها حتى الآن، وهى على اتصال بالمشرق، على حد قول المؤلف.

أما المستوى الثانى (II) (Eiwanger, 1988) فيكشف على ما يبدو عن مؤثرات افريقية.

وأخيرا تمثل المستويات الثالثه والرابعه والخامسه (III – IV - IV) ثقافة إقليمية، أكثر كلاسيكية، مماثلة لثقافة الفيوم «أ» A .

إن الـ «أورشيشت» هى الوحدة الأركيولوجية الأكثر عمقاً، وتقع فوق المدرج ذاته، وتغطيها فى بعض الأماكن طبقة من الرمال الخالية من أى أثر، وهى تلاصق أحياناً بشكل مباشر المستوى الثانى (II) وتتميز الـ «أورشيشت» بمادة أصيلة، إذ تعرف المنقبون على ثقوب أوتاد، وحفر دائرية أو بيضاوية، يبلغ قطرها من ٢ إلى ٣ أمتار، وهى قليلة العمق، كما تعرفوا على بعض المواقد.

إن الفخار الذى عثر عليه والمتوفر على هيئة شقف، يتميز بعجينة لم يضف إليها مزيل اللزوجة التربة، الأمر الذى يعطيها مظهراً خشناً فى الغالب، بالإضافة إلى سمك جدارها وقلة تنوع أشكالها.. ويصنف إلى فخار مصقول، محروق حرقاً جيداً فى معظم الاحوال، يتدرج لونه من الأحمر الأسمر إلى الارجوانى المائل إلى البنفسجى، وإلى فخار عولج سطحه باليد فأصبح أملس وفاتح اللون، من البرتقالى إلى الأحمر. ومن الزخارف النمطية التى تميز هذا المستوى، شوك السمك الذى طبع قبل الحرق على عجينة بعض الفخار المصقول – وهى موجودة فى حالات استثنائية على الفخار الأملس، وهو فى هذه الحالة عبارة عن أوانٍ صغيرة. والأفريز غير المصقول دائماً يحمل كل الزخارف المتنوعة، سواء كانت الأوانى رقيقة أو سميكة، أو كانت مصقولة صقلاً رقيقاً أو خشناً. والأشكال محدودة وتقتصر على الكؤوس والأطباق والقصعات نصف الكروية. ونعثر عليها، على هيئة مجموعة مستقلة، مصغرة وقد أعدت من عجينة ملساء فى أغلب الأحوال. إن التنوع فى هذا المجال، سوف ينتقل إلى المستويات العليا حيث ستظهر الأقنية وتتطور حوافها واعناقها وقوائمها. ومع ذلك: تظهر أوعية ذات مقابض، ولن نعثر على مثيلتها فى أماكن أخرى، وقعرها مستدير أساساً، ومستو فى النادر القليل، ولكنه ليس مدببا أبداً.

ومنذ هذا المستوى ، تظهر المغارف المصنوعة من الطين المحروق. وقد استطاع «إيفنجر» ان يعثر على نموذج واحد. ويشير «لارسن» Larsen (1962) إلى وجود عدد منها وسط الأوانى الفخارية الملساء.

أما صناعة الأدوات الحجرية، فإنها تكشف أكثر من الأوانى الفخارية، عن انقطاع مع المستويات العليا. إن حصى المدرجات، من أحجام صغيرة فى المعتاد، وقد استخدمت كنواة لنصال قصيرة وعريضة، ولشظايا على هيئة نصال صغيرة فى الغالب، لها قشرة خارجية. إن عمليات التشذيب التى تحمل اثارها، هى فى الغالب، جانبية مباشرة، أو معكوسة أحياناً. ومن السمات المميزة استخدام شظايا ضخمة من الحصى، كحامل للمباشر وتحمل لمسات شذب خشن أو رقيق، أحادية الوجه أو ذات وجهين، وأيضا عدد كبير من المثاقب المصنوعة ابتداء من الشظايا أو الحصى. واستخدمت لمسة الشذب ذات الوجهين، فى المقام الأول، لإعداد الحد القاطع للحصى، وبالتالى ربط هذه المجموعة، من الناحية الوظيفية، بمجموعة الفؤوس. وهنا تظهر الفأس «**الحقيقية**» الوحيدة، وهى مثلثة الشكل، ومصقولة صقلاً خفيفاً عند حوافها. وبين هذه المجموعة، جدير بنا أن نلاحظ سن الرمح الصغير المصنوع من شظية ، وقد صقل سطحه العلوى صقلاً تاماً، وله ساق وأجنحة، وبه نقرتان قد تذكرانا بأسنة حلوان، ومعه سلسلة الأدوات ذات النقرات التى عرفها الشرق الأدنى.

والأرحاء واحجار السحن موجودة فى جميع المستويات. ويصل عدد تلك التى تعود إلى الـ أورشيشت»، إلى ستين كسفة من الحجر الرملى الكوارتزى أصوله محلية، وهى بيضوية الشكل أو شبه مستطيلة. واستخدمت الشقف (الفخار الأملس) كأدوات سحق وأيضا لصاقل بلا شك.

ومن بين الأحجار المستخدمة، شاع حجر الدم(١٠)، الذى استخدم على ما يبدو للتلوين البدنى. كما ان الخشب المتحجر بالسليكا(١١) والكوارتز والحجر الرملى والحجر الجيرى والبازلت، كانت كلها موجودة على مقربة من هذا المكان. أما الشست فينبغى البحث عنه إلى الجنوب قليلاً.

ولكن إذا كانت هناك، خصيصة جاءت كإضافة إلى غيرها من الخصائص، فجعلت من هذه المجموعة المتكاملة، كلا أصيلا فى وادى النيل، فهى وجود تماثيل صغيرة من الصلصال. إن تشكيلا آدميا وكسفا لأحد أنواع العائلة البقرية، لتشير هنا إلى مولد النحت المجسم.

إن عمليات التاريخ بالكربون المشع التى تم الحصول عليها من الـ «أورشيشت»، وإن اعتبرها إيفنجر، حديثة جداً، تطابق تلك التى نشرها «أولسون» Olsson، عام ١٩٥٥ (انظر F. Hassan, 1985) : ٤٧٩٥ ± ١٠٥ قبل الميلاد. و ٥٠٠٥ ± ١٢٥ قبل الميلاد، على عمق ١٨٠ سم تحت سطح الأرض، كما يشير «أولسون». وكذا يتحدد تاريخ هذه الثقافة الاولى فى مرمدة بنى سلامة، عند البدايات الاولى للألف الخامس، علما بطبيعة الحال، ان تاريخات إضافية لن تتأخر كثيراً، لتؤكد هذه المعطيات أو تزيدها تحديداً أو تعدلها. ولا يسعنا فى هذا الصدد، أن نغفل الشكوك التى ابداها عالم الاثار الالمانى شخصياً (1988, 54 n. 312) إذ يرى أن متتالية الكربون المشع قصيرة جداً، ومن ثم فإنه قد يميل إلى «العودة إلى الوراء» بال «أورشيشت» حتى الألف السادس قبل الميلاد.

لقد رأينا، فى حقيقة الأمر، ان أولى ثقافات العصر الحجرى الحديث فى الفيوم وهى الفيوم «أ» A عند «كيتون - تومپسون» أو الفيومى عند «جينتر» Ginter و «كوزلوفسكى Kozlowski كانت تعود إلى ٥٢٠٠ قبل الميلاد تقريبا، بيد أن مستويات مرمدة بنى سلامة العليا التى جادت بمخلفات الإنسان الشبيهة بتلك التى جاد بها الفيوم. وهنا يتضح بجلاء عدم التطابق بين الكربون ١٤ والستراتيجرافيا.

ان الفونة التى درسها « ڤون دين دريش » A. von J. den Driesch و «بويسنيك» (1985) J. Boessneck ، تكشف عن وجود أنواع مستأنسة، منذ هذا المستوى الأول: ويحتل الخروف مكان الصدارة، ثم الثور والخنزير، وأخيرا الماعز ولكن بنسب محدودة. كما أن الكلب موجود أيضاً. بيد أننا نعرف، إذا كان علينا أن نبدى قدراً من الحيرة والشكوك، حول منطقة استئناس الثور، فان مجموعة الماعز والخراف تشير إلى الشرق الأدنى كمنطقة أصلية لها. أما الخنزير، وان كانت أنواعه البرية قد وجدت فى إفريقيا، على ما يظن، إلا انه من المعتقد انه قد تم استئناسه لأول مرة فى «كايونو»، فى الجنوب الشرقى من الأناضول منذ ٧٢٠٠ قبل الميلاد. وقد تم استئناسه بكل تاكيد فى «جارمو» الواقعة فى تلال الكردستان العراقية المطلة على جبال زاجروس. (انظر 140 - 137 ,Gautiern, 1990).

ومن بين الأنواع البرية الممثلة، نذكر أفراس النهر. ان حيواناً واحداً منها يوفر قدراً من اللحوم يعادل ما تعطيه أربعة أو خمسة ثيران، وأربعون إلى خمسين خروفاً. كما يتيح هيكله العظمى الضخم تصنيع الكثير من الأشياء: خطاطيف وشصوص ومثاقب...

ويذهب «إيفنجر»، إلى أن هذا المستوى الأول من مرمدة بنى سلامة «مشدود» إلى جنوب غرب آسيا. وفى الدراسة التى اجريت على الأوانى الفخارية التى يقتنيها متحف استوكهولم، لاحظ «لارسن» H.Larsen (1962) ، أن الموضوع الزخرفى المحفور على هيئة شوك السمك يوجد أيضا على سطوح الأوانى الفخارية فى حسونة(١٢)، فى المستويات من

١ إلى ٤. وتشهد صناعة الأدوات الحجرية ظهور التقنية ذات الوجهين بلمسات الصقل المسطحة وبدايات الصقل. يضاف إلى ذلك «الثلاثية» الشرقية للأنواع المستأنسة – الخراف والخنازير والمعز – إلى جانب الأشكال الأولى المشكلة من الصلصال التى تأكد وجودها فى فلسطين، منذ الناطوفى. وكلها عناصر تنزع إلى تحديد زمن الـ «أورشيشت» داخل فاصل الألف السادس الشهير، فيما بين خواتيم العصر الحجرى القديم فى حلوان والفيوم «أ» A ».

ويكشف المستوى الثانى من مرمدة بنى سلامة عن إشغال أكثر كثافة للأرض يظهر من خلال اثار عديدة لثقوب الأوتاد والحفر والمواقد. كما أن المزيد من الرماد والبقايا العضوية يضفى على الطبقة لونا أسمر. كما أن مخلفات الإنسان بكميات أكبر. والشواهد على الفونة وبقايا النبات على قدر كبير من الوفرة.

وتختلف الأوانى الفخارية اختلافاً جذرياً عن مثيلها فى «أورشيشت» حيث يتم معادلة لزوجة عجينته بإضافة قش مقطوع قطعاً صغيرة، مما مكن من صناعة أوعية أضخم. والأوانى الفخارية المصقولة ممثلة بكميات تكاد تكون مماثلة للأوانى الملساء. ولون الأوعية المصقولة يتنوع من الأحمر إلى الرمادى: انه تغير سوف ينتمى إلى اللون الأسود عند المستويات من ٣ إلى ٥. ويرى «يونكر» ان هذه الأوعية من القطع النمطية التى تميز مرمدة بنى السلامة. وعلى عكس ماهو الحال بالنسبة للمستوى الأدنى، لا يظهر زخرف واحد. ويظل تنوع الأشكال بسيطا ومحدوداً: العديد من الكؤوس ذات الجدران شبه عمودية، وقصعات مخروطية وكروية، وقيعانها المستديرة على هيئة القوس، أكثر عدداً نسبياً من القيعان المسطحة، وحوافها مستقيمة أو مفلطحة إلى حد ما. ومع ذلك، شهد المستوى الثانى ظهور شكل مميز: فالإناء البيضاوى الذى ثبت وجوده، على نحو خاص، ضمن الفئة الملساء لم يكن موجوداً فى الـ «أورشيشت» إلا على هيئة إناء مصغر. وقد اكتسب هنا جميع الأحجام، من الكبيرة إلى الشديدة الصغر.

ولكن هذا الإنقطاع أكثر وضوحاً أيضاً بالنسبة لصناعة الآلات الحجرية بالمقارنة مع الأوانى الفخارية، حيث تتضاءل كميات هذه الصناعة وتصبح ذات وجهين فى المقام الأول. عندئذ، يتخلى قاطع الحجارة عن حصى الأودية ليتحول نحو العقد الظرانية الموجودة فى تكوينات الحجر الجيرى المجاورة. ويمكن تبرير هذا التصرف بعنصرين: ان طمر مدرج الوادى تحت إرساب عضوى سميك قد جعل الوصول إلى المادة الأولية أكثر صعوبة. وكان تغيير التكنولوجيا ينطوى على لمسات صقل مستوية على الوجهين، والصقل عن طريق الضغط والصقل، وهو ما يتطلب ظراناً متجانساً من نوعية جيدة وأحجام أكبر.

إن أسنة الرماح ذات الأجنحة التى تظهر عند المستوى الثانى، تشد اهتمامنا على نحو خاص. ونجد فى الغالب أن الأجنحة مكسورة. وتوجد فى بعض الحالات، آثار تخلفت عن الإعداد لعملية الصقل، بهدف تسهيل إجراء لمسات صقل طولية ومسطحة، عن طريق الضغط – برأس مدبب من العظم بلا شك – وهو ما يبشر بالسيطرة على ناصية الصنعة التى ستجود بالسكاكين الجميلة التى تعود إلى عصر نقادة الثانية (انظر Midant Reynes, 19987) . وقد طبقت هذه التقنية على قطع أكبر حجاً، ونصال مستطيلة مثلثة الشكل أو على هيئة معَيَن.

وعلى غرار الفيوم، تُظهر الفؤوس حافة حادة مصقولة. ومع ذلك، فقد يكون جزء أكبر من الآلة مصقولاً. ومن بينها شكل مميز هو الفأس ذات الحافة الحادة المستعرضة، التى تشبه منقار[١٣] – أو قدوم – الفيوم وثقافات العصر الحجرى الحديث فى الخرطوم. وكان أحد الوجهين مسطحاً عن طريق لمسات صقل عريضة أو بطريقة طبيعية، أما الوجه الآخر فكان محدباً. وتحدد سلسلة من لمسات الصقل المستعرضة حافة حادة مستقيمة.

وتوفر احيانا عناصر ذات وجهين للمناجل آثار تخلفت عن الإعداد لعملية الصقل واثار بريق فى الغالب، فى الحد المسنن. والمثاقب ذات الوجهين شائعة، وإن استمرت مع ذلك النماذج المصنوعة من نصال «أورششت» Urschicht ، بالإضافة إلى الحصى وشظايا الحصى بلمسات صقل. والنصال أقل بكثير بالمقارنة مع العهود السابقة ولكنها تميل إلى الإستطالة وان بقيت عريضة. وتظهر على بعضها لمسات صقل جانبية.

وبأعداد تتناسب عكسياً مع الظران تتوفر بغزارة الأشياء المصنوعة من الصلصال المحروق ومن العظام والأصداف والعاج كما نجد كسفاً مشكلة لحيوانات من فصيلة الأبقار إلى جانب الخرز واجسام شبه كروية من الطين. ويقتصر وجود الشصوص المصنوعة من أصداف المحار والخرز من بيض النعام على المستويين الأوليين. وتظهر المثاقب بأعداد كبيرة إلى جانب الكثير من كسف الإبر . ومن الخصائص المميزة للمستوى الثانى، وجود الخطاطيف المصنوعة من العظم، ذات الثلاثة نتوءات على أحد الجانبين ووسائل الامساك «الذكور» بلا خطوط محفورة وقلائد من أسنان كلاب وسوار من العاج. وسُجل وجود فأسين صغيرين حدهما القاطع مستعرضين، وقد صنعا من ضلع فرس نهر.

إن نحت الحجارة الصلدة، أمر مؤكد تشهد عليه بعض الكسف من الألبستر، التى توحى بأنها كانت جزءاً من أوانى، والفؤوس المصقولة من الشست، ولاسيما رأسا مقمعتين كمثريتى الشكل، الرأس الأول من الألبستر، والثانى من صخر بركانى، من ذلك الطراز المنتشر فى فلسطين وفى الأناضول.

والعديد من الأرحاء وحجر السحن مصنوعة من الحجر الرملى المحلى، ويظل حجر الـ... موجوداً.

إن وعاءً مغروساً فى الأرض، بجوار موقد، كان يحتوى على بعض الأشياء المغطاة بحصيرة، وكانت قصعة مسطحة القاع وتعود إلى فئة الأوانى الفخارية الملساء تضم خمسة فؤوس صغيرة مصقولة من الشست وكسفة سوار أو خلخال من عاج فرس النهر، وشيئين مخروطين من نفس هذا العاج، لا نعرف فيما كان يستخدمان، وحيواناً صغيراً لم نتحقق منه، منحوتاً من عظم (فرس النهر؟).

والفونة قد قطعت الصلة أيضا مع ما يسبقها وتنسجم أكثر فأكثر مع ما يليها، ومنا... يزداد تواجد الثور المستأنس ويستمر هذا الإتجاه حتى المستوى الأخيره، وتسلك النسبة المئوية للأسماك والخنازير نفس المنحنى، فى حين تنعكس هذه النسبة بالنسبة للرخويات من المستوى الأول وحتى الخامس. وظل نوع من رخويات النيل (واسمها العلمى «اسپاثاريا روبنس» (Aspatharia Rubens) مستخدماً وحده على نطاق واسع، وكان يثقب من أجل الزينة أو يعد ليصنع منه الشصوص. ويمثل صيد الحيوانات المتوحشة مكانة بارزة، ولاسيما المجترات منها وفرس النهر.

وإن كان المستوى الثانى يقترب من الـ «أورشيست» بشىء من الاستمرارية - فلتنقل التطور - فى مجال الأوانى الفخارية المصقولة، والتماثيل الصغيرة المشكلة والشصوص من أصداف المحارات والخرز من كسر أغلفة بيض النعام وبعض أوجه الأدوات الحجرية، إلا أنه يتميز بشكل واضح من حيث المادة المتخلفة ذاتها التى ترسم لوحة مشهد ثقافى جديد. وتعكس هنا مناطق الرمال الجدباء الطور غير الرطب فى الألف السادس الذى أمكن الاستدلال عليه فى فلسطين، فيما بين ٥٥٠٠ و ٤٥٠٠ قبل الميلاد، وهو الطور الذى أختفت إبانه إشغالات محلات جنوب لبنان اختفاء كلياً. وهو ما قد ينقل الـ «أورشيشت» فى حقيقة الأمر، إلى ما وراء ٥٥٠٠ قبل الميلاد.

وعلى عكس ما حدث فى السابق، فقد استدل «إيفنجر» على وجود نزعات افريقية أكثر منها أسيوية فى هذه التجهيزات الجديدة: فالخطاطيف المصنوعة من العظم، والقدائم الصغيرة من الحجر الصلد القادم أصلاً من الجندل الأول، «مشدودة» فى الوقت الراهن صوب أطراف الصحراء الكبرى والسودان.

ولا يوجد، حاليا، من الكربون ١٤ شىء، تحت تصرفنا، بالنسبة للمستوى الثانى.

إن الطور الثالث من إشغال المحلات التى تمثلها المستويات الثالثه والرابعه والخامسة

يتفق والأوصاف المعتادة للموقع، لاسيما تلك التى أوردها «ڤاندييه» - Vandier (1952, 95 - 113) و «هايز» Hayes (1964, 229 - 242) .

وإذا كان تمييز التطورات واضحاً كل الوضوح، إلا أننا لا نلحظ ما يمكن اعتباره انقطاعاً جذرياً يماثل الإنقطاع الذى يفصل المستوى البدنى عن كل ماتلاه من مستويات.

ان الأوانى الفخارية للطور الثالث تميل أكثر فأكثر نحو الأشكال المغلقة التى كانت قد ظهرت منذ الطور السابق. وتظهر القوارير المصنوعة من الفخار المصقول التى تميز المستويين الرابع والخامس. ونذكر على نحو خاص تغيير اتجاه آثار عملية الصقل - وهى أفقية على الرقبة ورأسية على البطن - وهو التغير الذى يفضى إلى مولد ما يشبه التأثير الزخرفى. وأخيرا، فإن مجموعة الأوانى الفخارية تتكون من أوعية ضخمة من الفخار الخشن.

وخلال الطورين الرابع والخامس، تطورت الأوانى الفخارية فى اتجاه اللونين الأحمر والأسود الداكنين، وهو ما يدل على تعاظم التحكم فى ناصية حرق الفخار وفى اتجاه الأشكال البيضاوية والمغلقة والكروية والأسطوانية أو الصحون الكبيرة. وتتشكل «الأطراف» على هيئة شفاة ورقاب وقوائم حلقية أو آدمية الشكل. وكل هذه التغييرات متأثره بنفس الأسلوب بالأشكال المصغرة التى يظل وجودها دائما على اتساع سمك الموقع. وأخيرا، تزدان الفئات الخشنة والملساء بحلمات بارزة أو غائرة.

وتظهر الأدوات الحجرية تطوراً فى بعث أدوات الطور الثانى ذات الوجهين. وبالإضافة إلى المجموعات السابق ذكرها، لوحظ وجود العديد من المثاقب المصنوعة من الحصى والكثير من المكاشط والمباشر المصنوعة من الشظايا. وتكتسب القطع الضخمة ذات الوجهين بلمسات الصقل المسطحة، أحجاماً ملاحوظة عند المستويين الرابع والخامس، مع آثار ضربات الأزاميل فى بعض الأحوال. إن سن الرمح الجميل الذى يحتفظ به متحف القاهرة (الكاتالوج: رقم 57920 ، انظر Baumgartel, 1955 IV) يجمع بين العمليات السابقة على الصقل ولمسات الصقل بالضغط وتوازن التشكيل توزناً رائعاً: إنها قمة أمجاد نحاتى مرمدة بنى سلامة. إن احتمال وجود ورشة لتقطيع حجر الصوان، كما لاحظ «يونكر» ليؤكد صورة حرفيين، على قدر من التخصص، هو ما يمكن استخلاصه من دراسة الأدوات.

إن عدة مئات من الأشياء المصنوعة من العظم والعاج والطين المحروق والأصداف، توضح بجلاء النشاط الجبار للسكان الأواخر الذين أقاموا فى مرمدة بنى سلامة. وتوحى ثقالات صغيرة من الحجر الجيرى، لها حزّ طولى، بأنشطة الصيد النهرى بواسطة الشباك. ولا يفوتنا أن نقرن وجود ما يشبه المغازل المصنوعة من الصلصال بوجود حبات كتان،

الأمر الذى يوحى بمعرفة أصول فن الغزل والنسيج ايضاً، بلا شك. ويلاحظ «يونكر» بعد كسفة منخل أو مصفاة وسط مادة غير محددة المعالم، وتعتبر هذه الكسفة أول نموذج لل من هذا القبيل، فى موقع مصرى. وفى الموقع، ولاسيما فى المقابر عثر، وإن بكميات محدودة، على خرز من العظم والعاج والفخار والأحجار نصف الكريمة (الفيروز والعق الأحمر والعقيق اليمانى).

واخيرا، وكأول إلمامة مختصرة، وأول لقطة خاطفة لتدفق الحياة التى لا تتوقف تشكلت هكذا صورة الإنسان، فى مرمدة بنى سلامة، وانبثقت من المادة: إنه تمثال غير مكتمل اسطوانى الشكل، من الصلصال المحروق ويظهر الشعر والعينين والصدر، ويعتبر إلى يومنا هذا، أول صورة آدمية تجود بها مصر، أرض الصور. إن رأساً على هيئة كرة بيضاوية طولها ١٢سم، بثقبين فاغرين كعينين، وأنف أفطح؟ وفم صغير مفتوح، هو التعبير الأول لملامح الوجه فى خطوطه العريضة.(١٤). إن ثقوبا منتشرة على الجمجمة تحملنا على افتراض وجود فروة الرأس، وربما كانت من الريش، وثقوبا أخرى أسفل الذقن تدعو إلى الإعتقاد بوجود لحية، وأخيراً، فإن وجود ثقب اسفل الرأس، يدعونا إلى الظن أن هذا الرأس الغامض كان مثبتاً فى قمة سارية من الخشب، كما لو كانت دمية... ولا تظهر آثار لتوطن قروى حقيقى إلا فى طبقات المويل الأخيرة.

البيوت بيضاوية الشكل، يبلغ عر ضها من متر ونصف إلى ثلاثة أمتار، وهى محفورة حفرا طفيفا فى الأرض، ومشيدة بجعاليص غير منتظمة من الطين المخلوط بقطع صغيرة من القش، ومازالت فى حالة سليمة حتى ارتفاع أقل من متر. ومن الراجح ان القسم العلوى من الجدران، إلى جانب السقف أيضا كانت مصنوعة من مادة نباتية: أغصان الشجر والبوص والقش. ولتسهيل الدخول إلى البيت، كانت تو ضع مرقاة، تستند إلى الجدار من الداخل، وكانت عبارة عن العظم الأكبر لساق فرس النهر أو قطعة خشب. وكانت جرة غائرة فى الأرض، تشكل على ما يظن مخزونا من الماء العذب. ان وجود المواقد وبقايا حيوانات، يحملنا على الإعتقاد أن تناول الوجبات كان يتم فى الداخل، بعيدا عن الرياح بل الشمس أيضا.

وأيا كان ما يبدو من مستوى بدائى لهذه الوحدات السكنية، فإنها لم تقم بشكل عشوائى، بل كانت تصطف متراصة، ومتلاصقة إلى حد كبير، على امتداد ما يمكن ان ننظر إليه باعتباره شوارع.

وترسم مجموعة من ثقوب الأوتاد حدود أكواخ مشيدة بمواد أخف، وملاجىء على هيئة حدوة حصان مفتوحة ناحية الجنوب، ومن المحتمل أنها كانت موائل مؤقتة واستخدمت على ما يعتقد كورش أو مطابخ خلال فصل الصيف... إذ كانت محمية من ريح الشمال.

وأخيراً، فإن سياجاً من البوص ملقى على الأرض، ويتكون من سيقان مشدوده إلى بعضها بعضاً شداً، ويربطها رباطان مستعرضان، مازال فى حالة رائعة من الحفظ، يستدعى إلى الذاكرة بشكل ملفت للإنتباه سياج حظائر المواشى فى العصر الحديث.

وتقدم لنا الشواهد على عملية الإحتراق تعقيدات متشعبة لم نعهدها حتى الآن فى مصر. إذ لم يعد الأمر مجرد أحواض محفورة فى الأرض أو تم إعدادها على هيئة طوق من الحجر، بل إنها افران صغيرة حقيقية من قوالب صغيرة من الطين أو كور من الطمى رصت على هيئة دائرة. وقد لاحظ «يونكر»، ان أحد المواقد، كان يضم مخروطين من الطين، يبلغ ارتفاع كل منهما حوالى عشرين سنتيمتراً، وقد استخدما على ما يعتقد كدعامتين تحملان قدراً لطهى الطعام. وقد جرت العادة على تصوير هذا الأسلوب فى مصاطب الدولة القديمة.

وإلى جانب الملاجىء المصنوعة من مواد خفيفة والبيوت المشيدة من مواد «صلبة» والمواقد والحظائر، نلتقى هنا، كما فى الفيوم، بمخازن الغلال.

كانت تتكون من سلال ضخمة ادخلت فى حفرة مبطنة بالطمى وجرار ضخمة، يبلغ ارتفاعها مترا واحدا، وقد غارت فى التربة، وهى لا تشكل، كما فى الفيوم، مجموعات من النوع «المشترك»، ولكنها منتشرة، بحيث امكن افتراض أن كل بيت من البيوت كان يمتلك مخزن غلاله الخاص. إن صعوبة أعمال التنقيب، وتشابك المستويات المختلفة وتداخلها، لم تسمح، فى حقيقة الأمر، بالوصول إلى إجابة شافيه. ويظل مع ذلك من الأمور المحققة، أن غياب «مناطق» مخصصة لمخازن الغلال فى مرمدة بنى سلامة، هو فى الوقت الراهن، حقيقة لا يمكن إنكارها.

وتوجد على مقربة من المطامير، أربع منخفضات، يبلغ عرضها أربعة أمتار، وهى قليلة العمق، وقاعها مبطن بالحصر وقد فسرت على أنها بيادر لدرس الحبوب. ويلاحظ «چاك ڤانديه» J. Vandier (1952, 122) «ان البيدر كان فى العصر التاريخى عبارة عن مساحة دائرية، مغطاة بطبقة من الطمى اليابس، ومحاطة بجدار منخفض. وتوضح لنا أقدم العلامات الهيروغليفية بيدراً، دائريا بالفعل، محاطا بحلقة تتخللها خطوط خضراء يفترض حسبما ذهب إليه «يونكر» أنها تصور الحصيرة التى كانت تحشر فى الحفرة والتى تظهر حوافها على السطح».

وكما أن توزيع المطامير يثير مشكلة ستراتيجرافية، كذلك فإن توزيع المقابر المنتشرة فى المويل، يظل موضع جدال.

لقد أخرج الحفارون النمساويون إلى النور ما يقرب من ١٨٠ مقبرة. كانت الأجساد مدثرة فى الحصر أو الجلود. وكانت مسجاة على الجانب الايمن فى ٨٥٪ من الحالات، فى حفر بيضاوية، قليلة العمق، ومفروشة فى الغالب بألياف نباتية، وكانت فى وضع انثناء إلى حد ما، وكان الرأس يتجه ناحية الجنوب، كوضع تفضيلى، والنظر ناحية الشمال الشرقى. ان الندرة الشديدة للبالغين الذكور بالمقارنة مع العدد الكبير للصبية، قد فُسر على أن الآخرين – والنساء أيضا أحياناً – كانوا يدفنون فى أماكن السكن أو على مقربة منها. ونظراً لان الرجال يقتلون خلال الصيد أو فى الحروب فكانوا يوارون الثرى فى اماكن مصرعهم. إن غياب القرابين الجنائزية، ليؤكد أيضا، أكثر فاكثر، على صحة هذا التفسير، لانه يكشف عن أن العناصر الضرورية لاستمرار الحياة بعد الوفاة كانت موجودة داخل هذه البيوت ذاتها التى ما فتىء المتوفى باقياً فيها، لم يغادرها أبداً. **وهكذا يتأكد التناقض مع مصر العليا بعبارات «سوسيولوجية»: فجبانات الجنوب مرتبطة بإشغال طفيف وسطحى للأرض - جماعات من البشر لها طابع بدوى. عمليات دفن داخل القرى، فى الشمال - جماعات بشرية عرفت حياة الإستقرار.**

وقد دحض «كيمب» B. Kemp (1968) وجهة النظر هذه، إذ ذهب إلى أن «الغموض» الستراتيجرافى يشكل مصدر خطأ.

وإذ أخذ «بوتزر» K. Butzer (1959) بعين الإعتبار مساحة الموقع الكلية (٢٠٠ ٠٠٠ متر مربع)، فقد توصل إلى أن عدد السكان كان يزيد على ١٦٠٠٠ شخص، شريطة أن تكون المساحة الكلية للموقع قد تم شغلها، دفعة واحدة، وهو أمر مستبعد، على كل حال. وبالتالى فقد كانت قطاعات شاسعة مهجورة، واختلفت مواقعها على امتداد فترة شغل الموقع، ومن الراجح أنها كانت تستخدم كأماكن لدفن الموتى، بالنظر إلى أن الأطفال الصغار وحدهم كانوا يدفنون فى الموئل، كما هو معروف، من ناحية أخرى.

ويبدو أن الاستنتاجات التى توصلت إليها الحفائر الألمانية التى تمت منذ عهد قريب، تسير فى هذا الاتجاه.

ويسير الكشف عن مقابر مبعثرة فى مختلف مستويات الإشغال التى أمكن التعرف عليها – يسير جنبا إلى جنب مع الكشف عن المجموعات الجنائزية التى أمكن تحديد انتسابها إلى هذه المرحلة أو تلك، استناداً إلى ما تسمح به القرابين الجنائزية. ويلاحظ أحمد بدوى A. Badawi (1980, 75)، وهو يتحدث عن مجموعة صغيرة من الدفنات، أخرجت إلى النور، فى قطاع لم ينقب فيه «يونكر»، ضرورة البحث عن الموئل المرتبطه بهذه المقابر، بعيدا عنها. ويضيف مؤكدا، أن هذا الأمر يتناقض تناقضاً صارخاً مع فكرة الدفن فى

ذات المكان، داخل البيوت. ويذكر «إيفنجر» J. Eiwanger (1982, 70) فى حديثه عن أربعين دفنة من الطور الأول، سجيت وفقاً للأصول المتبعة، فيتجه رأس الهيكل العظمى ناحية الجنوب، والنظر ناحية الشمال الشرقى، يذكر ان فئات العمر المختلفة ممثلة على نحو عشوائى، ولا ينقص سوى الأطفال الصغار السن...

ان تعقيدات مرمدة بنى سلامة وتشعباتها، توفر تطوراً يمتد إلى ما لا يقل عن أربعمائة سنة شهد خلالها الموقع تطوراً رأسياً وأفقياً، فى آن واحد.

وإن كان من الواضح وجود انقطاع ملحوظ بين المستوى الأولى وأطوار الأشكال التالية، إلا انه يبدو ان ترسيخ بنى العصر الحجرى الحديث قد حدث منذ البداية: فالإقتصاد قائم فى جانب كبير منه على استغلال أنواع مستأنسة، سواء النباتية منها أو الحيوانية، وهى أنواع تظل منطقة استئناسها الأصلية هى الشرق الأدنى: القمح والشعير والخروف والماعز والخنزير. ومع ذلك لم تهمل قط المواد الأكثر تقليدية كصيد النهر وصيد البر، وظلت مصدراً هاماً للبروتينات. واندرجت الأوانى الفخارية مباشرة فى عالم العصر الحجرى الحديث هذا، ومعها استخدام التربة الطينية لأغراض أقل مادية بشكل مباشر. وقصارى القول، ان صياغة «المصطلحات» الرمزية و «مفرداتها» قد أخذت تظهر، منذ ذلك العهد البعيد، وكما هو واضح، لقد لعبت العائلة البقرية دوراً، ليس فى وسعنا أن ندلى بدلونا حول طبيعته.

ولن تبدل تجهيزات المستويات التالية شينا من هذه الصورة الأولى، وكل ما فى الأمر، هو ازدياد النشاط الزراعى استنادا إلى كثرة مناجله المجلية التى ظلت تتزايد بإطراد، وابراز الجانب المتعلق بالصيد البرى استنادا إلى أسنه السهام والرماح، التى تزايدت صناعتها دقة، والإتقان الذى ادخلت على تقنيات الصيد النهرى استنادا إلى ما يخصه من شصوص وخطافات وثقالات شباك الصيد.

وفى هذا الإطار، تستحق «لعبة» الإنسان مع الفيضان أن نتوسع فى الحديث عنها. ويمكن النظر إلى عودة الفيضان بشكل منتظم، على أنها لعبة «الغميضة»، أو «الإستغماض»[٥٥] التى مارسها، على مر الزمان، سكان ضفاف نهر النيل. لقد خضع سكان وادى النيل، فى الحقيقة، أكثر من غيرهم، للتنقلات الموسمية من جراء الظروف البينية الخاصة بالوادى، وأكثر من غيرهم، دفعوا دفعا إلى التفوق فى «التحكم» فى الفيضان. وفى أكثر الظن، أنه لم تشيد قرى من مواد، صلبة، إلا خارج المناطق التى تغمرها مياه الفيضان.. ولابد أن العديد من العوامل الأخرى قد أملت قيام حياة مستقرة حقيقية، فقامت بالتدريج، وكان نمطها، نمطا «شرقيا»، كما لا نلتقى بها فى الفيوم، رغم قربها، وإن كانت شديدة الشبه بها، فى بعض جوانبها

الأخرى. وهذه القرى هى الشهود الأوائل على حضرية urbanisme بدائية ، وتكشف عن توزيع البيوت فى صفوف مستقيمة، وأماكن إقامة المطامير، سواء كانت فردية أم لا، وبيادر درس الحبوب، وحظائر الماشية، تكشف عن نوع من التنظيم، وحياة جماعية وطائفة من الإيماءات التى تمارس فى أوقات محددة، ومصالح مشتركة فى حياة روحية جادت بأولى المنحوتات المجسمة التى و صلتنا بصفتها انعكسات غير موفقة.

إننا نعانى نفس القدر تقريبا من الصعوبة عند تحديد أصول مرمدة بنى سلامة أو أصول الفيوم، على حد سواء. وفى هذا الصدد، فإن عملية التأريخ الدقيق للـ «أورشيشت، Urschicht ، ستكون ذات فائدة عظيمة، فنظرا إلى أن جنور هذه الأخيرة تمتد فى أعماق الألف السادس، فإننا نقف هنا أمام اقدم الأوانى الفخارية التى عرفها هذا القطاع من الوادى، وربما السلف المشترك لمرمدة بنى سلامة ٣، ٤، ٥ والفيوم «أ». وغنى عن القول، أن مثل هـذا الإحتمـال قد يثبت تكيف الأنـواع المزروعـة والمستأنسـة فـى الدلتا ، منذ الألف السادس قبل الميلاد، وهى الأنواع التى أخذ بها ابناء الفيوم القادمون من الغرب، بالإضافة أيضاً على ما يعتقد، إلى الأوانى الفخارية المصقولة ، الشديدة الشبه، فى هذا الموقع وذاك، وإن كانت أكثر تطوراً فى مرمدة بنى سلامة وإن امتلك ابناؤها ناصية صناعتها امتلاكاً أفضل.

العمـــرى

إن مجموعة من المواقع التى صدرت عنها، منذ عهد قريب، دراسة علمية، (Debono, 1990) تمدنا بمعطيات جديدة حول ما نعرفه عن ثقافات العصر الحجرى الحديث فى الوجه البحرى.

ان موقع العمرى المتمركز عند مصب وادى حوف، على بعد ثلاثة كيلومترات إلى الشمال من حلوان وعلى بعد حوالى أربعة كيلومترات من مجرى النيل الحالى، يضم ثلاثة تجمعات سكنية رئيسية: العمرى «أ» و «ب» وهما قطاعان لنفس الموقع ويشغلان حافة مدرج رواسب من الحصى يعود إلى عصر البليستوسين، ويقع منفذ نَجْد رأس حوف المكون من الحجر الجيرى ومنطقة جبل حوف، على بعد حوالى خمسة كيلومترات إلى الشمال من حلوان ويرتفع تسعين متراً فوق أرضية الوادى الصلدة.

لقد تم رصد الموقع الرئيسى أثناء أعمال الإستقصاء التى أجراها «بوفييه – لا پيير» Bovier - Lapierre ، عام ١٩١٨، فى منطقة حلوان، وان كان الكشف عن الموقع، قد حدث فى واقع الأمر، بمعرفة إختصاصى فى علم المعادن، هو الشاب أمين العمرى، الذى توفى بعد فترة قصيرة. وإحياءً لذكراه، فإن «بوفييه – لا پيير» الذى استهل أعمال التنقيب عام ١٩٢٥، قد أطلق اسم الشاب المصرى على الموقع.

ولما كان موقع العمرى يشغل مكاناً حساساً، فقد كان مهدداً بالاندثار، وأن تبتلعه أطماع سائقى الجرافات والباحثين عن السباخ والمصالح العسكرية. ولذلك، فقد نظمت ثلاثة مواسم تنقيب، تحت اشراف «ديبونو» F. Debono فى الأعوام ٤٣ / ١٩٤٤ و ١٩٤٨ و ١٩٥١ – ولكن كان لابد من الإنتظار أربعين سنة، إلى أن تم نشر نتائج أعمال التنقيب هذه، برعاية المعهد الألمانى للآثار.

ويضم الموقع الرئيسى منطقتين تم التنقيب فيها وهى A , B وخمس مناطق أخرى، أجريت عليها الأبحاث والدراسات وهى H, G, F, E, D وهى تغطى فى مجملها مساحة ٧٥٠ × ٥٠٠ متر. إنها عبارة عن آبار محفورة فى إرسابات الوادى بل وأحياناً فى الحجر الجيرى، وهو الصخر الأم التحتانى. إنها دائرية الشكل أو بيضاوية أو غير منتظمة، ويبلغ قطرها من ٥٠ إلى ٢٥٠ سنتيمترا ويصل عمقها من ٥٠ إلى ١١٠ سنتيمترات. ويلاحظ أن جوانب البئر وقاعها مغطاة أحياناً بالحصر والطين، بل بنسيج خشن، أو وضع فيها سلة مغلقة بغطائها. ولا وجود لثقوب الأوتاد داخل هذه الآبار، إلا فى حالات استثنائية. وفى المقابل، يضم بعضها منخفضا صغيرا ملاصقا لها، على هيئة نصف دائرة، ويشكل مستوىً وسطا، ربما ليساعد على النزول إلى داخل البئر الرئيسية.

ان بقايا أوتاد يتراوح سمكها من سنتيمترين إلى اربعة سنتيمترات، قد ظلت على حالها من الحفظ فى حدود ارتفاع يتروح بين خمسة سنتيمترات وأربعين سنتيمتراً. كما نعثر عليها أيضا وسط المواد التى تملأ الفراغات. إن وضعها المنعزل، وحقيقية أنها كانت تثبت أحيانا فى مكانها بواسطة أحجار، يوحى بأنها كانت تستخدم على ما يحتمل لتلف حولها تكوينات خفيفة (؟). ولكن وجود ثقوب اوتاد يتروح قطرها من ٢٠ إلى ٤٠ سنتيمترا يفترض وجود تجهيزات أكثر متانة. وقد يحدث أحياناً، أن ترتبط فيما بينها، فى بعض القطاعات، بخنادق قليلة العمق، وربما كانت هذه، شواهد محتملة على أساسات سياجات نباتية تشبه مثيلتها فى العصر الحاضر. والمواقد نادرة وموجودة دائما خارج الابار التى تمثل المحتويات التى امتلأت بها، عنصراً جليل الفائدة لرصد تطور التتابع الزمنى . ولا تبدو هذه المحتويات التى تملأ الآبار، فى حقيقة الأمر، نتيجة لنشاطها، بل نتيجة للأنشطة التى قام بها البعض فى أماكن أبعد، والتى تشكل انخفاضاتها الكثيرة،

مناطق طرد. إنها عبارة عن إرسابات سمراء من المواد العضوية تختلط بها كسف من المواد الاركيولوجيه. ولكننا نجد أيضا طبقة من الرمال الصفراء – ويتفاوت سمكها من منخفض إلى آخر – وهى رمال خالية تماماً من أى عنصر إركيولوجى، وهو ما يشير، كما فى مرمدة بنى سلامة، إلى طور مناخى جاف، وذلك إلى جانب قشرة مالحة، على قدر لا بأس به من السُمك، كامنة عند قاعدة التراكم الأسمر، وناتجة عن مرحلة رطبة. بيد أن بعض الآبار لا تحتوى سوى على رمال صفراء، والبعض الثانى على إرسابات سمراء، أما البعض الآخر فإنه يحتوى على الاثنين معاً، وفى هذه الحالة توجد الطبقة الصفراء أسفل الطبقة السمراء، ماعدا بعض الاستثناءات حيث تأكد أن الوضع معكوس أو كانت الصيغة هى طبقة سمراء فطبقة صفراء فطبقة سمراء. ويبدو واضحاً أن أسبقية التكوين الرملى أمر لا شك فيه – وإذا تقاطعت بئران، تختلف محتوياتها، فإن الإرسابات السوداء تكون لاحقة للصفراء – ومن خلالها يمكن التعرف على صورة تطور تتابع تاريخى أفقى. ويقترح «ديبونو» و «مورتنسن » Debono et Mortensen (1990) تسعة أطوار لشغل المكان ، قد يكون الموقع قد تطور على امتدادها من القطاع B.III الذى يحتوى ابارا محدودة الحجم ربما استخدمت فقط فى أعمال التخزين، إلى القطاع B.I, A حيث تبطن السلال منخفضات أكبر حجماً. وأخيراً فقد استخدمت المساحة بأكملها (B . A) كموئل، وهو ما تشهد عليه، ثقوب الأوتاد، ووجود الأوانى وسط إرسابات الآبار ووجود منخفضات كبيرة ومواقد. إن منخفضاً كبيراً، تحيطه منخفضات أصغر ، هى بمثابة وحدات (عائلية ؟)، مع وجود اثار فيما بينها، لمساكن شيدت بمواد خفيفة، وتتكون من ثقوب أوتاد وخنادق لأسوار نباتية صغيرة.

ويتشكل الفخار من نوعين من الصلصال الجيرى، المجلوب من الوادى مع استخدام مزيل نباتى للزوجة وإضافة عناصر معدنية. وتارة، يستخدم هذا الصلصال على حدة، أو مخلوطاً تارة أخرى. ولا يستخدم غرين النيل إلا فى حالات نادرة. وتعطينا النتيجة فخاراً صلبا، يقاوم الكسر، غير مسامىّ، لونه أسمر إذا لم تتجاوز درجة حرارة عملية الإحتراق ٨٠٠ درجة مئوية وأحمر إذا تجاوزت هذا الرقم. وفى بعض الحالات، تكون السيطرة على النار غير سليمة، ومن ثم تنتشر بقع تميل الى السمرة على سطح الوعاء. والسطح مصقول فى ثلثى الحالات أو أملس. ويضاف أحياناً طلاء خزفى بلون المغرة. والأشكال هى دائما اشكال بسيطة، مفتوحة أو نصف مفتوحة، قاعها مستوٍ أو شبه مقعر، وتضم أطباقا بيضاوية وقصعات واقداحا وجراراً نصف كروية.

ويشكل هذا الفخار مجموعة أصيلة، نجد صعوبة فى مقارنتها بما يوجد فى مرمدة بنى سلامة وفى الفيوم. ويبدو أنه من الممكن عقد المقارنات وإيجاد أوجه الشبه بشكل أفضل مع

العصر الحجرى الحديث B.A فى فلسطين، من حيث التكنولوجيا ومن حيث الأشكال، على حدٍ سواء. وهنا أيضا نجد نوعين من الصلصال كأساس لصناعة الفخار، وقد استخدما، كما فى العمرى، على حدة أو معاً.

وقد صنعت الأدوات الحجرية من حصى المدرجات، ذات الأصول المحلية، ومن أنوية أكبر حجماً، جاءت من أماكن بعيدة – ربما من أبو رواش، على مسافة حوالى عشرين كيلومتراً – ومن حجر صوّان رمادى، من الواضح أنه تم نقله على هيئة نصال كبيرة.

أما النويات الصغيرة فقد استخدمت فى إعداد قطع ذات وجهين، مثل الفؤوس، ذات القوس القوطى، وصغيرة الحجم – ٨ × ٤سم – وقد صقل حدها القاطع، كما هو الحال فى المواقع المجاورة فى الفيوم ومرمدة بنى سلامة. وقد لاحظ «بوفييه – لابيير» Bovier - Lapierre وجود بعض النماذج النادرة المصقولة. وتكتمل قائمة القطع ذات الوجهين، ببعض أسنه الرماح، المقوسة القاعدة والمثلثات السميكة والمناجل. ويبدو أن بعض عناصر المناجل المصنوعة من النصال قد سادت على امتداد فترة الإشغال، وقد لحقت بها قرب الطور الأخير عناصر ذات وجهين. إن المكاشط المصنوعة من النصال متوفرة بأعداد كبيرة فى مختلف الأطوار، وايضا المثاقب والنصال ذات الظهر والأدوات المعقدة المصنوعة من الشظايا القصيرة إلى جانب المثاقب والمباشر والأزاميل والأدوات المسننة. وتظهر فى معظم الآبار أدوات قزمية من طراز العصر الحجرى القديم. وأخيرا ظهرت أشياء شديدة التميز، على هيئة نصال ذات ساق، وحافتها القاطعة المستقيمة خشنة، أما الظهر فهو مقوى من جزئه الخلفى، ليصبح محدباً بالتدريج، وينحدر عبر سلسلة من لمسات الصقل العكسية أو المباشرة. لقد صنعت من ظران رمادى جميل، مجلوب إلى هذا المكان، فيما يتعلق بالقطع الكبيرة، وقد تم «تقليدها» عندما صنعت من المواد الأولية المحلية وهى حصى المدرجات وتكون فى هذه الحالة محدودة الحجم. وتعود جميعها إلى الطور الأخير من إشغال المكان، ونذكر على سبيل المثال هذه المناقير المصنوعة من الحجر الجيرى المتكلس والحجر الرملى والظران. وبصفة عامة، يقتفى تطور صناعة الآلات الحجرية أثر تطورها فى مرمدة بنى سلامة، حيث أن الأدوات المصنوعة من الشظايا والنصال والموجودة منذ أقدم الأطوار قد تغلبت عليها القطع ذات الوجهين.

وظهرت الأوانى الحجرية على هيئة كسف من الكلسيت وقاعدة لها ثلاثة قوائم من البازلت، ربما جاءت أصلاً من فلسطين. وربما كانت بعض الأحجار ذات المنقار تمثل مساناً صنعت من نوايا الحجر الجيرى السيليسية Silicifiés' . وتوحى اقراص مثقوبة من الحجر الجيرى بأنها مغازل و / أو أثقال شباك. إن نقّارات وأدوات سحن وهى من الخشب المتحجر والحجر الرملى والكوارتز والصوان والحجر الجيرى ترتبط بالضرورة بصلايات من الكلسيت وبأرحاء من الحجر الرملى.

أما العظام المصقولة فلا تمثلها سوى بعض الدبابيس والمثاقب وشص واحد. ولا توجد قطعة واحدة من العاج أو النحاس. ومع ذلك، ففى طبق مختوم بصلصال أصفر مطمور فى بئر، عثر على قطع من معدن ثقيل، قد تكون الجالينا[١٦]، وقد وضعت فى كيس مصنوع من جلد حيوان.

وقد حصلنا على ثلاثة وأربعين دفنة فى المنطقة B, A ، وتضم ثمانية وعشرين شخصاً بالغا وفردا واحدا فى شرخ الشباب واثنى عشر طفلا واثنين غير محددين. انها مجرد حفر بسيطة بيضاوية، تبلغ أطوالها ٩٠ – ١٢٠ × ٧٠ – ١١٠ سم، وقليلة العمق – حوالى ٤٠ سم – تكاد فى الغالب تلامس سطح الأرض، وقد حفرت بقصد استخدامها كدفنة أو كانت ابارا أعيد استخدامها لهذا الغرض. ومن المحتمل أن اثنين منها كان لها مبانٍ فوقية، كما يمكن الإستدلال على ذلك، من ثقوب الأوتاد التى تحيط بهما. وقد سُجّى المتوفون فى معظم الحالات، فى وضع جنينى، على الجانب الأيسر، والرأس فى اتجاه الجنوب، والوجه فى اتجاه الغرب. وقد توضع أحياناً وسادة من الحجر أو من مواد نباتية لرفع الرأس قليلاً. وقد يحدث ان توضع حصيرة تحت المتوفى، وأحياناً فوقه أيضا، وقد دثر المتوفى فيها تماماً، فى إحدى الحالات. والتقدمات نادرة، ولكن وعاءاً صغيراً، كان يوضع بشكل دائم أمام الوجه والساعدين أو الساقين. ومن طرازى الفخار المستخدمين بصفة منتظمة، وأحدهما مصقول ويبدو أنه مرتبط بأكبر دفنات الرجال أو النساء. إن شيئا محيراً قد جاءت به المقبرة A35 : إنه عبارة عن عصاً طولها ٣٥ سنتيمتراً، منتفخة عند طرفيها، وتوحى بعضو الذكر. إن وجوده فى يد رجل يحملنا على الإعتقاد فى وجود دلالة معينة، قد تكون رمزاً يعبر عن القدرة و/ أو السحر. (Debono, 1990, pl. 881) . إن عناصر الحلى ممثلة من خلال العديد من الأصداف المثقوبة التى جاءت من البحر الأحمر، والخرز من قطع أغلفة بيض النعام، ومن العظم والأحجار. ونجد أن عقدين يتكونان من مجرد حصى مثقوبة . وإن قرنى وعل كانت تصاحب رفات طفل . وفوق جثة متوفى آخر عثر على اثار زهور.

وليس فى وسعنا أن نميز أى تطور فى العادات الجنائزية من خلال الستراتيجرافيا الأفقية للموئل. ومن الواضح أن المقابر قد حفرت، على غرار مرمدة بنى سلامة، فى الأماكن المهجورة من الموئل وربما وورى الرجال والنساء والأطفال الثرى فى مناطق تفضيلية: فيبدو أن الرجال قد تركزوا أكثر إلى الغرب من المنطقة A ، والنساء والأطفال، إلى الشرق منها وباستثناء امرأة مدفونة مع جنين، لم يحدث أن عثر على دفنة أحد الرضع الحديثى الولادة، وربما كانت هشاشة العظام، من أسباب ذلك.

كان موقع العمرى، فى بداية الأمر، منطقة لتخزين الأطعمة، ثم استخدم لرفع

الركام وكموئل. والأمر المشترك بينه وبين المواقع المجاورة فى الفيوم ومرمدة بنى سلامة، أنها كانت جميعها تمارس اقتصادا قائما على الإنتاج. ومنذ بداية شغل المكان، تكشف الحبوب المتفحمة عن وجود عدد كبير من القمح[١٧] (وأسمائها العلمية : Tritjcum monococcum. Triticum compactum, Triticum dicoccum) والشعير (Hordeum vulgare) والجودر (lolium temulentum Seigle) والبقول كالفول والبسلة، وأيضاً الكتان، إلى جانب العديد من الأعشاب التى تنمو فى حقول الحبوب. إن وجود هذه الأخيرة مختلطة، لايحملنا على القول بأن هذا الموقع قد عرف زراعة على قدر كبير من التقدم، ومن المحتمل أن بعض عناصر المناجل التى عثر عليها، ربما تكون قد استخدمت أيضا فى قطع السيقان من أجل صناعة الحصر والسلال.

كما عرف الموقع أنواعاً من الحيوانات المستأنسة كالمعز والخراف والعجول والخنازير. وقد لعبت هذه الأخيرة دوراً بارزاً. ولكن سكان العمرى كانوا يمارسون أساساً الصيد النهرى، ويفضلون القيام به فى المياه العميقة، كما يشهد على ذلك، وجود كميات كبيرة من سمك الفرخ Perche الذى يعيش فى مياه النيل، بالإضافة إلى سمك الشال (واسمه العلمى Synodontis) الذى يعيش فى المياه الهادئة وكانت شوكته الصدرية مطلوبة جداً. كان ابناء العمرى يصطادون التماسيح وأفراس النهر – وكانت تمدهم بمعظم ما يحتاجون إليه من البروتينات – فلا يطاردون حيوانات الصحراء، أو طيور المستنقعات، إلا فى النادر القليل، إذ كانوا يستغلون على طريقتهم بؤرة بيئية قائمة بين الوديان والسهل الغرينى.

فموقع العمرى، على عكس المحلات العادية، على امتداد نهر النيل، كان قائماً بوضوح فوق مرتفع وبعيداً عن السهل الغرينى، عند مصب نظام للصرف، تتجمع عنده المياه المتراكمة لجبل أبو شامة وجبل قابو، ناحية الشرق، لتضع ارساباتها إلى الشمال من حلوان. فتزيح النيل ناحية الغرب، وتقلص من عرض واديه. وإلى جانب هذا المخزون المنتظم من مياه الأمطار، تضاف، من ناحية، القدرة الخاصة للنجد المكون من صخور من الحجر الجيرى، على الإحتفاظ بالماء فى المنخفضات أو الأحواض الطبيعية، وأيضا من ناحية أخرى، وجود عدد من عيون المياه المعدنية الناتجة عن شبكة من التصدعات والتشققات. وهكذا، فإن البيئة المباشرة كانت تتحمل استثمار الموارد الطبيعية والنباتية والحيوانية التى كانت تزدهر حول نقاط المياه شبه الدائمة. وإذ كان أبناء العمرى يعرفون بيئتهم، كل المعرفة، ولايستخدمون سوى صلصال الوديان القريبة، لصناعة أوانيهم الفخارية، إلا أنهم لم يهملوا مع ذلك وادى النيل الأخّاذ، والمواتى لأعمال البذر والحصاد، وحيث يمكنهم أن يستكملوا ما يحتاجون إليه من غذاء قيم يتمثل فى السلاحف والتماسيح والأسماك وأفراس النهر..

ان موقع جبل حوف، المتمركز فوق مدرج على ارتفاع حوالى مائة متر فوق أرضية الوديان، هو غنى بالدلالات، عند النظر إليه من هذه الزاوية.

لقد تم الكشف عنه عام ١٩٤٧، وقد اختفى الآن تماماً تقريباً، وقد قامت مصلحة الآثار المصرية عام ١٩٥٤ بالتنقيب فيه، وكشفت عن سياج نباتي، عثر داخله على جرة ضخمة وبئر بيضاوى ملىء بالحبوب المتفحمة. ولا تختلف المادة الأركيولوجية المتخلفة فى شىء، عن تلك التى عثر عليها فى العمرى، الأمر الذى يوحى بأن هذا الموقع كان موئلاً إضافياً، وربما كان مخفر مراقبة، أو ربما كان مكاناً رطباً يحتمى فيه المرء من قيظ الصيف أو كان على عكس ذلك، ملجأ إبان الفيضان كما تشهد على ذلك القشرة المالحة التى ترسبت فى الآبار.

إن إقامة الروابط مع مناطق أكثر بعداً، فى سيناء والبحر الأحمر، حيث أمكن جمع الأصداف والجالينا والظران الرمادى الجميل، قد أصبح من الأمور الميسرة بفضل الحمار المستأنس الذى عثر آنذاك لأول مرة فى مصر على بقايا عظامه.

وإذا كان فى الإمكان مقارنة ابناء العمرى بمجموعات الوجه البحرى المجاورة، من حيث البنى الاساسية، إلا انهم يشكلون مع ذلك مجموعة أصيلة، أقل تعقيداً وتشعباً من مرمدة بنى سلامة. فهم لا يملكون مثلها أوانى فخارية سوداء مصقولة، ولا انتاجها الفنى، ولم يصلوا إلى مستواهم المعمارى، بل إنهم يكشفون عن مستوى ثقافى بسيط وأسلوب حياة يتشابك ويترابط مع بيئتهم المصغرة . إن عمليات التأريخ بواسطة الكربون ١٤، قد كشفت ان شغل الموقع قد دام مائتى سنة، فيما بين ٤٦٠٠ و ٤٤٠٠ قبل الميلاد، وهو ما يتفق مع المستويات الأخيرة فى مرمدة بنى سلامة، وذلك شريطة أن يمثل اختيار العينات، بطبيعة الحال، تمثيلاً صادقاً إشغال المكان بأكمله، والا يكون قد حدثت عملية تحات erosion لما يحتمل أن يكون طوراً نهائياً. ان الوجود المستتر لصناعة لها طابع الأدوات القزمية لا تستبعد أن ينظر إلى ابناء العمرى باعتبارهم من ذرية صيادى خواتيم العصر الحجرى القديم فى حلوان.

الطـــارف

وإذا ابحرنا فى النيل، صاعدين النهر، حتى هذه البقعة من الوجه القبلى، التى ستصبح عما قريب، قلب التطور الثقافى للوادى، سوف نتوقف فى القطاع الطيبى، عند البدايات الأولى لتاريخ عصره الحجرى الحديث.

إن الأبحاث التى قامت بها فى أواخر السبعينات جامعة «جاجيللونه» Jagellone البولندية التابعة لمدينة «كراكوف» والمعهد الألمانى بالقاهرة، تحت إشراف المركز البولندى لآثار حوض البحر المتوسط، قد أماطت اللثام عن وجود مستوى إشغال يعود تاريخه، فى أغلب الظن إلى الألف الخامس قبل الميلاد.

ويوجد الموقع عند أطراف الصحراء وحافة الأرض المنزرعة ويتكون من مجموعة مصاطب من الدولة الوسطى، وهو المكان الأصلى الذى انحصرت فى حدوده حفائر الباحثين الألمان.

لقد تم الكشف عن طبقة الإشغال التى تعود إلى عصر ما قبل الأسرات عند تنظيف الساحة الفاصلة بين مصطبتين ويبلغ طولها حوالى خمسة أمتار، وسمك هذه الطبقة حوالى خمسين سنتميتراً. إنها ترتكز على أحادير صخرية مكونة من تدمير الحجر الجيرى الطيبى وشيست إسنا، وهى إرسابات لاحقة للطمى الناتج عن تسوية aggradation صحابة – دراو. إن أشياء من صنع الإنسان وتعود إلى العصر الحجرى القديم الأوسط والأعلى، تختلط، فى وضع ثانوى، بركام الحصى والحصباء للأحدور الصخرى القاعدى. إن الأدوات المميزة للعصر الحجرى القديم المتأخر: كالنصال الصغيرة ذات الظهر والعناصر اللوفالوازية توجد فى هذا التكوين جنبا إلى جنب، على سطح الأرض وتعلو ركام الحصى والحصباء هذا، طبقة من الإرساب الطينى، لها أصول سفوية éolien على أغلب الظن، ويبلغ سمكها من ٢ إلى ٢٠سم؛ ومن هنا جاءت القطع البالغة السفوية التى تكون المواد التى خلفتها صناعة جديدة: صناعة الطارفى.

وفوق هذه الطبقة، توجد طبقة أخرى طينية لا تحتوى على أى مخلفات أركيولوجية، فى حين يغطى كل ذلك، مستوى إشغال عزيز القيمة بفضل الرماد والبقايا العضوية، التى يمكن أن تنسب، باعتبار مادتها، إلى العصر النقادى.

إن مجموع قطع الطارفى تصل إلى ٥٤٠٠ قطعة من الظران، ومنها ١١٠ نواة و ٥٦١ أداة، وهى صناعة قائمة على الشظايا: تشغل ٩٠٪ من الإنتاج وتشكل اساس معظم الأدوات. والظران الرمادى المحلى الذى يوجد فى حالته الأولية فى صخور الحجر الجيرى الطيبى يمثل ٨٠٪ من المادة الأولية المستخدمة. وعملية تصنيع الأدوات بسيطة، وفى الغالب دون إعداد للنواة. والشظايا هى فى معظم الأحوال شظايا قشرية. ولا يوجد أثر لتقنية لوفالوازية. وفئة الأدوات الرئيسية تتكون من شظايا مشذبة – والنصال ممثلة بنسب أقل. فالشظايا تغطى بمفردها ٣٠٪ من مجموع الأدوات. ثم تأتى المكاشط بنسبة ٢٠٪، وهى تشكل الفئة الثانية التى تميز الطارفى. ويضم الباقى الفُرض وأدوات مسننة. صنعت من

شظايا عريضة وقوية، والمباشر فى أطراف الشظايا والنصال، والمثاقب المصنوعة من شظايا قصيرة ومربعة، وبعض الأزاميل والأدوات المشطوفة الزوايا المصنوعة من النصال، وأخيرا ثلاثة أشباه منحرف غير منتظمة الشكل، وسن على هيئة أزميل وأزميل قزمى من طراز «كروكوفسكى» Krukowski ، ويشكل كل ذلك مجموعة الأدوات القزمية وتوحى الاثنتا عشرة قطعة مشذبة تشذيباً ذا وجهين بأنها فؤوس، كما أن ثلاث حصوات مصقولة تدخل فى عداد نفس المجموعة الوظيفية.

وهذه المجموعة هى جزء من الصناعات القائمة على الشظايا، التى أخذت تحل تدريجيا محل الأدوات القزمية، منذ مطلع الألف السادس قبل الميلاد، فى جميع مواقع الصحراء الغربية. ومكون الآلات القزمية وان كان فى أضيق الحدوق، إلا أنه غير معدوم، ويكشف العصر الحجرى الحديث عن وجوده، بالقطع ذات الوجهين.

وهذه المجموعة يشبهها «جينتر» Ginter و«كوز لوفسكى» Kozlowski (1982) بثقافة ما بعد الشرماكى فى شمال السودان، ليجعلا منها أحد التنويعات الشمالية لهذه الأخيرة.

ولم نعثر فى هذه المجموعة أو تلك، على حد سواء، سوى على كسف صغيرة من الأوانى الفخارية، حتى بات من الصعوبة بمكان إعادة تكوين أشكالها. إن قصعة نصف كروية ووعاءً كرويا سميك الحواف وقصعة أخرى مخروطية العنق وقصعة مخروطية وكسف طبق، توفر لنا فكرة عن المجال المحدود للاشكال. وتحتوى العجينة أساسا على مزيل نباتى للزوجة مع بعض الإضافات المعدنية، فى بعض الأحوال. ويمكن التمييز بين نمطين من التكنولوجيا: فنجد من ناحية، الخزف المصنوع باليد من مواد غرينية پليستوسينية من تكوين «صحابة – دراو»، استناداً إلى التحليل على أساس علم المعادن، ومن ناحية أخرى، الخزف المصنوع من مواد منقولة، وقد استخرج طينه من السهل الغرينى. وقد احرق الأول فى درجة حرارة تتراوح بين ٣٥٠ و ٦٥٠ درجة مئوية، والثانى فيما بين ٦٠٠ و ٩٠٠ درجة مئوية.

وبالنظر إلى استحالة إجراء أى تاريخ بواسطة الكربون ١٤، فقد تم تأريخ الطارفى على أسس استراتيجرافية. فالطبقة واقعة وسط ركام الحصى والحصباء الذى يعود على الأرجح إلى مرحلة انحسار دشنا (الألف الثامن قبل الميلاد) والمستوى النقادى، الواقع فوقه مباشرة، وقد تم تأريخه بواسطة الكربون المشع فى حدود عام ٣١٥٠ ± ٦٠ قبل الميلاد . ومن ناحية أخرى، فلما كانت الإرسابات السفوية التى تضم الصناعة الطارفية، قد تكونت ابان عصر الجفاف الممتد من الألف السادس وحتى بداية الألف الخامس، فإن علماء الآثار يقترحون تحديد تاريخها فى هذا الألف الخامس قبل الميلاد.

وإن كان الطارفى ينحصر فى المكان فى حدود موقع واحد، ولا يحدثنا كثيرا عن حياة شاطئية، إلا أنه يعتبر مَعلماً على قدر كبير من الأهمية على طريق العصر الحجرى الحديث.

العصر الحجرى الحديث فى الخرطوم.

على بعد خمسين كيلو متراً إلى الشمال من الخرطوم، على البر الغربى من النهر، جادت علينا قرية الشهيناب بالموقع النموذجى «للعصر الحجرى الحديث فى الخرطوم».

لقد كشف عنه «أركل» A.J. Arkell (1953) وقام بالتنقيب فيه، خلال الخمسينات. إنه قليل الإرتفاع، ومساحته ٢٠٠ متر طولاً و ٦٠ مترا عرضاً، على امتداد مدرج قديم من مدرجات النيل، وعلى بُعد ٨٥٠ متراً تقريبا من الشاطىء الحالى. إنه موقع شديد الحيوية، بفضل المواد العضوية، التى أطلق عليها محلياً «أم رميدة» (أم الرماد) وكان عبارة عن تل يكشف فوق سطح الأرض عن كميات متراكمة من الشقف الفخارية وقطع أدوات حجرية وعظام متحجرة. ان المقابر التى حفرت فى وقت لاحق بدءاً من العصر الحجرى الحديث المتأخر وحتى العصر الإسلامى، قد شوهت الموقع فى أكثر من مكان.

وهو قائم فوق طبقة سمكية من الغرين الطينى التى تعلو مدرج من حصى الكوارتز، ويتميز بتجديد جذرى لأدواته ووجود حيوانات مستأنسة.

ولكنه، يضم مجموعة من المواقد، على هيئة طشت، تحيط بها كتل من الحجر الرملى وقد امتلأت بالرماد وبقايا العظام، وهى حالة تعتبر فريدة، حتى يومنا هذا، بالنسبة لمواقع هذا العصر، فى هذه المنطقة. ويبلغ قطر أكبر هذه المواقد متراً ونصفاً.

وظل الكوارتز المحلى مستخدماً فى صناعة الأدوات الحجرية القزمية، ومنها الأهلة التى ظلت ممثلة على أحسن وجه. ومع ذلك، فقد اختفت هنا، المثلثات الهندسية والأسنة المثلثة المختلفة الأضلاع التى كانت سائدة خلال «العصر الحجرى الوسيط» . ومن ناحية أخرى فقد ظهرت أدوات جديدة مصنوعة عن الريوليت: إنها «المناقير» gouges على حد قول «أركل»، الذى جعل منها القطع الدالة على هذه الثقافة، فأطلق عليها «ثقافة المناقير» "gouge – culture" – وهو الاسم الذى هجره من أجل «العصر الحجرى الحديث فى الخرطوم».

والمقصود بذلك فأس صغيرة طرفها الحاد مقعر وأحد وجهيها مصقول بالكامل أو جزئياً، والجانب الآخر مقطوع قطعاً خشناً . والطرف المقابل للحد القاطع اتخذ شكلاً رفيعاً ليتسنى إدخاله فى مقبض خشبى. وكان استخدامه شبيهاً باستخدام القدوم. وعلى كل حال فقد استخدم «تيكسييه» J. Tixier (1962, 340) عبارة «قدوم» عند الحديث عن قطع مشابهة فى التنيرى Ténéréen فى «أدرار بوس»[18] .

إن هذه المناقير ذات سمات نوعية خاصة، وتتميز عن الفؤوس الأكثر خشونة وغير المشذبة والأقل التزاماً بشكل قياسي واحد، فقد يضاف إليها مقبض، فيساعد على استخدامها كفأس أو قدوم.

وقد صنعت رؤوس مقامع مخروطية الشكل من أدوات مسحق المغرة ومن النايس[١٩] أو الجرانيت. وهناك أقراص يتراوح قطرها بين ٥٦ و ٧٦ مليمتراً، ويصل سمكها إلى ٥٠ مليمتراً، ويزداد تقعرها الأوسط زيادة وئيدة وصولاً إلى الثقب المركزي. وأمكن إعادة تشكيل نموذج يبلغ ارتفاعه ٤٦مم. كما عثر على ثلاث عشرة كسفة من نفس الطراز. كما جاد علينا الموقع أيضا بأشكال على هيئة أقراص وحلقات من الحجر الرملي، لم نتمكن من تحديد وظيفتها، على نحو مؤكد.

وقد استخدم حصى الكوارتز والريوليت إلى جانب الخشب المتحجر فى صناعة سلسلة ضخمة من النقارات وأدوات السحن وأدوات الصقل.

ويتميز الفخار، منذ الآن، بأن سطوحه مصقولة بصفة دائمة. وترتبط الخطوط المنقطة بالمرحلة السابقة، ولكن الزخارف متنوعة إذ أضيفت إليها المثلثات والخطوط المتعرجة وحراشف السمك. إن زخارف محفورة بمشط أسنانه متباعدة تغطى بالكامل سطح بعض الأوعية بخطوط أفقية إلى حد ما وغير منتظمة. ولا يزين الزخرف أحياناً سوى الحافة. وعندئذ، قد يتخذ شكل ما يشبه مثلثات صغيرة سوداء معكوسة، وقد حفرت، فى بادىء الأمر، على السطح الأحمر المصقول، ثم على السطح مباشرة ويبدو ان اللون ناتج عن احتراق شحوم حيوانية. إن نزعة تسويد مجمل شفة الحافة ستزداد بالتدريج لتصبح شريطا سيزداد عرضاً. وسوف تشهد تقنية **الشفة السوداء** Black Topped رواجاً، ليس بخاف، فى عصر ما قبل الأسرات. ولكن صنع ذلك، بأن يقلب الوعاء وتدفن شفته، خلال عملية الإحتراق فى جو مؤكسد[٢٠] (بكسر السنين). ومن ثم سيلون السطح الداخلى باكمله، بالإضافة إلى الشفة الخارجية، باللون الأسود المميز. وفى الشهيناب، توضح ستون شقفة فقط من الفخار هذه التقنية، أما باقى الشقف - ويتجاوز عددها المائه - فهى لا توضح سوى شفة اسودت من احتراق الشحوم.

وقد أعرب «أركل» A.J. Arkell (1960) عن فرضية مقنعة حول أصل هذه الممارسة. فقد لفت أحد أصدقائه من أبناء السودان انتباهه إلى هذا النوع من القرع الذى مازال يستخدم فى الوقت الراهن، فى أغراض شتى، كبديل للإناء، بعد أن يقطع نصفين ويفرغ ويجفف. ولتجنب تشقق الشفة، كانت تحرق هذه الأخيرة، الأمر الذى كان يعطى للإناء مظهر الشفة السوداء.

كما نجد خرزاً وعقودا من الصدف أو أجزاء من أغلفة بيض النعام أو العقيق الأحمر أو من مجرد حصى - نجدها بالآلاف، إلى جانب أنياب مثقوبة لآكلات اللحوم وكسف وأساور وخواتم من الصدف أو العاج. ولا يخامرنا أدنى شك من ضرورة ربط مجموعة المثاقب الضخمة المصنوعة من الكوارتز بغزارة هذه الحلىّ.

ان وجود المشغولات العظمية، كما تشهد عليها البقايا الغزيرة من الإبر والمثاقب، قد اتخذ منحى أكثر تطوراً على هيئة فؤوس صنعت من عظام الثدييات الضخمة. كما عثر على الخطاطيف بنوعيها، ذات القاعدة المثقوبة وذات وسائل الإمساك «الذكور»[٢١].

إن الفونة الوفيرة التى قامت بفحصها فى بادىء الأمر «دوروثى بات (in: Arkell, 1953) Dorothe M. A. Bate قد أعيد فحصها من جانب «بيترز» J.Peters ، فى عام ١٩٨٦ (Peters, 1986) الذى استبعد من المجموعة الماعز القزمى الذى كانت قد أشارت إليه من سبقته. ويرسم لنا التحليل صورة تختلف فى أضيق الحدود عن العصر الحجرى الوسيط. ونشهد مع ذلك ظهور الأرنب البرى الذى أضافه أبناء العصر الحجرى الحديث إلى قائمة طعامهم، ربما بعد تناقص بعض الأنواع التى أعتادوا على اصطيادها..

وظلوا يستسيغون أكل المحارات التى تعرف علمياً باسم «بيلاڤيرنى» Pila Wernei..

ولكن الشهيناب، خطت خطوة كبيرة إلى الأمام فى اتجاه العصر الحجرى الحديث بوجود الأنواع المستأنسة.

إن الأبقار (Bos Primigenius)[٢٢] والخراف (Ovis ammon) و / أو الماعز (capra aega grus) موجودة بنسب ملحوظة، بحيث يمكن النظر إلى حياة الرعى على أنها مكون مؤكد وثابت فى اقتصاد هذه الجماعات.

وقد استفاد «أركل» من الإكتشافات القريبة العهد حول التاريخ بواسطة الكربون المشع، فاستطاع أن يقدر تاريخ إشغال أبناء العصر الحجرى الحديث لموقع الشهيناب بالنصف الثانى للألف الرابع قبل الميلاد (٥٤٤٦ ± ٣٨٠ و ٥٠٦٠ ± ٤٤٠ قبل الزمن الحاضر B.P). ان عمليات التأريخ الأقرب عهداً التى قام بها «هالاند» Haaland فى عام ١٩٧٩ (٥٣٦٠ ± ٨٠ قبل الزمن الحاضر B.P - ٥٢٦٠ ± ٨٠ قبل الزمن الحاضر B.P قد اعطت تاريخا معيارياً متوسطا هو ٤١٦٥ ± ١٠٥ قبل الميلاد (Hassan, 1985) .

وعلى مسافة قصيرة، إلى الجنوب من الخرطوم، أجرى «أركل» بعض الاختبارات فى مكان آخر: إنه موقع القز الصغير، الذى أصابته للأسف أضرار بالغة، ولكن توجد فيه مواد خلفها الإنسان مماثلة لتلك التى عثر عليها فى الشهيناب وتغطى طبقة من «العص

الحجرى الوسيط، لتقدم على هذا النحت دليلا استراتيجرافياً على الأسبقيه المفترضة، عن حق، لهذا بالمقارنة مع ذلك .

وإذا كان تتابع الثقافتين يبدو، مع ذلك، مؤكداً كل التأكيد، فان الاستمرارية أقل وضوحاً للعيان. وكما رأينا، فإن التقديرات الحديثة العهد حول «العصر الحجرى الوسيط» تحدد تاريخ هذه المجموعة الثقافية خلال الألف السابع قبل الميلاد. وهكذا تفصل بينهما ٢٥٠٠ سنة!

وفى محاولة لايجاد رد على هذا السؤال، ويشكل أعم لإلقاء ضوء جديد على العصر الحجرى الحديث السودانى، كما تحدد من خلال موقع الشهيناب، فقد تعددت الأبحاث والإستقصاءات على امتداد الخمس عشرة سنة الأخيرة.

ومن الجنوب إلى الشمال، فإن ام دراوة (Haaland, 1981) وقاديرو (Krzyzaniak, 1978, 1984, 1986) وزاكياب (Haaland, 1981) وجيلى (Caneva, 1988) والغابة (Reinold, 1989. Le-cointe, 1989) قد أثرت معارفنا حول هذه المرحلة إثراء ضخماً، كما أن الأبحاث التى أجريت فى شجادود فى منطقة البطانة، قد امدتنا ببعض عناصر الرد على السؤال المتعلق بالإنتقال من العصر الحجرى الوسيط إلى العصر الحجرى الحديث، فى منطقة الخرطوم.

وعلى بعد ١٥ كيلو متراً تقريبا إلى الشمال من الخرطوم، وعلى البر الأيمن من النيل، كان موقع أم دراوة هدفاً للعديد من الجسات (Haaland, 1981) . ويتخذ الموقع شكل أكمتين تاكلتا إلى حد ما بفعل عوامل التحات، وتفصل بينهما مسافة عدة كيلومترات: أم دراوة واحد واثنين. ان مادة أركيولوجية شديدة الشبه بتلك التى عثر عليها فى الشهيناب قد جادت بها القطاعات التى تم التنقيب فيها، بالإضافة إلى فونة تدل على قدر كبير من الماشية المستأنسة واسماها العلمية هى على التوالى: Capra Aegagrus , Bos Primigenius Ovis ammon . ان تسجيل العديد من عمليات التأريخ بالكربون المشع بالنسبة لـ «أم دراوة» واحد ، قد اعطى بعد تصحيح الأرقام بعداً زمنياً : ٤٨٩٠ ± ١١٠ قبل الميلاد و ٤٤٧٥ ± ٢١٠ قبل الميلاد و ٣٧٦٥ ± ١٢٠ قبل الميلاد. وكانت النتيجة بالنسبة لـ «أم دراوة اثنين: ٣٨٢٥ ± ٣٢٠ قبل الميلاد. (Hassan, 1986) .

وعلى بعد ١٨ كيلو مترا، شمال الخرطوم، تبدو قاديرو على هيئة أكمة طينية معراة[٢٣] من النمط الطمى، على البر الشرقى، وتطل من على ارتفاع اقل من المترين على السهل المستوى والفسيح للوادى.

إن بعثات التنقيب التى أشرف عليها المركز البولندى لآثار حوض البحر المتوسط (كرزيزانياك» Krzyzaniak) قد حددت إلى شمال وجنوب المرتفع قطاعى موئل. وتوجد دفنات على امتداد القسم الأوسط من الأكمة.

ويشكل الكوارتز والريوليت المادة الأولية الأساسية لصناعة تقوم أساساً على الشظايا، ولكن فى حين لا وجود للريولت فى واقع الأمر فى نطاق تقطيع الأحجار، إلا أنه يشكل ٤٠,٥٦٪ من الأدوات. وسادت النويات ذات الشظايا على هيئة القُرص إلى حد كبير، وكلها مصنوعة من الكوارتز. وتتميز مجموعة الالات بأنها تضم القرص وأدوات مسننة ومناقب، ومناقير وشظايا ونصالاً مشذبة شذباً جزئيا وجميعها ممثلة بنسب تكاد تكون متساوية. والنصال الصغيرة ذات الظهر والأدوات المشطوفة الزوايا والأزاميل ممثلة فى أضيق الحدود، كذلك الادوات على هيئة أجزاء الدائرة والمباشر والمكاشط والفؤوس: ان مجموع هذه الالات يشبه آلات الشهيناب، إذا استثنينا الالات على هيئة أجزاء الدائرة الموجودة بأعداد أكبر فى الشهيناب. أما الآلات المنقورة والآلات المسننة، فإنها ممثلة على نطاق أوسع فى قاديرو.

وبعد استخراج آلاف الشقف امكن التعرف على خزف صنع من عجينة طينية ومزيل معدنى للزوجة (رمال)، وسطوح قطعه – الداخلية والخارجية – حمراء، وهى مصقولة فى المعتاد وزخرفت فى القليل النادر بمشط، للحصول على تمويجات بسيطة. والأشكال بسيطة: قصعات نصف كروية وبيضاوية، وقواعد مستديرة فى المعتاد، وشفاهها هى امتداد لجدرانها، ويندر تشكيلها. وهنا تغطى الزخارف ٨٠٪ من الشقف. انها عبارة عن سيقان متوازية، مستمرة أو منقطة، وتحمل اثار خطوط منكسرة، وتكوينات على هيئة صلبان، بالإضافة إلى أهلة ومثلثات. وفى ٢٥٪ من الحالات، تحمل الشفة زخرفاً عند قمته. وهنا كما فى الشهيناب، نشاهد أحياناً مثلثات محفورة على أوانى مصقولة حمراء، أو تبرز الشفاه شريطا بسيطا ليشكل بالتالى «شفاها سوداء».

وعلى غرار الأدوات الحجرية، فـإن الاوانى الفخارية فى قاديرو تشبه مثيلتها فى الشهيناب. ولا توجد، مع ذلك، خطوط متموجة منقطة، كما نلتقى بالمزيد من التنويع فى الزخارف المثلثة والخطوط المنقطة المتشابكة والخطوط المظللة.. مما يعطى انطباعاً، بان الموقعين كانا متعاصرين إلى حد ما، وان كانت الشهيناب قد بدأت فى وقت سابق.

إن الفونة التى قام «جوتييه» A. Gautier (1984) بتحليلها تقدم لنا صورة لاقتصاد رعوى تسيطر عليه الأبقار والخراف. وتوحى وفرة «مَعديات الأرجل gastéropodes[٢٤]» ونوات المصراعين bivalves [٢٤] التى تعيش فى المياه العذبة إلى مزيد من الغذاء وبكميات ملحوظة. وتنتمى الحيوانات المتوحشة إلى عالم المقيمين عند شاطىء النهر تقريبا دون سواء، ومن ثم يتقلص بوضوح مجال القنص والصيد.

ان ممارسة الزراعة أمر غير مؤكد. لقد استطاعت «كليشوفسكا» (in: Krzyzaniak a.

(Kobusiewski, 1984, 321 - 26) ان تتعرف على نوعين من فصيلة النجيليات Graminae استناداً إلى اثار الحبوب على عجينة الأوانى الفخارية: حنطة السودان sorgho والشعير وكانت تطحن على ما يفترض بواسطة الأرحاء التى عثر عليها بفزارة فى الموقع.

ومع ذلك يخامر «ستيملر» A.Stemler (1990) الشك حول هذه الحقيقة ويؤكد صعوبة التمييز بين الحبوب البرية والحبوب المزروعة.

وأخيرا يظهر «إنسان» قاديرو من خلال حوالى أربعين دفنة معاصرة للموئل، وتنقسم إلى مجموعتين إحداهما عند الطرف الشمالى من التل والآخرى عند حافة الموائل.

ان ظاهرة التحات الشديدة قد جعلت الهياكل العظيمة ناتئة فوق سطح الأرض فى كثير من الأحوال، فأصابها بالتالى تلف بالغاً.

وفى الشمال، كانت حوالى خمس عشرة مقبرة تضم دفنات فردية لبالغين من الجنسين وأطفال. وكانت التقدمات فى هذا القطاع غزيرة ووفيرة، على نحو خاص، فجمعت بين رؤوس المقامع الأسطوانية الشكل والأوانى الفخارية الرقيقة والعقود وقلادات من العقيق الأحمر وما نطلق عليه الشفتورة[٢٥] labrets من الزيوليت[٢٦] zéolite ، ونجد هذا الحجر فوق هضبة الحبشة وربما دفعته مياه نهر العطبرة على هيئة حصى.

وعلى عكس ذلك، فعلى جانب الموائل كانت إحدى عشرة دفنة فردية – لرجال ونساء وأطفال – لا تحتوى سوى على كميات محدودة من التقدمات.

وقد أجريت ستة قياسات بالكربون المشع على الرخويات من نوع نوات المصراعين التى تعيش فى النيل والتى من الواضح أنها قد جلبت إلى هذا المكان لاستهلاكها كغذاء (Krzyzaniak. 1982) وكانت النتيجة بالنسبة للقطاع الجنوبى على النحو التالى: ٥٢٨٠ ± ٩٠ قبل الزمن الحاضر B.P و ٥٢٦٠ ± قبل الزمن الحاضر B.P و ٥٠٣٠ ± ٧٠ قبل الزمن الحاضر. وبعد تصحيح هذه الأرقام زمنياً، فإنها تعطينا متوسطاً يعادل ٤٠١٥ ± ٣٥ قبل الميلاد (Hassan, 1985) أما بالنسبة للقطاع الشمالى، فأن النتيجة هى ٥٦١٠ ± ٥٥ قبل الزمن الحاضر B.P و ٥٥٠٠ ± ٧٠ قبل الزمن الحاضر B.P و ٥٣٨٠ ± ٦٥ قبل الزمن الحاضر، أو ما يساوى متوسطا يعادل ٤٣٣٠ + ٩٥ قبل الميلاد (Hassan, 1985) .

وهو ما يحدد زمن العصر الحجرى الحديث فى قاديرو عند أواخر الألف الخامس قبل الميلاد ويتيح فاصل ٣٠٠ سنة من الكربون المشع بين قطاعى الموئل.

ورغم أن علماء الآثار لم يلحظوا فى بداية الأمر، فارقاً واحداً، ظاهراً للعيان، بين المادة التى خلفها الإنسان فوق سطح الأرض، إلا أن الدراسة الأكثر تعمقاً للخزف والأدوات

الحجرية تميل إلى التأكيد على هذا الفارق الزمنى. فيضم القطاع الشمالى مزيداً من الشقف ذات الطلاء الخزفى الأحمر، ومزيداً من الأشكال الملمومة مع الإقلال من ظاهرة الشفة سوداء، ومثلثات وخطوطاً متعرجة أقل، ومناقير أقل، ولكن ربما كانت تكنولوجيا انتاج الشظايا أكثر تطوراً. وعلى ضوء، ما تقدم، كما يلاحظ « كرزيزايناك » (1986)، يذكرنا القطاع الشمالى بالشهيناب. وعلى العكس من ذلك، فقد يشبه القطاع الجنوبى الحجرى الحديث المتأخر كما يتجلى فى القدادة.

وإلى الشمال قليلا، وعلى بعد حوالى عشرين كيلو متراً من الخرطوم، على البر الشرقى، يوجد موقع زاكياب الذى تعرّف عليه «أركل»، وأجرى فيه «هالاند» بعد الجسّات فى ١٩٧٨ (Haaland, 1981) . إنه عبارة عن أكمة من رواسب الحصى مساحتها ٢٠٠٠م^2 تقريباً، لا تبعد كثيرا عن النيل – من ٣ إلى ٤ كيلومترات – وتطل على السهل من ارتفاع متر ونصف المتر.

وزاكياب قريبة الشبه من قاديرو من حيث الأدوات المستخدمة، وإلى جانب الأنواع المستأنسة الموجودة بإعداد وفيرة (Capra hircus. Ovis ammon. Bos Primigenius) عثر على بقايا اسماك ورخويات، وقد ذهب «هالاند» إلى أنها عبارة عن معسكر يستخدمه صيادو النهر والرعاة، خلال الموسم الجاف (Haaland, 1987) .

وإذا اتجهنا إلى الشمال أيضا، وعلى بعد ٤٦ كيلو متراً من الخرطوم، جرى التنقيب فى موقع جيلى منذ عام ١٩٧٢ بواسطة الفريق الإيطالى لمعهد الپاليثنولوجى[٢٧] فى روما، وجاد الموقع بتربة أركيولوجية يزيد سمكها على المتر. انه يقع على البر الشرقى من النيل، قبالة الشهيناب، ويشكل مرتفعاً على هيئة هلال يطل على السهل الفرينى من ارتفاع أربعة أمتار.

وتؤكد الستراتيجرافيا، فى تشابكها وتعقيدها، اشغال المكان فى العصر الحجرى الحديث، وقد استخدم بعد هجره كجبانة من العصر الحجرى الحديث المتأخر وحتى العصر المروى. وتتزاحم المقابر على وتيرة من ثلاث إلى خمس حفر كل عشرة امتار مربعة.

وقد ساعدت دراسة بيئة العصور القديمة على تحديد زمن تكوين الأكمة فى سياق تاريخ النهر.

ويتكون أساسها القاعدى من إرساب النهر من الطمى الأسمر المصمت، الذى يبلغ سمكه حوالى ١٨٠سم، وقد جلبه نهر النيل، فى ظل ظروف مناخية رطبة، فيما بين ٩٠٠٠ و ٦٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P وبالفعل وبدراسة مستويات الرخويات القائمة فى القسم السفلى، اعطتنا تاريخ ٨٤٤٠ ± ١٢٠ قبل الزمن الحاضر B.P .

إن طبقة من الرمل الطيني، لونها رمادى يميل إلى الصفرة، ويتفاوت سمكها، من ٧٠ إلى ٢٠ سم تضم المادة الأركيولوجية لسكنى العصر الحجرى الحديث، وقد اختلط فيها الحابل بالنابل. ان عملية تأريخ أجريت على المحار المعروف علميا باسم «بيلا فيرنى» Pila wernei قد حددت ٥٥٧٠ ± .. (قبل الزمن الحاضر B.P . لقد أوضح التحليل القائم على دراسة الصخور الرسوبية والظواهر التى تسهم فى تكوينها Sédimentologie ارتباط هذه الطبقة بالانحسار التدريجى لمياه النهر من جراء زحف المناخ القَحْل حين ترك النيل مجراه الأصلى ليجرى إلى الغرب قليلاً. ومعنى ذلك، انه على امتداد الثلاثة آلاف سنة التى ظل النهر خلالها يروى الشط[٢٨] la levée ، فى حين كان «العصر الحجرى الوسيط» يزدهر فى صجاى، على بعد سبعة كيلومترات إلى الجنوب قليلا، لم يكن يشغل موقع جيلى سوى... الأصداف والمحار! وكان لابد من الانتظار حتى نهاية الألف الخامس قبل الميلاد حتى جاء الرعاة ليلقوا عصا الترحال، بعيداً بعض الشىء عن الشطآن، وسط المراعى والمراتع.

إن بقايا الفونة، وإن أصيبت إصابات بالغة من جراء التحات اللاحق، إلا انها تكشف عن «مخزون» وفير من الحيوانات المستأنسة – من أبقار وخراف ومعز، يضاف إليها الإستفادة بالأنواع المتوحشة، وكانت ماتزال على قدر كبير من الاهمية وكان جمع المحار (Pila Wernei) منتشرا على ما يظن فى الفصول الجافة، إلى جانب صيد أعداد كبيرة من سمك القرموط. وتعيش السلاحف والزواحف، جنبا إلى جنب، مع نوع من القردة ومع آكلات اللحوم والغزلان والظباء، مما يوحى بنسق من الضغوط القسرية المعقدة والمتشابكة، قائم على التبعية المزدوجة للأنواع المستأنسة والمتوحشة. إن السعى وراء المراعى لترتع فيها القطعان، أصبح بلا أدنى شك أمراً جليل الاهمية، فى بيئة سودانية سواحلية[٢٩]، الأمر الذى فرض كما يرى «جوتييه» Gautier (1988, 62) ، انتقالات وتحركات مرتبطة باستغلال الموارد الطبيعية.

ومن بين آلاف الشقف التى تم استخراجها، من الصعوبة بمكان أن نميز تلك التى تعود إلى بداية شغل المكان من التى تعود إلى أزمنة لاحقة ومتأخرة.

والعجينة فى مجموعها متجانسة، وحبّاتها ناعمة وقد استخدم الكوارتز لإزالة لزوجتها، وأحرقت حرقاً جيداً، وصقلت فى جميع الأحوال، وتختلف اختلافا بينا عن خزف العصر الحجرى الوسيط الذى يتميز باستخدام مادة خشنة لازالة لزوجة عجينته وكان الفلسبار مكوهة الأساسى (Hays a. Hassan, 1974) . ويتنوع لون السطح من الاصفر الفاتح البرتقالى إلى الأحمر، ومن الرمادى الضارب إلى السمرة إلى الاسود، حسب درجة الإحتراق . وقد تعتبر رقة سمك الشقف دليلا على أنها كانت جزءاً من أوعية صغيرة

وخفيفة – فى حين كانت أوانى العصر الحجرى الوسيط كبيرة الحجم. وتظل الأشكال بسيطة، مفتوحة وملمومة، بلا رقبة ولا قوائم ولا أذن. ويبدو كما لو أن بعض النماذج الزخرفية كانت توضع على بعض الأشكال المحددة. وهكذا كانت عمليات الصقل الحمراء تظهر على الكؤوس ذات الشفاه المدببة، بينما تظهر الآثار الزخرفية البسيطة والسطوح المصقولة السوداء على الأوانى الكروية...

وتظل الآثار الزخرفية الناتجة عن دوران الأوانى حول محورها، التقنية الأساسية ولكنها تتنوع، دون أن تنحصر فى حدود الخطوط المتموجة، فتتعاقب المنحنيات والخطوط المنكسرة والمثلثات وعلامة الفاصلة ورقم السبعة، سواء وزعت لتشمل السطح بأكمله أو كان على هيئة لوحات زخرفية. وتظهر الأوانى «المشطة»[٣٠] التى ستصبح أساساً من السمات المميزة للطور اللاحق.

وهكذا تبدو أوانى جيلى الفخارية وكأنها تقف عند نقطة إلتقاء الشهيناب والعصر الحجرى الحديث المتأخر، وفقا للنماذج التى سيجود بها موقع القدادة.

وتستغل صناعة الأدوات الحجرية الإمكانيات المحلية – فى مكانها الأصلى أو القريبة – والمتمثلة فى حصى الكوارتز والصوان أو العقيق والحجر الرملى النوبى والريوليت والبازلت والخشب الحفرى. وهنا كما هو الحال في معظم مواقع العصر الحجرى الحديث في الخرطوم، فإن الجانب الأكبر من مخلفات قطع الأحجار هى من الكوارتز (٩٢٪ فى جيلى، ومن ٨١ إلى ٨٦٪ فى قاديرو و ٩٢٪ فى زاكياب و ٧٧٪ فى ام دريوه). ومع ذلك فان معظم الأدوات مصنوعة من الريوليت. إن ضرورة الحصول على شظايا كبيرة الحجم لإجل صناعة المكاشط الكبيرة والمناقر والفؤوس قد حمل قاطعى الحجارة إلى الانتقال إلى مصادر المادة الأولية، حتى لا يعودوا إلى الموائل، إلا والأداة جاهزة أو شبه جاهزة. وفى المقابل ولما كان الكوارتز فى متناول أيديهم فقد ظلوا يقطعونه للحصول على الأدوات القزمية، بنسب بسيطة والشظايا غير المصقولة، وإن كان لا يخامرنا أدنى شك من استمرار استخدامها.

ويكشف الرسم البيانى لانتشار هذه الأدوات عن مجموعتين: القطع التى تحمل لمسات صقل، المصنوعة من شظايا ضخمة من الريوليت. والآلات المنقورة التى تشكل بمفردها ربع أدوات الكوارتز وتكشف الآلات المسننة والمثاقب. منها المباشر عن تطور الصناعة التى باتت لا تكرس سوى حصة محدودة لآلات على شكل أجزاء من الدائرة وغيرها من الآلات الحجرية القزمية وشظايا الريوليت الضخمة ذات الظهر المصقول نادرة وكذلك الفؤوس والمناقير. إن نسبة هذه الأخيرة، وإن كانت من السمات المميزة للثقافات المعنية، إلا انها منخفضة جداً (٣ر١٪) بالمقارنة مع قاديرو (١٥٪) والشهيناب.

وقد عانت الأشياء المصنوعة من العظم من سوء ظروف الحفظ. وعددها محدود جدا على وجه الخصوص.

كما عثر على خطافين ويبرز من أحدهما نتوءان ومن الثانى نتوء واحد تليه نقرة واحدة لتثبيت الخيط.

يضاف إلى هذه القائمة الهزيلة بعض كسف الإبر والمخارز والخرز المصنوع من بقايا بيض النعام.

إن وجود جزء من صدفة (واسمها العلمى Asptharia) هو الذى قد يوحى بالبداية الأولى لصنع الشصّ...

وكانت معدات السحن من الحجر الرملى، وتمثلها أسطوانات يتروح قطرها من ٩ إلى ١٢ سم وعدد من المساحن مختلفة الأشكال، بدءاً من الكتل شبه المكعبة إلى المخروط. ولكن لا وجود للأقراص المثقوبة، كما هو الحال فى الشهيناب.

وعلى بعد حوالى ١٥٠ كيلو متراً شمالاً، فى إقليم تراجما وعلى بعد أقل من كيلو متر واحد من القدادة، يشد موقع الغابة (lecointe, 1987. Reinold, 1987) اهتمامنا، حيث أن يضم أكثر من ٢٥٠ دفنة، فى وسعنا ان نربطها بالعصر الحجرى الحديث فى الخرطوم، وقد ألحقت هذه الدفنات الأضرار بمستوى من الموائل يبلغ سمكه حوالى عشرين سنتيمتراً.

وقد ووری كل فرد الثرى، على حدة، وسجى على جانبه، فى وضع انحناء أو انثناء - وأحيانا على ظهره وبدون توجيه اتجاه معين. ولما كانت العظام فى حالة سيئة من الحفظ - وهى حالة شائعة من السودان الأوسط - فلم تسمح بتسجيل المعطيات الأنثروبولوجية. أن ما يقرب من ٢٥٠ إناءً، زين ٤٠٪ منها بالزخارف، مطابقة لخزف الشهيناب وقاديرو. ومع ذلك تقترب بعض النماذج، ونذكر منها الكأسية الشكل أو الزخارف ذات الأشكال المربعة الزوايا المتجاورة - تقترب من العصر الحجرى الحديث المتأخر فى القدادة. وتتكون الحلىّ من الشفتورة المصنوعة من الصخر الأبيض ومن الأساور العاجية والخرز من العقيق اليمانى وقلادات مصنوعة من حصى صغير مفرطح. وقد وضعت أحيانا بعض كسف الملاخيت في المقابر. إن ارتباطها بإحدى الشعائر الجنائزية، قد يمكن استنتاجه من اللون المائل إلى الأخضر الظاهر على الهياكل العظيمة، عند مستوى الأسنان، وعظام الوجه بالنسبة لبعضها . وقد وضعت جماجم الثيران فى قاع حفرة اللحد، وهى ظاهرة ترتبط أيضا بالعالم الجنائزى. ان تضاريسها الخاصة التى أبقت على عظام القرون والجانب العلوى من الجزء الجبهى، قريبة الشبه بجماجم القدادة. كما نعثر أيضا على رواسب

رخويات المياه العذبة (وتحديداً النوع الذى يطلق عليه الإسم العلمى Aspatharia) . ويساعدنا تجميعها على افتراض انها كانت داخل أكياس صغيرة، وربما كانت مصنوعة من الجلد. والأدوات المصنوعة من الحجر، شحيحة داخل المقابر، وقد جادت بأسطوانة من الصخر المصقولة مثقوبة ومنقار، وهو عنصر شديد الندرة فى هذا الموقع. (شكل ٢).

وأمكن التمييز بين مجموعتين، تختلفان سواء من حيث الطوبوغرافيا أو الشعائر الجنائزية، التى ينطويان عليها. فهناك مساحة مستطيلة خالية تبلغ عشرة أمتار طولاً وثلاثة أمتار عرضا وتقسم المقابر إلى مجموعتين تمثلان إجمالا مستودع جماجم الثيران فى الشمال والأوانى الفخارية ذات القاعدة المفرطحة والأوانى الكأسية الشكل فى الجنوب.

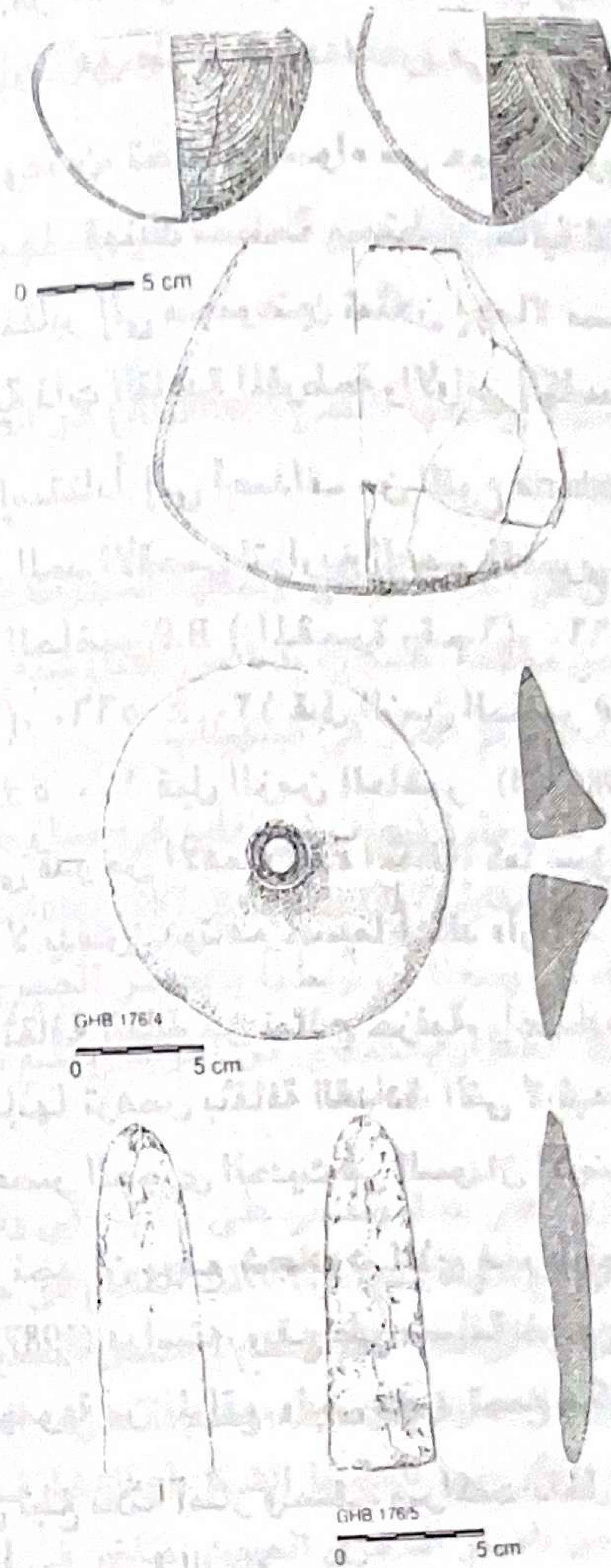
إن أربع عمليات تاريخ إستناداً إلى أصداف من النوع Asphatharia تنطوى على ما يشير إلى تطور الموقع عند الحد الأقصى لتواريخ العصر الحجرى الحديث فى الخرطوم: ٤٩٩٠ ± ١١٠ قبل الزمن الحاضر B.P (المقبرة رقم ٦)، ٥٦٦٠ ± ١٢٠ قبل الزمن الحاضر B.P (المقبرة رقم ٧)، ٥٦٦٠ ± ١٢٠ قبل الزمن الحاضر B.P (المقبرة رقم ٢٧) (Geus, 1983, 24) و ٥٠٢٠ ± ١٠٠ قبل الزمن الحاضر (Geus, 1986, 24) . ويمثل هذا التطور مع ذلك إختلافا على قدر من الأهمية لهذه الثقافة، كما سبق تعريفها فى الشهيناب، حيث بدا أن البشر كانوا لا يدفنون موتاهم حسبما اعتقد «أركل»..

وببعض ما جاءت به ثقافة الغابة من نماذج خزفية، واعتمادها على جماجم الثيران ولأنها جنائزية الملامح، فإنها ترهص بثقافة القدادة، التى لا تبعد عنها كثيرا، لتدمجها، هكذا فى سياق تطور العصر الحجرى الحديث فى السودان الأوسط.

ولو عدنا إلى البطانة، نجد أن موقع شجادود، الذى قام «أوتو» Otto (1963) بالكشف عنه وأعاد محمد على (1987) دراسته، ويقع على مسافة خمسين كيلومتراً شرقى النيل، نجد أنه يجود علينا بمجموعة من المواقع، وليس مجرد تجمع سكنى:

إن الإرسابات التى تبلغ ثلاثة أمتار ونصف، وتراكمت داخل وعند مدخل مغارة تستند إلى خانق[٣١] Canyon لهى عظيمة الدلالة.

وتتطابق المستويات الدنيا مع «العصر الحجرى الوسيط» فى الخرطوم، وتفصح عن صناعة أدوات حجرية قزمية من الكوارتز، تغلب عليها آلات على هيئة أجزاء الدائرة وخزف صلد، محروق حرقاً جيداً ، وقد ازيلت لزوجته بالكوارتز، وهو غير مصقول، ومزخرف بالمشط بخطوط متموجة ومستقيمة مع آثار زخارف بخطوط متعرجة طبعت أثناء دوران الإناء حول محور . وفى الطبقات الوسطى، تصبح هذه الأوانى الفخارية أكثر هشاشة، وتفرض الخطوط المنقطة نفسها فرضا، بالتدريج. وأخيرا، فإن المادة التى خلفها الإنسان



شكل ٢

فى المستويات العليا هى من المواد النمطية للعصر الحجرى الحديث: نفس الأوانى الخزفية المصقولة ذات الزخارف الشديدة التميز، ونفس الأدوات الحجرية باستثناء الفؤوس والناقير، على كل حال (Mohammed - Ali, 1987) . ويتطابق وجود محلة مختلفة مع المستويات الأخيرة تماماً، وهى تشبه العصر الحجرى الحديث المتأخر كما قام بتعريفه «جوس» F. Geus فى القدادة.

إن الدراسة الحديثه العهد التى قام بها «كانيڤا» Caneva و«ماركس» Marks (1990) حول تقنيات اعداد الزخارف، تميل إلى تأكيد الخطوط العامة التى توصل إليها محمد على. إنها تؤكد على وجود تطور مديد للعصر الحجرى الوسيط استطاع الباحثان أن يتعرفا فيه على طورين: الأقدم عهداً، مماثل لما يوجد بالوادى فى الخرطوم وصجاى وسوروراب وشابونة. أما الطور الأحدث، فإنه يتميز بوجود نسبة عالية من الخطوط المزنوجية المنقطة، وتمثيله أقل فى الوادى ويحمل من ثم طابعاً «محلياً». أما المستويات العليا فتظهر ملامح الصحراء الكبرى، تبرزها على سبيل المثال شقف الفخار التى تحمل آثاراً خفيفة لنقط صغيرة متباعدة، وقد صقلت صقلاً، بعد زخرفتها.

وقد أجريت عملية تاريخ بواسطة الكربون المشع على مستويات العصر الحجرى الحديث، فوفرت لنا تاريخ ٤٤٦٠ ± ١٩٥ قبل الميلاد. وتقترح عملية أخرى، أجريت على المستوى الأعلى، ان يمتد العصر الحجرى الحديث المتأخر حتى الألف الثانى ٢٠٩٥ ± ١٥٥ قبل الميلاد (Hassan, 1986) .

ولكن من الواجب علينا هنا، كما فى غيره من الأحوال ٦ أن نذكر بعدم قيمة بل خطورة عمليات التاريخ المعزولة، التى لا يمكن فى أى حالة من الحالات أن ينظر إليها باعتبارها مرجعاً مطلقا. إن متتالية شجادود الطويلة تستحق أن يتم توضيحها فى العديد من النقاط، مع تحديد بياناتها داخل شبكة محكمة من عمليات التأريخ، الأمر الذى قد يساعدنا على إلقاء بعض الضوء على الفجوة فى التتابع الزمنى التى تفصل العصر الحجرى الوسيط عن العصر الحجرى الحديث فى الخرطوم.

إن تبنى اقتصاد قائم على الإنتاج فى وادى النيل، قد نشأ فى سياق التكيف مع بموارد النهر الموسمية والبيئة المحيطة به مباشرة.

ومن هذا المنظور، فإن الخطوة، التى تم الإقدام عليها، أقل ما يقال عنها أنها تعبير عن ضرورة ملزمة وانما هى بالأحرى خيار واختيار.

فلفترة طويلة، واذ سار الجميع على خطى «جوردون شايلد» Gordon Childe فقد ذهبوا إلى أن جدب وجفاف(٣٢) dessication المناخ، قد شكلا ضغطاً على البشر فدفعهم على ما يظن إلى ابتكار طرائق جديدة للبقاء على قيد الحياة. ولا غرو، أن التغيرات المناخية قد طردت مراراً وتكراراً الجماعات البشرية فى ظل أحوال مأساوية، لتدفعهم نحو أراض جديدة، وتجبرهم على التفاعل مع ظروف بيئية جديدة. ولكن عندما جاء صناع الفخار الأوائل فى الخرطوم وحطوا الرحال على امتداد النهر، كانت الظروف الايكولوجية قد بلغت أوجها، وانتشرت البحيرات عبر الصحراء الكبرى، وتجمعت من حولها الجماعات البشرية وازدهرت وعاشت حياة شبه استقرار، وعرفت الفخار وتعايشت فى ارتباط وثيق مع الماشية إلى الحد الذى يصعب معه التحدث بيقين عن نشأة استئناس الحيوان، انما يمكن الإشارة إلى وجود وضع *سابق على الاستئناس*.

ولا يخامرنا أدنى شك فى وجود روابط واتصالات بين الساكنين على ضفاف نهر النيل وجيرانهم القريبين. ويمكن ان نتخيل بسهولة وجود حركة ذهاب وإياب دائمة بين الصحراء والوادى، ويعتبر التنوع الإقليمي الذى عرفته هذه الحركة المكوكية على امتداد نهر النيل ظاهرة موحية، بما فيه الكفاية. ومع ذلك، فإن أبناء ضفاف النيل الذين تكيفوا مع الدورة السنوية للموارد الطبيعية، لم يستشعروا على الإطلاق ما قد يدفعهم إلى «ضرورة» صياغة ستراتيجيات غذائية جديدة.. فضلاً عن أن تكون ملزمة وضاغطة بالإضافة إلى ذلك.

وربما يفسر ذلك أن تعميم العصر الحجرى الحديث وانتشاره قد تأخر ظهوره فى وادى النيل، على ما يبدو. فالأخذ بتربية الحيوان وبالزراعة قد تم على ما يعتقد إبان الألف السادس قبل الميلاد، إذ كانت الأنواع المستأنسة قادمة من الشرق الأدنى عن طريق الدلتا. والمشكلة هى أننا نفتقر إلى الوثائق المدعمة لهذا الرأى، بالنظر بلا شك إلى أن المواقع التى تعود إلى هذا العصر قد دمرت أو طمرها طمى النيل (راجع فى هذا الصدد Holmes: 1993).

ولا غرو أن المقيمين فى الصحارى قد دفعتهم موجة الجدب والجفاف التى بدأت حول ٨٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P، إلى إلقاء عصا الترحال فى الوادى وقد جلبوا معهم ماشيتهم العظيمة الأهمية، فتعلموا من ابناء الوادى الأصليين فن الاستفادة من طبيعة ساحرة.

ويذهب فكرى حسن، إلى أن الطور الجاف فى الألف السادس قبل الميلاد، كان طوراً حاسما حدد هذه التحركات من الغرب إلى الشرق – ومن الشرق إلى الغرب أيضا بلا أدنى شك، إذا أخذنا بعين الإعتبار الصحراء الشرقية – فقد دفعت هذه التحركات المجموعات المقيمة فى سيوة والواحات البحرية إلى أن يسلكوا الدروب التي كانت مألوفه

لديهم بلا شك، واستثمار علمهم فى الفيوم والدلتا، ووصل أبناء الفرافرة والخارجة والداخلة إلى مصر الوسطى والعليا، فى حين وصل سكان نبته إلى النوبة، جالبين معهم إلى ابناء العصر الحجرى الوسيط لمسات العصر الحجرى الحديث التى تمثلها الأنواع المستأنسة.

ولأنه يبدو أن العصر الحجرى الحديث فى الخرطوم نابع بكل وضوح من «العصر الحجرى الوسيط» الذى يحمل نفس الاسم، وذلك رغم فراغ التتابع الزمنى بين الثقافتين التى كشف عنهما «أركل». وكما يشهد تراث شجادود الذى أعقب مثيله فى القز وهو ما تشير إليه الروابط العديدة التى تم الكشف عنها ضمن المادة التى خلفها الإنسان فى الثقافتين ، ولاسيما الفخار والأدوات الحجرية، يمكن القول ان شاغلى الخرطوم المبكر Early Khar toum، فى سورورواب وشابونا و صجاى... يظهرون فى حقيقة الأمر كأسلاف شاغلى الشهيناب وقاديرو وقيلى..

ولكن علينا ألا يغيب عن بالنا ان إدراكنا لهذه التبدلات الجوهرية تعانى من تبسيط ومشاشة كل ما يعاد تركيبه من تصورات، انطلاقا من المخلفات الهزيلة التى وصلتنا كمنبثقات مادية ناقصة وغير قادرة على التعبير عن التعقيد والتشابك الثقافى بكل ما ينطويان عليه من تماسك. وعلى غرار فكرى حسن (1986,29)، الذى استعار القصة الجميلة للأمير الصغير (٣٣)، علينا أن نقر بان ما هو جوهرى غير مرئى.

وفى مواجهة آلية التغيرات المناخية - التى لا ندرك منها فى واقع الأمر سوى المحصلات والنتائج - نجد سيولة السلوك البشرى، بحيث يستحيل اختزال رحابة ظاهرة من هذا القبيل، إلى سبب أو حد وإن كان إندفاعا حاسما.

من المناسب إذن ان نحدد العصر الحجرى الحديث بعبارات العلاقات الإجتماعية. ان التكيف مع نهر النيل كان يتطلب تعاونا يتسم بالحركية، فهو على أشده فى بعض الفصول ومتراخ فى بعضها الآخر.

ان موسم الفيضان، الممتد من يوليو إلى نوفمبر، كان يوافق الصيد فى المياه العميقة، الذى كان يعبىء ويستنفر الموارد البشرية، فيستدعى جهدا جماعيا لصناعة القوارب والشباك والمصايد... وقد رأينا ان تقنيات الصيد النهرى كانت قد تعقدت وتشابكت فى الكاب والفيوم والخرطوم منذ ٦٠٠٠ قبل الميلاد، فالأنواع التى يمكن مصادرتها بشكل فردى، كالقرموط بدأت تنافسها أسماك المياه العميقة، كقشر البياض. وأخذت أعداد الخطاطيف والشصوص تزداد باطراد.

وكان انحسار المياه يوفر لحظة مثالية لا صطياد القرموط وطيور المستنقعات وجمع بعض النباتات . وكانت عملية الجمع هذه تتوا صل خلال أشهر الشتاء، وتعقبها عملية جمع

الرخويات. وكان مطلوبا من النساء فى المقام الأول، أن يتفرغن لهذا الضرب من الأعمال، فى حين كان الرجال يركزون نشاطهم فى قنص الصيد الكبير.

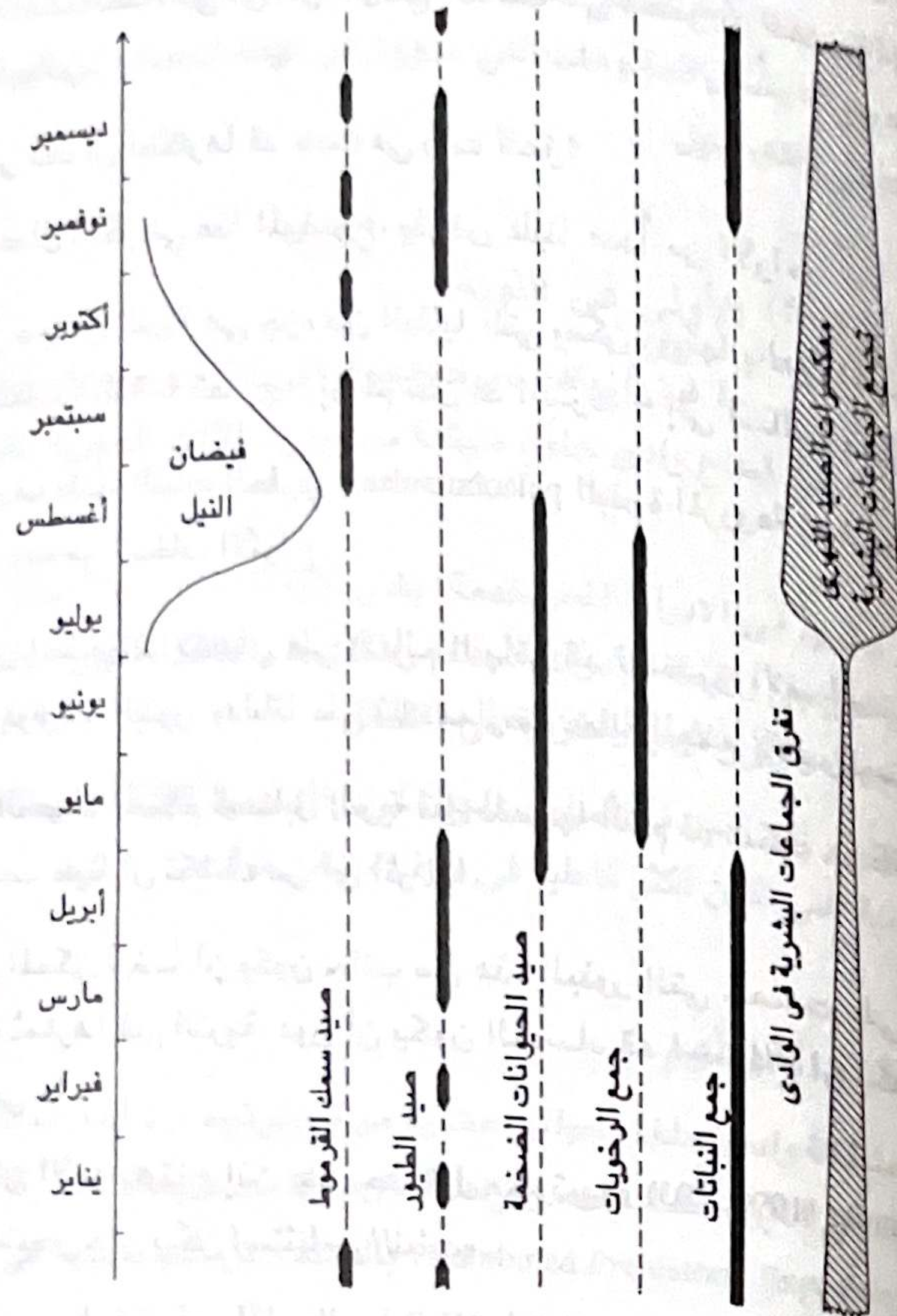
(انظر شكل ٢). إن المثاقب الموجودة بأعداد وفيرة، وتدخل فى تكوين الأدوات، إلى جانب المكاشط الضخمة أيضا، والمباشر والأدوات المسننة ثم الفؤوس والمناقير تعكس جميعها حرفة قائمة على الخشب والجلد والعظم: عمليات القطع والشق والشذب والكشط والثقب.. وتشكل جميعها مجموعة من الأعمال التى تدور حول محدد مشترك. كانت فكرة الجماعية قد ظهرت مع الإرها صات الأولى لعملية التخزين. ثم تطورت مع اختراع الفخار، فهى قد وجدت فى إطار مازال يعود إلى خواتيم العصر الحجرى القديم، متضمنا، كما أو ضحة «تيستار» Testart (1982) طفرة عميقة فى الأيديولوجيا.

إن عملية إرجاء استهلاك منتج، وقد بدأت ممارستها فى الوادى منذ آلاف السنين، ربما كانت، كما يذهب إليه المؤلف، نقطة البداية والمصدر الرئيسى لعدم المساواة الإقتصادية والإجتماعية، فبمجرد أن يتحول المنتج لا يصبح فقط وسيلة للمبادلات والأطماع والإستئثار، ولكن أيضا للحصول على فائض يمكنه أن يعول طبقة من غير المنتجين. وربما تناوب على احتلال صفوف هذه الطبقة، على الأرجح هذا الفريق أو ذاك من الحرفيين الذين شملتهم دورة نهر النيل. ومن ناحية أخرى، فان وجود «إختصا صيين» تتكفلهم الجماعة بالكامل أمر مستبعد تماما فى ذلك العصر. ولا يوجد من بين المخلفات الأركيولوجية ما قد يحملنا على هذا الاعتقاد، ومن ناحية أخرى، وكما يؤكد تيستار (A. Testart (1982, 53، فإن مجمل الإنتاج قد يفوق بكثير احتياجات الجماعة المحلية التى يستطيع (الإخصائى) أن يبادلها مبادلات منتظمة.

وهكذا فقد تم الانتقال الى اقتصاد قائم على الإنتاج على أر ضية مهيأه لذلك ذهنيا، فى مجتمع له هياكله وبناه الخا صة حيث استطاعت جماعات متسيدة أن تمارس «سلطاتها» مع إمكانية ان تتجمع بين أيديها الخيرات الناتجة عن ظواهر عمليات التخزين والتبادل.

إنه مجتمع «غنى» برأسمال من التقاليد المتواترة، المخزونة أيضا فوق أرض محدودة، حيث الشحنة الرمزية، كما انبثقت من قبل من الجداريات الصخرية تضمنها «الميثاق» المبرم بين الانسان والطبيعة، وان لم تكن هى العلة الأولى.

ولم يترتب على ادخال اساليب انتاج جديدة سوى تكثيف التعاون الضرورى، من ناحية وزيادة عدم المساواة، من ناحية أخرى، بأن استحدثت وحدات إقليمية خا ضعة لزعيم، وتم منذ ذلك الحين اقرار شرعية منا صب جديدة، من أجل ضمان ومراقبة وتوطيد التعقيدات والتشعبات الجديدة التى ما لبثت ان عبرت عن نفسها بتعبيرات رمزية.



شكل ٢

لقد شاهدنا أن وجود الزراعة أمر مؤكد بلا منازع، إلى جانب الماشية المستأنسة، فى الفيوم ومرمدة بنى سلامة، ولكن وجودها فى السودان الأوسط (Stemler, 1990) يبدو أمراً أكثر اشكالية. فلا نجدها فى واقع الأمر، جنبا إلى جنب مع الشواهد الدالة على وجود الماشية المستأنسة، فى أى من المواقع القائمة فى مصر أو الصحراء الغربية، وجوداً مستقراً ودائماً.

أيعنى ذلك أن ابتكارها قد حدث فى وقت لاحق؟

إن إعمال الفكر فى هذا الموضوع، يفرض علينا عدداً من الآراء:

• فى حين ان الفونة هى جزء من البقايا التى يمكن رؤيتها بالعين المجردة عند التنقيب، فإن المخلفات الضخمة تحتاج – إن لم تكن قد اندثرت – إلى اساليب بحثية أكثر تطوراً.

• ويعرف علماء النبات الحفرى paléobotanistes البذرة المزروعة بعبارات التغييرات التى تطرأ بعد وبسبب انتخاب الأنواع.

• ولكن استحواذ الإنسان على العالم النباتى قد استغرق آلاف السنين دون أن تتأثر بذلك مورفولوجيا البذور: ودليلنا على ذلك ممارسة عملية الجمع لآلاف السنين.

• إن الحصاد المنتظم للسنابل البرية قبل نضجها التام قد شكلت مرحلة ما قبل الزراعة التى يصعب علينا أن نكشف عن أى أثر لها.

• ومن الممكن أيضا أن يكون جانب من هذه البذور التى حصدت على هذا النحو، قد أعيد استثمارها فى التربة، دون أن يكون الحصاد قد استطاع ان يكشف عن تغيير مورفولوجى ما.

فما كان الأمر يحتاج إذن على حد قول «جوتييه» A. Gautier (1990, 203) «*إلى علم بيولوجى متبحر حتى يمكن استئناس النبات*».

وبالتالى، يصل عالم حيوانات العصور القديمة arehéozoologue إلى نتيجة مفادها ان هذه العملية تبدو أبسط وأسرع من إستئناس الفقريات.

فلنتجنب إذن، فى هذا المجال، البديهيات الأركيولوجية. إن سيطرة الإنسان على الأنواع النباتية والحيوانية المحيطة به، كانت فى مناطقنا عملية طويلة النفس، إنها «حكاية قديمة»، قام اثناءها الإنسان بمعايشتها معايشة يومية فى حيز ضيق ومحدد تحديداً صارماً، وحرك سياقات من الألفة، ستقود بشكل يكاد يكون طبيعيا، إلى أنتخاب الأنواع.

ولاح خلل جديد قوض التوازن الإيكولوجى (البينى). إن مقوماته هى: قدوم الجماعات البشرية الرعوية الوافدة من الصحراء الكبرى - ومن الصحراء الشرقية، بلا شك - تحت وطأة الجدب والجفاف، ثم «النضج» الإجتماعى للجماعات التى تشكلت بناها وهياكلها حول فكرة الجهد الجماعى والملكية (بكسر الميم)، وأخيرا الإنزلاق الذى لا مفر منه نحو العالم الرمزى، كل ذلك سوف يشكل المقومات التى ستؤول فى نهاية المطاف إلى «ثورة العصر الحجرى الحديث» فى وادى النيل.

الصناعات الخزفية(٣٤) الأولى فى النوبة

فيما بين ٥٠٠٠ و ٤٠٠٠ قبل الميلاد، سوف تخرج إلى النور مجموعات تكنولوجية إقتصادية فى النوبة، فى قطاع وادى حلفا، منبثقة من موروث الآلات الحجرية القزمية عند الجندل.

وحدث تطور جذرى فى الادوات المستخدمة، يشير إليه التخلى عن الادوات الحجرية القزمية على نحو تدريجى وهيمنة الأدوات المسننة والمكاشط والمثاقب وظهور ادوات جديدة، مصقولة وذات وجهين وأولى الأوعية الخزفية فى المنطقة.

وكلها دلائل تشير إلى تغير فى أسلوب الحياة، وإدراك جديد للبيئة المحيطة، مرتبطين بالمؤثرات الخارجية التى تكون أكثر فاعلية فى ظرف مناخى موات.

إحدى تنويعات الخرطوم.

ويوجد فى منطقة وادى حلفا، حوالى عشرة مواقع ترتبط ارتباطا وثيقا بالعصر الحجرى الوسيط فى الفيوم، كما حدده وعرفه «أركل». وقامت «البعثة المشتركة لعصر ما قبل التاريخ» "Combined Prehistoric Expedition" بالكشف عن ثمانية منها فى الستينات (J. L. Shiner, 1968). وتحتل ستة منها رواسب الطمى فى السهل الغرينى، على جانبى النهر، ويوجد موقعان بعيداً ، فى المنطقة الصحراوية.

إنها عبارة عن تمركزات يترواح قطرها من عشرين إلى مائة متر، محدودة السمك – حوالى عشرين سنتيمتراً – حيث تظل كتل الأحجار الضالة(٣٥) erratiques المحروقة هى الشواهد الرئيسية على المواقد. ومع ذلك ففى الموقع رقم 2016 ومساحته متران مربعان، خرجت إلى النور أرض تربتها صلبة، يغطيها تجمع له شأنه، ويتكون من أحجار محروقة،

يوحى بوجود عناصر شديدة الأهمية وإن كانت قد ضاعت فى الوقت الراهن، ولا ننسى فى الحقيقة، أن قطاع الجندل الثانى هذا، مغمور حالياً تحت مياه بحيرة ناصر..

ان كمية مخلفات عملية تصنيع الأحجار الضخمة لتكشف عن صناعة تفضل الإعتماد على الكوارتز وحصى النيل والظران silex ـ المستورد من مصر، وتظل الأدوات الحجرية القزمية مصدراً للمرجعية: فقد صنعت قطع ذات ظهر وهندسية فى بعض المواقع تتميز بعناية فائقة. ومع ذلك، فإن المكاشط المقعرة، وهى من الأدوات الأوسع انتشاراً، يتراوح طولها بين ٣٠ و٥٠ ملليمترا، بل أنها صنعت أحياناً من شظايا أكبر. وقد صنعت معظمها من الظران المصرى، والمثاقب القزمية ممثلة بنصال أطرافها مدببة وحوافها مشذبة تشبه المثاقب التى حددها «تيكسييه» J. Tixier فى خواتيم العصر الحجرى القديم فى المغرب (1963, 66, no 16). وتظهر الرُفْضَ والأدوات أسنة بنسب ملموسة إلى جانب بعض القطع ذات الوجهين تتكون من أسنة رماح ذات ساق ونصال تعرف اصطلاحاً بال «سكاكين» وهى مستطيلة، ويقتصر تشذيبها أحيانا على الحافة. أما الحصى التى يشكل تشذيبها الأحادى الإتجاه واجهة مقعرة تعطى لهذه القطعة شكل المسحج[٣٦]، فقد أطلق عليها اسم «ما قبل المنقار». ولا يوجد فى هذه المجموعات أى أثر لعمليات الصقل وقد تأكد من ناحية أخرى وجود مخلفات تصنيع الشظايا، وهو ما يعطى للعقب (الذى يدخل فى المقبض) شكل المتميز جداً الشبيه «بجناح العصفور» ، ويطلق عليه الانجليز مصطلح "side - blow - Flake" .

وتم التأكد من وجود كتل من الصوان والكوارتز فى DIW 5 استخدمت كنقارات. أما عملية السحن فهى غير ممثلة إلا من خلال بعض كسف الأرحاء واحجار السحن. واستغل بيض النعام كما تشهد على ذلك البقايا المبعثرة على معظم المواقع وخرز الموقع 626.

والفخار موجود فى كل مكان، وقد اتخذ شكلين، فهو إما قريب الشبه من فخار الخرطوم ولونه رمادى يميل إلى الأحمروغير مجلى ويحمل زخارف على هيئة خطوط منقطة أوانه لا يحمل أى زخارف. وإذا استثنينا بعض الحالات النادرة، فلم نعثر سوى على بعض الشقف الصغيرة الحجم، الأمر الذى جعل إعادة تشكيلها ينطوى على احتمالات غير مؤكدة. إلا أنها تبدو مع ذلك بسيطة (قصعات) وذات أحجام كبيرة إلى حد ما: إذ يبلغ قطرها حوالى ٤٠ سم.

وتذكرنا مواقع وادى حلفا بالخرطوم، سواء بما تضمه من خزف او ما استخدمته من أدوات. ولكن بشكل أبسط وبعيداً عن تعقيدات ووفرة، ما صنعة الإنسان. ومن ناحية أخرى، لا يمكن أن يمر وجود المحطتين 628, 626 على بعد خمسة عشر كيلو مترا إلى

الغرب من الوادى، من الكرام. إنهما تقعان عند حافة منخفض صغير عند سفح نجد، كان مصدراً الماء فيما بين ٥٠٠٠ و ٤٠٠٠ قبل الميلاد، وتشهدان على استخدام ضخم للظران الذى جاء على ما يحتمل من هضاب الحجر الجيرى فى سن الكداب، على بعد ١٧٠ كيلو متراً إلى الشمال من وادى حلفا (Nordström, 1972, pl.2) . بل ربما جاء كما يلاحظ «هالاند» (in: Nordström, 1972, 114) – وهو يتطرق إلى اتصالات أبعد من ذلك – من مناطق الخارجة، بل والفيوم..

إن الحديث عن إقتصاديات هذه المجموعات من الأمور الصعبة بالنظر إلى ندرة بقايا الفونة، ولا يوجد أى دليل على وجود استئناس من أى نوع. والبقايا تخص أساسا الأسماك و أصداف المياه العذبة ولا سيما النوع المعروف علمياً باسم Aetheria elliptica، الأمر الذى يشير إلى التبعية الوثيقة للنهر. فانتشار الأرحاء وبيض النعام فوق هذه المواقع، يكشف فى آن واحد عن استخدام النباتات البرية المحلية وصيد هذا الطائر الضخم، فى أماكن تبعد كثيرا عن الوادى، كما لو أن الكثافة السكانية العالية نسبياً، كانت – على حد قول «شاينر» Shiner (1968, 785) – قد دفعت البشر إلى البحث عن أراضٍ للصيد فى قطاعات لا يرتادها إلا القليلون، ومروية رياً جيداً، وتكون علاوة على ذلك، على اتصال بعروق الظران الذى أصبح من المواد الثمينة.

فهل علينا إذن ان نتحول إلى الغرب، كنقطة إنطلاق للأصل المحتمل لهذه الثقافة التى لايبدو أنها قد نهلت من مصادر التقليد المتواتر المحلى، على عكس الأبكهى[٣٧] وما بعد الشرماكى؟ وكان «أركل» ينظر إلى منطقة تيبستى[٣٨] القصية على اعتبارها الجهة الأصلية التى جاءت منها الجماعات صاحبة الخزف فى الخرطوم، وكان وجود خرز من الفلسبار الأخضر قد شجعه على رأيه، وذلك قبل أن يلحظ «لوكاس» Luocas[٣٩] وجود هذا الحجر فى الوادى.

وجدير بالملاحظة، ان الإكتشافات الألمانيه الحديثة فى منطقة **واحة لقية عربين**، على مسافة حوالى ٥٠٠ كيلو متر إلى الغرب من وادى حلفا قد أخرجت إلى النور شقفاً من طراز الخرطوم فى بيئة بُحيرية من الألف الخامس قبل الميلاد (W. Schuck, 1989).

ان عمليات التأريخ التى تمت إلى يومنا هذا قد اعطت متوسطا زمنياً يعادل ٥٤١٠ ± ١٤٠ قبل الميلاد، عندما أجريت على بيض النعام و ٥٠٠٥ ± ٩٠ قبل الميلاد، عندما أجريت على فحم الخشب (Hassan 1886).

هذه الصناعة التى يمثلها، عند الجندل الثانى، موقعان على البر الغربى من النيل، فى دبيرة غرب ٥٠ – Dibeira west 50 و **دبيرة غرب ٤** Dibeira west 4، تبدو أنها تطور للشرماكى، كما يشهد على ذلك فى آن واحد التواصل الستراتيجرافى والتشابه الوثيق بين الأدوات.

إنها عبارة عن تمركزات شاسعة تبلغ حوالى ٢٥٠ متراً طولاً فى ٥٠ مترا عرضاً، ومحدودة العمق، وتوفر انتاجاً قائماً اساساً على الصوان والكوارتز، بالإضافة إلى مكونات بكميات ملحوظة من الظران المصرى (٨ ر٣٦٪ من ادوات دبيرة غرب ٥٠ – Dibeira west 50).

وتفرد الصناعة القائمة على الشظايا مكانة كبيرة للقُرض والأدوات المسننة والمخارز التى تضم الأسنة – المنحنية أحياناً – والمصنوعة من الشظايا والمناقير. وتتضاءل النصال ذات الوجه، وتهاوت معها نسبة الآلات الحجرية القزمية وان ظلت الآلات ذات الأشكال ثابتة من الناحية الكمية. واتخذت هيئة أسنة الرماح ذات الحد القاطع المستعرض أشكال شبه المنحرف، بينما عثر على سنين جميلين نوى وجهين بساقين فى كل من الموقعين. وبالإضافة إلى ما سبق، فقد عثر على بعض المساحج المصنوعة من حصى الصوان وبعض الفؤوس الصغيرة والمكاشط المستعرضة المصنوعة من شظايا على هيئة أجنحة الطيور (Side - blow fla kes) - وقد أسهم كل ذلك فى اضفاء ملامح العصر الحجرى الحديث، على هذه المجموعة وهو ما تؤكده بطبيعة الحال الشقف القليلة التى عثر عليها.

ورغم هذه الإختلافات، يبدو أن **موقعى دبيرة ٤ و ٥٠** Dibeira west 4, 50 قد انبثقا من الشرماكى الواقع أسفلهما، وعلى حد ملاحظة «شاينر»، يبدو كما لو أن الشرماكيين الذين ألقوا عصا الترحال هنا، منذ الألف السابع قبل الميلاد، كانوا قد بدلوا من أسلوب حياتهم تحت ضغط موثرات جديدة.

وكما هو الحال فيما سبق، فإن وجود ما يحتمل أن يكون خرزة من الفلسبار الأخضر قد حول الأنظار ناحية **تيبستى**. ولكن وكما كان الحال فيما سبق، فإن الموطن الأصلى لهذا الحجر يقدم الحجة على بطلان هذا الدليل.

ولا تساعدنا بقايا الفونة أيا كانت، بالإحاطة بشكل أفضل بهذه المنشآت الكبيرة نسبياً، التى تسحن فيها الحبوب، كما تشهد عليها كسف الأرحاء الخرز ويصنع فيها من أغلفه بيض النعام.

وكانت نتيجة عمليتى تاريخ ٥٦٠٠ ± ١٢٠ قبل الزمن الحاضر B.P (٤٤٧٥ ± ٢٧٠ قبل الميلاد) و ٥٢٢٠ ± ٥٠ قبل الزمن الحاضر B.P (Hassan, 1986).

الأبكهى

إن العديد من المواقع الأبكهية التى تتوزع على امتداد شاطئى نهر النيل فى منطقة وادى حلفا هى الحد الأقصى الذى آل إليه تطور الثقافة القادوية[٤٠].

ويرجع اسم هذه المجموعة إلى ما توصل إليه «ميرز» O. Myers، فى ١٩٤٧ / ٤٨، عندما كشف عن محطات ذات ملامح من العصر الحجرى الوسيط والعصر الحجرى الحديث فى مقاطعة أبكة. ومن بينها فإن المحطة الرئيسية التى تحمل رقم lx [٤١] توفر عددا من مستويات الإشغال ونجد عند قاعدتها إحدى تنويعات الخرطوم. لقد حدد تطور المستويات اللاحقة الثقافة التى أطلق عليها اسم **الأبكهى**.

وتم تحديد مكان سبعة مواقع. وقامت بالتنقيب فيها «البعثة المشتركة لعصور ما قبل التاريخ Combined Prehisroric Expedition، (Shiner, 1968, 611 - 629) ثم من بعدها «البعثة الاسكندناوية الموحدة Scandina vian Joint Expeolition (Nordström, 1972, 12 - 17).

وتظل الصناعة التى تهيمن عليها المثاقب المصنوعة من الشظايا التى تحمل لمسات صقل على سطحها العلوى (groover) هى صناعة الآلات الحجرية القزمية فى المقام الأول. فهى أساساً شظايا قطعت من حصى النيل والكوارتز والعقيق والظران المصرى (٧١٪).

وربما جرت محاولة لتوضيح تطور داخلى استناداً إلى الملامح المميزة **للقادوى**. ان وهكذا فإن **أبكهى** قديم، منبثق من خواتيم **القادوى** قد يجد نفسه ممثلاً بموقعين. الفخار غائب والتيبولوجيا تقترب إلى حد كبير من تيبولوجيا **القادوى**.

وربما ظهر فى أعقابه **أبكهى** متطور كما يقال، وإبانه أخذت القطع التى هيمنت عليها المثاقب تزداد أحجامها بالتدريج. فقد ازدادت أحجام الرُفض والمكاشط والادوات المسننه. فى حين اتجهت النصال إلى الزوال. وظهرت بعض فؤوس الحجارة الصلدة، إلى جانب الكثير من شقف الفخار. ان خمسه مواقع تمثل هذا التطور.

وأخيراً، فإن المرحلة الختامية من **الأبكهى** تشبه المرحلة السابقة من ناحية الأدوات الحجرية، إلا أنها تتميز بأن أوانيها الخزفية تميل إلى مزيد من التعقيد: ومن المحتمل ان عملية الصقل وآثار الخطوط المتموجة، قد أخذت عن مجموعة جديدة فى النوبة السفلى: هى المجموعة A، من جراء الإتصال بها، أو تكون على عكس ذلك، قد نقلت إليها.

ان الفخار الأبكهى، وقد أضيفت إليه مادة رملية مزيلة للزوجة، يوفر عجينة تتفاوت من الهشاشة إلى الصلابة. والسطح الذى تم جلاؤه باليد أو تم صقله صقلاً جيداً، يجمع بين عدة ألوان تبدأ بالأحمر لتنتهى بالأسمر. وهو مزخرف فى النادر القليل. والزخارف إن

وجدت، فهى عبارة عن صفوف متوازية من المثلثات أو المستطيلات المنقوشة المحفورة على هيئة خطوط منكسرة أو شوك السمك.. كما نجد أيضا بعض الخطوط الصغيرة المتوازية المحفورة على أعلى شفة الوعاء. وان كانت الأشكال أكثر بساطة إلا أنها أكثر تنوعاً مما هى عليه فى إحدى تنويعات الخرطوم: قصعات وكؤوس وأطباق ذات أشكال نصف كروية أو بيضاوية وحافتها مفلطحة أحياناً.

إن وجود أرحاء من الحجر الرملى ملطخة بالمغرة بالاضافة إلى الأحجار القرصية الشكل، من المحتمل انها كانت تستخدم كصلايات تشهد على عمليات سحن المواد الملونة. وتكشف بعض المثاقب عن استخدام ادوات من العظم المصقول.

وأخيرا فإن وجود خرز من أغلفة بيض النعام، إلى جانب تميمة صغيرة من الطلق[٤٢] talc، لم يتم التحقق من دلالتها، لتعبر عن اهتمامات من نوع آخر.

وإذا استثنينا بعض أحجار المواقد التى أصابتها أضرار بالغة، لم يتم الكشف إلى يومنا هذا عن أى أثر لبنية أرضية.

وفى هذا الصدد، تظل ثقوب الأوتاد المتعددة فى أبكه lx شيئا 1 X ستثنائياً.

إن المواقع الأبكهية الجاثمة بالأحرى، فى أماكن عالية إلى حد ما، على البر الشرقى، وهى تشغل قطاعات تكثر فيها الحصى، وتمزقها الوديان، على عكس «تنويعات الخرطوم» التى فضل ابناؤها الأماكن المفتوحة فى السهول الغرينية. ويبدو فى حقيقة الأمر أن أبناء أبكه كانوا فى المقام الأول يعيشون على استغلال النهر، كما تشهد على ذلك بقايا الرخويات والأسماك (Lates nilotica[٤٣] و Clarias[٤٤]) التى كان صيدها يتم عن طريق المصايد والشباك، بالنظر إلى غياب أدوات الصيد... أما الأنواع البرية فتمثلها الغزلان والنعام ونوع من الإوز (اسمه العلمى Alopochen aegyptiacus) وأخيراً، ربما كان نوع من الماعز المستأنس (واسمه العلمى Capra hircus) مرتبطاً على ما يتحمل بالمستوى الأبكهى للموقع As - 6 - G - 25 «للبعثة الإسكندناوية الموحدة» Scandinavian Joint Expedition.

وتتراوح عمليات التأريخ التى توصلت إليها هذه البعثة فيما بين ٦٠٠٠ و ٤٥٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P أو ما يعادل الألف الخامس بأكمله وبداية الألف الرابع قبل الميلاد (Nordström, 1972, 30).

العصر الحجري الحديث فى الصحراء

إلى الغرب من سلسلة الواحات القائمة على جانب الوادى، لم يكن أبداً «الشرق الأدنى» الصحراء الكبرى حتى عهد قريب، سوى موضوع لاستقصاءات مقتضبة وغير كاملة.

وفى الثمانينات بوشر برنامج واسع من الإبحاث المتعددة التخصصات فى هذه المنطقة التى تعتبر مكاناً لاحتكاكات محتملة بين إفريقيا الشمالية ووسط الصحراء الكبرى ووادى النيل.

وهذا المشروع الذى أطلق عليه Besiedlungsgeschichte der Ost - Sahara (B.O.S) واشرفت عليه جامعتا كولونيا وبرلين قد وضع نصب عينيه ان يتعقب تطور الجماعات البشرية على امتداد عشرة آلاف سنة، سعياً وراء التعرف على الردود الإقتصادية والثقافية التى واجهت بها التغييرات البيئية الشديدة القسوة أحياناً.

وفيما بين ١٩٨٠ و ١٩٨٤، قامت أربع بعثات، استمرت ما مجموعه خمسة عشر شهراً بأعمال سجلت خلالها أربعمائة موقع وأجرت أكثر من مائتى عملية تأريخ بواسطة الكربون المشع. وسارت الإبحاث فى خط محورى يمتد من الشمال إلى الجنوب على امتداد ١٢٠٠ كيلو متر، بدءا من منخفض القطارة – سيوه وحتى وادى هوار، فى شمال السودان.

وهكذا تم فحص خمسة قطاعات فحصاً مفصلاً، وكان كل قطاع منها يبعد عن الآخر مسافة تتراوح بين ٣٠٠ و ٥٠٠ كيلو متراً. وهذه القطاعات هى: منخفض قطارة – سيوه، ومنطقة الكثبان الكبرى فى العرق erg[٤٥] الليبى، وهضبة الجلف الكبير، ومنطقة لقية عربين، وأخيرا وادى هوار.

وإذا كانت النتائج المنشورة ما تزال جزئية، فإن كثافة الإشغال فيما بين ٧٠٠٠ و ٤٠٠٠ قبل الميلاد، قد كشفت عن غزارة منقطعة النظر بالمقارنة مع التصحر شبه الكامل القائم فى الوقت الراهن. ان الفجوة الممتدة من ٥٥٠٠ و ٥٠٠٠ قبل الميلاد تتفق والطور الجاف الذى نعرفه حق المعرفة فى غيره من الأماكن فى الصحراء الكبرى والشرق الأدنى.

ويتبين، على وجه خاص، أن «بحر الرمال العظيم» عند الحدود المصرية الليبية لم يقم بدور الحاجز المنيع الكؤود، كما قد يبدو الأمر لأول وهلة.

إن قطاع سترة (Czielsa, 1989) الواقع إلى الجنوب من منخفض القطارة، قد أماط اللثام عن محلات لافتة للنظر من حيث أدواتها ذات الوجهين المكونة من قطع مفلطحة مشذبة تشذيبا طولياً، إلى جانب النصال المشذبه والأزاميل . ونسبة الأزاميل فى الموقع

83/12 الى تصل ٤٥٪ – وهى مزدوجة فى الغالب وربما استخدمت كنواة لعملية تص
النصال الصغيرة – وتحمل العديد من الأطراف، مما يدل على انه قد جرى شحذها اكثر من مرة. وإلى جانب هذه الأداة الرئيسية نجد مثلثات ممتدة. ومن بين الاربعمائة موقع التى قامت الـ (B. O. S) بتسجيلها، فإن اثنين فقط، خلافاً لبقية المواقع، تضمان عدداً كبيراً من الأزاميل يقع الأول فى واحة الفرافرة (81/55) والآخر على مقربة من الحدود الليبية (83/61) وقد تم تحديد تاريخه بواسطة الكربون المشع بالفترة الزمنية الممتدة من ٦٦٠٠ إلى ٤١٠٠ قبل الميلاد.

وقد تم فحص ودراسة العديد من «الشتاين بلاتزه» "Stein Plätze"[٤٦]. إنها عبارة عن أكوام من الحجر كشف عنها «جابرييل» Gabriel (1976 - 1977). كانت معزولة أو متجمعة وترتبط بالأماكن التى توقف عندها الرعاة الرحل من العصر الحجرى الحديث حيث القوا عصا الترحال وهم يتنقلون عبر الوديان التى كان مناخها رطباً بصفة دورية، بعد أن هجروا السهول الشاسعه اثر انتشار الجفاف فيها. إن مواقد مرتبطة بهذه المحلات قد ساعدت على تحديد زمن اشغالها بازمنه قديمة تعود أحياناً إلى الألف التاسع قبل الميلاد.

وإلى الجنوب قليلاً، فإن موقع «لوبو» (Klees, 1989) على مقربة من أبى منقار – بو
واحة صغيرة تقع فى منتصف الطريق بين الداخلة والفرافرة – وفى أعقاب عمل مجسات والعثور فوق سطح الأرض على عينات كثيرة، جاد هذا الموقع بأشياء من صنع الإنسان بلغ مجموعها أكثر من مائة ألف، ومنها عدد ضخم من بيض النعام وعدة مئات من الأرحاء والمساحن، إلى جانب الكسف الخزفية.

وتكشف الأدوات الحجرية المشتركة عن ان إشغال المكان قد دام لفترة طويلة ولعدة وحدات ثقافية، إلى جانب طورين رئيسيين يقتربان من ٧٨٠٠ و ٦١٠٠ قبل الزمن الحاضر B. P، وفقاً لما تم التوصل إليه بواسطة التأريخ بالكربون المشع.

وتهيمن على الموقع 1- 81/55 قطع تكسّرت بصلتها Piéces esquillées والمخارز ذات الظهرين والحواف المائلة و الشظايا المشذبة المصنوعة من الصوان المحلى النووى الشكل وأسنة السهام ممثلة بأسنة ذات وجهين وساق.

ويختلف الموقع 2- 81/55 بصناعته المكونة أساساً من النصال المشذبة، حيث يتشكل المكون ذو الوجهين من أسنة ذات ساق أو على هيئة «أوراق» مستطيلة. ويضاف إلى ذلك كسر بيض نعام مزخرفة.

وهناك نقطة هامة: ان وجود الآبار الحفرية fossiles[٤٧] ليشهد على منابع دائمة للما
لفترات إشغال ممتدة، وقد بدأ بالكاد فى الوقت الراهن فك خيوط الغموض الذى يكتنفها

كما أن وجود مناجم الملح – بالإضافة إلى وجود الماء – ليشد انتباهنا إلى طريق للإنتشار على جانب كبير من الأهمية.

وبين إفريقيا الشمالية ووادى النيل، عن طريق الواحات الداخلة والخارجة والفرافرة والبحرية، تمثل مجموعة الأدوات هذه، توسعاً غربياً للعصر الحجرى الحديث فى الوادى، أو ينبغى، على عكس ذلك، النظر إلى ثقافات الواحات والفيوم باعتبارها الأطراف الشرقية لمجموعات العصر الحجرى الحديث فى الصحراء

يقع الجلف الكبير، فى الركن الجنوبى الغربى من مصر، على بعد ٦٠٠ كيلو متر من الوادى، ويكون هضبة ضخمة من الحجر الرملى النوبى ذات حواف[٤٨] escarpements رأسية وتطل على السهل عن إرتفاع ٢٠٠ أو ٣٠٠ متر.

ولم يُكتشف إلا فى عام ١٩٢٥ بمعرفة الأمير كمال الدين و«جون بال» John Ball، وقد تلقى بعد عشر سنوات زيارة بعثة «بانيولد – موند» Bagnold - Mond التى شارك فيها العالم الأثرى «مييرز» O.myers و «ونكلر» H.Winkler أشهر جامع للصور الصخرية.

وفى القطاع الجنوبى من الجلف الكبير، قام «مييرز» باستكشاف وادى بخت، حيث تعرف على أدوات «أشولية» ذات وجهين مختلطة بالعناصر الرسوبية فى الوادى وعلى موقع «لوفا لوازى» لا نعرف عنه سوى القليل. وفى المقابل، فقد تم تحديد مكان تجمعات من العصر الحجرى الحديث بشىء من الدقة وسط الغرين المتآخم لكثيب حفرى استقر إبان طور جاف فى مجرى الوادى الضيق، وهو ظاهرة شبيهة لوادى الكوبانية. ان المادة الأثريه التى تم جمعها، قد جرى تخزينها فى متحف الإنسان Musée de L'homme فى باريس واحتاجت أربعين سنة من الإنتظار حتى قام «ماك هيوج» Mc Hugh (1975) بدراستها.

إن نسبة كبيرة من الأدوات الحجرية المصنوعة عن الحجر الرملى المُسلّكت[٤٩] هى من الأدوات القائمة على النصال مع القليل من الأدوات القزمية. وتتصدر القائمة الرفض والأدوات المسننة (٣ر١٧٪ و ٤ر١٣٪) فى مقابل المكاشط (٧ر٨٪) و المثاقب (٧ر٧٪) والأزاميل (٩ر٢٪). كما عثر على إحدى وعشرين رحاة، دون حجر سحن. ان العثور على سبعمائة شقفة، متاكلة إلى حد كبير، لم تتح لنا إعادة تكوين أشكالها، وان كشفت عن عجينة رملية، مع إضافات نباتية، زخرفت سطوحها بخطوط منقطة.

وفى عام ١٩٧٥، انضم فريق «وندورف» F. Wendorf (Wendorf, 1980, 206 et sq.) إلى هذا «الغرب الأقصى» Far - West وقام من جديد بزيارة وادى بخت. ومن المواقع الكائنة على السطح وصلتنا مجموعات من الأدوات الحجرية شبيهة بالأدوات السابقة و ١١٧ شقفة

عجينتها ناعمة، ورملية، محروقة حرقاً جيداً، سمراء تميل إلى اللون الأحمر، وسطحها الخارجى مجلوّ، ويصور زخارف من الخطوط المحفورة، وزخارف مبرومة أو على هيئة خطوط منكسرة.

إن عملية التأريخ التى تمت على بيض نعام قد أعطت عام ٦٩٨٠ ± قبل الزمن الحاضر B.P.

وفى الثمانينات قامت ثلاث بعثات بإشراف الـ B.O.S باستقصاء منطقتى وادى بخت والوادى الأخضر اللتين توضحان نفس الظاهرة الجيولوجية المماثلة لسابقتها: كثبان حفرية تنتشر خلفها سبخات شاسعة (W. Schön, 1989).

وفى الوادى الأخضر، برهن تحليل هذه الرواسب، التى يصل سمكها على ما يظن إلى خمسة عشر متراً، على وجود مرحلة طويلة من الترسيب، امتدت لحوالى أربعة آلاف سنة، من ٨٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B. p.

ومن بين ما يقل عن مائة موقع تم تحديد أماكنها، جرت أعمال التنقيب فى ثلاثة وعشرين موقعا، وبفضل حزمة من عمليات التأريخ، أمكن تحديد زمنها فيما بين ٥٥٠٠ و ٥٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B . P.

انها عبارة عن تمركزات يبلغ قطرها حوالى خمسة أمتار، وتقدم أدوات حجرية من الكوارتزيت، على رأسها أدوات مسننة عريضة وشقف مزخرفة بخطوط متموجة. ومن أبرز المواضيع التى تم التعرف عليها، زخرف على هيئة شوك السمك الملتف حول الجزء العلوى من الوعاء الذى يبدو أن قعره كان مدبباً. وإذا لاحظنا أحياناً - وجود تموجات على السطح، فإنه لمن الصعوبة بمكان أن نجزم بأنها كانت تغطى مجمل الأوانى الخزفية بالنظر إلى صغر حجم الشقف المتناهى.

ان فحص ٤٦ عينة من فحم الخشب، التى جاد بها هذان الواديان قد أتاح لـ «نومان» K. Neuman (1989) ان يرسم صورة إجمالية للمشهد النباتى فيما بين ٧٧٠٠ و ٤٣٠٠ قبل الزمن الحاضر B . P . إن أكثر الأنواع شيوعاً هى شجرة الأثل[٥٠]، وتكشف عن بيئة جافة إلى حد ما، تشبه الأوديه الحالية فى جبال وسط الصحراء الكبرى. والنوع الثانى الشائع هو شجرة النبق[٥١] Jujubier، وربما كانت من النوع الذى ينمو فى الجبال الساحلية بشمال إفريقيا واسمه العلمى ziziphus mauritiana أو ziziphus spinachristi أما شجرة السنط aca-cias فيندر وجودها، ربما بسبب طبيعة السبخات ذات الحبيبات الدقيقة، ولكن نعثر عليها حول ٦٦٠٠ و ٥٧٠٠ و ٥٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P جنبا إلى جنب مع شجر الهجليج

balanites والشجرة المعروفة علميا باسم Maerua crassifolia وهى من الأنواع المدارية وتكشف عن فترات كان فيها الإمداد بالماء كافياً لتنمو مثل هذه النباتات.

إن الفونة الغزيرة التى تم التحقق منها فى الثلاثينات وتضم الأفيال والبقريات والمها والغزلان والنعام وبنات آوى والحمير الوحشية والماعز قد أمكن التحقق من وجودها بفضل الأبحاث والاستقصاءات اللاحقة (Wendorf, 1980) التى ابرزت مع ذلك الأنواع المستأنسة من خراف وماعز وابقار وكلاب أليفة.

ولا يسعنا سوى أن نأخذ بعين الاعتبار الصور والرسومات الصخرية فى الجلف الكبير التى درست فى الغالب مع شبيهتها فى جبل العوينات القريب وان كان تحديد تاريخها غير مؤكد.

إن صور الفونة البرية (التى تمثل الزرافه والنعامة وأبى حراب) أو الفونة التى تم استئناسها كما هو واضح) البقرة ذات القرون العريضة المصورة فى رفقة بعض الأشخاص، والإهتمام بتصوير حلب الأبقار تصويرا دقيقا، الأمر الذى يقول الكثير عن أهمية اللبن فى النظام الغذائى السائد)، إن صور هذه الفونة التى حفرت على الجدران الصخرية للوديان أو لونت فى الملاجىء لتبدو للعيان وكانها الكلمات الأولى التى همهم بها عالم ظل حتى الآن قليل الكلام، لا يعرف الثرثرة، ليشارك فى الإنفجار الأعظم للفنون الصخرية التى ظهرت إلى الوجود قرب نهاية الألف الخامس.

وإذا ولجنا سائرين ١٨٠ كيلومترا ناحية الجنوب، فيما وراء الحدود المصرية الجنوبية، نجد ان الـ (B.O.S) قد وصلت إلى وادى شاو فى واحة لقية عربين، وهى منطقة الأتصال بين مصر الجنوبية وشمال دارفور (Schuck, 1989) .

وفى عام ١٩٨٢ تم مباشرة حملات استكشافية قصيرة وحملة حفائر محدودة، انتهت إلى التحقق من مكان تسعين موقعاً مرتبطة ببحيرات الألفين السادس والخامس.

وقد عثر على شقفة بخطوط متموجة على مقربة من ضرس فيل فى طبقة رملية تفصل بين تراكمين من الأصداف يوفران لنا terminus ante quem[٥٢] على أساس ٤٦٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P.

وجاءت شقف أخرى من أطر أقل تحديداً أحياناً، وجادت بزخرف مظلل بالخطوط – نموذجى – (نموذج لقية) الذى يبدو انه كان موزعاً على قرابة ٣٠٠ كيلو متر، حتى وادى هوار. ان عملية التأريخ التى تمت على عظم قد حددت ٤٢٥٠ ± ٣٥٠ قبل الميلاد،

لهذا النموذج من الزخارف.

وأخيراً فإن وادى هوار، تحديداً، وهو النقطة الأكثر تطرفاً بالنسبة لأعمال الـ B.O.S، قد شكل، على امتداد العصور المناخية المناسبة، صلة طبيعية تربط النجاد شرقى تشاد والهضاب الممتدة على طول نهر النيل. (Richter, 1989).

وحتى اليوم لم يتم تحديد مكان اى موقع يعود إلى العصر الحجرى القديم أو إلى خواتيمه. وكان سكان وادى هوار الأوائل يمتلكون الفخار، بالفعل. وقد حطوا الرحال حول عام ٦٠٠٠ قبل الميلاد عند شاطىء الوادى وفوق الكثبان الراسخة، واستغلوا الموارد المائية الدائمة إبان الموسم الجاف والكلأ الموسمى فى الشهور الرطبة.

وتضم أقدم التجمعات أدوات حجرية قزمية، وأقراصاً مثقوبة من الحجر الصلد، وكميات وفيرة من حجر السحن وشقفاً من نموذج «**العصر الحجرى الوسيط فى الخرطوم**».

ويضم الطور اللاحق وثائق من الفخار من نموذج «لقية، و الشهيناب».

وترسم لنا عمليات التاريخ بالكربون ١٤ صورة لإشغال طويل الامد لهذه المرحلة التى تغطى الألفين الثالث والثانى قبل الميلاد، قد «تملأ» إلى حد ما الفراغ الذى يحدد نهاية العصر الحجرى الحديث فى السودان.

وإذا ابتعدنا هنا عن الـ B.O.S، صاعدين ناحية الشمال، لسوف نلاحظ، عند مرورنا بالواحات الداخلة، مجموعة ثقافية، كشف عنها «ماك دونالد» Mac Donald (1985)، وهى مكونة من حوالى ثلاثين تجمعاً على السطح، أطلق عليها «وحدة بشندى».

إنها صناعة قائمة على الشظايا المستخرجة من نويات من الصوان أو الكوارتزيت. إن أسنة الرماح هى ذات وجهين فى جزء منها أو بأكملها، وتبلغ نسبتها ٢٧٪ من مجمل الأدوات، تليها القطع المشذبة والرُقَض والأدوات المسننة والمثاقب والمكاشط. ويضاف إلى ما سبق عدد كبير من الأرحاء وأحجار السحن وخرز مصنوع من أغلفة بيض النعام، وأسنة من العظم وصلايات صغيرة من الحجر المصقول. وليس من المستغرب إذن أن تنضم الشقف الفخارية إلى هذه التشكيلة التى تعود إلى العصر الحجرى الحديث. إنها قليلة جداً وشديدة التآكل، وتشير إلى أوان فخارية قليلة السمك، وتستخدم مزيلا رملياً للزوجة، ويتراوح لونها من الأحمر إلى الأسمر وسطحها مجلّو. إن الشكل الوحيد الذى يمكن التعرف عليه له قاع مدبب.

ومن الصعب تحديد تاريخ وحدة بشندى، وإن كانت لها نقط مشتركة مع العصر

الحجرى الحديث الأوسط (٧٧٠٠ - ٦٠٢٠ قبل الزمن الحاضر B.P) والأعلى (٦٠٠٠ - ٤٦٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P) كما حددها «ونتورف» فى الصحراء الغربية، وأيضاً مع البدو من أصحاب الأدوات القزمية كما حددتها «كيتون تومبسون» فى الواحات الخارجة الغربية. ان عمليات التأريخ بواسطة الكربون المشع التى تمت على كسر بيض النعام فى خمسة أماكن مختلفة فى «بشندى»قد قدمت لنا، إلى يومنا هذا، تقديرات تتراوح بين ٦٢٠٠ ± ١٣٠ و ٥١٧٠ ± ٩ قبل الزمن الحاضر B.P.

إن العصر الحجرى الحديث الرطب، الذى بدأ فى النصف الأول من الألف الخامس قد شهد ازدهار ثقافات رعوية على امتداد الصحراء الكبرى بكاملها، من النيل وحتى المحيط الأطلنطى، وقد خلفت هذه الثقافات وراءها، أولى النقوش والرسومات التى انجزها الإنسان على صخور هذه المنطقة.

وامتلأت الصحراء الكبرى بكاملها بمواقع رعوية.

ولا يقتصر الأمر فقط على الأنجاد، كنقاط امداد بالمياه أو مراكز للحياة (أكاكوس، وتبستى، وتاسيلى، وعنيدى، والعوينات) ولكن أيضا، على السهول الشاسعة، فى بعض الأماكن وهى مناطق السرير[٥٣] Serir، الصحراوية، فى الوقت الراهن أو التجمعات الحجرية Steinplätze والتى تشهد على أسلوب الاشغال التقليدى، الوحيد الفعال فى هذه المناطق بظروفها الصعبة القاسية: وهى حياة البدو الرعاة. وكانت نسبة التساقط المحلى، إبان العصر الحجرى الحديث الرطب تساعد على قيام هذا الأسلوب فى الحياة المتكيفة مع ظروف بيئية خاصة.

وقد سبق ان نوهنا بمثل هذه الاستراتيجية فى الشرق الأدنى حوالى ٦٠٠٠ قبل الميلاد.

ويحتدم الجدال حول مشكلة تحديد تاريخ الصور الصخرية. ولا شك أنها سوف نجد حلاً لها عندما تصبح تقنيات التأريخ المطلق فاعلة . وينسب «موزولينى» A. Muzzolin (1986 a) مجمل هذه الصور إلى رعاة العصر الحجرى الحديث. ويلفت النظر إلى حقيقة أنها تمثل العديد من الأبقار المستأنسة ومشاهد المراعى إلى جانب الفونة المتوحشة. إنه عصر الكباش المزدانة الذائعة الصيت فى سلسلة جبال الأطلس فى الصحراء الكبرى التى ساد الإعتقاد فى وقت ما، أنها من تجليات كبش آمون، دون الأخذ بعين الاعتبار، أن عدة آلاف من السنين تفصل تصاوير الصحراء الكبرى عن الحيوان المصرى المقدس الذى لم

يظهر إلا فى مطلع الأسرة الثامنة عشرة، حول عام ١٥٨٠ قبل الميلاد.

وهكذا نرى أن آلاف الصور تغطى أيضا صخور مصر العليا والنوبة(٥٤). إن أقدمها، ويغلب عليها أسلوب تخطيطى مبسط، للفونة المتوحشة الضخمة من زراف ممسوكة بحبل وأفراس النهر والغزلان والنعام والأسود والأفيال على نحو خاص. وفى مؤلف هام عن صيادى النيل والصحراء الكبرى، أظهر «هوار» P. Huard و«ليكلان» J.Leclant (1980) جماعة من الصيادين التى تُظهر على حد قول «موزولينى» Muzzolimi (1999, 167) «كياناً تصورياً يتعارض مع الخصوصيات المحلية للملامح الثقافية الأخرى».

البـدارى > ٣٨٠٠

ان الحضارة البدارية التى قام «برونتون» G. Brunton و«كيتون - تومبسون» C. Caton - Thompson بالكشف عنها فيما بين ١٩٢٢ و ١٩٢٩، تكون العنصر الأول لعصر «ما قبل الاسرات» Prédynastique، بمعنى أنها كانت تختلف إختلافا جذريا مقارنة مع كل ما سبق أن تعرفنا عليه، إذ تصطف دفناتها «الموسرة» على امتداد أكثر من ثلاثين كيلومتراً عند سفح أنجاد الحجر الجيرى على البر الشرقى من مصر الوسطى.

وهكذا، ندخل معها مباشرة وبقدم ثابتة، إلى عالم رمزى لا مثيل له من حيث الثراء، ودون أن يظهر ما يعلن عن قدومه، وهو يعكس بزوغ هياكل بنيائية وتعقيدات وتشابكات إجتماعية سوف تتسارع وتيرتها تسارعا هائلا، على امتداد الألف الرابع، لتساهم الى حد كبير وعلى نطاق واسع، فى ولادة «الحضارة المصرية».

إن عبارة «ماقبل الأسرات» المبهمة، تبدو كما لو أنها تستبعد جملة وتفصيلا، كل ما وقع من أحداث قبل الأسرات الأولى، لتطرحه بعيدا فى غياهب عصور ما قبل التاريخ، إلا أنها توضح فى حقيقية الأمر هذه اللحظة التى استيقظ فيها البشر القاطنون فى وادى النيل، فيما بين الجندل الأول والبحر المتوسط، استيقظوا لينهضوا حاملين كثافة ثقافية تركت بعيدا وراءها الجماعات البشرية التى كانت قد انتقلت فى قديم الزمان إلى العصر الحجرى الحديث فى الصحراء الكبرى وفى السودان، لتتحاور على قدم المساواة مع الحضارات المرموقة فى الشرقين الأدنى والأوسط.

بعد أن انصبت أبحاث علماء الآثار البريطانيين، فى بادىء الأمر على منطقة البدارى (Brunton et Caton - Thompson, 1928)، والبدارى هو أيضا الاسم الذى تعرف به هذه الثقافة، امتدت ابحاثهم إلى الشمال قليلا، عند المستجدة (Brunton, 1937) ومطمر

(Brunton, 1948)، وأخرجوا إلى النور حوالى ستمائة دفنة وأربعين قطاعاً من الموائل على امتداد حوالى ٣٥ كيلو متراً.

ففى هذه المنطقة، فى الهمامية، قامت «كيتون - تومبسون» بمباشرة التنقيب عن أول موقع بلستراتيجرافيا رأسية، لتكشف بوضوح عن تتابع مختلف ثقافات عصر ما قبل الأسرات.

وإن كان يبدو أن البدارى محصور فى هذا الجزء من الوادى، إلا أنه قد لوحظ وجود أشياء من صنع الإنسان فى أرمنت و«هيراكنبوليس»(٥٦) (Hoffman, 1984). وإلى الجنوب، كشف «ديبونو» Debono (1951) فى وادى الحمامات عن مقابر تنتسب إلى هذه الثقافة.

وإلى عهد قريب، وإذا استثنينا ما قام به جبرة(٥٧) (1930) إلى الجنوب من دير تاسا، فإن عمليات الإستكشاف التى واصلت ما بدأه الرواد الإنجليز، كانت محدودة للغاية.

وبالفعل، ففى عام ١٩٨٩، قام فريق يقوده باحثون بريطانيون وأمريكيون (Holmes, 1989) بعمليات استقصاء فى المنطقة بهدف تقييم أوضاع النشاط الحديث وتحديد مناطق جديدة محتملة لأعمال التنقيب.

وجاءت النتائج الأولى لاستقصاءاتهم على قدر كبير من الأهمية. وسنعود إليها فى نهايه هذا الفصل.

ومن المقابر جاءنا افضل ما نعرفه عن الثقافة البدارية. أو يمكننا بالأحرى أن نقول أنها «تعبر عن نفسها» بمزيد من الوضوح، من خلال المقابر التى تقدم لنا مادة قيمة ستساعد على التعريف بها. ومن هنا إذن سنستهل عرضنا.

لقد تجمعت الدفنات فى قطاعات على امتداد الشريط الصحراوى الذى يعزل الأراضى المنزرعة عن انجاد من الحجر الجيرى، وتبدو على هيئة حفر بيضاوية وقد دفن فيها فرد واحد، فى وضع مثنى، على جانبه الايسر، والرأس جهة الجنوب، والوجه متجه ناحية الغرب. وشأن كل قاعدة عامة، تنطوى هذه الحقيقة الأولى على بعض الإستثناءات: مقابر مستطيلة البنيان، وأغلبها متاخمة للجبانة رقم 1200، والأوضاع والاتجاهات مختلفة أحياناً، والدفنات متعددة تضم فردين أو ثلاثة، وقد يوجد وسطها أحياناً رضيع (مع أمه؟).

كان المكان قد جهز بعناية فائقة: إن حصيرة موضوعة على الأرض، يسجى عليها الجسد المثنى (يفترض انه كان قد أوثق قبل تصلب الجسد، بعد الوفاة) وكان الرأس يوضع أحياناً فوق وسادة من القش أو الجلد الملفوف. وكانت حصيرة أخرى أو جلد ماعز أو غزال يغطى المتوفى أو يدثره مع وضع جانب الوبر إلى الداخل، إلا إذا كان الجلد

مدبوغاً. وفى معظم الأحوال، كان الجلد يغطى آنية أو اوانى التقدمات، وإن وجدت أحياناً بعض المقابر سالمة على حالها وبها أوعية موضوعة فى المستوى الأعلى من المقبرة، وكأنها قد وضعت بعد أن يكون قد أهيل على الجثة التراب جزئياً. وفى بعض الأحوال، كانت قطعة من القماش قد وضعت بين الجسد والجلد. وتوحى بقايا الثياب بأنها كانت عبارة عن نقبة قصيرة من القماش أو من الجلد المزخرف بالقماش.

وإذا كان لم يعثر على أى تابوت خشبى، إلا أن أعواد مثبته فى الأرض تشير إلى وجود درع من المفترض أنه كان يحيط بالجثمان ويحمل ما يشبه السقف. وفى حالة واحدة، يبدو أن صندوقا صغيراً من البوص كان يحمى رفات طفل، وكانت الأوعية المصاحبة له فى الخارج. ولم يلاحظ وجود جزء مستقل خصص لوضع التقدمات، إلا فى حالة واحدة.

وتشكل الأوانى الفخارية الموضوعة بجوار الموتى السمة المميزة لهذه الثقافة.

انها مصنوعة باليد، من صلصال حباته ناعمة إلى حد ما، ومادة نباتية مزيلة للزوجة، ومع ذلك فإنها تشهد بدقة الصنعة، وأن صناع الفخار من أبناء البدارى قد امتلكوا ناصية فنون النار[٥٨].

ويعتمد التصنيف الذى اقترحه «برونتون» G. Brunton على نوعية السطح واتقان الصنعة، نظراً إلى أن الأشكال كانت بسيطة فى المعتاد وتقتصر على القصعات ذات الحافة المستقيمة، أو إنسيابية الشكل أحياناً، وقاعها مستدير.

ومن ثم يمكن التمييز بين فئة مصقولة صقلاً دقيقاً وأخرى سطحها مجلو أو خشن فحسب. ولكن السطح فى جميع الأحوال قد زخرف «بالمشط» قبل الحرق، ثم صقل، بحيث يحتفظ بتموجات رقيقة هى آية فى الجمال، وتترك ذلك الإنطباع الذى أطلق عليه الإنجليز «ريبلينج» Rippling، فى لغتهم.

تضم الفئة الأولى الفخار المصقول الأحمر بحافة سوداء، وقد سبق ان لاحظنا وجوده فى العصر الحجرى الحديث فى الخرطوم . انه يمثل هنا، سواء من حيث الجودة أو من حيث الكمية، الجانب القوى فى تقليد سيستمر فى الثقافات التالية، ماعدا زخرف التموجات rippling الذى يعتبر العنصر المميز للبدارى، إذ سيختفى فيما بعد. ويحتفظ هذا الفخار أحياناً بزخرف نباتى بسيط مرسوم على خلفية باللون الأسمر، بحيث يبرز من الخلفية المستديرة التى بقيت باهتة.

إن الأوانى الفخارية المصقولة السمراء بحافتها السوداء هى المقابل الغامق للأوانى السابقة. وهى تشكل مع ذلك مجموعة أصيلة لن نلتقى بها فيما بعد.

ان الأوانى الفخارية المصقولة بأكملها وذات اللون الأحمر ممثلة تمثيلاً محدوداً، بما فى ذلك أيضا النماذج المصقولة السوداء إلى جانب القصعات المعتادة بأشكالها المضمومة وذات الرقبة السميكة فى المعتاد.

أما الفئة الثانية، فإنها تضم اوانى فخارية مجلوة وأوعية خشنة، وخطوطا متموجة غير واضحة أجريت على ما يبدو بمجرد تمرير الأصابع على سطح الوعاء. ومن بين هذه الأخيرة، نجد أوعية ضخمة للطهى، كما تدل على ذلك أثار الدخان السوداء التى تلوث قاع الوعاء، فى معظم الأحوال. ويندر وجودها فى المقابر، بل توجد فى الغالب فى الموائل. كما انها تكون بعد تجفيفها فى الشمس فقط، المطامير التى جادت بكميات من الحبوب.

وتضم فئة أخيرة كل مالم يندرج ضمن المجموعتين السابقتين. فنلتقى بأوعية وشقف حفرت على سطوحها زخارف على هيئة صلبان أو مثلثات أو اشكال حلزونية تحاكى على ما يعتقد السلال وبعض الزخارف الهندسية القليلة الملونة وبراعم بارزة، كما فى مرمدة بنى سلامة. وأخيراً، نموذج فريد فى بابه، إنه إناء كروى على هيئة قارورة وله أربعة مقابض على هيئة حلقة عند الجزء الأكثر انتفاخا من بطن الإناء. وقد ناقش «ألبرايت» W.Albright (1935) و «رايت» G. E. wright (1937) علاقاته مع الفاسولى فى فلسطين.

ولا ريب أنه من الضرورى ان نضيف إلى المشغولات الجلدية والمنسوجات، الكمية الضخمة من الأدوات العظمية المنتشرة فى الموئل والموضوعة فى المقابر: الإبر بثقوبها، وهى مستقيمة أو مقوسة، والدبابيس والمخارز المصنوعة من عظام أفخاذ الطيور والمثاقب... وكان العاج محل اهتمام الصناعات الحرفية: أساور وخرز وخواتم وعُصيّات منقوشة بزخارف حلزونية لا نعرف على وجه التحديد فيما كانت تستخدم، ولكن أيضا أوانى صغيرة تميل إلى الشكل الأسطوانى، وربما كانت أوعية لمساحيق التجميل، كما تشهد على ذلك مادة الدهنج[٥٩] (الملاخيت malachite) التى عثر عليها فى أحد هذه الأوعية، ومعالق صغيرة هى اية فى الجمال وقد زخرفت مقابضها بأشكال حيوانية يصعب أحياناً التعرف عليها. وندين لأبناء البدارى بأدوات أخرى جميلة: إنها الأمشاط المصنوعة من العاج أو العظم ولها أسنان طويلة متباعدة إلى حد ما، يعلوها زخرف يصور حيواناً شبه منمط. ووصلتنا حالة واحدة مقوسة الشكل بكل بساطة، ولها مجموعة من الأسنان الدقيقة والصغيرة. ومازال حديثنا مرتبطا بزينة الجسد، ونقصد بذلك صلايات الشست لمساحيق الزينة، وهى على هيئة مستطيلات طويلة، وتحمل احيانا نقرات على الجانبين الصغيرين أو تتخذ فى النادر القليل شكلا بيضاوياً مستطيلاً، ومازالت تحمل آثار المغرة أو بقع الدهنج، الأمر الذى لا يترك مجالا للشك فيما كانت تستخدم. وفى الغالب، كانت مساحق من الحجر

مرتبطة بها. كما عثر على عدد من أنياب بعض الثدييات فى ثلاث مقابر. وكانت إحداها تستخدم كوعاء للدهنج.

وتضم التجهيزات الخشبية عصيات صغيرة مدببة وعصيين مقوسين، وكانت أطوالها محدودة، وعلى امتدادها ثلاثة خطوط من النقط «كما لو أن الخرز قد أنغرز فيها بواسطة مطرقة»، وحفرت خطوط منكسرة عند قاعدتها. وحيث أن «برونتون» (Brunton (1937, 32 قد شبهها بزخرف يحتفظ به إناء من عصر لاحق فى العمرة حيث يمسك رجلان أشياء مماثلة أمام امرأة ترفع يديها (رقصة؟)، فإنه يقترح إمكانية النظر إليها على اعتبارها زوج من الصنوج.

ويشهد بيض النعام، الذى استخدم كأوانى على وجود وأهمية هذا الطائر الضخم الذى عثر على ريشه فى المقبرة 5754 من مقابر البدارى.

وكان القوم مولعين بالطبع كل الولع بالعقود: وهى من أصداف البحر الاحمر المثقوبة (Natica. Olira. Ancilla. Nerita Conus) أو من حلقات صغيرة من الحجر (العقيق الأحمر، اليشب . الألبستر. البرشيا. الكلسيت. الحجر الجيرى...) ولكن أيضا من النحاس والستياتيت[٦٠].

وظهر النحاس على استحياء، فى شكل مطروق، إذ استخدم فى اعداد الدبابيس والخرز الذى يظهر فى شكل أسطوانى، ويتكون من ورقة مطوية بكل بساطة أو حلقى الشكل، أو من قضيب رفيع حلزونى. ولكن يفترض ان اللوازم المعدنية كانت أصلاً بكمية أكبر: إن اثار أكسدة خضراء قد بقيت فى كثير من الأحوال ملتصقة ببقايا أكياس صغيرة من الجلد أو سلال، الأمر الذى يقف شاهدا على أعمال السلب والنهب منذ أقدم العصور.

ان خرزات من الستياتيت الأخضر والأزرق، تحل عند تزيين الحلى، محل الفيروز الشديد الندرة. ونجدها بكثرة فى المقابر، حيث تزين بالآلاف أحزمة «الأثرياء» فى جبانات **مستجدة**.

وأخيرا، وعلى غرار مرمدة بنى سلامة، تنبثق الأشكال الأدمية من الصلصال والعاج، وهى أشكال نسائية هنا أيضاً. إنها ثلاثة. وقد جادت بها المقابر رقم 5107 .5227 .5769، وهى من الطين المحروق، تغطيها مادة لامعة حمراء. وأحد التماثيل (شكل ٤ – ب) هو بدون رأس (مكسور؟) والجذع مثلث الشكل، والثديان صغيران، مرفوعان واليدان مضمومان – والكوعان بزاوية قائمة – والخصر النحيف يقابله الردفان الممتلئان. ومثلث العانة مرسوم، بعناية فائقة . والساقان مكسوران عند مستوى الفخذين. ان صورته الجانبية تظهر الألية[٦١] بشكل ملحوظ. والثانى (شكل ٤ – أ –)، هو من العاج، ويتميز بنه كامل. ويبلغ طول الرأس نسبة ٢ إلى ٩ من طول الجسد والعينان كبيرتان ومحفورتان ولوزيتا الشكل، والأنف مقوس والفم صغير رقيق. والجذع مستقيم، والثديان متدليان، والساعدان غير مضمومين، وفى منتهى البساطة، وكأنهما «أذنا وعاء»، ولا تظهر اليدان. والمنظر الجانبى للتمثال يعطينا انطباعاً كما لو أن صاحبة التمثال قد وضعت يديها فى جيبيها! والساقان متثاقلتان، وقد تشكلت تشكيلاً مبسطا، والقدمان لا وجود لهما تقريباً، ولا أثر للألية. ومع ذلك فأنوثة التمثال يوضحها كل الوضوح مثلث العانة، بتعدد خطوطه المتوازية المحفورة. والتمثال الثالث هو من الطين النيء وشديد البساطة (شكل ٤ – حـ)، إن الرأس صغير، ويبرز بالكاد من بين الكتفين، ويعلو جذعاً مثلث الشكل، والساعدان أشبه بطرفين مبتورين. ولكن ثلاثة أرباع التمثال مكونة من ألية شديدة الضخامة بلا ساقين، وكأن التمثال مدثر فى رداء ضيق عند القدمين. ان مثلث العانة الكبير هو النقطة الوحيدة المشتركة مع نظيريه. وأخيراً، وإبرازاً لضخامة الأليتين، اتخذ التمثال وضعاً مثنياً بحيث يبدو أنه يميل إلى الامام، إذا نظر إليه نظرة جانبية، فيرسم مثلثاً متساوى الأضلاع، قمته هى الأليتان وقاعدته وهى خط وهمى يربط الرأس بالقدمين...

ومن المناسب أن نضيف تمثالاً نسائيا صغيراً على قدر كبير من البساطة، وقد جادت به المقبرة رقم 494 فى **المستجدة** وهو من الفخار الملون بالأحمر ومكسور إلى أربعة أجزاء.

وإلى جانب هؤلاء النساء الجميلات، فإن عالم النحت هو عالم حيوانى: تميمتان من العاج، تمثل الأولى فرس النهر والثانية ما يعتقد أنه رأس غزال.

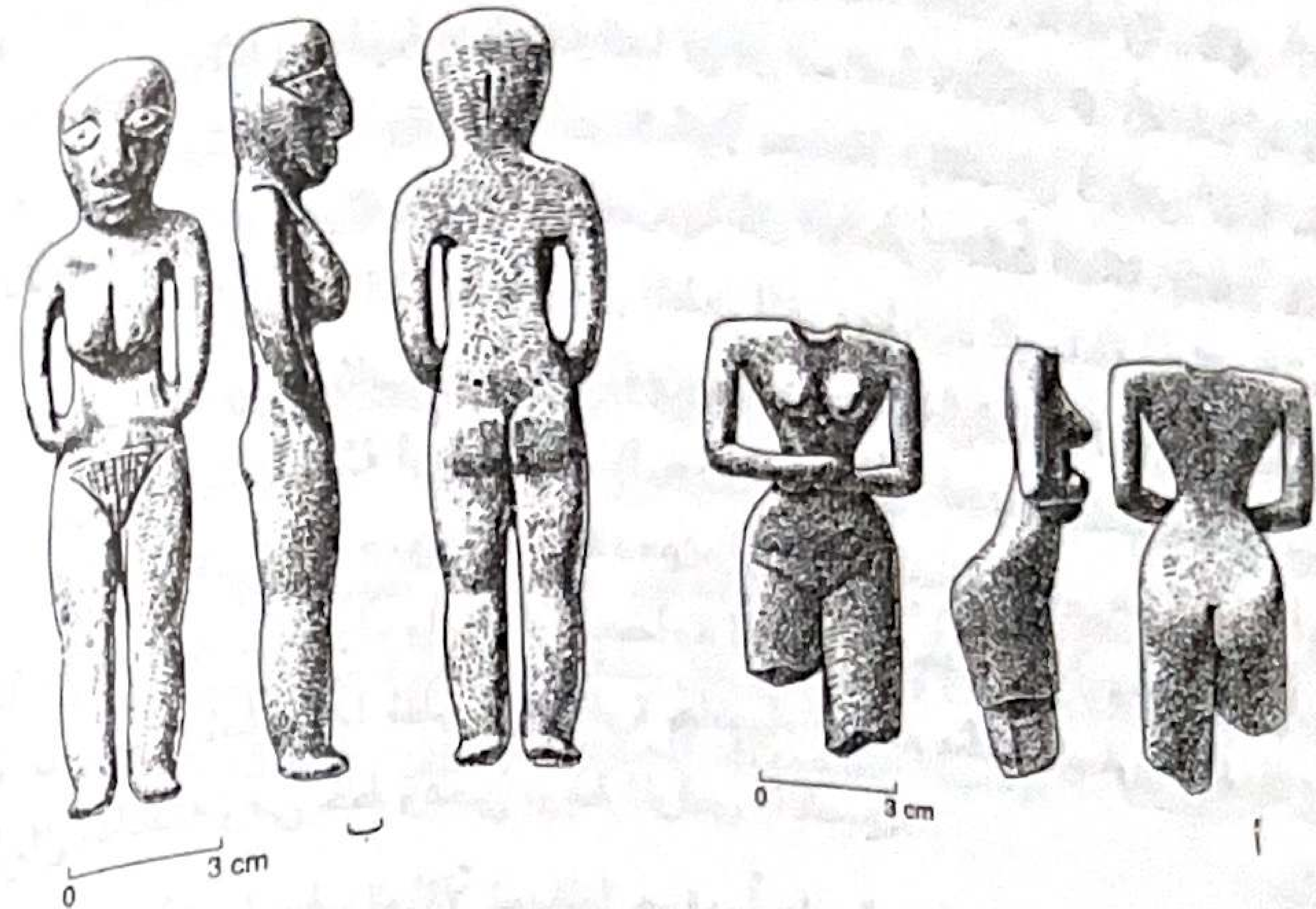
وأخيرا، فقد تشكل فرس نهر، من عاج أحد أسنانه، ونحت ثم حفر على هيئة وعاء تبرز شفته من وسط ظهر الحيوان، وتتسع فوهتـه أفقياً (المتحف البريطانى .EQ 63057. Spencer, 1993, Fig: 8).

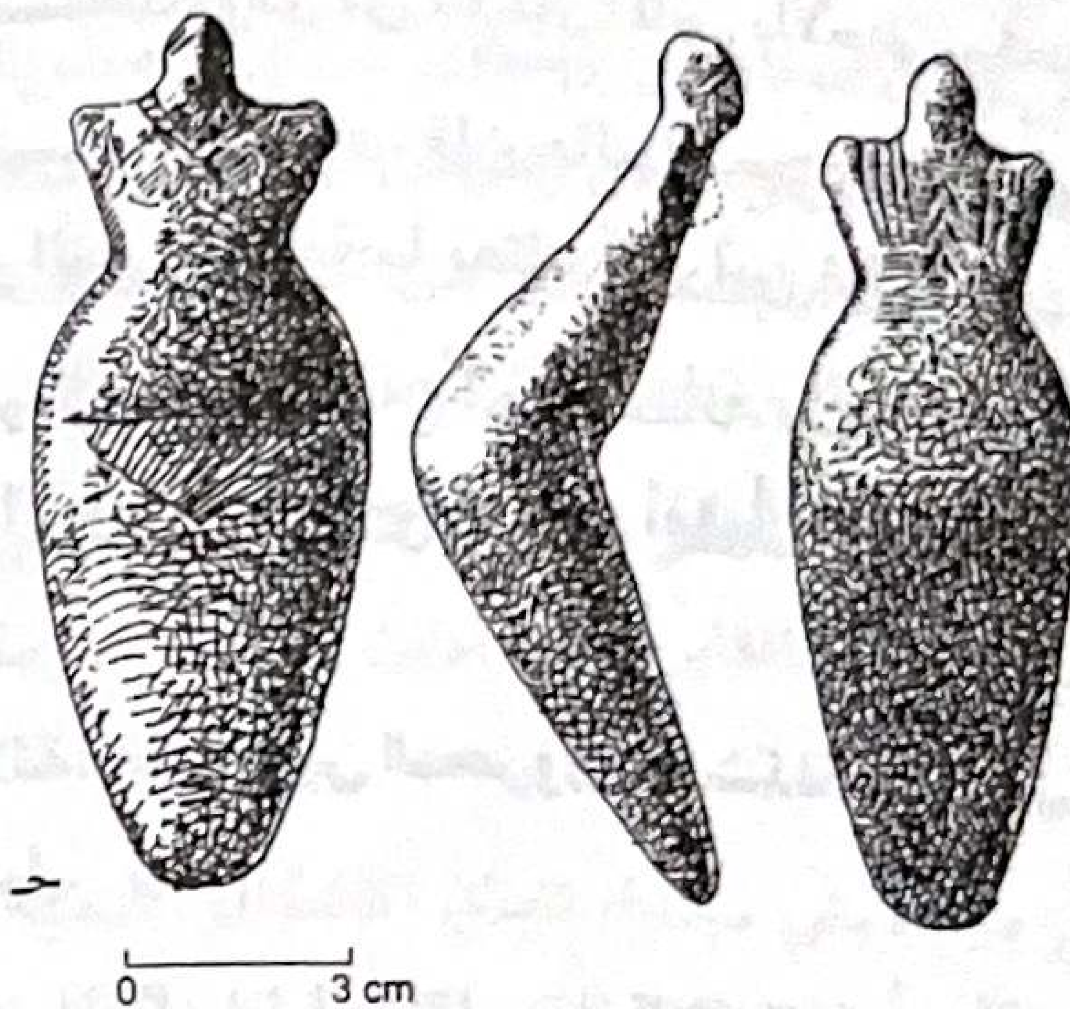
إن نماذج مراكب ثلاثة، من الطين المحروق، ومشكلة تشكيلا بسيطا، تمثل الاشارات الجنائزيه الأولى لنهر النيل.

وإذا ما قورنت مناطق الموئل، بثراء المقابر فإنها تشكل مشهداً أقل «جاذبية».

إنها عبارة عن طبقات محدودة أكثر سمكاً – حوالى عشرة سنتيمترات – تتكون من رواسب سمراء شبيهة برماد مواد عضوية، وقد تأثرت هذه الطبقات فى الغالب بظواهر التذرية أو إقامة محلات لاحقة.

ونميز حوالى أربعين محلة موزعة على ثلاث مناطق كبيرة، ويفترض أن كلاً منها كانت





شكل ٤ :أ ب.حـ

تضم عدداً من القرى الصغيرة التى يبدو أنها قد انتقلت أفقيا بعد مدة إشغال محدودة بلا أدنى شك.

وقد احتفظت بعض القطاعات بآثار ابار دائرية، فسرت على أنها مطامير. ان عدداً من الحفر غير المنتظمة، يصل عرضها إلى حوالى ١٣٠سم و ١٠٠سم عمقاً، قد بطنت جوانبها الداخلية فى أجزائها السفلية بالحصر أو الطمى اليابس. وقد عثر على العديد من الأوانى فى مكانها الطبيعى، وكانت مغروزة فى الأرض على عمق ٢٥ إلى ٤٠سم، وبعضها من الصلصال الخشن – وإن اقتصر الأمر أحياناً على تجفيفه فى الشمس – والبعض الآخر من الخزف الناعم، ونذكر على سبيل المثال الكأس السمراء ذات الشفة السوداء والسطح المتموج، التى جادت بها بلدة مطمار، ونشرها «برونتون» Brunton (1948, Pl. XVIII) إن وجود العديد من الثقوب لإجراء الإصلاحات توحى بمحتوى صلب من نوع الحبوب والبلح وما شابه ذلك..

إن وجود ستة أنياب فرس النهر، فى أحد القطاعات، وهى مكدسة بجوار كتلة من الحجر الجيرى الصلد، يوحى بأنها كانت عبارة عن مخزون للمادة الأولية فى تناول اليد، الغرض منه صناعة أوعية أو مشغولات من العاج.

وبالإضافة إلى الأدوات المصنوعة من العظم كالإبر والدبابيس والمثاقب وبعض التماثيل الصغيرة النسائية الخشنة (Brunton, 1937, Pl. xiv)، فإن الفخار متوفر على هيئة كميات ضخمة من الشقف التى لا تضيف شيئا إلى الدراسة التى أجريت على أوانى المقابر.

وفى المقابل، فإن آلاف الأدوات الحجرية التى هى من سمات الصناعة القائمة على الحجر، ترتبط فى المعتاد بالموائل. أما المقابر فقد قدمت هى وحدها المشغولات الفريدة فى بابها، ليس من حيث جودة الصنعة فحسب، ولكن لما كانت تمثله من قيمة فى نظر المتوفى.

ويميز «برونتون» G. Brunton (1928, 35 - 37) بين ثلاث رتب من الأدوات «الشديدة الإتقان»، وكلها ذات وجهين: أسنه الرماح ذات الأجنحة – والسيقان أحياناً. وعناصر المناجل، والأشكال على هيئة ورقة مستطيلة ومن بينها أربعة نماذج جميلة جادت بها المقبرة رقم 5116 فى البدارى (Brunton, 1928, Pl. xxix, 6) بالإضافة إلى القدائم[٦٢].

وإلى هذه الرتب الثلاث المتميزة، تضاف كمية «عشوائية» من الأنوية والشظايا والظران الخشن...

وبعيداً عن هذه المجموعات، التى جادت بها المقابر فى معظم الأحوال، والتى تتميز على نحو خاص، بمظهرها وصنعتها الفريدة، فقد استنتجت «كيتون – تومپسون» من الطبقة السفلية فى الهمامية ملاحظات ذات طبيعة أكثر شمولاً فيما يتعلق بالأدوات الحجرية البدارية.

وتقول فى الختام، أنها عبارة عن صناعة قائمة على الحصى وأداتها الرئيسية فى ذلك، هى أشبه بالمسحج الضخم المصنوع من الحصى أو الأنوية التى سُوِّى سطحها فى خشونة مع ميله إلى التقعر، وقد عثر عليها فوق سطح الأرض كما يشهد على ذلك ما يعلوها من زنجار(٦٣) برتقالى اللون، نتيجة لتعرضها للعوامل البيئية لفترات طويلة . وهناك قطعة أخرى لافتة للإنتباه وهى «مدية» من نصل من الظران الأسمر الرمادى، غير المحلى، والحافة اليمنى للمدية مستقيمة والحافة اليسرى معقرة قليلاً، ابتداء من الطرف البعيد، على هيئة سلسلة من التشذيب الدقيق المنتظم فى الجزء الخلفى فقط أو تتواصل على امتداد الحافة، ويظهر الطرف الأمامى تشذيب مباشر و / أو غير مباشر يميل إلى إخفاء أى أثر لقطع الحجارة.

إن مثل هذه القطعة، التى تذكرنا كما لاحظت «كيتون – تومپسون»، بما يشبه رأس السن المدبب من حضارة «شاتيليپرون»(٦٤) Chatelperron، قدعثر عليها تحت شقفة سطحها متموج فى منخفض مملوء بمخلفات كلها بدارية. ومع ذلك فقد عثر على مثيلاتها فى المستويات العليا فى الهمامية.

وعادت «هولمز» D. Holmes (1989) إلى المادة التى يحتفظ بها «متحف پترى»(٦٥) Petrie Museum، واستطاعت أن تعيد فحص ٤٥ قطعة جاد بها الموئل و ٢٦٦ قطعة جادت بها المقابر.

واتضح من تحليلها أن صناعة الأدوات الحجرية تقوم أساساً على الشظايا والنصال وان الأدوات ذات الوجهين، قد عانت، هنا كما فى الفيوم، من كثير من المبالغات. إن المباشر والمكاشط الدائرية والرُفض والأدوات المسننة والمحافر والمثاقب ممثلة تمثيلاً جيداً إلى جانب المناجل الجميلة وأسنة الرماح ذات الوجهين. وإذا كان المظهر البراق المميز لبعض القطع، يحملنا على الظن بأن الظران قد عولج معالجة حرارية، فعملية التسخين هذه كان الغرض منها تسهيل عملية تصنيع الأدوات الحجرية، فيبدو ان الزنجار البرتقالى الذى لاحظت «كيتون – تومپسون» وجوده هو فى حقيقة الأمر سمة مميزة لظران البدارى.

ونظراً لأن علم حيوانات العصور القديمة archéo - zoologie بمفهومه الحديث، لم يقدم تحليلا واحداً فإننا لا نعرف الفونة البدارية سوى معرفة ناقصة. وقد لوحظ بشكل

منتظم وجود جماجم حيوانات فى المقابر، وإلى جانب الموتى، إنها لأبقار وخراف وظباء وقطط وبنات آوى او كلاب . أما القول عن استئناسها – بما فى ذلك الظباء – فيظل من الأمور الشديدة الإحتمال.

ان العلاقة الحميمة، التى تربط الإنسان بالحيوان تبرز أكثر فأكثر أيضا بفضل المقابر الحقيقية المخصصة للحيوانات التى عثر عليها، هنا وهناك، وسط دفنات البشر. كانت مدثرة مثل البشر فى دثار من الجلد. فالظبى والكلب والخروف... كانت مدثرة شأنها شأن البشر فى كفن من جلد، وقد سجيت بلا تقدمات، كتعبير عن «نظام اجتماعى» يساعدنا على التكهن بالمكانة التى سيحتلها عالم الحيوان فى العالم الرمزى والأسطورى للمصريين.

وقد أمكن التحقق من محتويات الأوانى من الحبوب وهى الخروع (واسمه العلمى ricinus communis) والشعير (من النوع الذى يسمى علميا hordeum vulgare) والقمح (من النوع الذى يسمى علمياً triticum diccocum)(٦٦). انه مظهر زراعى تدعمه فى مجال الأدوات الأعداد الضخمة من المناجل.

إن ابناء البدارى – مثل ابناء الفيوم – كانوا مزارعين، ورعاة على ما يحتمل، ولا غرو أنهم كانوا يمارسون أيضا صيد النهر، وصيد البر بكل تاكيد، كما تشهد على ذلك أسنه الرماح التى عثر عليها بكميات كبيرة، ولا يبدو أن ابناء البدارى هؤلاء كان لهم تاثير كبير على التربة والأرض.

ان محلاتهم القائمة عند الحواف الصحراوية، فى قطاعات لا تتأثر بالفيضان سوى فى حدود ضيقة، كانت تعكس، فى المقام الأول، انشطة رعوية وأماكن التخزين. ولكن كل شيء يحملنا على الإعتقاد أن استخدام موارد السهل الغرينى، فى فترات انحسار مياه الفيضان، قد دفع هذه الجماعات إلى شغل أماكن اختفت اثارها منذ زمن بعيد، بعد أن طُمرت، بل دمرت على ما يحتمل.

ان الصورة التى يمكن استخلاصها من كل ذلك، هى صورة أسلوب حياة متحركة غير مستقرة نسبياً، تجمع بين دورة النهر السنوية وأنشطة تشمل الزراعة والرعى والصيد. إنه أشبه بإدخال اساليب انتاج جديدة على عملية التكيف مع النيل الممتدة عبر آلاف السنين.

ومع ذلك، فإن ابناء البدارى، أكثر من أى شعب آخر سابق عليهم، وبفضل اتصالاتهم المؤكدة مع المناطق المجاورة، قد طبعوا ثقافتهم بدينامية وزخم مميزين.

إن وجود أشياء من الفيروز والنحاس والستياتيت والأصداف البحرية جنبا إلى جنب، تدفعنا الى التوجه ناحية الشرق حيث ازدهرت منذ نهاية الألف السادس اقدم الثقافات

الكالكوليتية[٦٧] chalcolithiques (تل حلف، فى شمال بلاد الرافدين ومرسين وهاسيلار وساتال – حويوك، فى الأناضول).

ولا نعرف سوى القليل عن المشغولات النحاسية فى البدارى. ان بعض الخرز المصنوع من النحاس الخالص (الطبيعى)[٦٨] المطروق أفلت من أعمال سلب المقابر التى استهدفت أساسا الحصول على هذا المعدن الثمين.

ومن بين المناطق الثلاث الكبرى التى تضم مناجم النحاس – وهى الصحراء الشرقية وسيناء والسودان – من المغرى حقاً ان نتطرق إلى الأولى، وان لم يلاحظ وجود أى أثر لاستخراج هذا المعدن قبل العصر الفرعونى، علماً بأن الحصول على خام النحاس الطبيعى وتشكيله عن طريق الطرق لم يكن يتطلب بنية تحتية ذات شأن. ومع ذلك، فإن وجود الفيروز الذى تتاخم مناجمه مناجم النحاس فى سيناء، بالإضافة إلى استخدام خرز الستياتيت، ليلقى الضوء على هذه المنطقة العازلة الواقعة بين مصر والشرق الأدنى.

وفى عام ١٩٧٤، كشفت بعثة معهد الآثار فى تل أبيب (Beith Arieh, 1980)، فى قطاع سرابيط الخادم، عن محلة مرتبطة بثقافة الغاسولى فى فلسطين، انصرفت نحو استخراج نويات الفيروز. غير انه وبالنظر إلى ضعف استخدام هذا الحجر فى فلسطين، فكل شىء يحملنا على الظن بان استخراج هذا الحجر كان يتم لحساب مصر. الأمر الذى يعنى أن جماعات وافدة من فلسطين، ربما أقامت فى سيناء من أجل استخراج الفيروز وصقله. ومن المحتمل أنها كانت تقوم أيضا بنقله إلى مصر... إن الغاسولى الذى يوجد مركزه فى النقب، قد يمثل الثقافة الكالكوليتية الأولى فى فلسطين كما ازدهرت فى غضون الألف الرابع.

إن موقع أبو مطر (J Perrot, 1984)، وهو من نفس العصر، ويمثل ثقافة بيرشيبة (بئر سبع)، قد جاد علينا بمركز عمل حقيقى للنحاس، يضم الورش وأفران الصهر والقوالب. وكان النحاس النقى يأتى من خام غنى جداً بالمعدن، القادم من وادى فينان، على المنحدر الشرقى لهضبة عرابة، على بعد ١٠٠ كم إلى الجنوب. ومن بين الأشياء التى رأت النور، سوف يشد اهتمامنا وجود أصداف البحر الأحمر، وفيروز سيناء... ونوع متميز من أصداف المياه العذبة التى نجدها أيضا فى وادى النيل.

ومع ذلك، فإذا كان لا يوجد فى الوقت الراهن ما يحملنا على تأكيد ان الفيروز والنحاس البداريين قد جلبا من سيناء، إلا أنه لا يمكن استبعاد هذا الإحتمال. وفى هذا الصدد، تكتسب إكتشافات «ديبونو» F. Debono فى الصحراء الشرقية أبعاداً خاصة. ومن الملاحظ فى حقيقية الأمر، أنه لو كانت هناك اتصالات، فقد قامت بشكل مباشر، عن طريق

البحر الأحمر، دون أن تمر عبر الوجه البحرى حيث كانت الثقافات المعاصرة (الفيوم ومرمدة بنى سلامة) تجهل كل شىء عن هذا المعدن...

ومن غير المحتمل، فى الواقع ان تكون مواقع الشمال قد اضطلعت بوظيفة منطقة عبور دون أن يتخلف عن ذلك أى أثر للنحاس، مع كونها أقرب إلى مناطق استخراجه. ومن ناحية أخرى، فإن القليل من الإتصالات بين مصر العليا ومصر السفلى قد ثبت وجودها، قبل نقادة، الأمر الذى قد يعزى كما لاحظ «توتوندزيك» S. Tutundzik (1989) إلى غياب الحافز إلى ذلك أو الدافع إليه، نظرا إلى عدم وجود أى حاجز جغرافى بين ما يمكن أن نطلق عليه منذ ذلك الزمن المبكر اسم «المصرين»[٦٩] ويمكن القول فى هذا الصدد، ان الروابط المباشرة التى من المحتمل قيامها بين الشرق الأدنى ومصر العليا، عن طريق سيناء، لم تفعل سوى تعميق البون الفاصل بين المجموعتين الثقافيتين فى القسم المصرى من وادى النيل.

نفس المشكلة تثار عندما نتناول الستياتيت المطلية بالمينا، وكان عليها، بلا أدنى شك، أن تقلد الفيروز.

والستياتيت صخر طرى، ناعم وصابونى الملمس[٧٠] ويشبه الطلق، وهو أحد مشتقات سليكات المغنيسوم الذى يتميز بأنه يتصلب عند التسخين، كاشفاً عن مظهر براق على قدر كبير من الجمال.

وكان «برونتون» شخصياً يرى انه من غير المحتمل أن تكون هذه التقنية إختراعا بداريا وبالتالى ان يكون الخرز صناعة محلية. وفى مقال كرّسته «فينكنشتاد» E. Finkenstaedt (1983) لهذا الموضوع، لاحظت انه قد عثر (بضم العين) على آلاف الخرز المماثل فى تل براك[٧١] فى سوريا، وفى أرباشيه، شمال بلاد الرافدين، فى أطربيئية تعود إلى الألف الرابع، ولم تكن على الأرجح سابقة على البدارى وتستنتج، أن هذا الخرز البدارى إما أنه قد صنع فى مكانه الطبيعى، أو انه من الضرورى البحث عن جد مشترك فى الألف الخامس. وإذ لاحظت كميات الأشياء المصنوعة من الستياتيت المزجج التى جادت بها مواقع شمال بلاد الرافدين وسوريا، تقترح «فينكنشتاد» ان تبحث فى هذه المنطقة عن أصل هذه التقنية. بقى أن نحدد أى طريق سلكته المنطقتان لتتصلا بعضهما ببعض.

ومع ذلك، فإن صناعة الخرز فى البدارى ذاتها فرض لا يمكن استبعاده كل الاستبعاد. وبالفعل، يذكر «لوكاس» Lucas (1962, 155 - 6)[٧٢] أن محاجر الستياتيت موجودة فى مصر فى الصحراء الشرقية فى جبل فطيرة[٧٣]، على بعد أكثر من ١٦٠كم من البدارى، وقرب أسوان، وفى وادى جولان إلى الشمال من رأس بناس على شاطىء البحر الأحمر.

ولن نكون مغالين أبداً فى هذا الإطار، مهما بالغنا، لو ركزنا على أهمية الكشوف التى حققها «ديبونو» F. Debono (1951) عام ١٩٤٩، إبان أعمال شق، طريق قفط – القصير.

فقد أمكن التحقق من وجود اثار لقرية تعود إلى عصر ما قبل الأسرات فى قطاع اللقيطة. ومن بين الشقف التى عثر عليها، فقد شكل بعضها ،وفقا للتقنية البدارية، أى مشّطت قبل إحراقها لتكتسب المظهر النمطى للتموجات. وقد لاحظ الباحث وجود كمية غزيرة من الأدوات الحجرية، تضم أساساً «فؤوسا» مصقولة، من الصخر الصلد وفؤوساً صغيرة من الظران، ومدى ذات تقنية نصالية، بل وذات وجهين، والعديد من المباشر المتنوعة الطرز والمناقير والمناشير الخ». إن كسفة رأس حربة متشعبة تميز ثقافة العمرة(٧٤) وتوجد أرحاء من الحجر الصلد، مع المساحق، جنبا إلى جنب مع ادوات مكسورة فى غالب الأمر، وهى من العظام المصقولة وأصداف البحر الأحمر المثقوبة وخرز من أغلفة بيض النعام وقلائد من الحجر والعديد من الكسف النحاسية التى لا شكل محدداً لها . وجادت العديد من المواقد ببقايا الفونة ومن بينها عدد كبير من فقرات الأسماك.

ومن بين المقابر التى صادفها إبان بعثته، يذكر «ديبونو» دفنتى طفلتين بداريتين فى أغلب الظن.

وعلى مسافة ليست بالبعيدة، كانت قرية ،عتيقة، ، تبدو مرتبطة باستغلال النحاس «ولا غرو، أن هذا الخام كان يستخرج من مناجم صغيرة للنحاس موجودة فى هذه المنطقة، ثم كان يعالج فى القرية ذاتها، كما تشهد على ذلك أخبات(٧٥) المعدن scories التى تم الكشف عنها» (Debono, 1951, 71) . كما يبدو أن المحلة قد استخدمت أيضا كورشة لصناعة أساور من اللؤلؤ ، جاءت مادتها الأولية من اصداف بحرية ضخمة واسمها العلمى Ptéroceras وقد تم جمعها على بعد ١٢٠كم تقريباً، عند شواطىء البحر الأحمر. وقد تم التعرف على أماكن كسر الأصداف لاستخراج نواتها الحلزونية فقط، لتنقل بعد ذلك إلى القرية من أجل شغلها.

وإذ واصل «ديبونو» استقصاءاته إلى الشرق قليلاً، فى وادى الحمامات، فقد أماط اللثام عن مقبرة بدارية والعديد من الشقف من الطراز البدارى.

كان وادى الحمامات طريق عبور مفضلا بين النيل والبحر الأحمر وكان يتمتع فى هذه العصور الشديدة الرطوبة بآبار تغذيها طبقة من المياه الجوفية ذات المخزون المنتظم. وبالفعل لم تكن الأمطار «العجائبية» نادرة فوق الأنجاد الشاهقة. إن الدليل على وجود ورش حقيقية، منذ العصر العتيق(٧٦)، وهى نقاط تربط بوضوح مراكز انتاج المادة الأولية بمكان الإستهلاك المرتفع، القائم فى وادى النيل، ليوحى بأن وجود مثل هذه المحلة فى

عهود سابقة، هو أمر محتمل فى زمن الوجود البدارى المتواضع، على سبيل المثال. وعلينا فى واقع الأمر أن نؤكد على حقيقة أنه منذ أربعين سنة مضت، لم – تم عملية استكشاف منتظمة واحدة أو أيه أعمال تنقيب على نطاق واسع! فقد ظلت الأسئلة التى طرحها «ديبونو» بلا اجابة. ففى حين توسع الإستغلال الأركيولوجى للصحراء الغربية فإن قطاعاً مثل الصحراء الشرقية بما له من أهمية قصوى قد وجد نفسه مهملاً إهمالاً تاماً فى مجالات ما قبل التاريخ وفجر التاريخ(٧٧). وعلى كل حال، فإن الآمال الكبيرة معقودة على أن هذا القطاع سيصبح فى السنوات القادمة مجالاً خصباً لأفضل الإستقصاءات والأبحاث الفنية بوفرة المعلومات.

وإذ يؤكد «كرزيزا نياك» (1977,81) L,Krzyzania K على أن الخطوط المتموجة التى تميز الأوانى الفخارية البدارية، كانت معروفة فى أريحا منذ ٤٥٠٠ قبل الميلاد، وأنها ظهرت فى نفس هذا العصر فى بيبلوس، وفى جنوب الأناضول وشمال بلاد الرافدين، فقد ولى وجهه شطر الصحراء الشرقية وجنوب غرب آسيا على احتمال أنهما المواطن الأصلى للثقافة البدارية.

وعلى عكس ذلك، فإذ أخذ «أركل» Arkell (1975) بعين الإعتبار ان الآنية ذات الشفة السوداء، الشديدة النمطية، والتى لا وجود لها فى أى منطقة أخرى خارج وادى النيل، ولكنها موجودة فى الخرطوم، منذ العصر الحجر الحديث، فقد حدد الجنوب كنقطة انطلاق لأبناء البدارى. وقد أضاف إليها أيضا رأس المقمعة المخروطية ذات الحافة المنبسطة، فى حين كما لاحظ «سيالوفيز» K. Cialowicz (1987) لا يوجد رأس مقمعة واحد، أمكن تحديد تاريخه، بكل يقين، فى سياق بداري.

وتنظر «بومجارتل» E. Baumgartel، كما هو الحال بالنسبة إلى «أركل»، إلى البداريين، باعتبارهم خليطا من شعوب قادمة من الجنوب، مع هذه الإسهامات ذات الطابع الأكثر أسيوية، المتمثلة فى الزراعة وتدجين الحيوان.

وهذا أيضا كان رأى «كيتون – تومپسون» G. Caton - Thompson (1928) التى استندت إلى الظران المستخدم الشديد الدلالة: كميات الفهر ذات الزنجار البرتقالى اللون الموجودة فوق سطح الأرض وأمكن جمعها. وقد ذهبت إلى أنها تكشف عن تجاهل لعروق المادة الأولية الجميلة التى تضمها تكوينات الحجر الجيرى من عصر الإيوسين. ومن ثم فقد جاء البداريون من المناطق الجنوبية المختلفة جيولوجيا كل الإختلاف، التى تقع فيما وراء خط عرض ٢٤، ومن المحتمل أنهم قد وصلوا إلى منطقة أسيوط بعد أن ساروا بمحاذاة البحر الأحمر.

وفندت «هولمز» D. Holmes (1989, 183) هذه المحاجه – وكانت على حق فى ذلك – مؤكدة ان اختيار المادة الأولية قد جاء كاستجابة تامة للإحتياجات، فى حين أن البحث عن كتل ضخمة من الظران دقيق الحبيبات كان مواكباً لزيادة حجم ونوعية القطع التى تصدرت الثقافات اللاحقة.

واستطردت قائلة، إن أوجه الشبه القائمة، من ناحية الأدوات الحجرية، مع الصحراء الكبرى فى العصور اللاحقة للعصر الحجرى القديم – وهى صناعة تعتمد على النصال والشظايا ولا تستبعد الفؤوس المصقولة وأسنة الرماح ذات القاعدة المقعرة – إن أوجه الشبه هذه لا تستبعد أن ينظر إلى نصف الدائرة التى تشكلها الواحات البحرية والفرافرة والداخلة والخارجة، باعتبارها نقطة إنطلاق الجماعات البشرية التى كانت رعوية منذ ذلك الوقت على ما يعتقد، والتى دفعها انتشار الجفاف، إلى إلقاء عصا الترحال على ما يعتقد، قرب نهاية الألف الخامس، فى منطقة أسيوط وطهطا. وفى المقابل، تثير الأنواع النباتية المزروعة بعض التساؤلات، وعلينا أن نأخذ بعين الإعتبار أن تكون قد دخلت قادمة من الشرق الأدنى، عن طريق، مواقع العصر الحجرى الحديث فى شمال مصر. ومن هنا – أى من الفيوم ومرمدة بنى سلامة – ربما جاء أيضا فن صقل الأوانى الفخارية، وهو الفن الذى ازدهر فى البدارى وسلك مسلكاً مكتملاً كل الإكتمال.

إن عرض وجهات النظر المختلفة هذه هو عرض بليغ: فقد جيء بالبداريين من أصقاع الأرض الأربعة، من الجنوب ومن الشرق ومن الغرب، بل ومن الشمال.. وإذا كان هناك وجهة نظر يسهل علينا أن نتبناها بلا عناء، فهى بكل تأكيد وجهة نظر «هولمز» عندما تؤكد قائلة: إن شيئا واحداً هو واضح للعيان، **فالبدارى ليس تقليدا ظهر فجأة إلى الوجود من مصدر بسيط ووحيد.**

إننا حقا، نتعامل هنا مع ثقافة مركبة ومتشعبة،، ثقافة مصرية صميمة، حيث تبدو أنها قد استوعبت وتمثلت وأعادت استثمار أشكالا شديدة الأصالة لسمات نلتقى بها فى كل مكان آخر.

وتظل نقطة أخيرة فى حاجة إلى أن تطرح على بساط البحث. وهى ليست مع ذلك أقل النقاط أهمية، إنها مسألة تحديد وضع البداريين فى سياق التتابع الزمنى.

كان «برونتون» بدافع غريزى تقريباً قد حدد مكانهم، قبل أبناء العمرة الذين يتميزون عنهم بأوانيهم الفخارية. ثم كانت «كيتون تومپسون» قد جاءت بالدليل الاستراتيجرافى على اسبقيتهم، عندما قامت بالتنقيب فى موقع، علينا أن نتوقف أمامه الآن : انه موقع الهمامية.

فمن فبراير إلى مارس من عامى ١٩٢٤ و ١٩٢٥، «قطعت» إلى شرائح منتظمة يصل سمك كل شريحة منها، حوالى عشرة سنتيمترات سمكا، قطعت مساحة ٨٦٠٠ متراً مربعاً، مقسمة إلى وحدات تبلغ ثلاثة أمتار طولاً فى متر ونصف عرضا. وتم تسجيل كل شىء صنعه الإنسان – ماعدا الشقف الخشنة – وفقا لعمقه. وهكذا أماطت اللثام عن تطور ثقافى ركيزته الأساسية هى المادة البدارية التى بدت مثبتة جزئياً برواسب متراصة من الحصى، وقد أطلق عالم الآثار البريطانى على هذه المادة اسم «بريشة»[٧٨] brèché وكانت فى جانب منها فوق هذه الرواسب، مباشرة.

وكان عليها أن تنتظر أربعين سنة، حتى تتمكن من اجراء عمليات تاريخ زمنى بالتألق الحرارى على شقف مخزونة فى أوكسفورد Oxford ووقع الاختيار عليها بسبب بقايا القالب التى مازالت ملتصقة بسطوحها (Caton - Thompson and whittle, 1975) وفيما يتعلق بالمستوى البدارى أسفل «البريشة»، أمكن التوصل إلى تاريخين: ٥٤٩٠ ± ٤٠٥ قبل الميلاد. و٥٥٨٠ ± ٤٢٠ قبل الميلاد. وفوقها: ٤٦٩٠ ± ٣٦٥ قبل الميلاد و ٤٥١٠ ± ٤٧٥ قبل الميلاد وهو ما يشكل إنحرافاً معياريا ملحوظاً. وأثناء مرور «هايز» T. R. Hays وفكرى حسن (Hassan, 1985, 19) بالهمامية جمعا العديد من عينات فحم الخشب من سياق بدارى، وقد ساعدت هذه العينات على تحديد زمن أقدم الثقافات الممثلة فى الهمامية، فيما بين ٤٤٠٠ و ٣٨٠٠ قبل الميلاد. إن استراتيجرافياالهمامية، كما اظهرتها «كيتون – تومپسون» G. Caton - Tbompson، قد أكدتها أعمال «هولمز» و «فريدمان» O. Holmes - R. Fried mann (1994)، وأمكن الحصول على تاريخين بواسطة الكربون ١٤ بالنسبة للجزء الواقع أسفل «البريشة»، الأمر الذى يؤكد عمراً يتروح بين ٤٤٠٠ و ٤٠٠٠ قبل الميلاد.

ولكن ليس فى وسعنا أن نغادر عالم البدارى دون أن نتطرق إلى ديرتاسا، التى جعل منها «برونتون» Brunton (1937, 1 - 42) كيانا ثقافيا سابقا على البدارى، نظرا إلى انعدام النحاس.

فقد لاحظ بالفعل، عند القيام بأعمال التنقيب فى المنطقة الواقعة بين قرية دير تاسا والمستجدة، أن حوالى خمسين دفنة متداخلة مع الدفنات البدارية والنقادية، قد كشفت عن أشياء من صنع الإنسان لها من السمات المميزة ما يكفى للنظر إليها بمعزل عن المجموع الكلى. وبالطبع فالخزفيات – وهى حفرية حساسة من الدرجة الأولى لأقل تغيير – قد كشفت عن عناصر أصيلة. ونستخلص منها ثلاثة طرز: فخار خشن التكوين، يتدرج لونه من الاسمر الضارب إلى الحمرة أو إلى الرمادى، وسطحه أملس أحياناً، به بقع تميل إلى اللون الأسمر نتجت عن أعمال الحرق غير المنتظمة. وفخار رمادى ضارب إلى الأسود،

سطحه أملس به خطوط متموجة رأسية أو مائلة. وأخيراً، فخار أسود، مصقول إلى حدٍّ ما، به زخارف هندسية محفورة مملوءة بعجينة ضاربة إلى اللون الأبيض. ويتشكل على هيئة كئوس تذكرنا بلا منازع بالعصر الحجرى الحديث المتأخر فى وادى النيل الأوسط. إن إناءً مستطيلاً، مصقولاً وأحمر اللون، وبه خطوط متموجة، لهو قطعة فريدة فى بابها. ان الشكل هو الذى يميز بوجه عام هذا الخزف: قصعات عميقة، جوانبها واسعة، بادئة من قاع مسطح وضيق، لتضيق، فى اغلب الأحوال عند الحافة، لتكتسب هيئة بدن قارب. ومن ثم فان زاوية بطن الإناء والقاع المسطح الضيق، هما اللذان يحددان خزف ديرتاسا، على حد قول «برونتون» Brunton (1937,28).

ومن بين الصلايات الخمس التى جادت بها الدفنات، فإن واحدة منها فقط من الشست والأخرى من الكّلسيت والحجر الجيرى.

ولا تتميز صناعة الأدوات الحجرية عن البدارى إلا بوجود فأس صغيرة مصقولة من الحجر الجيرى أو من الصخور النارية.

ومع ذلك، فعند عودة «هولمز» Holmes (1989 a) إلى ابحاثها الإستقصائية فى المنطقة المعنية، فإنها لم تلحظ وجود شيئاً من «الثقافة التاسية».

وكانت «بومجارتل» الأولى التى نفت وجود ثقافة تاسية، وهو ما توصلت إليه من ملاحظة عدد الدفنات المحدود وتعدد أوجه الشبه مع البدارى، واقترحت ان تقتصر دلالتها باعتبارها وجها محليا للبدارى. وقد لقيت وجهة نظرها قبولاً عاماً فى أغلب الأحيان (Hoffman, 1980, 142 Krzyzaniak, 68, n. 15) . ولكن «كايزر» Kaiser (1985) قد أعاد طرحها القضية حديثا على بساط البحث، عندما أبرز السمة الأصيلة لهذا الفخار فى السياق البدارى، وقارن بينه وبين فخار مواقع العصر الحجرى الحديث فى الشمال وخزف العمرة، لاسيما من حيث قيعانها المسطحة. ومن ناحية أخرى، لايمكن تحديد وضع «التاسية» فى قطاع تاسا - المستجدة فقط، حيث عثر على شقف مماثلة فى أرمنت، وتم اقتناء العديد من الأوعية المرتبطة بهذا التقليد من «سوق الفن» . وتبدو القضية التاسية بالتالى أكثر تعقيداً مما بدت للوهلة الأولى. وقد ذهب «كايزر» إلى أن تحديد المكان الأصلى «للتاسية» عند الطرف الشمالى للوجه القبلى، قد يتفق ومنطقة عازلة تسربت من خلالها المؤثرات الوافدة من الشمال فى اتجاه الجنوب. فأثرت إلى حد ما، فى شكل أوعية العصر الأول من نقادة.

هوامش الفصل السادس

(١) راجع الهامش رقم ٢ ، الفصل الخامس (المترجم)

(٢) الطوبوغرافية: topographie.. المعالم الطبيعية التى يمكن تمثيلها على الخرائط مثل التضاريس وخطوط المناسيب لسطح الأرض (المترجم*).

(٣) الطبَر : نوع من السلاح له فأس (المعجم الوسيط) (المترجم).

(٤) النقار : أداة ينقر بها الحجر أو الخشب ونحوهما (المترجم).

(٥) نسبة إلى بحيرة «موريس» Moéris ، بحيرة قارون حالياً، والإسم تصحيف للإسم المصرى القديم «مر ور» (المترجم).

(٦) لمزيد من التفاصيل راجع وليم نظير: الثروة النباتية عند قدماء المصريين الهيئة العامة للتأليف ١٩٧٠ . ص . ص ٧٣ – ٨١ (المترجم).

(٧) راجع: وليم نظير. الثروة الحيوانية عند قدماء المصريين ص ٦٤ الدار القومية. د . ت (المترجم).

(٨) الحروف الأولى من Besiedlungsgeschicte der Ost - Sahara أى تاريخ إعمار الصحراء الشرقية – (من حوار مع المؤلفة) (المترجم).

(٩) المستوى القاعدى أى الأقدام استراتيجرافياً. وهى كلمة مؤنثة. من حوار مع المؤلفة) (المترجم).

(١٠) وهو الهيماتيت (المترجم).

(١١) حفرية تنشأ عن حلول السليكا محل المادة الخشبية فى النبات، بحيث تحتفظ بالتركيب الأصلى للخشب وشكله الخارجى (المترجم*).

(١٢) أو تل حسونة . موقع أثرى فى العراق (المترجم).

(١٣) اداة ينقر بها الحجر أو الخشب أو نحوها (المترجم).

(١٤) وهذا الرأس من مقتنيات المتحف المصرى بالقاهرة: الطابق السفلى القاعة رقم ٤٣. أمام باب المدخل (المترجم).

(١٥) ونقول «استغماية»، فى لغتنا العامية (المترجم).

(١٦) الجالينا: معدن رمادى. اسمه العلمى كبريتيد الرصاص. كان أهم استعمال له فى العصور التاريخية فى مصر، هو عمل الكحل (المترجم).

(١٧) «برت»: من أسماء القمح عند قدماء المصريين ولعل الاسم العربى الذى يسمى به القمح وهو «بر»، قد اشتق من الاسم المصرى القديم. وليم نظير: الثروة النباتية عند قدماء المصريين. الهيئة المصرية للتأليف والنشر ١٩٧٠ . ص ٧٤. (المترجم).

(١٨) فى وسط الصحراء الكبرى (المترجم).

(١٩) نايس gneiss : طائفة واسعة الإنتشار من الصخور المتحولة، غليظة الحبيبات.. وتشبه غالبا تركيب الجرانيت. (المترجم*).

(٢٠) مؤكسِد oydant يساعد على الأكسدة، اى زيادة قوام مركب ما من الاكسجين (المترجم).

(٢١) راجع الهامش من الفصل الخامس (المترجم).

(٢٢) لمزيد من التفاصيل راجع: وليم نظير الثروة الحيوانية عند قدماء المصريين. الدار القومية للنشر. د. ت ص ٤٥ وما بعدها (المترجم).

(٢٣) نتيجة لعوامل التعرية (المرجم).

(٢٤) طائفة من شعبة الرخويات mollusques (المترجم*).

(٢٥) الشفتورة: لولب أو أسطوانة من مواد مختلفة اعتادت عدة شعوب بدائية أن تضعها فى شفاها العليا أو السفلى (المترجم).

(٢٦) مجموعة سليكات الألومنيوم المائية (المترجم*).

(٢٧) أى ايثنولوجيا الحضارات القديمة راجع الهامش فى مقدمة الكتاب (المترجم).

(٢٨) الشط: هو جانب النهر الذى كونه من إرساباته. وهو أعلى جزء فى السهل الفيضى (المترجم*).

(٢٩) الاشارة هنا إلى منطقة التلال الساحلية فى الجزائر وتونس. وهى منطقة انتقال من مناخ المناطق الصحراوية إلى المناطق التى يسود فيها مناخ استوائى رطب سودانى (المترجم).

(٣٠) أى التى زخرفت بواسطة مشط (المترجم).

(٣١) خانق : جزء من النهر يضيق فى مجرى الماء لمسافة طويلة بين جوانب عالية (المترجم*).

(٣٢) نقص فى مياه الأمطار أو أنعدامها (المترجم*).

(٣٣) الإشارة هنا إلى قصة Le Petit Prince الصادرة سنة ١٩٤٣. وهى للكاتب الفرنسى سانت إيكز يبرى Saint-Exupery (١٩٠٠ – ١٩٤٤). وكان طياراً ولقى مصرعه وإختفى إبان الحرب العالمية الثانية. (المترجم).

(٣٤) الخزف: ما عمل من طين وأحرق بالنار فصار فخاراً (المعجم العربى الأساسى) (المترجم).

(٣٥) الأحجار الضالة: هى جلاميد الصخر التى نقلتها الأنهار مسافات طويلة بعيدا عن مصادرها وتركت فوق سطح الأرض بعد انحسار المياه.. وهذا ما يجعلها تختلف فى تركيبها عن الوسط الصخرى الذى توجد فيه (المترجم*).

(٣٦) المسحج: آلة يبرى بها الخشب (المترجم).

(٣٧) نسبة إلى موقع أبكه إلى الشمال من الجندل الثانى (المترجم).

(٣٨) فى جنوب ليبيا (المترجم).

(٣٩) ألفريد لوكاس (١٨٦٧ – ١٩٤٥). كيمائى بريطانى. له الفضل الأكبر فى المحافظة على آثار توت عنخ أمون آمون الفريدة. وهو صاحب المؤلف الرائد «المواد والصناعات عند قدماء المصريين». ترجمة د. زكى اسكندر ومحمد زكريا غنيم. وقد أعادت مكتبة مدبولى طبعه عام ١٩٩١. (المترجم).

(٤٠) راجع الفصل الرابع (المترجم)

(٤١) رقم رومانى وهو المقابل للرقم تسعة (المترجم).

(٤٢) معدن سليكات المغزويوم القاعدى. يظهر فى الصخور المتحور المتحولة. وهو معدن طرى جداً (المترجم).

(٤٣) وهو الإسم العلمى لقشر البياض (المترجم).

(٤٤) وهو الإسم العلمى للقرموط (المترجم).

(٤٥) اسم أطلقه العرب على الصحراء الرملية والرمال المنقولة فى الصحراء الكبرى الإفريقية (المترجم*).

(٤٦) مصطلح ألمانى مركب من كلمتين Stein وتعنى حجرا و plätze وتعنى مكاناً. ويدل المصطلح على «أماكن وجود الحجر» أو «أكوام الحجر» (من حوار مع المؤلفة) (المترجم).

(٤٧) كل أثر مادى دل على الأحياء القديمة (المترجم*).

(٤٨) صخور مائلة شديدة الإنحدار من جانب، نشأت بفعل النحت أو التصدع (المترجم*).

(٤٩) السلكت Silicifié والسلكته هى عملية يتم بواسطتها ملء فراغات الصخر بمادة السليكا (المترجم*).

(٥٠) لا ينبغى الخلط بين شجرة الأثل tamaris وهى من الفصيلة الطرفاوية، طويلة مستقيمة الخشب جيده، ونبات الأسل jonc وهو ذو أغصان شائكة الأطراف تصنع منه الحصر والحبال (المترجم).

(٥١) ويعرفها العرب باسم سيدرة. وليم نظير. الثروة النباتية عند قدماء المصريين. الهيئة المصري للتأليف والنشر. ١٩٧٠ (المترجم).

(٥٢) جملةلاتينية تعنى تاريخاً غير محدد وإن كان يسبق تاريخا آخر أمكن تحديده بكل دقة ولا يمكن تحديد زمن التاريخ الأول ولو على وجه التقريب. ((من حوار مع المؤلفة) (المترجم)

(٥٣) كلمة عربية تعنى الصحراء التى يغطيها الحصى (المترجم*).

(٥٤) يمكن مشاهدة بعضها فى متحف النوبة بأسوان (المترجم).

(٥٥) هناك عدة عبارات ينبغى التمييز بينها:

Préhistoire : أى عصر ما قبل التاريخ

Pre'dynatique : أى عصر ما قبل الأسرات أو الإنيوليتى (عصر النحاس).

Protohistoire : أى فجر التاريخ ويطلق احيانا على خواتيم عصر ما قبل التاريخ. ويكون مع العصر الثينى ما يعرف بالعصر العتيق.

G. Posener. Dictionnaire De Civilisatian Egyptienne, Ferncd Hazan, 1970 (المترجم).

(٥٦) الكوم الأحمر، حالياً ، قرب إدفو. ونخن هو اسمها المصرى القديم (المترجم).

(٥٧) وهو عالم الآثار المصرى الدكتور سامى جبره (المترجم).

(٥٨) أى الخزفيات (المترجم).

(٥٩) خام أخضر من خامات النحاس وكان يستخدم ككحل للعين (المترجم).

(٦٠) صخر كتلى، غير نقى فى معظم الأحيان، يتكون فى أساسه من معدن الطلق (المترجم*).

(٦١) ما تراكم من شحم فى موضع العَجز (المترجم).

(٦٢) جمع قدّوم (المترجم).

(٦٣) ما يعلو بعض المعادن أو الحجارة بفعل الزمن أو الشمس (المترجم).

(٦٤) فى وسط فرنسا (المترجم).

(٦٥) فى لندن (المترجم).

(٦٦) ظل المصدر الأول لصناعة الخبز فى مصر منذ العصر الحجرى الحديث وحتى العصر الرومانى حيث أخذت زراعته فى التناقص وحلت محله أنواع أخرى. (وليم نظير. الثروة النباتية عند قدماء المصريين - الهيئة المصرية للتأليف. ١٩٧٠ ص ٧٤ - ٧٥) (المترجم).

(٦٧) هذه الكلمة مركبة من كلمتين chalco أى النحاس و lithique أى الحجر. ويقول الدكتور عبد العزيز صالح ان الفرنسيين يطلقون أحيانا على هذا العصر اسم الإنيوليتى، وهو عصر الحضارات النحاسية الحجرية أو عصر بداية المعادن (حضارة مصر القديمة وآثارها. الجزء الأول . د . ن . ١٩٨٠ . ص ١١٣) . (المترجم).

(٦٨) خالص (طبيعى) natif، وصف للعنصر الذى يوجد فى الطبيعة خاماً مفرداً غير متحد بغيره ويطلق فى العادة على الفلزات كالزئبق الصرف والنحاس الصرف (المترجم*).

(٦٩) والمصران هما مصر العليا ومصر السفلى (المترجم).

(٧٠) ويطلق عليه أيضا حجر الصابون (المترجم).

(٧١) قرية تقع فى منطقة الخابور شرق سوريا (المترجم).

(٧٢) وقد ترجم كتابه الى اللغة العربية الدكتور زكى اسكندر ومحمد زكريا غنيم تحت عنوان (المواد والصناعات عند قدماء المصريين) (المترجم).

(٧٣) وهو أقرب كثيرا إلى البحر الأحمر، عند خط عرض سفاجة منه إلى النيل (المترجم).

(٧٤) العَمرة: هى إحدى قرى البلينا محافظة سوهاج. ولا ينبغى الخلط بينها وبين موقع العُمرى عند مدخل وادى حوف إلى الشرق من حلوان وقد سمى بهذا الاسم تخليدا لذكرى أمين العمرى العالم المصرى الذى شارك فى اكتشافه (المترجم).

(٧٥) الخبث: ما يفرزه المعدن من شوائب عند تحضيره أو عند إحمائه وطرقه (المعجم العربى الاساسى ١٩٨٩) (المترجم).

(٧٦) يشمل العصر العتيق نهاية عصور ما قبل التاريخ التى تعرف أحيانا بفجر التاريخ Protohistoire بالإضافة الى العصر الثينى (الاسرة الاولى والاسرة الثانية) Posener. Dictionnaire de la civilisation Egyptienne. Hazan, 1970 (المترجم).

(٧٧) «جرى الإصطلاح على تعريف هذا العصر بتعريفات ثلاثة: تعريف زمنى يسميه «العصر الحجرى الحديث» يعتبرهحضارة مصر القديمة وآثارها د. ن ١٩٨٠ ص ٧٨) (المترجم).

(٧٨) راجع الهامش ٢٦ من الفصل السابع.

الباب الرابع

الإقتراب من الأزمنة الفرعونية : الألفية الرابعة قبل الميلاد

الفصل السابع

عصر ما قبل الأسرات
من ٤٠٠٠ إلى ٣٣٠٠ قبل الميلاد

إن اقامة حد فاصل بين العصر الحجرى الحديث وعصر ما قبل الأسرات هو بكل وضوح إجراء مصطنع، كما لو أن العصر الحجرى الحديث لم يكن عصرا لما قبل الأسرات ولا كان عصر ما قبل الأسرات *مايزال* عصرا حجريا حديثا...

ومع ذلك، فاللفظة التى تبدو أنها تميز أكثر من غيرها الألفية الرابعة، فى قطاع وادى النيل الممتد فى البحر المتوسط حتى الجندل الأول، هى بكل تأكيد تلك التى تحيلنا إلى الإنفجار الفرعونى الهائل والمذهل الذى يتحدد زمنه قرب نهاية هذه الألفية.

فإبان هذه الفتره - وهى قصيرة جدا على كل حال سوف «تتخثر» كل العناصر التى تم جمعها بجلد وطول أناة على مر الأزمنة السابقة وتعد العجينة التى ستتشكل منها الحضارة المصرية.

ولا ريب، أن الأمر لن يخلو من أن تنضاف إليها عناصر جديدة، وبكثرة أحيانا. ولكن لم يصل بها الأمر أبدا إلى أنها حلت محل هذه المادة الأولية.

ثقافات الجنوب

العمرة أو نقادة الأولى

فى هذه المنطقة من الوجه القلبى الممتدة من قنا إلى الأقصر، نجد أنفسنا أمام مصادر تاريخ عصور ما قبل التاريخ.

ففى هذا المكان بالفعل توصل «چاك دى مورجان»[١] Jacques de Morgan قرب نهاية القرن التاسع عشر، إلى إلتقاط أولى أدوات عصور ما قبل التاريخ من صنع الإنسان، وهنا أيضاً على نحو خاص، استطاع «سيرفلندرز پترى»[٢] Sir F. Petrie أن يميط اللثام عن جبانة ضخمة سوف تتيح له ان يصوغ، على أساس التتابع الزمنى Sequence Date (راجع الملاحق) أول تسلسل زمنى كبير لمصر فى عصر ما قبل الأسرات.

ويشتق اسم هذه الثقافة من موقع العمرة، عند مدخل منعطف نقادة، ولكنها ممثلة بالعديد من المحطات، بدءاً من مطمر، شمالاً وحتى الكوبانية وخور بهان، جنوباً.

ان أعمال التنقيب المكثفة التى اجراها فى مطلع القرن العشرين «بترى» و«كويبل» Qui-bell قد ساعدت على الكشف عن عدة آلاف من المقابر (١٥٠٠٠ مقبرة تغطى مجمل عصر ما قبل الأسرات) ومنطقتين كبيرتين للموئل فى نقادة الجنوب ونقادة الشمال.

وفى الأعوام ١٩٧٥ و ١٩٧٦ و ١٩٧٨ غطت أعمال التنقيب والمجسّات التى قام بها «هايز» T.R.Hays قطاع الخطارة، على امتداد ١٨ كيلو مترا فيما بين دنفيق والبلاص - وقد ساعدت على تحديد مكان عدد كبير من مواقع الموئل وانجاز العديد من عمليات التأريخ بواسطة الكربون المشع (Hassan: 1988: 154).

وإذا نظرنا إلى السمات الرئيسية لثقافة العمرة فسنجد أنها لا تختلف عن ثقافة البدارى إلا فى أضيق الحدود.

فالموتى مدفونون فى المعتاد، وقد سجوا على الجانب الأيسر، فى وضع مثنى، والرأس جهة الجنوب والوجه ناحية الغرب.

ومع ذلك، تؤكد دراسة إحصائية حديثة (Castillos: 1982) زيادة عدد الموتى المدفونين فى حفر صغيرة، فى حين يتمتع بعضهم بدفنات أضخم، مجهزة تجهيزاً فضل وأوفر. وفى هذا الصدد فإن مثال «هيراكونبوليس»[3] لافت للنظر (Hoffman, 1982): إن مقابر ثقافة العمرة، وإن عانت من السلب والنهب، إلا أنها مازالت تشد إهتمامنا من حيث شكلها على هيئة مستطيل، وأبعادها الفريدة (٢٥٠سم × ١٨٠سم، بالنسبة لأكبرها). وفى حالتين عثر على رأس جميل لمقمعة مخروطية من الصخر السماقى، وهى رمز السلطة. وأخذت عادة تغطية أو تدثير الجسد بجلد حيوان تتراجع. وبدأت تظهر أولى التوابيت المصنوعة من الخشب أو الطين.

وكما فى البدارى، فقد دفن الرجال والنساء والأطفال دون تفضيل مكان على آخر.

وتظهر الفوارق بين هاتين الثقافتين، على نحو خاص، من خلال التعديلات التى ادخلت على الأدوات.

أخذ الفخار الأحمر ذا الشفة السوداء يتناقص بالتدريج، ولن يعود أبداً إلى سابق عهده، إلى أن انقرض تماماً، عند نهاية عصر ما قبل الأسرات.

وحتى الآن كانت تنسب الزخارف ذات الخطوط المتموجة على سطح الأوعية إلى الثقافة البدارية، وإليها فقط. ولكنها تظهر مع ذلك - بكميات محدودة ضمن ما صنعه أبناء العمرة.

وأخذ الفخار الأسود المصقول الجميل يتراجع تماماً، فى حين مالت الأوعية المصقولة، وقد اكتسبت باكملها اللون الأحمر إلى التسارع تسارعاً متزايداً. وتطورت أشكال هذه الفئات فى اتجاه التعقيد مع استبعاد القاع المستديرة، والذى استطاع «كايزر» W.Kaiser (1957 والملاحق) ان يصنفها ويحدد تتابعها الزمنى. وقد يحدث أحياناً أن تزخرف الأوانى المصقولة الحمراء برسومات بيضاء تمثل مواضيع، هندسية ونباتية وحيوانية. وتعود أشكال الفونة إلى النهر فى المقام الأول، وتهيمن عليها صورة التمساح وأفراس النهر. ولكن نجد أيضاً العقارب والغزلان والزراف والنمس والعديد من حيوانات فصيلة البقريات التى يصعب التحقق من أنواعها، نظرا إلى أن تصويرها يكتفى برسم خطوطها العريضة. وأخيراً، حدث شىء على أكبر قدر من الأهمية، فقد انفصل الحيوان من سطح الأوانى ليصور بارزاً، بل مجسماً، واقفاً عند حافة الآنية، ونذكر على سبيل المثال هذه الأفيال وهذه التماسيح وهذه السحالى فى متحف برلين أو أفراس النهر على كأس المحاسنة (Garstang: 1903 Pl. x1) أو فى متحف القاهرة (Quibell: 1905 pl. 24, n° 11570).

أما الأوانى ذات الأشكال الحيوانية التى سبق أن شاهدنا ميلادها من خلال عاج البدارى فقد ازدادت وتنوعت على امتداد القرون اللاحقة.

وان لم يكن الآدميون غائبين تماماً عن الساحة، إلا أن أعدادهم كانت أقل من الحيوانات.

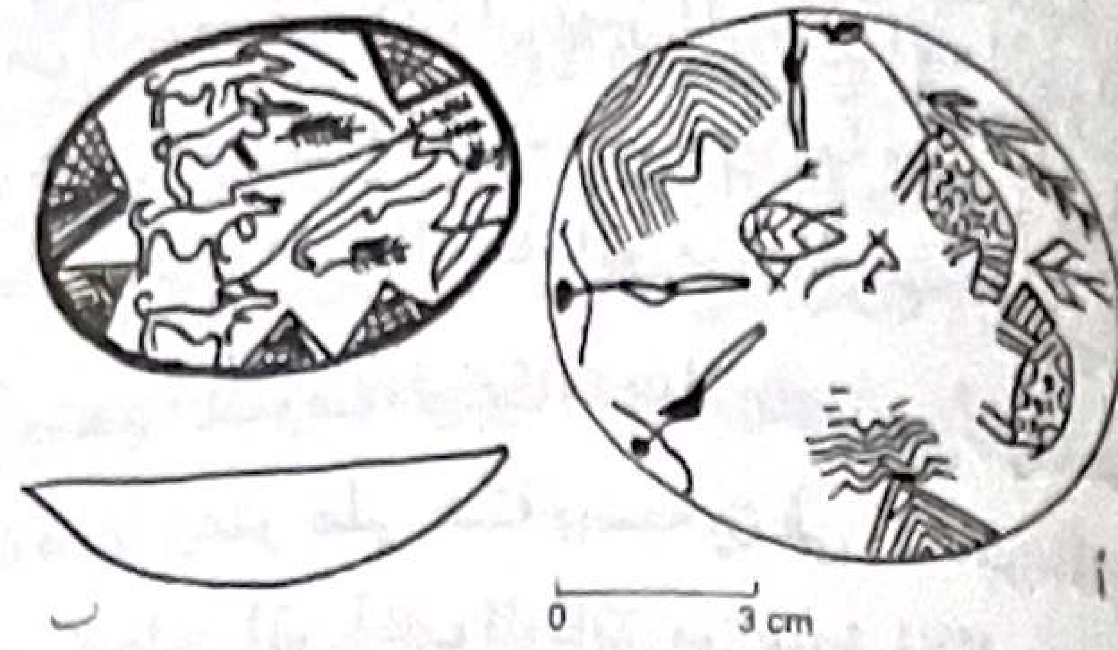
وهم يظهرون وقد أقتصر تشكيلهم على الخطوط العريضة، فالرأس صغير ومستدير، ينبثق منه، فى كثير من الأحيان، حلى من الريش أو الأغصان، فوق جذع مثلث الشكل ينتهى بأرداف نحيفة تمتد بسيقان «كالعُصى» وأحياناً بلا أقدام. والسواعد غير موجودة، اللهم إلا إذا ظهرت الحاجة إليها! وهكذا فعلى السطح الداخلى للكأس الشهير الذى يقتنيه متحف موسكو (شكل ٥أ)، يمسك الشخص بقوس بيده اليسرى وبأربعة مقاود[4] - رمزية (؟) تربطه بأربعة كلاب سلوقية. ومن نفس عالم صيادى البر، يصور إناء من المحاسنة شخصاً فى خطوطه العريضة فقط فى هذه المرة (شكل ٥ . ب) وقد أختصر الجذع إلى مجرد عود، ويشير الساقان المتباعدان إلى المشى والحركة والمجهود أيضا بلاشك، كما أن وجود انتفاخ ربما يشير إلى جراب عضو الذكر ويقف الشخص فى مواجهة فرس نهر طُعن بخطاف، وحبل الخطاف مثبت بين أذنى الحيوان، ويمتد أفقياً ليلتقى بالصياد بما يشبه كرة توحى ببكرة قصبة الصيد. ولاشك أنها موضوعة فى يد الشخص، سواء بشكل فعلى وفى هذه الحالة فقد فُقد الذراع أو بشكل رمزى ولم يوجد الذراع أبداً. وعلى إحدى كؤوس المحاسنة (شكل ٥ جـ) ضاع رأس قاذف الخطاف الذى صورت خطوطه العريضة فقط، فى حين نرى شخصين وقد صورا بالكامل وهما يرفعان ساعديهما، وكأنهما يرقصان. أما إناء الشكل

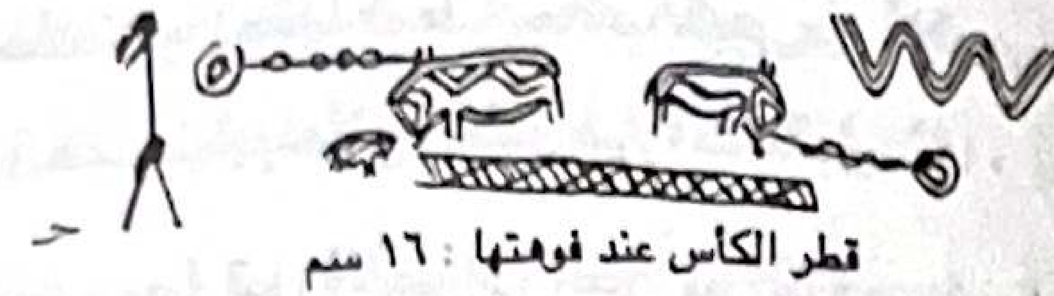
ـ ر فهو يصور عالم الرقص. لقد استفاد من شكل الإناء المستطيل، ليشغل شخصان ارتفاع جانب منه بالكامل. وقد ذهب «پترى» فى بداية الأمر (1920, 16 et pl. XVIII, 74) إلى أنه مشهد معركة بين رجلين. ولكن كما تلاحظ «بومجارتل» Baumgartel ومعها «ڤانديه» Vandier (1952, 287)، فإن وقوف الشخصين وجهاً لوجه يُبرز فى الغالب الإزدواجية الجنسية للشكل: فأحدهما كبير والآخر صغير. ولأحدهما عضو ذكر، وللآخر انتفاخ صغير قد ينظر إليه باعتباره جراباً لعضو الذكر، ولكنه قد يكون أيضاً، بالنظر إلى قصر الشخص، صورة للفَرْج، وقد نقل إلى وضع جانبى، لابراز عورة المرأة على هذا النحو، «كاستجابة» لعورة الرجل، وذلك حتى لو تركنا جانباً ضخامة الحوض المبالغ فيها، وهو ما ينظر إليه فى أغلب الأحيان كسمة مميزة وبارزة للأنوثة.

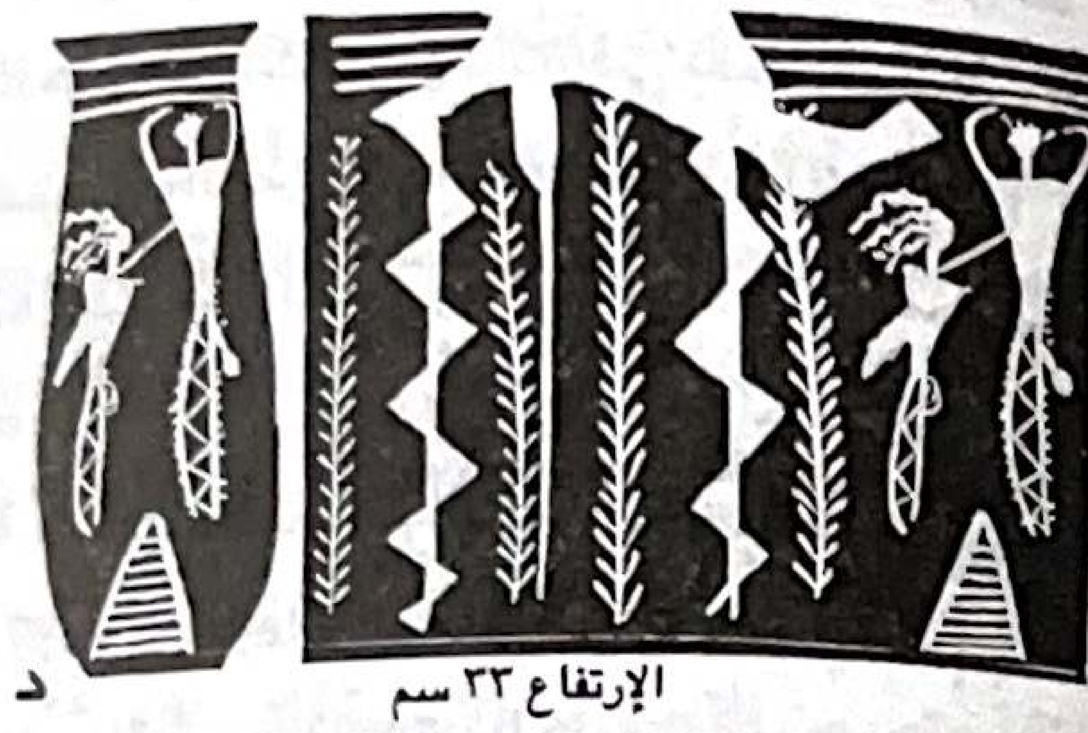
إن إناءً يقتنيه متحف بروكسل (Scharff, 1928, pl.xxx vlll)، يصور مشهدا مشابها، يجمع، من خلال صورة معقدة ومتشابكة، بين رجلين وست نساء، كل إثنتين معاً. وفى نهاية حديثنا عن رسومات عالم ابناء العمرة، فلنذكر بعض تصاوير القوارب المقوسة، وقد رسمت فى الغالب من جانبها، وإن صورت مع ذلك فى حالة واحدة، كما لو كانت تشاهد من أعلى، فتبدو منبسطة، ولتشغل فى تناغم وانسجام قاع طبق (شكل ٥:هـ). وفى مقدمة القارب[٥]، يجلس شخص صغير الحجم وقد صور فى خطوطه العريضة. وهكذا أستغل شكل القارب من خلفية الطبق الذى صور عليها، كما يبرز القارب ثمانية أزواج من المجاديف زائد مجداف واحد كما لو كانت عدداً من المثلثات تزخرف الحافة الداخلية للطبق وكأنها إفريز.

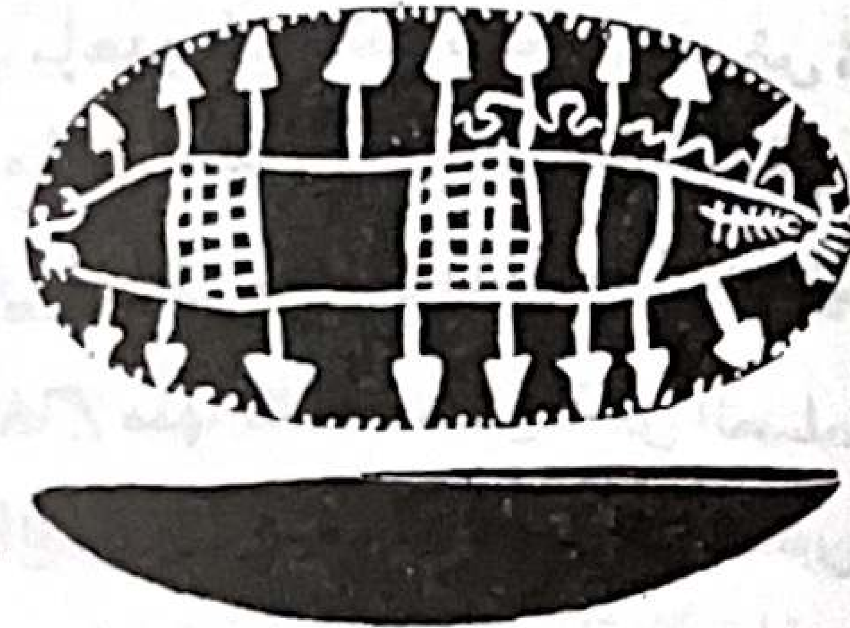
إن عالم النهر الذى هو أصل الحياة ومصدرها، منذ آلاف السنين، بالنسبة للجماعات البشرية التى تعيش على ضفافه، قد أخذ يفصح الآن عن نفسه فى لغة *تخطيطية*، حيث يحتل الحيوان مكان الصدارة، الحيوان الذى يخشاه الإنسان ويرهب جانبه، والذى يطارده لقنصه والذى يقتله والذى يتم تدجينه وتربيته أيضا، والذى يتم مراقبة حركاته وسكناته، والذى يبقى دائما محل احترام الإنسان. انه الحيوان الذى يتسلل خلفه الإنسان فى *خفية*، كقناص - فلننظر إلى الإيجاز الشديد للخطوط العريضة التى تصور الإنسان حامل الخطاف ونقارنها بتفاصيل صورة أفراس النهر. وقد بدأ الإنسان فى التعبير عن وجوده فى مشاهد تضفى طابعا مقدسا على نشاطه الجنسى. إن ظهور القارب على استحياء فوق مسرح الحياة - وكان وسيلة الإنتقال المثلى فى بلد يتكون من نهر - كان هذا الظهور نقطة البداية لمصير ممتد وطويل..

إن الصورة الآدمية وهى مكون من مكونات مشاهد الصيد والرقص أو صورة الملاحة على سطوح الأوانى وتحتل فيها أهمية متفاوتة، هذه الصورة التى نشأت فى أول الأمر، كما









شكل ٥-أ-ب-جـ-د-هـ

لاحظناها على هيئة تماثيل صغيرة من الصلصال أو العاج، قد اكتسبت فى عصر العمرة زخماً متميزاً.

وغنى عن القول أنه من الصعوبة بمكان أن يميز المرء بين التماثيل الصغيرة التى نحتت فى المراحل المتعاقبة من عصر ما قبل الأسرات. إن تمييز ما يعود إلى ثقافة العمرة من باقى الإنتاج، دون المخاطرة بالوقوع فى الخطأ، لهو مراهنة مستحيلة، فى الوقت الحاضر.

فمن بين ٢٢٦ تمثالاً صغيراً نشرها «أوكو» Ucko (1968) فى دراسته التجميعية، جادت الحفائر بأربعة وثمانين منها وعثر على ستة وسبعين فى المقابر التى عانت فى معظم الأحوال من السلب والنهب. فجاءت إذن أغلب الوثائق من سوق الآثار.

ومع ذلك، يمكن استخلاص ملاحظات على جانب كبير من الأهمية من الدراسة المذكورة ومن الضرورى ان نذكرها عند التمهيد لأى تحليل فى المستقبل.

ومن بين آلاف مقابر عصر ما قبل الأسرات التى تم التنقيب فيها، تحتوى بعضها فقط على التماثيل الصغيرة. وهى موجودة، بوجه عام، بمعدل تمثال واحد فى المقبرة الواحدة وثلاثة أحيانا، وقد يُزاد العدد إلى أكثر من ذلك، فى بعض الحالات الإستثنائية. وأقصى عدد جادت به مقبرة تنتسب إلى العمرة هو ستة عشر تمثالاً صغيراً . إن دراسة التقدمات الأخرى التى تصاحب هذه التماثيل الصغيرة لا تعطينا فكرة واضحة عن المقابر «الثرية». وربما كان هؤلاء الأشخاص المنحوتون يمثلون العنصر الجنائزى الوحيد. وعلاوة على ذلك، فإنها تعبير عن خصيصة للمتوفى، كما تم البرهنة على ذلك من ناحية أخرى بشأن بعض المُدى الظرانية الجميلة. (Midant-Reynes: 1987). إنها خصيصة إجتماعية ولكن تشريحية أيضاً، كما يدل عليه إناء شُوّه قبل حرقه، وتم الكشف عنه حديثاً فى العضايمة، فى مقبرة رجل طاعن فى السن مصاب بإحديداب بشع ناتج عن مرض تدرّن العظام. (Midant-Reynes et al. 1991). وتثير هذه النقطة عدداً من الأسئلة الأولية حول التقدمات الجنائزية: ما فائدتها؟ كيف كان يتم اختيارها ووفق أى معايير؟ كيف كانت تؤدى الغرض منها؟.

وفيما يتعلق بتماثيلنا، فإن ٦٨٪ منها كانت مصنوعة من الصلصال، والباقى من العاج، ومن عجينة نباتية، وفى النادر القليل من العظم. وظلت ثقافة العمرة لا تستخدم الحجر إلاّ لماماً.

ولقد صور الرجال والنساء، بصفة عامة، وهم واقفون، وقلما كانوا جالسين، مع التشديد على الملامح الجنسية الأولية: الثديين وتضخيم الردفين ومثلث العانة وعضو الذكر أو جراب العورة. والساقان هزيلان ويصوران أحيانا بشكل غامض، قد يقتصر على خط مستقيم يتوسط الشكل فيوحى بهما، ولكن الجزء الأسفل من جسد الإنسان هو فى الغالب

مجرد وتد، الهدف منه على ما يظن أن يغرس فى الأرض إلى جوار المتوفى. ذلك، وإن وضعت فى بعض الأحوال تماثيل صغيرة فى سلة أو قفة. ويعانى الساعدان أحيانا من نفس المصير من الإهمال؛ فيتحولان إلى جدعتين(٦). ولكن قد يظهران على امتداد الجسد أو مرفوعين فوق الرأس، على غرار راقصات الأوانى إلى حد ما - وأحيانا يبرز أنف «على هيئة منقار أحد الطيور الجارحة، كمكون أو حد للوجه. ولكن فى كثير من الأحيان، هناك إشارة عابرة إلى الفم والعينين، بالإضافة إلى الشعر - أو الشعر المستعار - مجدولا أو مقصبا. إن إزميل نحات العاج يشكل الأذنين على الدوام تقريبا، وان كانتا لا تظهران إلا نادرا فى النماذج المصنوعة من الصلصال.

وعلى غرار الأوانى، تظهر على بعض التماثيل الصغيرة المصنوعة من الطين المحروق (شكل ٦ – أ) زخارف هندسية على هيئة خطوط منكسرة وحيوانات من ذوات الأربع هندسية الشكل، وقد رفض «كيمر» Keimer (1g48) أن ينظر إليها على باعتبارها وشماً.

ولا يبدو أنه من الممكن استخلاص أنماط محدودة من مجموع الوجه التى تم دراستها، ولكن حرى بنا أن نقول كما يلاحظ «أوكو» Ucko (1968) و«نيدلر» Needler (1966)، أنها تنويعة من الصيغ المعتمدة، وقد تضافرت وتشابكت، بقدر من الحرية. ويمكن القول «أن الفن يبحث عن ذاته. قبل ظهور أى معيار قياسى أو قاعدة ملزمة، لإخضاع تصوير الإنسان لضوابط محددة. وقد وصلتنا هذه التصاوير من خلال التماثيل الصغيرة، ورسومات الأوانى، على حدّ سواء، وهى تتمركز على كل حال حول الجنس. ولربطها بتصورها الإجتماعى، ثمة داعى لفهم دورها فى المقابر. **فلماذا كان «يحق» للبعض أن يمتلكوا تماثيل، فى حين لا «يحق» للبعض الآخر؟**

ومع ذلك، تظهر فئة أخرى من التصاوير الآدمية التى لا ندرى إذا كان من المناسب هنا أن ندرسها .

إنها عبارة عن أشخاص صوروا تصويراً مبسطاً يكتفى بالخطوط العريضة، فهم فى الغالب مجرد وجوه ملتحية، فوق عصيات من العاج المحفور أو عند الطرف المدبب لأنياب أفراس النهر (شكل ٦.ب).

هنا أيضا تتعدد التنويعات فى إطار تصور عام. ويبدو ان اللحية المثلثة هى العنصر الثابت. وتعلوها أحياناً عينان كانتا مرصعتين فيما مضى، مما يعطى للشخص مظهرا غريبا أقرب إلى الطائر، وأحياناً تواجهها، بعبارات هندسية، قلنسوة «فريجيانية»(٧) bonnet "phrygien" بها ثقب تعلق منه.

وتصل سلاسة الخطوط أوجها فى «ملتحى ليون»(٨)، المصنوع فى الشست، والذى عثر عليه فى الجبلين خارج الاستراتيجرافيا.

وليس فى نيتنا هنا أن نشرع فى الدراسة الضخمة حول هذه التماثيل الصغيرة، التى مازالت تنتظر من يتصدى لها، انطلاقا من «إيضاحات» «أوكو» . ولكن سوف نكتفى بتوضيح بعض نقاط التحليل التى ربما سيعود إليها الفضل فى الكشف عن محاور جديدة للأبحاث.

وكما هو الحال بالنسبة للوثائق السابقة، ينبغى أن نميز ما جادت به المقابر المؤرخة مما تم شراؤه. وكما هو الحال على الدوام – أو تقريباً . فقد جاءت أجمل النماذج من التجارة.

وقد تصدى «فينكنستادت» E.Finkenstaedt (1979) للمشكلة الجوهرية المتعلقة بالتتابع الزمنى للقطع. وقد توصل إلى نتيجة واضحة: إن هذا الطراز من الوثائق يعود إلى الطور الأخير من عصر ما قبل الأسرات وليس إلى ثقافة العمرة. وإن كانت دراسته تحتاج إلى نظرة أكثر شمولاً وإلى تدعيمها بالتحديد بمزيد من أعمال التنقيب، إلا أنه لن يفوتنا أن نلاحظ أن الذكورة تكشف عن نفسها من خلال اللحية، دون سواها، كملمح *ثانوى* من ملامح الجنس، وليس *أوليا* كعضو الذكر أو جراب العورة، على سبيل المثال. ومعنى ذلك أن الرجل (كنقيض للمرأة) لم يعد ممثلا بعورته، ولكن بالوضع الإجتماعى الذى يوفره له عضو التذكير. فلنتذكر إذن اللحية المستعارة ومكانتها عند الفراعنة، فقد كانت رمزا للقدرة وهى وقف بالتحديد على ذقن الملوك وبعض الآلهة، دون سواهم.

وسوف نلاحظ من ناحية، ان الصعود المتسارع لفئة اجتماعية، وهى طبقة الزعماء، أمر تشهد عليه أبعاد المقابر وأحجامها وتجهيزاتها. وإذا تبين ذات يوم، أن القيام بدراسة هذه التماثيل الصغيرة بات أمرا مكنا، ويتم تحليلها تحليلا صارما وفقا للمنهج التتبعى (التاريخى)[9] diachronique، فاستطاعت أن تثبت صحة النتائج التى توصل إليها «فينكنستادت»، فلسوف نحصل عندئذ على صور «حية» لهؤلاء الملتحين الأوائل من أصحاب السطوة والأمر، وهم الأجداد الأقربون لملوك مصر الأوائل.

ولا يسعنا أن نترك مجال التصويرات الآدمية دون أن نشير إلى وعاءين لهما سمات نوعية تميزهما عن غيرهما من الأوعية. الأول أسود ومصقول، جادت به مقبرة فى «ديوسپوليس» Diospolis وقد شكل على هيئة امرأة. والآخر، أحمر بشفة سوداء وقد جادت به مقبرة فى نقادة ظلت سالمة على حالها، ويحمل تشكيلاً بارزاً تشكل دلالته لغزاً، ويظل تأويله على أقل تقدير مجالاً لافتراضات غير مؤكدة (شكل ٧). انه عبارة عن وجه إنسان، يمكن أن نتعرف على أنفه المدبب والعينين، فى يسر وسهولة، وله امتداد على هيئة خط قد يصور الجسد. وأسفل الرأس وعلى جانبى الخط الذى يفترض أنه الجسد يخرج خطان آخران على هيئة قرنين يرتفعان إلى أعلى الوعاء. وذهب «كاپار»[10] (1904) إلى أنه رجل يتعلق بالسطح ويضم الوعاء بأكمله بساعديه وساقيه. وتقترح «بومجارتل» Baumgartel، و«ڤاندييه» (1952:288)

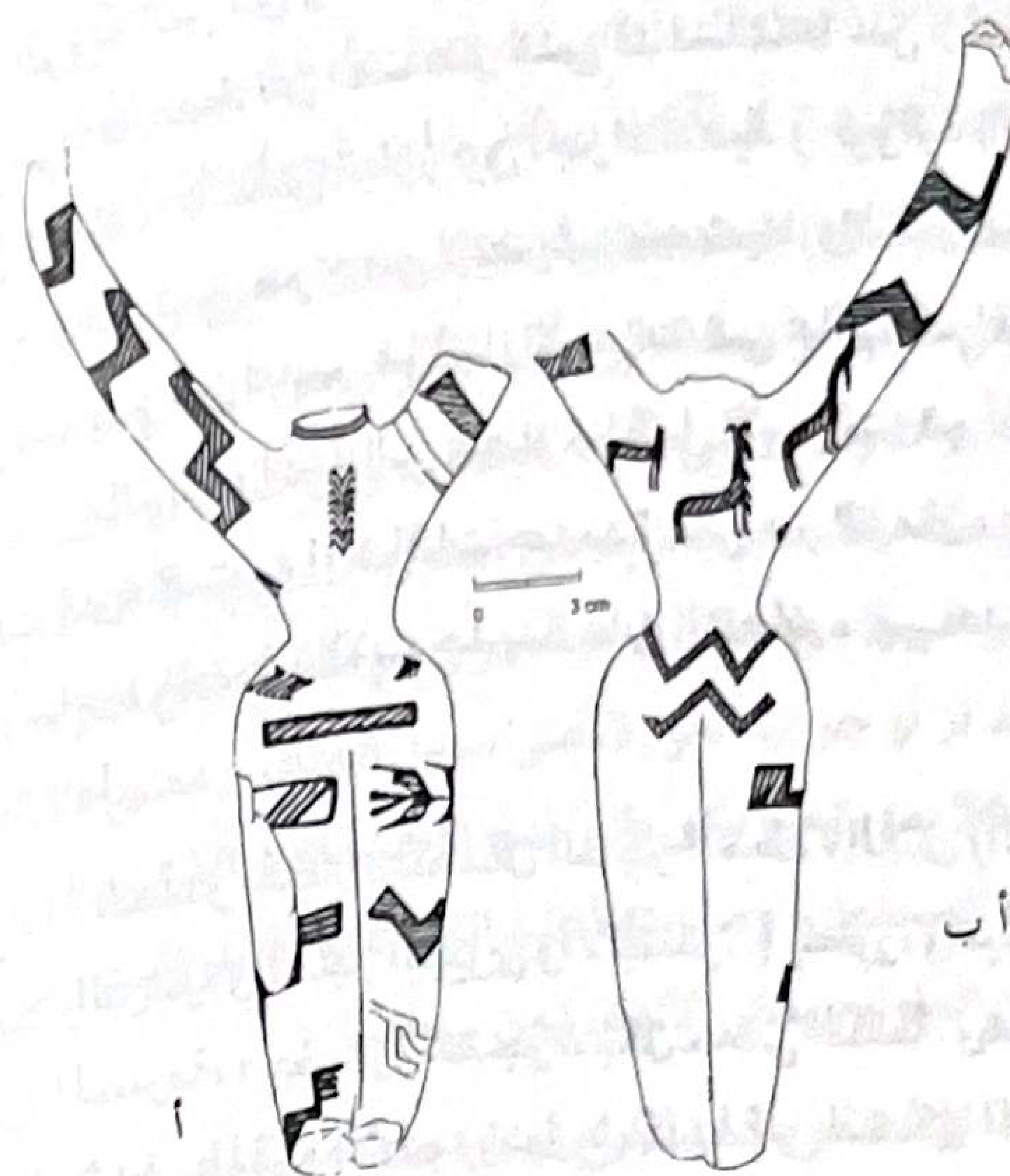
Vandier من بعدها، أن يكون ازدواج تصوير الرأس الآدمى وزوج القرون تعبيرا عن إلهة الخصب، كنموذج أولى لحتحور.

غير أن الرؤية التى فى وسعنا أن نصبو إليها لهذا التشكيل لا تساعدنا على الوصول إلى أى تفسير مرضٍ. فالعديد من العناصر التى قد تساعدنا على «ربطه» بصياغة رمزية معروفة، ناقصة. ان التأليف، بالنقش البارز بين أجزاء آدمية وحيوانية (القرون؟) ليس صدفة بريئة، ولكنه يستند إلى نسق مرجعى لا نعرف عنه شيئا. وإذا كان فى وسعنا أن نشير أحيانا إلى استمرار عناصر من عصر ما قبل الأسرات فى عالم الفراعنة، إلا أن العكس (أى إرجاع عناصر من عالم الفراعنة إلى عصر ما قبل الأسرات) هو أمر محفوف بالمخاطر، لأن التصورات قد علقت بها إضافات جديدة على مر الزمان، واكتسبت أبعادا مختلفة، ثم جاءت الأساطير لتسبغ دلالات جديدة على الشعائر، إلى حد أنها قد محت تقريبا معناها الأصلى بالكامل.

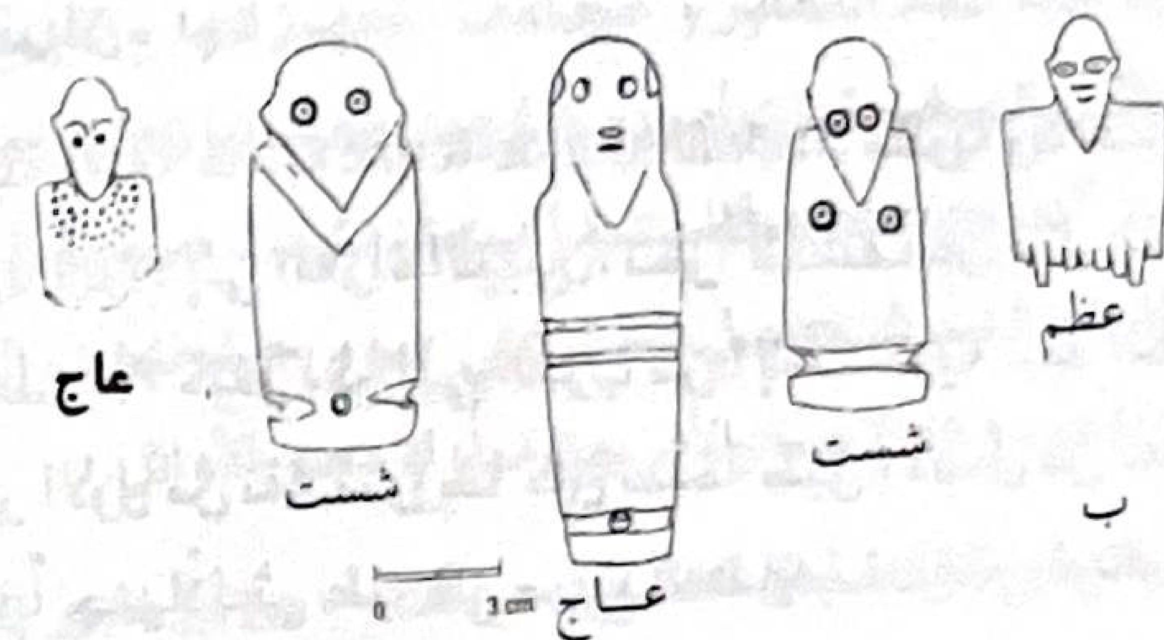
وفى هذا العصر، أخذ استعمال الحجر الصلد والهش (الشست والجرانيت والپورفير والديوريت والبرشيا والحجر الجيرى والألبستر..) يتطور، وسيتسارع على الدوام، ليجعل من الحضارة المصرية، «حضارة الحجر»، بكل معنى الكلمة. وظهرت الأوانى الأولى، وهى من الحجر الهش فى المقام الأول، ويميل شكلها إلى الشكل الأسطوانى، ولها قائم قصير مخروطى وأذنان رأسيان مثقوبان.

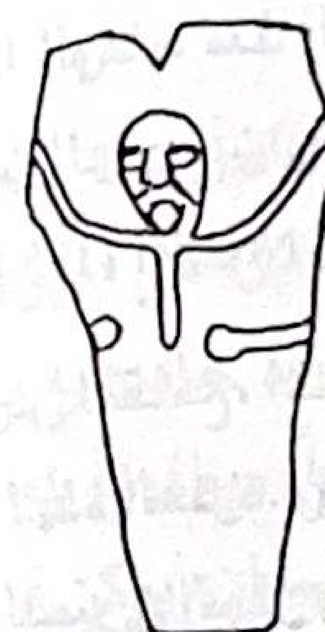
إن طرازاً خاصاً على هيئة «قبعة عالية» chapeau-haut-de-forme مقلوبة وقاعدتها أعرض من حافتها، قد نسبه «پترى» Petrie إلى الغزاة الليبيين، نظراً للكشف عن مثل هذه الأوعية فى مرسى مطروح، على بعد ٣٠٠ كيلو متر إلى الغرب من الإسكندرية. بيد أنه قد تأكد وجود هذا الوعاء، منذ الطور الأول من نقادة، وربما كان نسخة طبق الأصل من نموذج أولىّ بدارىّ من العاج. إن نموذجاً جميلاً عثر عليه فى موقع العضايمة قد قام «نيدلر» بنشره. Needler (1984. n°116).

ورؤوس المقامع، المخروطية الشكل، ذات السطوح المستوية أو المحدبة قليلاً، هى السمة المميزة لهذه الفترة. وقد صنعت فى المعتاد من الحجر الصلد، ولكننا نجدها أحيانا من الحجر الجيرى الهش ومن الطين المحروق بل من الطين النيىء. وهى فى هذه الحالة، عبارة عن نماذج وضعت فى المقابر ومازالت مزودة بمقبض، فى بعض الأحيان. وقد عثر على مقمعتين فى الأبعادية (Petrie 1901 pl.5 et p 33)، احداهما بمقبض من العاج والثانية بقرن حيوان. وكان الثقب صغيراً جداً، ويبلغ قطره ستة ملليمترات، ويوحى بأن الكسور كانت من الأمور الشائعة وهو ما يفسر وجود رباط أو وثاق شديد المتانة يشد الرأس بالمقبض،



شكل ٦ :أ ب





شكل ٧

وسيطوى التفاف هذا الرباط على امتداد المقبض وقد اشار إليه النموذج المرسوم فى إحدى مقابر العمرة (Randall- Maciver a. Mace:1902: pl xII,1). وسوف يصور هذا الرباط على الصورة الهيروغليفية للمقمعة المخروطية التى ستصبح العلامة الصوتية phonogramme (Gardiner 1969 Sign list T1).

[illegible][11] وما تنطوى عليه من رمز للسلطة، يؤكده كل التاكيد وجودها فى المقابر الكبرى، ومنها على سبيل المثال، مقبرة «هيراكنپوليس» Hierakonpolis[12] المخصصة بكل وضوح لأحد زعماء الأقاليم.

وقد جادت إحدى مقابر جبانة المحاسنة برأس مخروطى مزدوج وهو نوع نادر. (Garstang: 1903: pl xx,3).

إن صلايات الشست، بعد أن كانت مستطيلة، أزدهرت فجأة على نطاق واسع، فى مختلف الأشكال المتنوعة البيضاوية المحدودة، وتحمل أحياناً حيوانات محفورة، ولكنها كانت أساساً ذات أشكال حيوانية. وأجاد الفنان دمج السمات المميزة للحيوان المعنى، فى الشكل العام للصلاية، مع إبراز بعض التفاصيل عن طريق الحفر. أن عالم الحيوان تمثله بغزارة الأسماك والسلاحف والتماسيح ولكن أيضاً الطيور وأفراس النهر والأفيال. والأشكال الآدمية قليلة ونادرة. ويوجد طراز فريد أطلق عليه «پترى» Petrie اسم «پيلتا» "Pelta"[13]، بسبب بعض أوجه الشبه التى تربطه بالتروس «الأمازونية»[14] amazoniens وهو على هيئة مركب مقوس، يبرز فى وسطه نتوء مستطيل، ربما كان يمثل مقصورة. وفى بعض الحالات، كان الطرفان (القيدام أو الكوثل)[15] يتحولان إلى رأسى طير، ليجمعا بين الحيوان والمركب وهو ما يشبه الى حد ما، الأشكال المصورة على الأوانى الجرزية[16]، فى وقت لاحق. وعلى مقربة من هذه الصلايات كانت توجد أحياناً حصاة من اليشب Jaspe مازالت تحمل فى بعض مواضعها بقع المغرة أو الدهنج (الملاخيت) malachite وقد وضعت هذه الصلايات بجوار المتوفى كعنصر مرتبط بزينة الجسد . إن وجود ثقب فى معظم الحالات تقريبا، ويعرف اصطلاحاً «بثقب التعليق»، يوحى بأنها كانت ترتبط إذا لزم الأمر بالجسد برباط مادى.

ولم يتوقف انتاج المشغولات المصنوعة من العظم والعاج، بل على العكس زادت كمياتها..

إن الإبر والمثاقب والمخارز، والأمشاط ذات الأسنان الطويلة والمقابض المزخرفة، ودبابيس الشعر والأساور والخواتم والأوعية الصغيرة المصنوعة من العاج، وهى شبيهة بطراز تلك التى صنعت من الحجر، كل ذلك، يشكل امتداداً لعالم البدارى ويعمل على إثرائه.

إن أدوات الحجر المشظى، كما يُعثر عليها فى المقابر، نادرة وجميلة الصنعة. وتضم فى المعتاد نصالا رفيعة وطويلة، ومشظاة على الوجهين، وقد يصل طولها حتى أربعين سنتيمتراً، وهى مسننة تسنيناً دقيقاً وشديد الإنتظام، ولها سمة تقنية متميزة، فقد صقلت قبل إجراء لسات صقل مسطحة وطويلة، مما أكسب القطعة نحافة ملحوظة. وقد اتبع نفس الأسلوب مع الحراب المتشعبة، وهى نصال مشطورة، وكانت هى أيضاً مسننة تسنيناً دقيقاً فى جانبها الحاد، وتذكرنا من الناحية المورفولوجية بآلات الدولة القديمة التى يطلق عليها «بسش - كف»، وهى الآلات المشطورة المستخدمة فى شعيرة «فتح الفم».

ولكن من الصعوبة ان نحصر صناعة ثقافة العمرة الحجرية فى هذه القطع الإستثنائية.

وإذ أخذت «هولمز» Holmes (1989) بعين الإعتبار الموائل التى تم التنقيب فيها قديماً وحديثاً، فقد توصلت إلى تعريف صناعة قائمة على الشظايا وعلى ظُران صحراوى اللون beige، فى وضع أولى، فى الجبل والوديان المحلية. إن فئات الآلات الرئيسية ممثلة بالإزاميل البسيطة من تصدع الصخور[١٧] والمباشر – ولا تكون دائرية إلا نادراً – والأدوات المسننة والرُفض والمخارز، ومنها «المخراز الكبير» (Tixier 1963: n°15) والأدوات المشطوفة والأدوات ذات الظهر والمساحج (المسطحة) ولاسيما الفؤوس الصغيرة ذات الوجهين والتى تم شحذها فى الغالب «بضربة من المقدّ»[١٨] (Holmes: 1990). وأسنة الرماح نادرة. وتنتمى إلى فئة الأسنة ذات الوجهين والقاعدة المقعرة. إن العديد من عناصر المناجل ذات الوجهين ولكن المصنوعة أيضاً من النصال، ولها أسنان ذات بريق، تعكس الدور الذى لعبته النباتات فى غذاء أبناء العمرة.

وظل الستياتيت المزجج مستخدما. ولكن يبدو أن تاريخ أولى محاولات صنع «القاشانى المصرى» تعود إلى هذا العصر. انه عبارة عن نواة مكونة من الكوارتز المسحون واعطيت الشكل المراد، وغطيت بمادة مزججة مكونة أساسا فى النطرون ولونت بأكاسيد معدنية. وقد جادت إحدى مقابر نقادة بدلاية صغيرة على هيئة عصفور (Petrie 1896 pl. LX. 19). وقد تم تاريخها بفضل الخزف الأحمر ذى الزخارف البيضاء، تبعا لمرحلة نقادة الأولى، وربما كانت هذه الدلاية الممثل الأول «للقاشانى المصرى» (أنظر Kaczmarczyk, 1983 A71).

إن التحكم فى أساليب الإحتراق، وامتلاك ناحية المعالجة الحرارية، وما يترتب عليها من نتائج كيماوية، تشكل القاعدة التى تنهض عليها تكنولوجيا النار، التى لا تنفصل، من ناحية أخرى، عن فنون معالجة المعادن.

بيد أنه لا يوجد حول هذه النقطة سوى فروق محدودة بالمقارنة مع البدارى. وظل القوم يكتفون بطرق النحاس الذى أنتج مع ذلك أشياء أكثر عدداً وأكثر تنوعاً: دبابيس وإبرا ذات

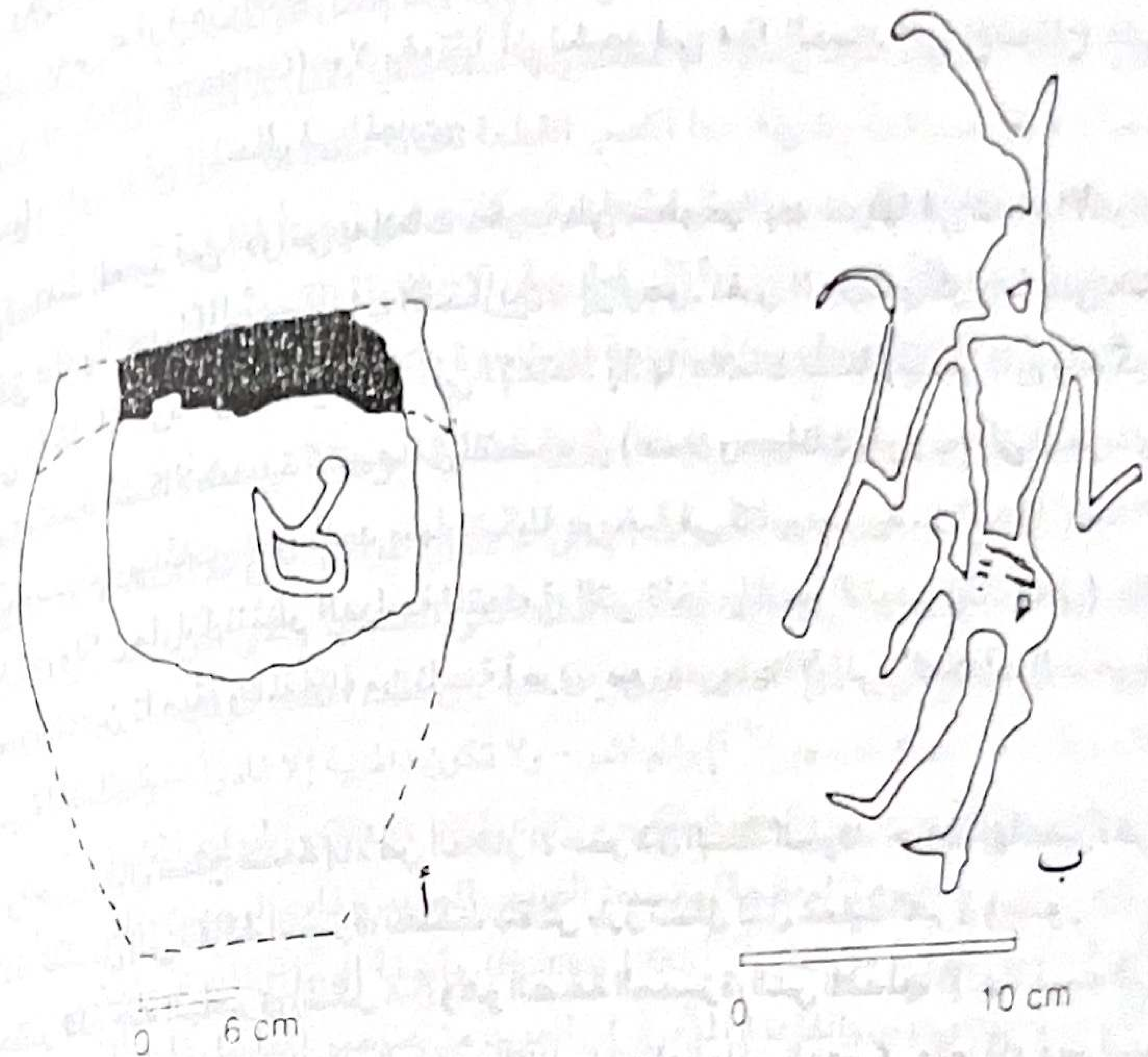
عيون وخرزا وأساور وخلاخيل وأسنة بل وبعض الشصوص وأولى الأشكال التى تقلد الحجر المشظى وهى عبارة عن أسنة الحراب المشطورة التى عثر عليها فى إحدى مقابر المحاسنة (Garstang: 1903: pl. xix, 5). ولا يفوتنا أن نشير فى هذا الصدد إلى الإنفتاح على استحياء، على موقع الشمال فى المعادى.

وتحتفظ العديد من الأوانى بعلامات حفرت على سطوحها بعد حرقها فى معظم الأحوال ويطلق عليها اصطلاحاً «علامات الفخاريين». إن وجود نفس العلامة وتكرارها على عدة أوانى داخل المقبرة الواحدة يحملنا على الإعتقاد بأنها علامات مِلْكية (بكسر الميم وتسكين اللام) وتتخذ أشكالاً شديدة التنوع، من التصويرى (آدمين وحيوانات وقوارب) إلى التجريدى (أهلة وسهام ومثلثات..). وسنجد منها تشكيلة عريضة فى كتاب «بترى» Petrie (1896, Pl Li a'LVII)، ولكن مازلنا ننتظر الدراسة المتعمقة، التى تأخذ بالمنهج التتبعى (التاريخى) -dia chronique من ناحية، وبالمقارنة من ناحية أخرى، مع رسومات الأوانى والعلامات الصخرية العديدة المشابهة.

وأخيراً، فإن سطح شقفة إناء من الفخار الأحمر ذى الشفة السوداء جادت بها مقبرة فى نقادة، تنتمى إلى ثقافة العمرة، تحتفظ بنقش بارز تشكل قبل عملية الحرق ويصور التاج الأحمر للوجه البحرى (شكل ٨-أ) وهو الصفة المميزة، التى تحملها الإلهة «نيت» فى سايس[١٩] وهو رمز الشمال فى المفهوم الثانى للنظام الملكى المصرى. ولما قام «وينرايت» Wainwright (1923) بنشر هذه الصورة،انفتح الباب أمام تأويلات، الهدف منها تفسير سبب وجود رمز الوجه البحرى هذا، فى الوجه القبلى، منذ هذا الزمن المبكر.

ولكن لا يوجد فى الو ضع الراهن لمعارفنا ما يحملنا على تأكيد وجود مملكة فى الوجه البحرى، فى النصف الأول من الألف الرابع، أو افتراض نشأة شعائر محلية، كانت من القوة بحيث تكون أصداؤها قد أمتدت إلى الوجه القبلى.

ومن ناحية أخرى، فإن أمثال غطاء الرأس هذا، تزين رأس شخصيات محفورة على سطوح صخور وادى قاش، فى الصحراء الشرقية. ويرتدى أحدهم نقبة قصيرة (شكل ٨.ب) وجراب العورة ويمسك بعصا الراعى المعقوفة وهى التى ستصبح إلى جانب السوط، الصولجان الذى يمسك بهما الفرعون. وهناك شخص آخر (Winkler, 1938, pl.xlv) تفاصيله أقل وضوحاً أو يصعب التعرف على ما يرتديه، فهو يمسك بعصا الراعى المعقوفة وسط مشهد صيد وحوش النهر الضخمة (افراس النهر والتماسيح) وكان هذا النوع من الصيد يتم على متن القوارب. إن وجود صورة لشخص يرفع ساعديه المنحنيين تنمّ عن الأصول



شكل ٨ : أ . ب

الثقافية لهذا المشهد. وسواء نظرنا إلى ملابسه المميزة، كما تظهر وسط مجموعة رسمت ملامح أفرادها الآخرين فى عجالة، أو نظرنا إلى وضعه فى وسط مشهد الصيد، فإن كل شىء يدعونا إلى القول بأن هذا الشخص هو صورة لها دلالتها – أهو زعيم أم ساحر أم إله؟ – فقد كان وجوده ضرورياً لنجاح رحلة الصيد.

إن كون غطاء الرأس هذا، هو رمز الدلتا فى العصر الفرعونى، لا يستلزم بالضرورة أن يكون منشؤه فيها، وربما كان من الأحرى أن نفترض انه اتخذ غطاء للرأس بعد أن فرض الوجه القبلى هيمنته على الشمال، وأصبح له اليد العليا عليه.

وقد كشفت «كيتون – تومبسون» Caton-Thompsin، فى الهمامية، عن الآثار الأولى للمحلات، على هيئة تسعة «أكواخ» وهى دائرية البنيان، ويتراوح قطرها من متر واحد إلى مترين ونصف، وقد حفرت فى جانب منها فى تربة معبدة. ومن الممكن النظر إلى بعضها على باعتبارها بالفعل أماكن مخصصة للسكن، بسبب وجود موقد، وفى المقابل توحى بعض الأكواخ الأخرى، نظراً لصغر حجمها، بأنها كانت مخصصة لأعمال التخزين. إن الأبحاث التى قام بها فكرى حسن و«هايز» Hays، منذ ١٩٧٨، فى منطقة الخطارة[٢٠] قد ساعدت مع ذلك، على تحديد صورة استراتيجيا شغل المكان، كما مارسها أبناء ثقافة العمرة. فأمكن الإمتداء إلى حوالى عشرة موائل، بالإضافه إلى المواقع التى تعرف عليها «بترى» Petrie وهى قائمة على المدرجات المنخفضة المشرفة على الزراعات، وتبدأ من عدة آلاف من الأمتار المربعة لتصل إلى ثلاثة هكتارات، [٢١] وتظهر على هيئة إرسابات يتراوح سمكها من عدة سنتيمترات وحتى متر واحد. وتعود المادة الخزفية والحجرية إلى الطور الأول من نقادة، رغم ان وجود شقف ذات سطوح متموجة قد نسبت فى بداية الأمر (Hays, 1984) هذه المجموعات إلى ثقافة البدارى. ولم يتبق أى تكوين مبنى، ولكن يوحى وجود العديد من كتل الطين، إلى جانب ثقوب الأوتاد والمواقد، بوجود مبانٍ من الطوب اللبن.

وقد ذهب فكرى حسن Hassan (1988, 155) إلى أن التحليل الستراتيجرافى للمكونات المجهرية فى طبقات الروث الحيوانى (الماعز والخراف)، يوحى بوجود ما يقرب من أطوار إشغال خمسة، تتراكب أو تنتقل جانبياً، لتفصح عن ظاهرة تعاقب هجر المكان وإعادة شغله. ويبدو أن عدد من شغلوا هذه المواقع، على امتداد فترة تصل إلى مائتى سنة، يبلغ فى المتوسط من ٥٠ إلى ٢٠٠ شخص، وتحدد متوسط تواريخها، بحوالى ٣٧٥٠ قبل الميلاد (Hassan, 1985, 1988).

ولكن، «هيراكنپوليس»[٢٢] Hierekonpolis هى التى جادت بالكشف عن محلة ذات نمط جديد كل الجدة. لقد أماط الفريق الأمريكى (Hoffman : 1980) اللثام عن قطاع يطلق عليه اصطلاحاً «البلدة ٢٩»، وهى مجموعة مكونة من فُرن ومنزل مستطيل، يتراكب مع مخلفات

سياجات أكثر قدماً، وأمكن تأريخها بفضل المواد المتخلفة بهذه المرحلة الأولى من نقادة.

والفرن فى حالة سيئة جداً من الحفظ ومساحته خمسة أمتار فى ستة، ويضم ثمانية منخفضات يتراوح قطرها من خمسين إلى ثمانين سنتيمترا . وقد عثر فى ثلاثة منها، على طوب من الصلصال المحروق، تشكل أثافٍ(٢٣) كان تنسيقها على هيئة مثلث مايزال باديا للعيان فى أحد الأحواض. إن الأعداد الكبيرة لشقف القدور الضخمة، الموجودة من كل جهة حول الفرن، تحملنا على الإعتقاد بأن أوانى فخارية من هذا النوع - ويتراوح قطرها من خمسين إلى مائة سنتيمتر - كانت توضع فوق الأثافى وتحتوى هى ذاتها على أوعية أصغر أثناء عملية الطهى.

فهل وقعت الواقعة عندما هبت ريح عاصفة، فأضرمت النار فى المنزل القريب، (منزل الفخارى؟)؟ والذى حدث أن المأساة التى حلّت بأحد أبناء ثقافة العمرة فى «هيراكنبوليس»، كانت سببا فى سعادة علماء الآثار، بعد مرور خمسة آلاف سنة، عندما كشفوا عن البقايا المتكلّسة لموئل مستطيل، وكانت البقايا متصلبة وفى حالة جيدة من الحفظ. وكان هذا الموئل مدفوناً فى جانب كبير منه وطوله أربعة أمتار وعرضه ثلاثة أمتار ونصف (Hoffman, 1982, Figvi.4) . وكانت حوائط الجزء المحفور، على مسافة أربعين إلى ثمانين سنتيمتراً، وقد طليت بالطمى المخلوط بالروث وبقايا طوب مستطيل، مما يحملنا على الإعتقاد أن مثل هذا الطوب كان مستخدماً فى أماكن أخرى.. ووفر هذا الملاط قاعدة للأعمدة الثمانية الموزعة على ثلاثة صفوف بغرض حمل السقف . والصف الأول مكون من ثلاثة أعمدة والثانى من عمودين والأخير من ثلاثة أعمدة . واستناداً إلى إرتفاع الأعمدة كما تحدد على امتداد الجدران بفضل تراكمات فحمية أمكن تقدير مجمل ارتفاع الموئل بمتر وخمسة وأربعين سنتيمترا . إن وجود حفر خندقية فى الجهتين الشمالية والشرقية تعزز الإعتقاد بوجود سياجات قريبة الشبه بسياجات الوقت الحاضر. ومن الراجح أن المدخل كان ناحية الشرق. وعلى رأس التجهيزات فرن تم تشييده فوق قاعدة صغيرة أعدت من الطمى الطبيعى أثناء بناء المسكن ذاته، ووعاء للتخزين ومجموعة ضخمة من الأوانى الفخارية المقلوبة، وتعكس جميع هذه العناصر أنشطة مطبخية أوحت إلى «هوفمان» Hoffman بافتراض أن هذا المكان كان جزءاً من مجموعة أكبر .

إن وجود مساكن مستطيلة، واضحة المعالم، راسخة فى الأرض كل الرسوخ، لا يلغى بالتالى وجود أكواخ الهمامية الدائرية هذه، ومن ثم فإن الكشف عن تنوع أساليب الإقامة فى الأرض، يسير جنبا إلى جنب، مع أساليب الممارسات الإقتصادية والإجتماعية. إن هذا النوع الأخير من المساكن قد يكون عبارة عن محلات إقامة مؤقتة فى المراعى ذات

الطبيعة الموسمية، أما المساكن الأولى فإنها تفصح عن تأسيس مراكز أكثر أهمية، منذ مرحلة ثقافة العمرة، كان مقدراً لها أن تشهد تطوراً ملحوظاً، فى وقت قريب جداً .

وتكشف الفونة عن **«مخزون»**، على قدر كبير من الأهمية، لأنواع مستأنسة: ماعز وخراف وأبقار وخنازير تصاحب المتوفى فى مصائره الجنائزية، على هيئة تماثيل صغيرة شكلت من الصلصال. وعالم الحيوانات البرية، تمثله أساسا الغزلان والأسماك، وتوجد دائما بأعداد كبيرة.

وقد زرع الشعير والقمح، فى آن واحد إلى جانب البازلاء والبيقة(٢٤)، فى حين أن ثمار شجرة النبق (٢٥) (Ziziphus spina - christi) وفاكهة تشبه البطيخ وسابقة عليه، كانت توفر تشكيلة عريضة لما تقدمه المائدة.

فلنتساءل الآن حول أصول وهوية أبناء ثقافة العمرة. ولا يسعنا فى هذا الصدد، إلا أن نعترف بعدم حدوث أى انقطاع ثقافى بينهم وبين أبناء ثقافة البدارى، بل علينا أن نقر بوجود مشكلة تلح علينا، إذ نجد صعوبة فى الغالب فى التمييز بين ما يعود إلى هذه الثقافة أو تلك.

إن نواة ثقافة العمرة هى بلا منازع قطاع **نقادة - المحاسنة**. فهنا تبلغ كثافة المواقع أشدها، وهنا أيضاً تأكد وجود الطور الأقدم، كما برهنت عليه تقديرات «كايزر» Kaiser (1957) (أنظر أيضاً الملاحق)، التى تستند إلى تطور الخزف. وإلى الشمال تغطى ثقافة العمرة منطقة ذات تقاليد بدارية وتنتشر جنوباً على بعد عشرين كيلو متراً فيما وراء الجندل الأول، فى **خور بهان**، وتمثل فى هذا المحيط «سحنة» Facies متأخرة تتفق مع فترة تقع زمنيا قبل ان تنوب ثقافة العمرة فى المرحلة الثانية من نقادة، بقليل. إنها تمثل بالتالى مع ثقافة البدارى، علاقة تدفعنا إلى طرح قضيه التتابع الزمنى للثقافتين.

فى الطبقة الواقعة أسفل بَريشة(٢٦) brèche **الهمامية**، يوجد كما لاحظ «كايزر» Kaiser (1956)، العديد من الشقف التى لها سمات ثقافة العمرة، ونسبتها «كيتون- تومپسون»، بعد تردد، إلى الثقافة البدارية. كما عثر فيها على وعاء حفظه لنا الدهر شبه كامل، ويحمل بعض العلامات التى خلفها الفخاريون، والتى لم تعرفها سوى ثقافة العمرة. وبالعكس، فقد عثر فى مواقع تعود إلى ثقافة العمرة على شقف ذات سطوح متموجة. إن وجودها قد أوقع «هايز» فى خطأ Hays (1984)، فاستناداً إلى هذه الواقعة، نسب مواقع **الخطارة** إلى ثقافة البدارى. ان دراسة تحليلية أكثر تعمقاً حول مجموع ما خلفه الإنسان من صنعه، قد ساعدت مع ذلك على «إدخال» هذه الموائل ضمن الطور الأول من نقادة، بل وضمن مطلع الطور الثانى ذاته.

وهكذا تنصح «هولمز» Holmes (1989:182) برجاحه عقلها، بألا يعول الباحث على بعض الشقف المميزة لثقافة البدارى، التى عثر عليها فى مواقع قائمة خارج قطاع «مطمر – المستجدة»، ولكن عليه أن يأخذ بعين الإعتبار الآلات فى مجملها، قبل أن يحدد وجود محطات بدارية خارج قطاعها الأصلى.

إن الفصل بين الثقافتين يبدو بمثابة حدود متحركة تكشف عن نفسها بعبارات «درجات *اللون الغالبة*» وتترك الشك يخيم على تتابعها الدقيق.

إن النتائج الأولى التى تم استخلاصها من الاستكشافات الحديثة فى قطاع البدارى (Holmes et Friedman : 1994) تسير فى هذا الإتجاه. وبين ثقافة البدارى وثقافة جرزة، ما من محلة واحدة من ثقافة العمرة، جاءت لتشغل المكان الإنتقالى الأوسط، كما كان متوقعاً. كما لو أن أبناء ثقافة العمرة لم يحطوا الرحال قط فى هذه المنطقة، أو فى أضيق الحدود، أو أن وجودهم لم يظهر فيها وفقاً لنفس السمات الخزفية فى الوجه القبلى.

إن أسبقية الثقافة البدارية أمر لا يمكن استبعاده – إذ تسير عمليات التأريخ بالكربون المشع فى هذا الإتجاه، ولا يبدو أن المتتالية الطباقية التى تم الكشف عنها فى بلدة «هيراكنپوليس»[٢٧] (Hoffman: 1980) تناقض هذا الإتجاه. وبناء عليه يبدو من الواضح الإفتراض القائل بأن ثقافة البدارى، كتقليد محليٍ، ربما امتدت لتشمل طور ثقافة العمرة باكمله، وأقامت علاقات تبادل مع الوجه القبلى وهو ما قد يفسر وجود شقف متموجة خارج نطاق ثقافة البدارى، وطورت بالتدريج فى نفس المكان ثقافة لها ملامح ثقافة العمرة. وهكذا فإن وجود ثقافه العمرة فى منطقة الثقافة البدارية، لا يمكن أن تكون سوى ثقافة بدارية «صبغت بثقافة العمرة». ومن هذا المنظور، لا يوجد ما يمنع ثقافة ديرتاسا – ذات الأصول الشمالية، وفقاً لما ذهب إليه «كايزر» Kaiser – من أن تكون قد أثرت فى الثقافة الأولى لنقادة.

انه عنصر هام فى مسألة الأصل والهوية كما طرحناهما فيما سبق.

وان كان يصعب علينا فى الوقت الراهن ان نقيم علاقة بنوة بين ثقافة الطارف – التى تظل معرفتنا بها محدودة – وثقافة العمرة، فإن الكشف الحديث الذى تم فى «هيراكنپوليس» فى مستويات موغلة فى القدم، وسابقة على ثقافة العمرة، ولا يمكن الوصول إليها إلا بعد القيام بضخ المياه، ان هذا الكشف يدفعنا إلى عدم استبعاد افتراض أن أحد أجدادنا مازال مدفوناً، ليؤكد إلى أى مدى تظل معرفة هذه الثقافات الأولى مرتبطة بالتحكم فى تقلبات نهر النيل.

بل إن مصير هذه الأرض يقترن بمصير النهر، أكثر بكثير مما كنا نتخيله فى الماضى.

ثقافة جرزة أو نقادة الثانية

إن تحديد مكان الموقع الذى أطلق اسمه على هذه الثقافة، على بعد خمسة كيلو مترات إلى الشمال الشرقى من هرم ميدوم، يضع المرحلة الثانية من نقادة برمتها تحت شعار التوسع والإنتشار.

وأصبحت المواقع – من جبانات وموائل – غير محصورة فقط فى قطاع نقادة – مطمر (الاقصر – قنا)، ولكن تأكد وجودها من خلال ثلاث جبانات قريبة من الفيوم: جرزة والحرجة وأبو صير الملق، [٢٨] ومجموعة الدفنات الكبرى التى تم الكشف عنها حديثاً فى منشاة ابو عمر، شرقى الدلتا، وفى الجنوب عند سلسلة من نقاط التماس مع الثقافة النوبية من المجموعة «أ».

وبدأ الإتجاه القائم على تناقص عدد الأفراد الذين يدفنون فى مقابر تعاظمت ضخامتها، وتعقدت بنيانها الداخلى، وازدادت تجهيزاتها ثراء ووفرة، بدأ يتسارع طوال هذه المرحلة الثانية، إلى أن وصل إلى أقصى لحظاته، عندما بات «شخص واحد» يشغل مقبرة واحدة، هى «الأضخم» بالمقارنة مع تلك التى سبق تشييدها على الإطلاق: إنه الفرعون.

الدفنات بسيطة، ومزدوجة أحياناً، ولا تتجاوز هذا العدد إلاّ فى النادر القليل: فكانت خمسة أجساد تشغل المقبرة T 15 فى نقادة. وقد سجى المتوفى فى وضع جنينى، ولكن قاعدة الجانب الأيسر، واتجاه الرأس إلى الجنوب، والنظر جهة الغرب، أخذت تفسح أكثر فأكثر المجال للاستثناءات وتتنوع تنوعاً كبيراً، من مقبرة إلى أخرى. وأصبح تدثير الجسد فى جلد حيوان – وهو أمر غير معروف فى الشمال – يزداد ندرة لصالح الحصير والكتان الرقيق. وكان الصبية يدفنون أحياناً فى أوعية كبيرة، مقلوبة أو غير مقلوبة، ولكن التابوت المصنوع من الخيرزان ثم من الطين، ثم من الخشب بعد ذلك، هو الذى أخذ يتطور، وكان هو المسئول على ما يظن – بالنسبة للطبقة الأكثر ثراء – عن شكل المقابر المستطيلة. ونزعت بعض التقدمات إلى الإنفصال عن الجسد لتستقر فى حجرات أو مقاصير ستعمل على تطوير بنية المقبرة ذاتها نحو مزيد من التعقيد. وفى نفس الوقت تدعمت وتوطدت المقبرة وفصلت الحوائط بين أقسامها بإضافات من التربة والخشب والطوب اللبن. ومن ثم، فالتقدمات المرتبطة بشخص المتوفى نفسه (الحلى والأسلحة وصلايات مساحيق الزينة...) هى وحدها التى تظل مرتبطة به فى الآخرة، فتوضع حول جسده وفقاً لأسس لا نعرف عنها

شيئاً (وإن كانت الأشياء الموضوعة أمام الوجه على سبيل المثال قد حُم بدلالة خاصة). أما التقدمات الأخرى (من أوعية وسلال...) فقد وضعت بعيداً فوق أرائك فى الحجرات والمقاصير. ان الفصل بين الجسد والتقدمات، الذى ظل يتزايد و ضوحا على مر الزمان، هو من المبادىء الأساسية التى يقوم عليها بنيان المقبرة المصرية.

وتوفر لنا جبانات جرزة، فى واقع الأمر، سلسلة متنوعة من الصيغ: فالحفر دائرية صغيرة مجهزة تجهيزا محدودا، والحفر الى تتراوح بين الشكل البيضاوى والمستطيل وتتفاوت من حيث التجهيزات، ومختلف أنماط الأكفان والتوابيت وكمية ونوعية التقدمات، كلها أشياء تعكس التعقيدات المتعاظمة التى دخلت مع أبنية وهياكل مجتمع بدأ يشهد تنوعا، فى نفس الوقت الذى بدأ يعرف التراتبية الإجتماعية والتدرج الهرمى.

وفى دراسة، كرسها «ديفيس» W. Davis (1983) للفنانين ورؤساء العمال، فى عصر ما قبل الأسرات، عرف كيف يظهر بوضوح مقابر الفنانين والحرفيين، فى الجبانة الرئيسية الكبرى فى نقادة التى تضم ما يربو على ثلاثة آلاف دفنة، وابرز كيف أن هذه المقابر تتميز تميزاً ملحوظاً بالمقارنة مع المقابر الأخرى بما تحتويه من تقدمات. ويبدو ان نفس هذه الظاهرة هى التى كانت وراء إبداع المُدية الظرانية الجميلة، التى تعرف اصطلاحاً «بمدية عصر ما قبل الأسرات» (Midant - Reynes, 1987)، لأننا لا نجدها فى جميع المقابر، بل إنها لا تمثل أحياناً سوى «مظهر الثراء الوحيد» فى بعضها.

وهذه الخصوصية هى واقع الحال فى دفنات الجبانات B و G و T فى نقادة، التى تبعد قليلاً عن الجبانة الرئيسية والتى تضم كل منها أقل من مائة مقبرة. وهى من ناحية التتابع الزمنى موزعة توزيعاً شاملاً، يغطى عصر جرزة بالكامل، ويبرزها العديد من النقاط: وتتميز بكبر مساحتها (T4 = ٣٥٠سم × ٢٠٠سم. T5 = ٤٠٠سم × ٢٨٠سم)، وبنوعية من التقدمات على قدر من الثراء وأخيرا بشعائر خاصة فى الدفن. وفى هذا الصدد تستحق الدفنة T5 أن نوليها اهتماماً خاصاً، فقد ذهب «پترى» Petrie إلى أن الدهر قد حفظها لنا سالمة، إذ عثر على مجموعة من العظام الآدمية، مكدسة على امتداد جوانب المقبرة، وتشهد على دفنات ثانوية. وهكذا كانت خمس جماجم موضوعة فى نظام وإحداها فوق قالب طوب. ولكن يستحيل علينا أن نعرف إن كانت العظام خلاف عظام الجماجم، كانت تشكل مع الجماجم خمسة أفراد بالكامل. إن فرضية «پترى» التى تذهب إلى أن العظام الطويلة تحمل آثار أسنان وكسور وتكشف بالتالى عن عادة أكل لحوم البشر، قد فندها ودحضها «هوفمان» Hofman (1980: 116) الذى «يأخذ» على هذه العظام أنها لم تحرق، ويرى أنها كانت على ما يحتمل أضاحى آدمية، وفعل «ديفيز» Davis (1983:27) نفس الشىء مع فرضية «پترى» عندما لاحظ انه لا تظهر على أى من هؤلاء الأفراد علامات تدل على أنه قد مات ميتة عنيفة،

فالآثار التى على العظام ربما حدثت بكل بساطة «فى أعقاب الوفاة» من خلال سلسلة من الدفنات الثانوية.

وأيا كان الأمر، وبالنظر إلى إلتقاء كل هذه السمات الخاصة، تبرز جبانة T فى نقادة كجبانة متميزة، وربما كانت مخصصة لنخبة – من الأمراء مثلاً (Kaiser u. Dreyer 1982) أو «لطبقة معينة» (Davis, 1983) تماماً كما هو الحال، بكل تاكيد، بالنسبة للجبانتين B و G، وإن كانت أعمال السلب والنهب تفسد بصورة خطيرة محاولات التفسير والتأويل.

وعلى خلفيات من ثقافتى البدارى والعمرة، تفجرت الثقافة المادية للجرزة، بإبداعاتها التقنية واتقاناتها التكنولوجية وصيغها الجديدة.

فقد ظهر إلى الوجود، طرازان جديدان من الفخار، الفخار المعروف اصطلاحا بالفخار الخشن (R = Rough) والخزف من عجينة الحجر الجيرى، وهو الفخار «المتأخر» (L = Late) وفقاً للتتابع الزمنى لـ «پترى»، وقد يمثل الأول تأثيراً خارجياً، والثانى معرفة أعمق بالبيئة المحيطة.

إن الفخار الخشن الذى أخذ فى الظهور منذ مطلع الطور الثانى حسب «كايزر» Kaiser يبدو مع ذلك أنه كان موجوداً فى مرحلة سابقة على المؤنل ولكن تظل بداياته غامضة من ناحية التتابع الزمنى. لقد صنع من طمى إرسابات النيل من الغرين، وازيلت لزوجته بالقش والعناصر النباتية واكتسب اللون الأسمر المائل إلى الحمرة، حيث أحرق حرقاً محدوداً، ولم يكن مصقولاً أبداً، واكتفى بأن يكون سطحه أملس، ونادراً ما يحمل زخارف محفورة.إن الأشكال المفتوحة أو الململمة، التى لها فى أغلب الأحوال قيعان مستديرة أو مدببة، سوف «تنتقل» إلى الفخار الأحمر المصقول ذى الشفة السوداء. وقرب نهاية هذه المرحلة، سوف تحدث الظاهرة المعاكسة، فيظهر عندئذ النزوع إلى القيعان المسطحة.

أما الفئة الثانية فهى فخار من عجينة من الحجر الجيرى الذى جلب من مصب بعض الأودية. هذا الصلصال وهو بلا مادة عضوية وبمادة رملية مزيلة للزوجة، يتخذ لونا وردياً باهتا عند درجات الحرارة المنخفضة ولوناً رمادياً مخضوضراً عند تسخينه تسخيناً شديداً. ان تكوينه صلب ومتقن، وتدفعنا صنعته إلى طرح قضية احتمال وجود عجلات الفخارى البطيئة، وهى مجرد حُصُر يديرها الفخارى يدوياً. وهذا النوع من الفخار غير مصقول، بل ان سطحه أملس، ولوحظ وجوده منذ الطور الثانى، وفقاً لـ «كايزر» Kaiser.

ومنه اشتقت فئتا «پترى» العظيمتان، الفخار المزخرف (D = Decorated) والفخار الشهير ذو المقابض المتموجة (W = Wavy Handled Pot)، وهو النقطة التى أنطلق منها التتابع الزمنى الشهير (راجع الملاحق).

ويتميز فخار ثقافة جرزة المزخرف بمواضيعه ذات اللون الأسود القاتم المرسومة على خلفية بيضاء تميل إلى الصفرة وقد تم انتاجه بكميات كبيرة كبديل عن الفخار المرسوم باللون الأبيض على خلفية حمراء والذى ساد فى عصر ثقافة العمره. ومع ذلك، فإن استمرار هذا الأخير عند مطلع ثقافة جرزة، وبقاء النمطين، جنبا إلى جنب، يظهر فى أن واحد من خلال وجود فخار ثقافة العمرة بزخارف من ثقافة الجرزة وبالعكس وجود رسومات سمراء على خلفية بيضاء تنقل زخارف من ثقافة العمرة. (Vandier : 1952 : 330 - 332).

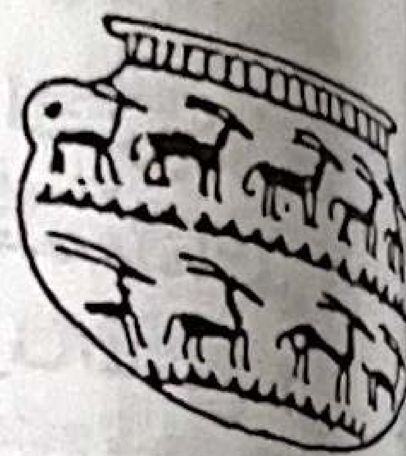
ان العناصر الزخرفية التى رسمت على سطح أوانى ثقافة الجرزة تنقسم إلى نوعين: نوع لا يصور أشياء (بقع تقلد الحجر، وخطوط حلزونية وخطوط ملتوية وأمواج ومربعات) ونوع يمثل مشاهد، كانت فى زمانها محل جدل ونقاش (cf. Vandier 1952:336 - 339 et Midant - Reynes: 1987: 205,n 47) (شكل ٩). وعلى العموم، تتحدد قائمة العناصر المصورة على أوانى ثقافة جرزة بحوالى العشرة، فتظهر منفردة أو متداخلة، وفقاً لعملية لم تعرف أبداً بوضوح. وكما أتيح لنا ان نقوله من قبل، (Midant - Reynes : 1987)، تعبر هذه المواضيع عن «مبادىء»: إن مبدأ الماء أساسى، كما تشهد عليه المركب، وهو قطعة مركزية من حيث حجمه، ويلعب دورا مهيمنا فى هذه البلاد التى لا وجود لها بدون نهرها. ان المراكب ذات قاع مستدير، وقد ازدان القيدام فى بعض الأحوال بالأغصان أو الحيوانات ذات القرون، وهى مزودة بمقصورة واحدة أو اثنتين وبعدة مجاديف أحيانا، كرمز على سرعة الإنتقال، وابرازا للترع والقنوات كطريق للمواصلات. وحول هذه القطعة الرئيسية، تنتظم حيوانات فى فضاء لم تتحدد بعد أبعاده المادية: حيوانات النيل على هيئة طيور (البشروش [٢١] Flamants) وحيوانات الصحراء، كالغزلان والظباء، وهما قطبان، قد تستهوينا فكرة النظر إليهما باعتبارهما يمثلان الوادى والصحراء، والأراضى السمراء والأراضى البيضاء. أما الشجرة، التى أراد البعض ان ينظر إليها باعتبارها صبارا أو صفصافة أو نخلة أو شجرة موز برية، فإنها تشير إلى مبدأ النبات الذى يجود بالخيرات. وتقترح دراسة حديثة حول هذا الموضوع (Brack u. Zoller: 1989) تمت وفقاً لمعايير علم النبات والمورفولوجية، أن هذه الشجرة هى شجرة الموز البرية. (واسمها العلمى Ensete ventricosum). وسبق لـ «بوتزر» Butzer ان رفض هذا التطابق لأسباب بيئية، إذ ينمو هذا النوع من النبات فى الوقت الراهن فى وسط افريقيا على ارتفاع ٢٥٠٠ متر. وان كانت الظروف البيئية كما يلاحظ «براك» Brack و «زولّير» Zoller مختلفة فى عصر ما قبل الأسرات، إلا أنه رغم ذلك، والى يومنا هذا ، لم يبرهن أى تحليل لقاحى ، تم فى منطقة نقادة (Emery - Barbiev: 1990) لَمّ فى نعّادة (Emery - Barbier: 1990) على وجود شجر الموز البرى *Ensete ventricosum*.

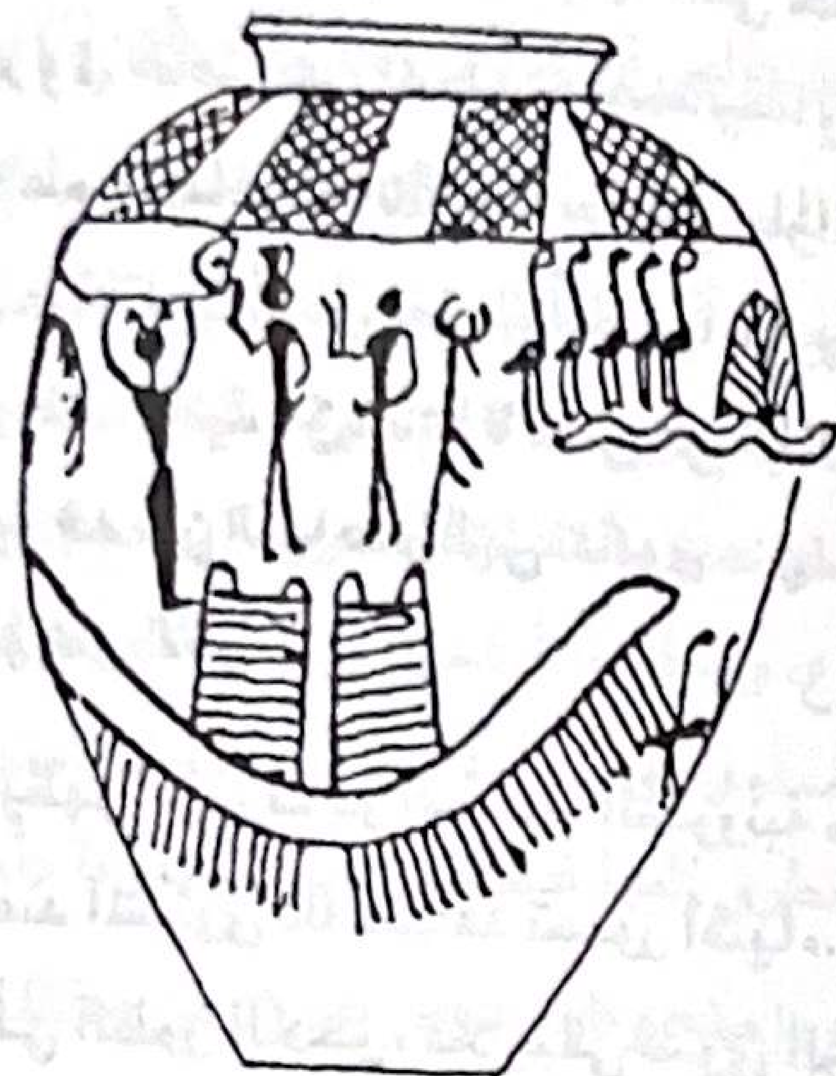
والصورة الآدمية ليس لها الغلبة أبدا فى هذه التكوينات. انها تأخذ مكانها فى هذا السياق

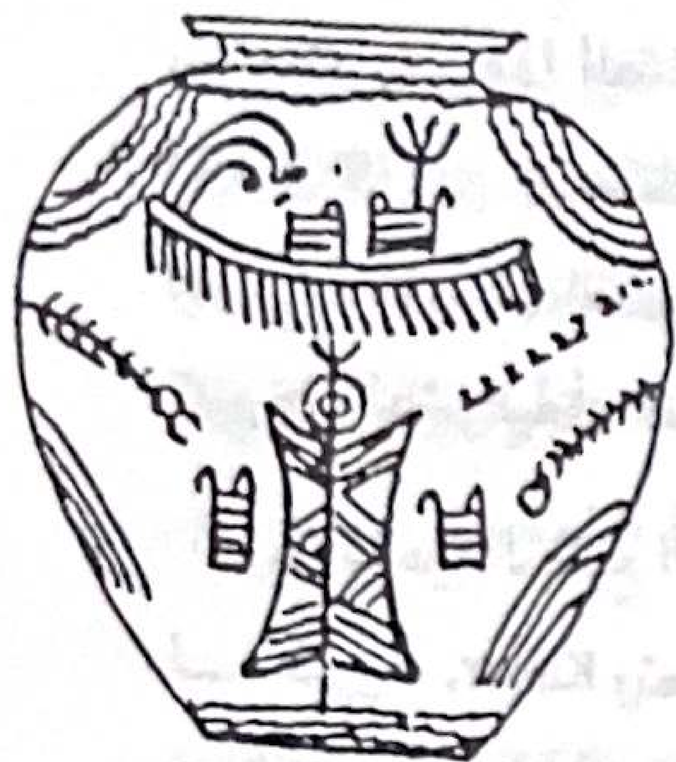












شكل ٩

وكانها عنصر شبه ثانوى وغير ذى أهمية. والنساء اللواتى يمكن التعرف عليهن بسهولة بفضل ضخامة أردافهن وسواعدهن المرفوعة على هيئة دائرة فوق الرأس، يبدو أنهن يتبوأن بفضل قامتهن مكانة متميزة، وإن لطفها الوجود شبه الدائم لشركائهن من الذكور. ولكن شاغلى المراكب، هم فى الغالب، من نوع محايد، لأنهم مجرد كرة مستديرة موضوعة فوق مثلث مقلوب. ونحن لا نشاطر فكرة الياخى F. el - Yakhi (1981) الذى ذهب إلى أنها عبارة عن مومياوات أو تماثيل. أجل، لقد أراد «برونر – تروت» E. Brunner - Traut (1975) ان ينظر إليها باعتبارها مشاهد جنائزية مثلها مثل تلك التى سوف تجوب النيل الفرعونى. ولكن علينا مرة أخرى، أن نحذر من الرجوع باستمرار إلى عالم المصريات لننقل من ر صيده الفرعونى عنا صر مكتملة البنيان لنسقطها على عالم يعيش فى أوج حالات الإختمار والتكون. ولما كانت هذه المشاهد ليست مجرد وصف، فإنها على حد قول «كوفان» Cauvin (1972 : 11) «تحيلنا إلى عالم أخروى خاص بها، له طبيعة نفسانية»، ولا نحقق قط، أى تقدم إذا استوحينا بشأنها ما يقوله علم علامات sémiotique حقيقى مازال يحتاج إلى من يقوم بدراسته. وفى هذا الصدد، فإن موقفنا يتعارض تعارضاً جذرياً مع موقف «ڤانديه» Vand- ier (1952: 330) «إن مشاهد المرحلة الثانية من نقادة لا تعنى فى الغالب شيئا، وإذا استبعدنا بعض الإستثناءات النادرة، فلا يوجد بين العنا صر التى تتكون منها، سوى رباط على قدر كبير من العشوائية أو هذا ما يبدو على الأقل».

ومن ناحية التتابع الزمنى، يظهر الزخرف ذو الخطوط الحلزونية منذ المستوى IIb وفقاً لــ « كيزر » ,Kaiser وتصاحبه عند المستوى IIc مشاهد تصور أشياء. وأخذت هذه الأخيرة فى الانحسار، لتختفى كلية فى الطور اللاحق، فلا يبقى سوى الزخرف المتموج، ذى المربعات.

وليس من النادر أن يكون لهذه الأوانى الفخارية مقابض بارزة متموجة كان «اضمحلالها»، سبب الحدس العبقرى الذى ألهم «پترى» (راجع الملاحق)، أن يجعل منها رتبة مستقلة، فى حد ذاتها.

وتنتسب الأوعية ذات المقابض المتموجة إلى هذا النوع من الخزف من عجينة الحجر الجيرى التى صنعت منها الأوعية المزخرفة. ويذهب «كايزر» Kaiser إلى أن ظهورها يقع عند منتصف عصر نقادة الثانية. انها معاصرة للجرار ذات المقابض التى عثر عليها فى المعادى، وهى أوانى تعود إلى أصول فلسطينية وقد استخدمت فى نقل الزيوت. وعلى عكس مايحدث فى وادى النيل حيث تظهر هذه «المقابض المتموجة، من لا شىء»، فإن وراء الأوانى الفلسطينية ذات المقابض تاريخ مديد، يمكن تتبعه منذ أصوله فى المستويات الكالكوليتية

القديمة فى أريحا VII وبيت شان XVIII (Kantor : 1965 : 7 - 10). ومما يزيد من أهمية نقطة الإلتقاء هذه، بين الوجه القبلى وفلسطين، أن أولى «المقابض المتموجة» فى مصر، ليست، على ما يبدو، نسخاً مقلدة بل مواد مستوردة حقاً (Amiran a. Glass: 1979) . وهكذا يبدو المعادى، وكانها مركز تبادل واتصال حقيقى يربط سيناء بالوجه القبلى، وهو أول موقع، له توجه تجارى فى مصر، محطما حاجز الصمت النسبى الذى لوحظ بين جنوب البلاد وشمالها، إبان ثقافة العمرة.

ويسير تطور هذا الخزف فى الإتجاه الذى حدده «پترى»، من الأشكال الكروية ذات المقابض البارزة إلى الأشكال الأسطوانية حيث لم تعد المقابض سوى مجرد زخرف اقتصر أحياناً على مجرد رسم. ان الجرة الأسطوانية ذات الشباك المرسومة سوف تصبح من مميزات عصر نقادة الثالثة، كما تشهد على ذلك، على نحو خاص، الخسفة التى عثر عليها فى المقبرة B7 فى أبيدوس والتى تعود إلى عهد الملك «قع» (الأسرة الأولى) (Petrie:1902: 3).

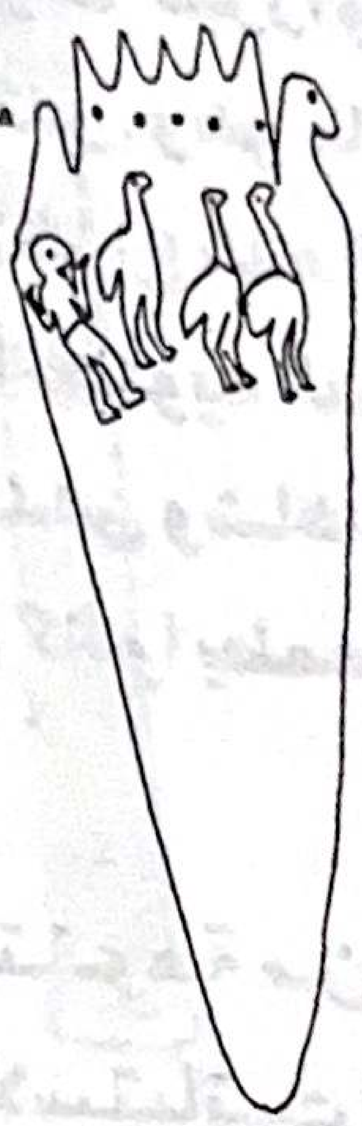
وفى الإتجاه الآخر، ناحية النوبة، تتمثل الشواهد على الإتصالات، فى الفخار المعروف اصطلاحاً بالفخار «النوبى». انه يتميز بعجينة غرينية مع مادة لإزالة اللزوجة مكونة من روث الحيوان أو أحياناً من خليط من الرماد تم حرقه عند درجة حرارة منخفضة، وهو ما يعطيه كثافة أكثر مسامية وأخف من الفخار المصرى. ويضم كؤوسا أو أوعية مفتوحة الحواف، مستديرة أو مدببة القاع، وسطحها أملس إلى حد ما، وعليها زخارف محفورة، وقد تملأ إذا لزم الأمر بعجينة بيضاء و/أو تميل قليلاً إلى اللون الأسود. وهذا الخزف هو من صنع جماعات نوبية سوف نتطرق إليها فيما بعد: انها المجموعة «أ» A.

وشهد الحجر تطورا ملحوظا : حجر جيرى من مختلف الألوان والكلسيت والرخام وحجر الحية serpentine والبازلت والبريشة brèche والنايس gneiss والديوريت والغابرو[٣٠] gabbro والجرانيت، وقد وجدت موئلها الطبيعى على امتداد وادى النيل، وسط التكوينات القديمة فى الصحراء الشرقية وفى وادى الحمامات، فى المقام الأول. (راجع : Klemm 1981). إن الإنتاج المتزايد للجرار ذات القوائم والمقابض ومحاكاة الأشكال الخزفية - لاسيما المقابض المتموجة، لهى أفضل شاهد على امتلاك الإنسان نا صية تشكيل الأحجار الصلدة وهى الملكة الخرافيه التى فتحت ومهدت الطريق أمام عمارة الفراعنة العظيمة القائمة على الحجر.

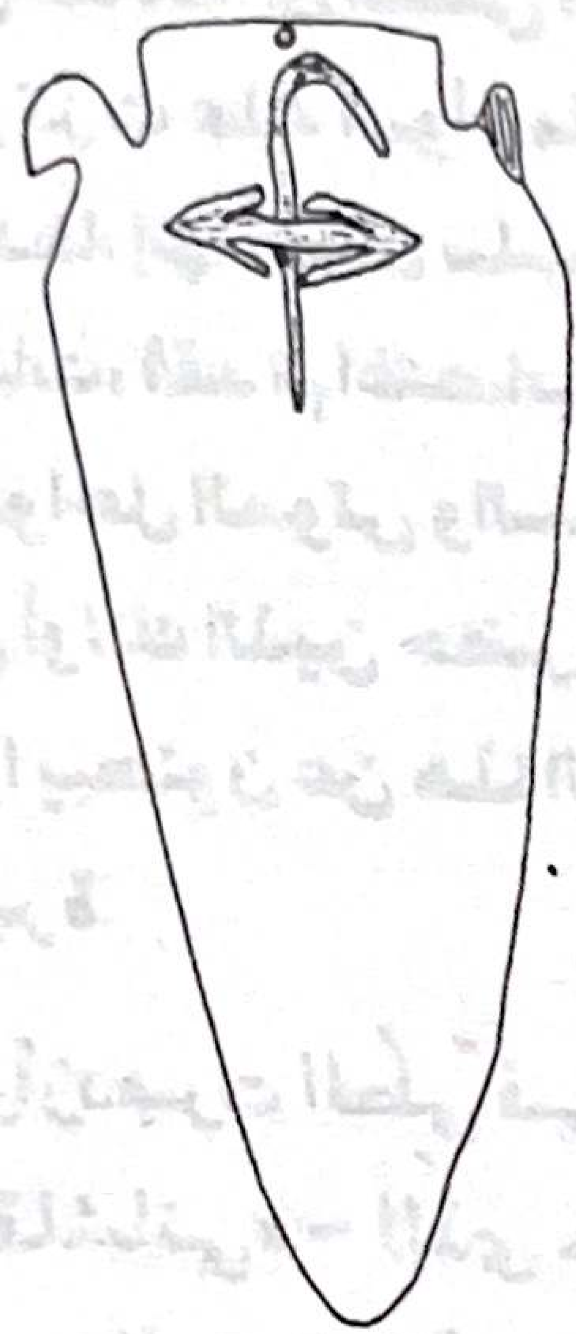
وكما ألمع ابراهيم رزقانة و «سيهار» I.Rizkana et J.Seeher (1988:56) فإن الأوعية المنزلية الحجرية، لم تكن على مايبدو، مثلها مثل الخزف مخصصة للإستخدام اليومى، ولكنها اقتصرت على الجوانب الترفية لأوانٍ فاخرة ذات نوعية جيدة. إن صناعة تقليد لها من الطين

(أوانى فخارية مزخرفة ببقع)، يومىء إلى استبعاد الشىء النادر، الذى كان على ما يعتقد مخصصاً بالتحديد لفئة إجتماعية ما، ووقفا عليها، ليحل محله بل ويستبدل به آخر أرخص وأسهل اقتناء وربما كان البعض يتطلعون إلى إمكانية الحصول عليه. ولا يخامرنا أدنى شك، من أن قاطعى الحجارة كانوا يعملون آنذاك داخل ورش متخصصة، شأنهم شأن صناع الفخار وقاطعى بعض الظران والعاملين فى صناعة المعادن. وسوف نعود فيما بعد إلى الحديث عن «إحالة» هذه الجماعات غير المنتجة «إلى الإستيداع». إن صلايات مساحيق الزينة، المصنوعة من الشست، والتى كان انتشارها على نطاق واسع، فى شكلها الحيوانى، من السمات التى ميزت العصر الأول من نقادة، أخذت أعدادها تتناقص وتطورت نحو الأشكال المعيَّنية (بتشديد الياءين)، التى يعلوها فى الغالب رأسان متقابلان لحيوانين. وبدأت النقوش فى الظهور على سطوحها، كإرهاص بصلايات المرحلة اللاحقة، المزخرفة بمشاهد الأحياء، ونذكر على سبيل المثال صلاية منشستر Manchester (شكل ٦٠ – أ) التى تصور موكبا من ثلاث نعائم يسير فى أعقابها رجل، ومن الواضح انه برأس طير (قناع؟)، هو المقابل لرأس الطير الذى يبرز من أعلى الصلاية بين خمس قمم ناتئة ترمز على مايبدو إلى الجناحين. وصلاية مماثلة، جادت بها إحدى مقابر العمرة، تحمل نقشاً بارزاً يمثل العلامة الهيروغليفية «من»، التى ستستخدم للدلالة على الإله «مين»[٣٠] (شكل ١٠ – ب). إن صلاية أخرى بيضاوية غير مستطيلة، يشغل أحد وجهيها بالكامل رأس بقرة يعلوه نجم وآخر عند كل أذن من الأذنين وطرفى القرنين، انها بقرة سماوية تستبق صورة «حتحور» كما ستعرفها العهود اللاحقة. (شكل ١٠ – حـ).

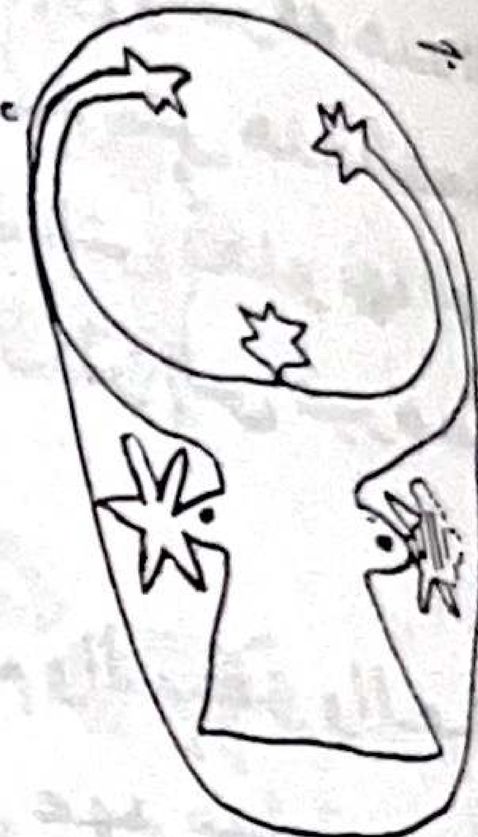
واستمر رأس مقمعة العمرة المخروطى الشكل، فى مطلع نقادة الثانية، حيث سيحل محله الرأس الكمثرى الذى شاهدنا ظهوره فى مرمدة بنى سلامة. ان تبنى أبناء ثقافة الجرزة لهذا الرأس الأخير قد تم فى ظروف خاصة مازال يكتنفها الغموض. والحادث فى واقع الأمر، أنه اكتسب بعداً رمزياً شديد الخصوصية، ينم عن السلطان، وسينقله إلى عالم الفراعنة: إنها المقمعة المثلى، التى يشهرها الفرعون وهو يثخن الأعداء تقتيلاً، بدءاً من صلاية «نعرمر»، وحتى صروح معابد الدولة الحديثة. إن المقمعة الذائعة الصيت التى جادت بها المقبرة الواسعة الثراء، لأحد زعماء المجموعة «أ» (شكل ١١)، فى سيالة بالنوبة، تقول ما فيه الكافية، عن مدى السلطان الذى كان يمكن أن يخول به صاحب مثل هذا الشىء، وذلك استناداً إلى مقبض المقمعة المكفت برقيقة من ذهب صورت عليها عشرة حيوانات نافرة شكلت بأسلوب الضغط. وقد جادت نفس المقبرة بنموذج ثان من نفس النمط، وهو يصور زخرفاً على هيئة خطوط أفقية متقاربة تصور الحبل الملفوف حول المقبض (Firth 1927 : 205 - 208). وكمثيلتها السابقة، سوف تتحول إلى علامة هيروغليفية لتستخدم عند كتابة العلامة الصوتية «حج»[٣٢].



الارتفاع : ٤١ سم



الإرتفاع : ٢٨,٥ سم



الإرتفاع : ١٦,٥سم

شكل ١٠ : أ . ب . جـ

عندئذ شهدت صناعة النحاس انطلاقاتها الحقيقية. ان فأسين صغيرين من النحاس جادت بهما **العضايمة** (Needler 1984 : 280) قد عثر عليهما «**هنرى دى مورجان**» Henri de Morgan، فى وعاء يحمل السمات المميزة لعصر نقادة الثانية (R. 81). إنهما تقليدان يحاكيان الحجر المصقول، وقد صهرا فى قالب مفتوح وتم الإنتهاء من اعدادهما باستخدام أسلوب الطرق. وتوجد النصال والأساور والخلاخيل بكثرة. إن هذا التوسع فى التعدين قد سار جنبا إلى جنب مع انتاج الذهب والفضة. ونجهل كل شىء عن عمال التعدين فى ذلك العصر. إن أول المشاهد التى وصلتنا تعود إلى مصاطب الدولة القديمة حيث صورت أفران ذات أقماع ويقوم الرجال بإذكاء نارها عن طريق النفخ فى أنابيب خاصة (مقبرة كل من «تى» و«مريروكا»). **ومن ثم ينطوى هذا التحول الشاق للمادة على تجميد لقوى العمل، وقيام جماعة من غير المنتجين، سترتبط بها، فضلا عن ذلك، المكانة الرفيعة التى يمنحها المعدن الثمين لمالكه. ان السعى الحثيث وراءه، مهما كلف الأمر، سيصبح فى واقع الأمر، الهدف الذى ركزت عليه أسوأ المقاصد وأكثرها ضررا والتى تعود إلى أقدم العهود، كما أمكننا أن نرصدها: إنها أعمال سلب ونهب المقابر. وهو ما برهن عليه على الدوام التنقيب الدقيق فى الجبانات، فقد تم اغتصاب الدفنات لانتزاع هذه الخواتم من الأصابع وسرقه هذه الخلاخيل من كواحل الموتى والسطو على ما تحتويه الصناديق، وقد أقدم على هذه الفعلة الشنعاء نفس أولئك الذين حضروا مراسم الدفن وشاهدوها، وباللدقة التى تحلو بها أحيانا، عندما ذهبوا يبحثون عن هذا الشىء الذى كانوا يطمعون فيه، دون النظر إلى غيره من محتويات المقبرة.**

وازدهرت الحُلِىّ فى أعداد متنوعة من خرز العظم والحجر والعاج والأصداف و«القاشانى» – الذى حل محل الاستياتيت الذى ساد فى عهد سابق – واللازورد – هذا المعدن الجميل الأزرق الضارب إلى الخضار، شبه الشفاف، وربما كان موطنه الأصلى منطقة بدخشان فى شمال أفغانستان، وقد يكون قد وصل إلى مصر على هيئة كسف مستوردة من خلال علاقات غير مباشرة مع تجار من بلاد الرافدين.

ومن بين العديد من التمائم التى تستخدم كدلاية، نجد ان «**القلادة برأس من البقريات**» (Petrie a. Quibell, 1896, PlIX1,4) قد أعيد صياغتها بالعاج والعظم وبمجموعة متنوعة من الأحجار. **إن النزعة إلى تبسيط الخطوط وإن كانت بعيدة كل البعد عن الخشونة، تكشف عن إدراك سليم إلى حد بعيد، للتصور الذهنى للشىء**، فاستدارة قمة الرأس تمتد لتشمل القرنين «**المقلوبين**» ليتجها أسفل العينين – وهما عبارة عن فجوتين كانتا مرصعتين على ما يظن – وتتعارض مع السطح السفلى المستوى الذى لا يبتعد كثيرا عن الإيحاء بخطم بقرة. والظهر مثقوب ثقباً أفقياً ليسمح بادخال حبل للتعليق، كان يفترض أن يُبقى الشىء على هذا النحو



الإرتفاع : ٢٧ سم

شكل١١

فى وضع ثابت كل الثبات. ولا يمكن إغفال الخاصية السحرية لهذه التميمة الصغيرة التى قد توجد جنباً إلى جنب، ضمن خرز قلادة، وتبرهن وفرتها، على أن هذا الضرب من القطع قد جاء من بعض الورش المتخصصة. ولا يفوتنا أن نقارنها «بالبقرة السماوية» لصلاية الشست، وان كان إنعكاس القرنين تفسره أسباب تقنية، إذ الهدف منه زيادة صلابة القطعة. وفى واقع الأمر، فإن بروز قرون صغيرة ناتئة من العاج أو من الحجر سرعان ما يعرضها للكسر، وهو ما لا يتفق مع التأثير المطلوب.

أما الأمشاط ذات الأسنان الطويلة، المصنوعة من العظم أو العاج والتى يعلوها حيوان صغير، فقد أخذت أعدادها تتضاءل بسرعة. وأمكن الكشف عن بعض النماذج برأس له لحية، وهو ما قد يؤدى إلى تعزيز أطروحة «فينكنشتات» Finkenstaedt. وإن ما ذهب إليه «كيمر» L.Keimer (1952:64 - 77) عندما لاحظ وهو يدرس بدو الصحراء الشرقية من أن هذه الأمشاط كانت تزين أغطية رأس الرجال، ليدعم فرضنا القائل بأن رؤوس هؤلاء الرجال الملتحين ربما كانت إشارة إلى طبقة من أصحاب السطوة والنفوذ.

وإذا وضعنا جانباً هؤلاء «**الملتحين**» الذائعى الصيت الذين سبق الحديث عنهم، فإن التماثيل النسائية الصغيرة، هى السمة الغالبة على الصور الآدمية لهذا العصر. ومن أجمل أمثلتها، التمثال الذى عثر عليه فى مقبرة المعمرية بالوجه القبلى (Needler 1984: 336,n°267.)، ومن مقتنيات متحف «بروكلن» Brooklyn فى الوقت الراهن، وهو من الطين المحروق، بطلاء خزفى أحمر، وله وجه يشبه وجه الطائر، والجذع مثلث، وله ثديان صغيران موضوعان فى أعلى الصدر ويتدليان بعض الشىء، وهو ممشوق القوام، الأمر الذى يتعارض مع ضخامة الردفين. والإشارة الوحيدة إلى الساقين، هى عبارة عن حز طفيف فى الكتلة المصمتة، تأخذ شكلاً مدبباً فى الجزء السفلى، كان يمثل على ما يعتقد فستاناً، وهو افتراض مبنى على وجود آثار طلاء أبيض. وخلافاً لذلك، كان الساعدان يرتفعان على هيئة منحنيين رشيقين، ويميلان إلى الخلف قليلاً وراء الرأس الذى مازال يحتفظ ببقايا الراتنج، مما يوحى على الأرجح أن غطاءً للرأس كان مثبتاً فوقه.

إن دلالة هذه التماثيل الصغيرة، وهى المقابل لرسومات أوانى جرزة ولكن بالنحت المجسم، لم تجد لها حتى الآن إجابة شافية. وفى واقع الأمر، وكما هو الحال بالنسبة لجميع التماثيل الصغيرة بشكل عام، فإننا لا نعثر عليها فى «كل» الدفنات، وإن أخذنا فى الحسبان مجموع التماثيل الصغيرة التى تم شراؤها، ويبقى ان مجموعها يظل أقل من مجموع المقابر التى جرى الحفر فيها. فلم تكن إذن من نصيب كل الناس. فعلينا أن ننظر إليها إذن – ونحن على حق بلا شك فيما نذهب إليه – على أنها مبادىء أنثوية ترتبط

بشعيرة من شعائر الخصوبة، ويبقى مع ذلك أنها كانت تخص بعض الأفراد بهذا الإمتياز فى إطار نسق من المرجعيات مازلنا نجهله كل الجهل.

والتماثيل الحيوانية المصنوعة من الطين المحروق موجودة بوفرة كبيرة ولكن يصعب علينا فى الغالب أن نتعرف على الحيوان المقصود.

وهكذا تكشف المحصلة النهائية عن صورة تتصدرها حرف متخصصة متطورة: فالفخاريون ينتجون بالجملة، وفى نفس الوقت يتولى الرسامون زخرفة الفخار، فى نطاق الطرز شديدة الصرامة منذ ذلك الوقت، وهو ما يؤكد ان الورش كانت فى نفس الوقت مدارس حقيقية فى خدمة مفاهيم محددة: ان محدودية المو ضوعات هى المثال الصارخ على ذلك. ويعبر قاطعو الأحجار، عن نفس الفكرة، سواء صنعوا الأوانى من الحجر الصلد أو صنعوا المدى الظرانية الجميلة، شأنهم فى ذلك، شأن عمال التعدين الذين ترتبط وظيفتهم بمكانة المعدن الرفيعة، وهو ما سبق أن أوضحناه.

وهكذا انتقل مجتمع جرزة انتقالا قاطعا ليعبر العتبة التى تم اجتيازها إلى حد ما فى العصر السابق والتى تنطوى على إعالة جماعات من غير المنتجين. إن تأكيد أن هذه الجماعات كانت منذ ذلك الحين، فى خدمة أيديولوچيا، كما سيتضح فى وقت لاحق، ربما يكون امرا سابقا لأوانه. والقول، أنها كانت تخضع، فى نطاق أبنية هيكلية محددة تحديدا دقيقا، لمجموعة من القواعد الصارمة، صيغت وأمليت من جانب جماعة كانت مهيمنة بالفعل، هو امر مؤكد، فى الواقع. وان تكون ثمة هيبة مرتبطة بو ضعهم، هو أمر يشوبه قدر من الشك.

ومن المعتقد أن الأمر يحتاج إلى خمسين منتجا على أقل تقدير مقابل فرد واحد غير منتج. وتاسيسا على ذلك، فإن عددهم فى المراكز الحضرية الكبرى كان لا يزيد على بضع مئات. لأن النقطة القوية الثانية، فى عصر نقادة الثانية هذا، وكانت النتيجة الطبيعية للأولى، هى نشأة المدن الأولى، كمقر للنخبة والصفوة، ومراكز للإزدهار الثقافى والتجارى، فى آن واحد، حيث سيلقى الأفضل من بين الحرفيين عصا الترحال.

وانبعثت عندئذ ثلاثة مراكز كبرى فى الوجه القبلى : **نقادة** و «**هيراكنبوليس**» وربما الكاب[٣٣] فى وقت لاحق، وأخيرا مدينة **أبيدوس**[٣٤] التى سوف تتجلى أهميتها لاسيما قرب نهاية عصر ما قبل الأسرات، ومع بداية عصر الأسرات، نظراً لأنها ستضم جبانة ملوك مصر الأوائل.

كانت قد مضت خمسمائه سنة تقريباً، منذ أن استقر أبناء ثقافة العمرة فى نقادة الواقعة عند مدخل وادى الحمامات، ولكن على البر الغربى من نهر النيل. ولا يتميز تطورها

إبان عصر نقادة الثانية بأى شيء قد يثير دهشتنا. كما ان اسمها الفرعونى «نوبت» أى «تلك التى تنتسب إلى الذهب» (الذهبية) يربط المدينة بمناجم الذهب والنحاس فى الصحراء الشرقية.

وأمكن الكشف عن منطقتى موئل عند نهاية القرن الماضى بفضل «بترى» و«كويبل» Petrie - Quibell (1896) "South Town" أى «المدينة الجنوبية»، فى نقادة ذاتها، و "North Town" أى «المدينة الشمالية» وتقع إلى الشمال قليلاً، وإلى الجنوب مباشرة من بلدة بلاص.

أما الأولى فهى بلا شك موقع طوخ الذى زاره دى «مورجان» de Morgan (1896: 87 - 8, 1897:39)، ويضم بنية هيكلية مستطيلة من الطوب اللبن، وأطوالها ثلاثون مترا فى خمسين متراً، وقام «بترى» Petrie بتنظيفها، وربما كانت فى الأصل عبارة عن معبد أو محل إقامة، وقد أمكن التعرف إلى الجنوب منها، وفقا للرسم التخطيطى الذى وضعه «بترى» (1896: pl. Lxxxv على مجموعة منازل مستطيلة وسور يبلغ سمكه حوالى مترين. ولم تعثر البعثات الأمريكية فى الثمانينات على شيء من هذه الجدران. عندئذ، ثم حفر عدد من الخنادق المجسات فى هذا الموقع الذى أصابته أضرار بالغة، وتبلغ مساحته ثلاثة هكتارات، فى محاولة للعثور فى مكانها على البقايا القديمة وتقييم إمكانيات الحصول على عمليات تأريخ بالكربون المشع. ولم تلق المحاولة الأولى سوى نجاح محدود. ومن ناحية أخرى، فقد أمكن التوصل إلى متوسط تواريخ بعد تصويبها، إلى رواسب لم تلحق بها أضرار، فى خندق حفر فى القطاع الشمالى الشرقى ٣٤٤٠ ± ٧٠ قبل الميلاد. والتحليل الذى أجرى على ما تم جمعه من مواد عثر عليها فوق سطح الأرض (Hassan : 1989) قد كشف عن تحرك للمحلة من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى – قطاع «مدينة» «بترى» – **أى من الصحراء فى اتجاه النهر**، وذلك خلال عصر نقادة الثانية، وقد تم الكشف عن ظاهرة مماثلة فى «هيراكنبوليس» (hoffman : 1984) **والعضايمة** (Mialant - Reynes et al.1990). أما "North Town" أى «المدينة الشمالية»، فإنها تتمثل فى مساحة ضيقة من الرواسب التى تخلفت عن إقامة البشر، وتغطى أربعة هكتارات، حيث تم الكشف عن دفنات أطفال فى مقتبل العمر (Petrie a. Quibell: 1896: 1-2). إن عملية جمع قياسية جرت على السطح (Hassan : 1989) قد كشفت – كما كان الحال بالنسبة لـ "South Town" («**المدينة الجنوبية**») – عن تحرك المحلة إبان ثقافة الجرزة، ولكن انطلاقا من المركز فى هذه المرة، وفى اتجاه الجنوب والشمال، وفى تزامن من الطور المتأخر فى «**المدينة الجنوبية**». ولم يتوفر حتى الآن لهذا الموقع تاريخ واحد بالكربون ١٤.

إن دراسة الأدوات الحجرية فى مجمل المنطقة النقادية قد أشرفت عليها «هولمز» Holmes (1989) فدرستها دراسة متعمقة، واستطاعت أن تؤكد وجود تغييرات زمنية داخل

صناعة شديدة الخصوصية لهذه المنطقة. لقد صُنعت هذه الأدوات من نويات من ظران محلى جاءت من المستويات العليا للوديان المجاورة. إنها عبارة عن صناعة قائمة على شظايا فصلت بالطرق على النواة ذات السطح، طرقة واحدة، ولكنها ستتطور نحو انتاج أكثر ضخامة للنصال النمطية، كما نعثر عليها فى القطاعات المتأخرة فى «المدينة الشمالية» و«المدينة الجنوبية». إن فئات الآلات الرئيسية، تمثلها الأزاميل – وهى من أزاميل الكسر، ومن حافة مشذبة أو أزاميل ثنائية السطح – والمباشر والرفض والشظايا المصقولة. كما نعثر أيضاً على المخارز وأدوات مشطوفة الزوايا وقطع ذات ظهر ومساحج وفؤوس مصقولة وقطع ذات وجهين متنوعة. كما توجد فى موقعى «المدينة الشمالية» و «المدينة الجنوبية» أساساً، عناصر مناجل من نصال. وتتمتع المجموعة التى جادت بها الدفنات بمظهر مختلف، هو مظهر جنائزى، وقد ذهب البعض فى بداية الأمر إلى إلصاق هذه الصفة بمجمل هذه الصناعة وتتصدرها النصال والنصال الصغيرة وهى انتاج خاص ومتخصص، وتفصح عن انتاج من الظران المحمّى، وهو ما يساعد على الإرتقاء بنوعية عملية قطع الأحجار لتكتسب مظهراً براقاً، شديد الجمال فى الغالب. واللافت للإنتباه وجود شظية وآلة من السبج (الأوبسيديان) obsidienne، وهى مادة غريبة تماماً على وادى النيل، وسوف نعود إلى هذه النقطة فيما بعد. ولكن أبناء ثقافة جرزة قد وجدوا ضالتهم فى التعبير على أكمل وجه عن سيطرتهم التامة على أساليب صقل الحجارة التى اهتدوا إليها، بما أنتجوه من نصال كبيرة ذات وجهين. فانطلاقاً من كتل ضخمة من الظران من أرقى النوعيات، توصلوا بفضل تقنيات متضافرة من الطرق والضغط والصقل، إلى صنع هذه النصال الطويلة جداً والرفيعة جداً، فى آن واحد، والتى تتنوع أشكالها بدءًا من الورقة المستطيلة إلى المدية الكلاسيكية التى لها حافة مستقيمة وأخرى مقعرة تقعراً محدوداً، مروراً بالمحاكاة المدهشة للفاصلة (من علامات الترقيم)، دون أن نغفل الحربة «العتيقة» المتشعبة التى تتطور خطوطها، لتبرز تقعر التشعب، وصولاً إلى صورة القرنين الصغيرين المتقابلين (Casini : 1974) . ان السكين المصقول صقلاً متموجاً، وخير مثال عليه بالنسبة للجمهور الفرنسى، هو سكين جبل العركى، من مقتنيات متحف اللوفر، له مقبض مزخرف من عاج فرس النهر، ويمثل قمة من تم صقل الظران (Midant - Reynes : 1987). وهكذا فإن شأنها شأن الأوعية، حيث تشهد الأوانى الحجرية المصقولة على ازدهار جماعة من الحرفيين المتخصصين، الذين يعملون داخل ورش، وفقاً لمعايير صارمة، وأن وجودهم وانتاجهم، على حدّ سواء، يأخذهما المجتمع على عاتقه، ويتولى الإشراف عليهما.

ولكن المدينة التى عرفت عند الإغريق باسم «هيراكنبوليس» Hieraconpolis، والتى تقع على بعد سبعة عشر كيلو متراً إلى الشمال الغربى من إدفو، تمثل مركزاً سلّم المصريون

أنفسهم بعراقته وأهميته، وذلك بشكل يفوق نقادة بكثير، حيث ظلت هذه الأخيرة وسوف تظل بلاشك، ولفترة طويلة، المكان المفضل للجبانات. وجعل المصريون من «هيراكنبوليس» موطن أجداد الملوك الأوائل الذين حكموا مصر، إنها نخن القديمة، عاصمة مملكة قديمة كل القدم، فى الوجه القبلى.

إن البقايا الأركيولوجية متوفرة فيها. ومن بين أقدمها، نلاحظ وجود مساحة شاسعة من قرى وجبانات عصر ما قبل الأسرات، لمسافة كيلو مترين ونصف على امتداد السهل الغرينى وتتوغل بعيداً ناحية الشمال، لمسافة ثلاثة كيلو مترات ونصف داخل واد كبير.

إن أقدم محلة معروفة تعود مع ذلك إلى خواتيم العصر الحجرى القديم، حول عام ١٥٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B.P وترتبط بأشياء من صنع الإنسان عثر عليها ضمن إرسابات نهاية «البليستوسين». ولم يظهر شيء قط، حتى الآن، فيما بين نهايات هذه العصور الحجرية وبقايا عصر ما قبل الأسرات يعود إلى ثقافة العمرة، على أقل تقدير.

بدأت الأبحاث الأركيولوجية فى «هيراكنبوليس» فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، عندما كشف «كويبل» و «جرين» Quibell. Green (1902) عن بقايا سور ثينى، كان بداخله معبد يعود إلى عصر ما قبل الأسرات، وأعيد تشييده فى العصر الثينى، ولكن الأشياء المتعلقة «بتكريس» المعبد كانت قد أخفيت فى خبيئة، وهى التى أشتهرت تحت اسم "Main Deposit" أى «المستودع الرئيسى» واستخرجت منها مجموعة من الوثائق تعتبر من أهم ما وصل إلينا عن بداية التاريخ المصرى.

ومن بين الدفنات التى لم ينشر عنها سوى القليل – جادت المقبرة رقم ١٠٠ الذائعة الصيت، بالمجموعة الملونة الوحيدة التى وصلتنا من عصور ما قبل التاريخ، وتحتفظ جدرانها بجانب منها، وسوف نعود إلى تحليلهافيما بعد.

فى أعقاب الزيارة الفنية بالمعلومات التى قام بها «كايزر» Kaiser (1961) وتحليل «أدمز» B. Adams (1974) الأكثر تعمقاً وشمولاً، جرت حفائر على نطاق واسع اعتباراً من ١٩٧٨، بتشجيع من «فيرسيرفيس» W.Fairservis وباشراف «هوفمان» M.Hoffman. كان فريقاً متعدد التخصصات، قد وضع نصب عينيه ان يعيد وضع الموقع وتاريخه فى سياقه البيئى للعصور القديمة Paléoécologique. ولهذا الغرض، تم تقسيم المنطقة إلى مربعات، وأعقبته سلسلة من الحفائر المجسات فى أماكن مختلفة من المساحة الشاسعة. وقد سبق أن تطرقنا إلى نتائج حفائر المنطقة ٢٩. ولكن الصورة العامة التى تبرز من شغل المكان لهذه المدة الطويلة، التى تحددت فيما بين ٣٨٠٠ و ٣١٠٠ قبل الميلاد، بفضل المتوسط الناتج من عمليات التأريخ بواسطة الكربون المشع، هو حدوث تحرك فى اتجاه النهر، يتميز بتمركز

واضح لبناء ثقافة جرزة ناحية الأراضى المنزرعة فى الوقت الراهن (المنطقة ٣٤ ب 34 b).

ويذهب «هوفمان» Hoffman (1984 : 239) إلى أن عدداً من العوامل، القادرة على التضافر والتفاعل، قد توفر تفسيراً، لهذا التطور الطوبوغرافى للموئل: التردى السريع للنسق البيئى (٣٤) écosystème الهش للصحراء من جراء الاستخدام المكثف للنبات كغذاء للماشية، وكوقود للإنسان ولاسيما لأفران الفخاريين. تطور المناخ بشكل عام نحو الجدب والجفاف. إعادة التجمع الدفاعى فى قطاعات أكثر أهمية، وبالتالى أكثر عرضة للأخطار. تطور وسيلة للإعاشة قائمة على الإطماء المنتظم للتربة. قوة الجذب التى أبداها النهر كأفضل طريق للتجارة. وأخيراً، المنارة التى كان لابد لها أن تنشأ، من جراء مولد مركز دينى كساحة مرموقة للسلطة والهيبة، ومكان لا يمكن تجنبه للتكامل الإجتماعى والسياسى والايديولوجى.

وفى الواقع العينى، نجد ان قطاعين يتفقان وثقافة العمرة: تزيد مساحة أحدهما على ٢٠٠٠٠٠ متر مربع[٣٥] (المنطقة ٢٩) ويمتد على طول الأرض المنزرعة، ويبدو أنه يتسلل أسفلها. أما الآخر (المنطقة ١١) فهو أصغر وتبلغ مساحته ٦٨٤٠٠ متر مربع[٣٦] ويقع على بعد كيلو مترين داخل الصحراء، فى نفس المكان الذى يبتعد فيه الوادى عن الأنجاد لينتهى عند السهل. ويبدو أن عدداً من المحطات المجاورة، الصغيرة الحجم، كانت مرتبطة بثقافة العمرة. وتوحى أعمال التنقيب أن شغل الموقع الرئيسى كان على نحو أكثر كثافة، فى حين يبدو ان المنطقة ١١ كانت مركزاً ثانوياً للرعى وتوزيع الفخار، كما يؤكده وجود أفران الفخاريين. إن دراسة الفونة الداجنة (الخراف والماعز والأبقار والخنازير والكلاب) (Mcardle, 1982) تكشف عن إختلافات ملحوظة بين الموقعين. ونجد فى المقام الأول أن نسبة الماعز والخراف أكبر فى المنطقة ١١، ويلاحظ بالتحديد أن أعداد الحيوانات الصغيرة المذبوحة كبيرة.

وينحصر الإشغال المنتسب إلى ثقافة الجرزة فى حدود شريط طوله ثلاثمائة متر من الأرض المنزرعة. وهكذا تغطى ثلاثة مواقع مساحة ٣٦٤٠٠ متر مربع، وتعتبر المنطقة 34b أكثرها كثافة. ويقع تحتها فى جميع الأحوال، إشغال ينتسب إلى ثقافة العمرة.

ويرتبط بهذا العصر طراز خاص من التركيب البنيوى: إنه عبارة عن حجرات مستطيلة فسيحة، يمكن التعرف عليها بفضل اساساتها الحجرية. وكنا قد لاحظنا ظهور أولى المنازل المستطيلة، بجدران من اللبن، منذ عصر العمرة. **غير أن الكشف عن نموذج صغير لمنزل مصنوع من الطين المحروق فى مقبرة تعود إلى ثقافة الجرزة فى العمرة (شكل ٢ ١أ)، تجود لنا بإيجاز شديد أخاذ، بصورة لمسكن له منذ ذلك الوقت، ملمح فرعونى صميم. إنه**

مستطيل الشكل، أضخم عند القاعدة مقارنة بالقمة، وحوائطه مقعرة بعض الشىء إلى الداخل، الأمر الذى يوحى ببناية طيعة من أغصان الشجر واللبن. إن الرؤوس المدينة فى الأطراف الأربعة (؟) التى تعطى لقمم الجدران شكلا مقعرا بعض الشىء، تحملنا على الظن بوجود أوتاد يفترض أنها كانت تحمل سقفا من المواد النباتية. والباب يصوره تجويف، يعلوه ساكن أعرض بكثير، وربما كان من خشب ويتكون فى ثلثه العلوى، من الأسطوانة التى من المحتمل أنها تصور ستارة ملفوفة حول كتلة خشب مدورة. إن هذين العنصرين، وهما الساكف والأسطوانة، يشكلان سمتين تميزان إلى حد كبير الباب المصرى، حيث سيظهران وقدغطتهما المدونات، على اعتبارهما ›من المواضيع الثابتة‹ للباب الوهمى على امتداد التاريخ المصرى بأكمله. إن الشباكين المتجاورين المقابلين للباب، القائمين فى أعلى الجدار، صغيران جداً حفاظاً على رطوبة الحجرة، تعلوهما وتبرزهما عارضتان صغيرتان. واستناداً إلى ارتفاع الباب وهو عشرة سنتيمترات، فإن المقاييس الحقيقية التى يقترحها «راندال - ماكيفر» Randall - MacIver و«ماسى» Mace قد تكون حوالى سبعة أمتار ونصف طولاً فى خمسة أمتار ونصف عرضاً.

إن مقبرة من الأبعدية (شكل ١٢ ب) تعود إلى ثقافة العمرة، قد جادت علينا بنموذج شديد الغرابة، مشكل من الطين، كركن مستدير لجدار مسنن يقف من ورائه شخصان، يبرز ظهرهما بكل وضوح، ويتجاوز رأسهما فقط قمة الجدار، بحيث يتسائل المرء اذا كان يشاهد ديدبانين عملاقين أم جداراً صغيراً جداً. وهو ما لا يعنينا فى واقع الأمر. ان العنصرين الشديدى الدلالة هما فى هذا المقام السور الدفاعى والديدبان كتعبير عن سمتين دفاعيتين، وهو مالا يشير فقط إلى النزعة إلى التجمع منذ ثقافة العمرة، وهو أمر واضح للعيان من الناحية الأركيولوجية، ولكنه يشير أيضا إلى سمة دفاعية، لا ندرك من ناحية أخرى حقيقة كنهها.

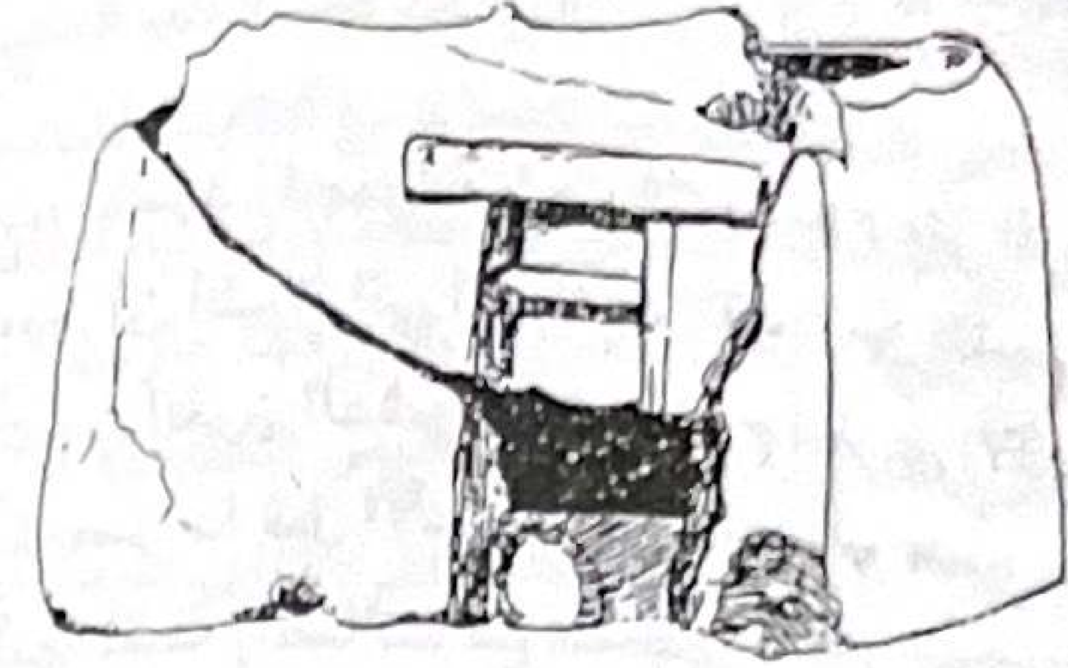
ومن ناحية أخرى، ستصبح المدن المحاطة بالأسوار المسننة أو ذات الشرفات من الأمور السائدة إبان نهاية عصر ما قبل الأسرات، كما يتضح من تحليل الصلايات التى تحمل زخارف. وهكذا تندمج فى مشهد أيديولوجى يتسم بقدر من العنف المرتبط بصورة الفرعون ذاته.

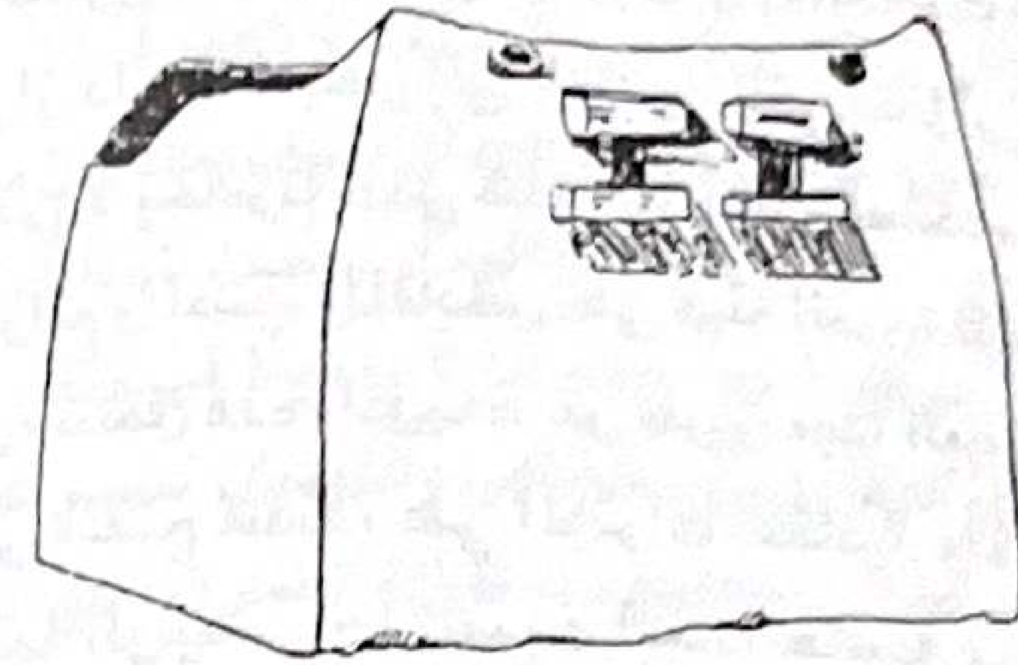
فلنعد إلى ›هيراكنبوليس‹ المنتسبة إلى ثقافة جرزة. إن مظاهر تسارع التقدم الحرفى، هى أقل ماتكون فى مجال المنتجات التى تم انجازها بالكامل، كما هو الحال فى نقادة، حيث تحتل الجبانات مركز الصدارة. وفى المقابل، فإن وجود المناطق الوظيفية، واضح كل الوضوح، كما تشهد على ذلك القطاعات العديدة التى تضم أفران الفخاريين أو ورش قطع

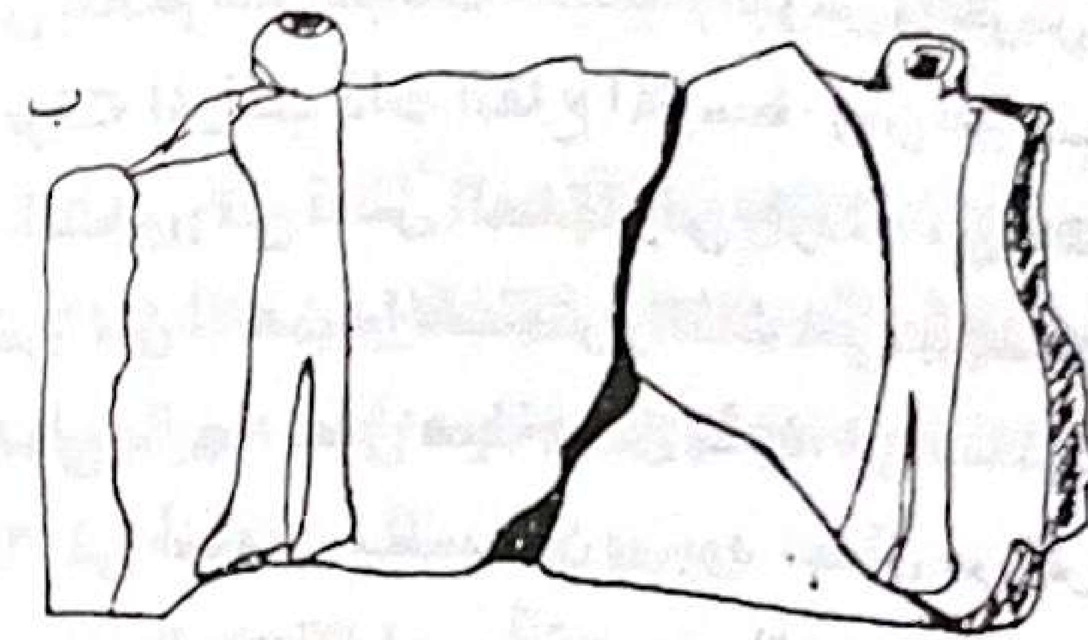
الأدوات ذات الوجهين، كما أماطت عنها ›هولمز‹ Holmes اللثام فى المنطقة 29 A . ولكن فى وسعنا أن نميز التطور الحرفى على أفضل وجه، أساسا من خلال النزعة إلى التجمع فى اتجاه النهر. ولا نستبعد بلا ريب، أن يكون تردى الظروف البيئية، قد لعب دورا بارزا، فى هذا الصدد، ولكن من الصعوبة بمكان، ألا نشير إلى مدى تأثير طريق للمواصلات، بعد أن أصبح طريقا استراتيجيا.

ان انتشار مناطق الإحتكاك والإتصال وتوسعها ليشكل فى حقيقة الأمر إحدى السمات الرئيسية لثقافة جرزة.

وفى اتجاه الجنوب، تشهد المجموعة «أ»، بكل وضوح على الروابط مع النوبيين. أما ناحية الشمال، فقد سبق أن أشرنا إلى الجبانات القريبة من الفيوم. وقد حدث خلال العقد المنصرم (الثمانينيات من القرن العشرين) ان أخرج الفريق الألمانى لمتحف ميونيخ، إلى النور الجبانة الكبرى لعصر ما قبل الأسرات فى منشأة أبو عمر، عند الطرف الشرقى من الدلتا، ومن الواضح أنها نقطة إتصالات مع فلسطين (Kroeper u. Wildung: 1985) . وقد تم رصدها منذ ثقافة البدارى بشكل محدود وهزيل، وان اكتسبت فى المقابل قوة غير معهودة مع وصول هذه الجرار ذات المقابض إلى الوادى، التى ستؤثر بشكل قاطع ومباشر على الفخار المصرى، والتى لا يخامرنا أدنى شك أنها كانت تستخدم فى نقل الزيت والنبيذ. أما هذه الأوعية ذات القوائم والمصب والمقابض على هيئة العروة فتعود أصولها، هى أيضاً إلى الشرق الأدنى. والآن، تنتقل هذه «الموجه»، عن طريق مبدأ العبور، من خلال المدن التجارية فى شمال مصر التى تنفتح عندئذ، على المؤثرات النقادية. واكسبت تجارة النحاس التى كانت المعادى طريقها الرئيسى - اكتسبت أبعاداً خاصة. ورغم أن ضعف المبانى كان مايزال فى وسعه أن يتلاءم مع النباتات المحلية (البوص والخوص وخشب السنط والأثل...) فإن التطور الذى عرفته المراكب ذات القاع المنبسط، ومن الواضح أنها كانت مصنوعة من الخشب، كان هذا التطور فى أمسّ الحاجة إلى واردات من خشب يأتى من أماكن أبعد بكثير. إن وجود خرز من الذهب والألبستر والقاشانى، بالإضافة إلى وجود هذه التميمة الصغيرة الفريدة فى بابها، على هيئة رأس بقرة، فى مستويات « بواكير البرونز » ١ (- 1 "Early Bronze" فى ›أساوير‹ بفلسطين ووجود نصال من طراز «جبل العركى»[٣٧] فى نفس مستويات "Early Bronze 1" فى « آزور »، لتوحى لنا بوجود آليات من التبادل على شكل منتجات جاهزة للإستخدام مقابل مواد أولية. (للوقوف على أحدث الآراء حول علاقات مصر بفلسطين راجع P.de Miroschdi : 1998) . وقامت روابط مع مناطق تقع على مسافات أطول بكثير، فى سومر وعيلام فأثرت، على نحو خاص، فى الطور الأخير من عصر ما قبل الأسرات. ومع ذلك، فقد وصلت كسف خامة من اللازورد والسبج إلى أيدى حرفيى الوادى







شكل ٢ ١-أ-ب

منذ عصر ثقافة جرزة (لمزيد من التفاصيل حول قضية اللازورد يمكن الرجوع إلى L.Bavay 1997 :). ولابد أنها قد وصلت من خلال عدد من الإتصالات غير المباشرة لتدشن من أجل الأزمنة اللاحقة، طرقاً تجارية حقيقية.

وتقع مدينة الكاب، المجاورة لـ «هيراكنپوليس»[٣٨]، على البر الشرقى من النيل، وكانت عاصمة الإلهة «نخبت» التى تنبثق من التاج الملكى، إلى جانب الثعبان الصل، «واچت» إلهة «بوتو»، وهى المدينة الواقعة عند أطراف الدلتا. وهكذا فإن المدينتين متناظرتان فى إطار نسق مرجعى ينهل من منابع الإزدواجية الفرعونية ذاتها ومع ذلك لم يخلف لنا عصر ما قبل الأسرات وراءه سوى بقايا محدودة. وحديثا، قام «هندريكس» Hendrickx (1984) بالتنقيب داخل سور المدينة التى تعود إلى عصر الأسرات، فى جبانة تعود فى المقام الأول إلى العصر الثالث من نقادة. وكما يذهب إليه هذا العالم، فمن الراجح أن الموئل كان أقرب إلى شاطىء النهر، وفى هذه الحالة، فقد طمره غرين السهل الحالى.

وفى المقابل، فقد كان موقع أبيدوس[٣٩] أبعد من النهر، ولذا فقد جاد لنا ببقايا جبانات وموائل نقادية. ولكنها كانت مجرد قرى صغيرة عند حافة الصحراء. ونذكر بالتحديد منطقتى أفران للحبوب (؟) التى كشف عنها «پيت» (4 - 1 : 1914) Peet وقام «ڤانديه» Vand-ier (1952 : 503 - 508) بوصفها وصفاً دقيقاً. ومنذ مطلع الأسرة الأولى شُيدت مدينة حقيقية من الطوب اللبن، بينما كان ملوك مصر الموحدة يأمرون بتشييد دفناتهم فوق مرتفعات أم القعاب[٤٠]، التى عرفت بهذا الإسم بالنظر إلى كميات الأوعية الضخمة المكسورة التى تغطى المكان. فالطبقة الحاكمة، بعد أن تحولت إلى سلطة ملكية حقيقية، كانت بالفعل قد نقلت لتوها، مركز ثقل البلاد، ناحية الشمال. فعندما أسس ملوك مصر الأوائل عاصمتهم فى «ثنى» – التى لم يتبق منها شىء – وبعد أن وقع اختيارهم على أبيدوس لتضم دفناتهم، كانوا ينتزعون من نقادة وهيراكونپوليس دورهما «كعاصمة» للوجه القبلى.

وعند نهاية هذا العصر، وحول عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد، كانت صورة الوجه القبلى هى صورة وادى ضيق، تنتشر فيه القرى: المحاسنة وأبيدوس والعمرة وبلدة هو والأبعادية ومطمر ونقادة وبلاص وأرمنت والجبلين والعضايمة وهيراكنپوليس والكاب والفنتين، حيث أخرجت بعثة المعهد الألمانى فى القاهرة (Werner : 1988) إلى النور بقايا أكواخ من عصر ما قبل الأسرات. وبدءاً من ثقافة العمرة حول ٣٨٠٠، كان أسلوب العيش يشمل إلى حد كبير اقتصاداً إنتاجياً قائماً على الإستثمار الزراعى لأراضٍ خصّبها الفيضان (القمح والشعير والكتان) واستغلال شريط من الأرض مازالت الأحراج منتشرة فيه، وتحده الوديان النشطة نشاطاً عشوائياً – استغلاله كمراعٍ. وإن كانت ممارسة الصيد النهرى وخاصة القنص فى الصحراء، قد وفرت إضافات بروتينية ذات شأن، بل يمكن القول انها كانت ضرورية ولا غنى

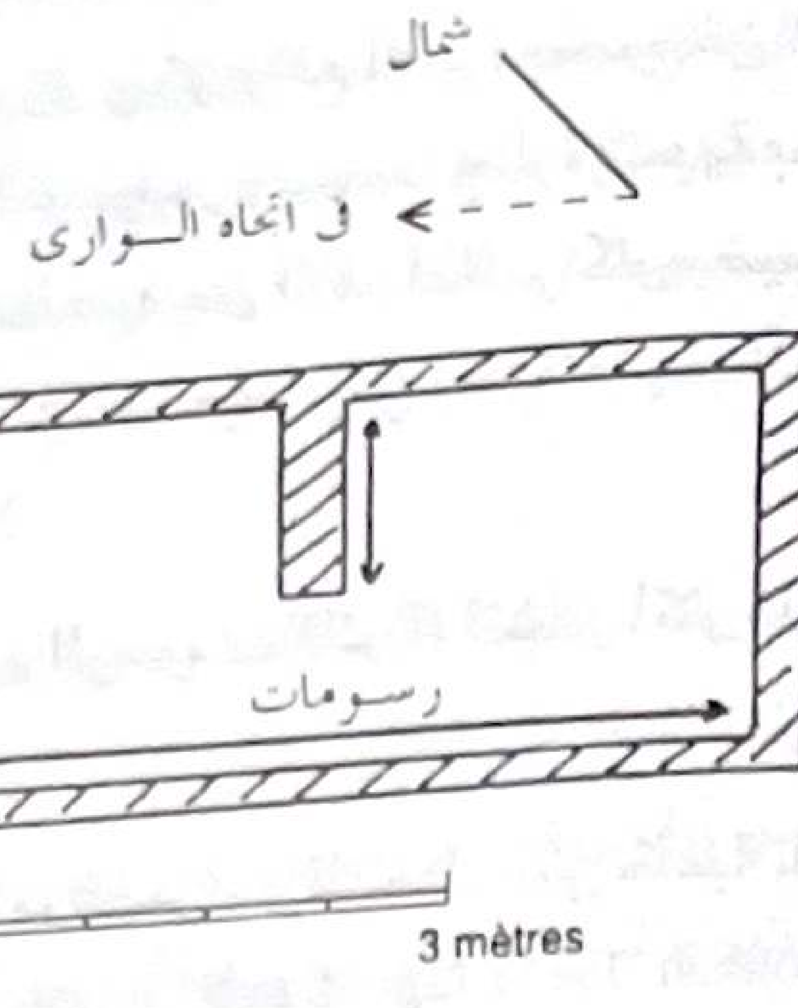
عنها فى بعض الأحوال، فقد أوجدت وطورت علاقات اجتماعية بين الأفراد، منذ وقت مبكر جداً، وكانت بالنسبة لصفوة الجماعة، تعبيراً عن «انجاز» تخرج منه منتصرة، وقد تجدد سلطانها إذا صحّ التعبير.

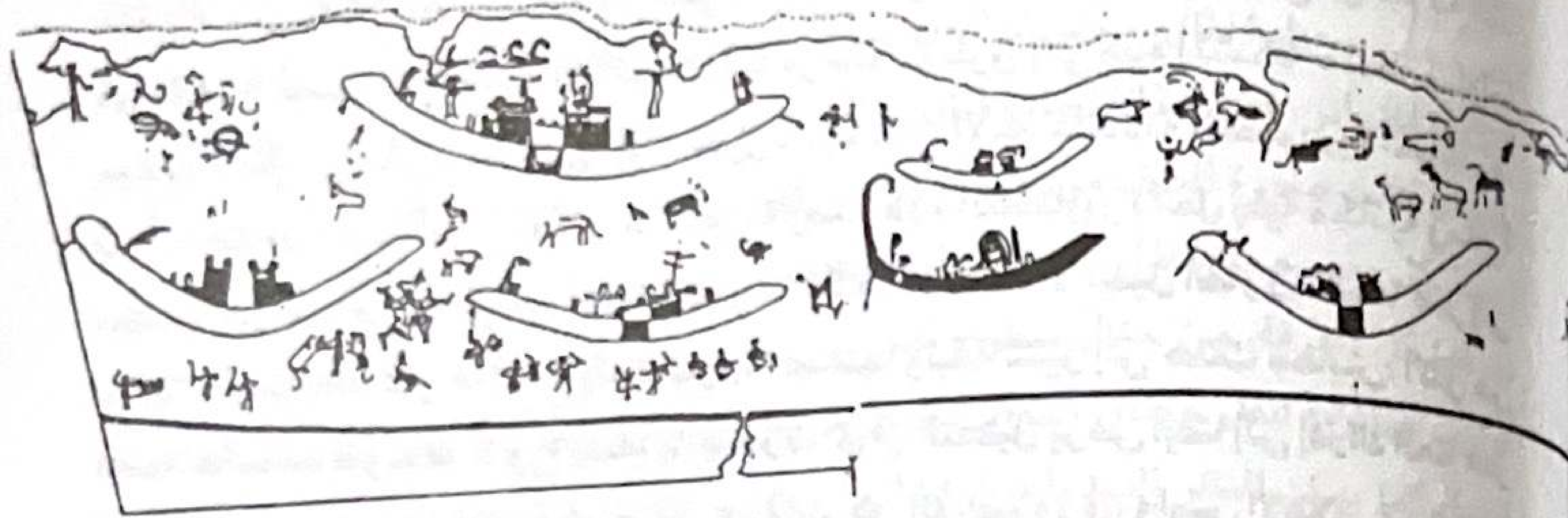
وفى النصف الثانى من الألف الرابع، نزعت الأنشطة البشرية إلى هجر الحواف التى زحف التصحر عليها لتتراجع فى اتجاه السهل الغرينى، كمحور مفضل للمقايضات كما توحى به الخطوط العريضة لـ «هيراكنپوليس»، ونقادة والعضايمة. وهكذا، فإن مركزين كبيرين يهيمنان على هذه الرقعة الفسيفسائية للقرى: نقادة عند منفذ طريق الذهب، و«هيراكنپوليس»، عند الحدود الجنوبية ومفتاح تجارة الذهب والنحاس والعاج.. مع مناطق الجنوب.

ولاشك أن كلتا المدينتين قد تأسستا بإيعاز من صفار الملوك الأوائل الذين قدر لهم، وبدرجات متفاوتة، ان يشرفوا ويراقبوا روحات وغدوات المواد الأولية والمنتجات الجاهزة للإستخدام، والعمل على تطوير صناعة الكماليات، تلبية لمطالبهم وبما يعود عليهم بالفائدة. وهكذا نشأت جماعات من غير المنتجين، أخذت تزداد عددا، وتشكل ضغوطا شديدة متزايدة على أساليب الإنتاج، مما دفع القوم إلى البحث فى أماكن تزداد بعدا باطراد، عن أراض تصلح للزراعة وعن مراع. وكما يلمع إليه «كرزيزانياك» Krzyzaniak (1977:127 et sq.)، فقد حدثت آنذاك، على ما يظن، على الصعيد المحلى، أولى محاولات الرى الصناعى، على هيئة أحواض صغيرة وقنوات وسدود: وتم التحكم فى تدفق المياه وهديرها، واتسعت الرقعة المزروعة، الأمر الذى أدى إلى زيادة الإنتاج والاشراف عليه إشرافا أفضل. إن التأقلم مع أراض وتربة جديدة، تظهر صعوبة أكبر عند زراعتها، قد اقتضى بلاشك استخدام المعزقة، مما فتح الطريق نحو اختراع المحراث الذى تجره الأبقار.

وبينما كانت تتشكل هياكل بنيوية إقتصادية واجتماعية جديدة، كانت ترتسم فى الخلفية لوحة أيديولوجية وجدت لها ترجمة أخّاذة فى تصاوير مقبرة «هيراكنپوليس».

فالمقبرة رقم ١٠٠ فى «هيراكنپوليس» (شكل ١٣) التى أخرجها إلى النور «كويبل» Quibell و «جرين» Green عند مطلع القرن العشرين، تبدو على هيئة مستطيل يبلغ ٥٨٥سم طولاً و ٢٨٥سم عرضاً وعمقه ١٥٠سم تقريباً. وقد بنيت الحوائط بالطوب اللبن، إلى جانب جدار صغير يبدأ من منتصف الحائط الشرقى، ويتقدم إلى منتصف عرض المقبرة. وعلى عكس ما ذهب إليه «جرين» فى بادىء الأمر، فالسقف ليس على هيئة قبو، وكان هذا الإفتراض قائماً على ما كان يبدو أنه جزء داخل، فى أعلى الحوائط (Kemp 1973). وكانت طبقة من الجص تغطى الحوائط، وتزدان فى الجهة الغربيه، والجزء المقابل من الجدار الصغير، بأشكال زخرفية متأثرة بثقافة جرزة. ومع ذلك، فإن ملامح المبنى الأصيلة والمتطورة فى أن واحد، كانت تحدد تاريخه فى الطور الأخير من عصر ما قبل الأسرات، فى عهد الأسرة





شكل ١٣

صفر Dynastie 0 (Baumgratel: 1960: 126). زد على ذلك، ان «برونتون» Brunton (1932) قد استخلص من عدم وجود هيكل عظمى، دليلاً يقوض الرأى القائل بأن هذا المبنى يمثل مقبرة، واقترح أن ينظر إليه باعتباره ما يشبه الهيكل. وهو التفسير الذى دحضه «كانتور» Kantor (1944) الذى لم يذهب فقط إلى التأكيد على أن المبنى يمثل مقبرة، بل إنها تعود، علاوة على ذلك، إلى ثقافة جرزة. ولكن واقع الأمر، يوضح من ناحية، كما لاحظ «كايزر» Kaiser (1958) أن مبنى «هيراكونپوليس» يجسد عمارة شبيهة بمقابر الجبانة T فى نقادة، ومن ناحية أخرى، فإن تحليل العديد من الأشياء التى كان يضمها المبنى (- Kaiser, 1958 Case a. Payne: 1962-Payne: 1973) تحيلنا إلى نقادة ٢ جـ Nagada IIc وليس إلى عصر فجر الأسرات Protodynastique.

ومن هذا المنظور، فإن وجود الرسومات الملونة، لتشدد أكثر فأكثر على الطابع «الأميرى» لهذه الدفنة.

إن سياق الأشكال السوداء والحمراء والبيضاء على خلفية بلون المغرة، كان موضوعاً للعديد من الشروح، ويساعدنا الشرح الأحدث عهداً (Avi - Yonnah: 1985) على تكوين فكرة معقولة. وفى رأينا، أن أى منها لا يعطينا، بشكل مُرْضٍ، المعنى الذى ينبغى أن نلم به عند قراءة هذه الصور. لقد سبق أن أتيحت لنا فرصة التطرق إلى هذه المشكلة عندما تناولنا موضوع الأوانى التى تعود إلى ثقافة جرزة: ولما كان الأخذ بالدلالة التصويرية المباشرة، أمراً مستبعداً، يبدو أنه لا مناص من إعادة وضع هذه التصاوير داخل بنية مكانية زمانية تخصها هى وحدها. وعلى حد قول «تفنين» Tefnin (1979:224) «**يميل القارىء المعاصر إلى تركيز جل انتباهه على ما قد تقوله الصورة بصفتها وثيقة تشير إلى حدث معايش، أكثر من اهتمامه بما قد تقوله بوضوح بصفتها صورة، أى أن التحليل يرمى أيضا إلى إدراك العناصر التى تتفق مع إعادة صياغة نظام تصويرى، يفترض أنه ضرورى، وليس الإعلان عن النسق الحقيقى لتمثل الكائنات المصورة، وهو مع ذلك، لتركيب البنيوى الموضوعى الوحيد، الذى تقدمه الصورة لعين المشاهد**». وإذا لم يكن فى هذا الصدد، ما يدعونا إلى صياغة منهج يمكننا من خلاله أن نزعم أننا توصلنا إلى مقاربة عقلانية لهذا النوع من الوثائق، يصبح من غير الوارد هنا كما فى حالات أخرى - ان نبحث عن ثمة حدث قد تكون «الإيقونوغرافيا»[٤١] Iconographie قادرة على اتخاذه مرجعاً لها.

وسط ستة مراكب ضخمة، تهيمن بطريقتها الخاصة على الفضاء والمكان، وتخضع للإيقاع، تنتظم فى العالم المزدوج للصيد البرى والحرب، مشاهد صغيرة بعيداً عن أى خط يحدد مستوى الأرض وأى صف[٤٢] registre يحدد المشاهد. لأن الحقيقة المقلقلة لهذه التكوينات تنبع من أنها تشبه، فى نفس الوقت، العالم التشكيلى لأوانى ثقافة جرزة: المراكب

المقوسة وفى وقت لاحق عالم الصلايات المزخرفة. ولا ريب أيضا من ناحية أخرى، أنها من الأسباب التى حملت العلماء إلى غزو المقبرة إلى عصر فجر الأسرات. ولا يسعنا فى الحقيقة أن ننظر إلى الشخص الذى يجابه حيوانين (أسدين؟) أو إلى المحاربين الواقفين عن يساره ويتبارز كل اثنين منهم، دون أن نأتى على ذكر المقبض المزخرف لسكين جبل العركى. وعلى النحو ذاته، فإن الغزال الذى وقع فى أسر الوهق ويستدير برأسه إلى الخلف، والكلاب التى تطارد المها، هى جزء من عالم العاج المزخرف. أما الشخص الذى ينهال بدبوسه على ثلاثة أعداء (مقيدين؟)، ويربطهم به رباطاً مادياً، فإنه يجسد صورة النصر، فى شكلها الجنينى، كما ستظهر لاحقاً، بعد قرنين من الزمن، فى صورة مكتملة فى صلاية - «نعرمر»، رمزاً ثابتاً لقرون وقرون.

وجاء تصوير المقابر ليعكر صفو البيئة التى كانت رسومات الأوانى قد كشفت عنها. ومنذ كنا نشتبه بوجود العنف ونستشفه من خلال نموذج سور مدينة ونزعة البشر إلى التجمع، فها هو يجد تعبيرا له بفضل «الحرية» التى مهدت لها الرسومات الصخرية. وهنا كما على سطوح الصخور، تمتد الركيزة، لتساعد على تجسيد الصور التى لم تكن الآنية تتيحها ليس بسبب شكلها بقدر ما كان لها من دلالة. فلا شىء، كان يحول، من الناحية المادية، دون أن تندس، على سبيل المثال، بعض مشاهد القتال بين بدن سفينه وقاعدة إناء. لا شىء سوى التقليد المتواتر. ففى هذا المجال، أطلق فنان أو فنانو «هيراكنپوليس» العنان لخيالهم «فى حرية». كانت صورة العنف موجودة، ولكن لم يكن وجودها طاغياً، إنها تتسلل كعنصر يندس وسط كل منسجم، وتطل عليها قوارب الأوانى، المقوسة القاع، أو المستوية القاع التى نعرفها كل المعرفة، من خلال سطوح الصخور. ماذا تعنى هذه السفن؟ لقد اعتبرها البعض قوارب جنائزية لنقل جثمان المتوفى، ممهدة بذلك للمواكب الجنائزية فى العصور الفرعونية. لربما. كما يمكن النظر إليها باعتبارها أنها تحاكى القوارب التى لا يستبعد أن المتوفى كان يمتلكها، وهو حى. لا يهمنا الأمر فى شىء، لعدم توفر متن تفسيرى، يقدم لنا توضيحاً شافياً. وفى المقابل، يشير حجمها بكل وضوح إلى مدى أهميتها. «فالملاحة» إذن هى التى تحتل مكان الصدارة ومن حولها: مشاهد القنص والحرب.

وإذا تجاوزنا القنص الضرورى، لتلبية الإحتياجات الغذائية، قنص آكلات العشب، يوجد القنص المحفوف بالمخاطر، الذى يضفى قيمته على القناص ويرفع من شأنه، إنه قنص الأسود. ثم صار الحيوان إنساناً، وهكذا أخذ التقاتل فى الظهور، فيخرج منه منتصراً من يمتلك قوة الحيوانات. وهنا تكتمل الدائرة. فمن القنص إلى الحرب، ومن قناع القنص إلى الملك - الثور أو الأسد أو الصقر المظفر، توجد الإلمامة المقتضبه والرائعة لصلاية النسور ولصلاية الأسد.. ولذَنَب الحيوان المثبت فى نقبة «نعرمر» وجميع ملوك مصر الذين جاءوا فى

أعقابه. ولكن قبل ان نتوصل إلى تركيب يماثل فى قوته الايديولوجية التى تتضمنه، تفتح الرموز على جانبى «صورة – قوة»، هى الملاحة التى من حولها ينتظم كل شىء، ويتلاقى كل شىء، ويولد كل شىء ويختفى ويندثر.

ومن غير المرجح أن مقبرة «هيراكنبوليس» المرسومة كانت مجرد حالة فريدة – كما ان الكسف المرسومة على نسيج التى عثر عليها فى جبانة عصر ما قبل الأسرات، فى الجبلين، (Galassi : 1955) لم تكن أيضاً فريدة فى بابها – غير ان ندرتها، لا تدع مجالاً للشك. وتعبر هذه المقبرة، من خلال عمارتها ورسوماتها، عن وجود طبقة من الامراء، تنتمى إلى نخبة ارتبط صعودها بظهور صورة القوة وشدة بأس البدن، والعنف، كما ارتبطت بصورة النهر.

ثقافات الشمال : المعَادىَ

إنطلاقاً من الأبحاث التى أجريت خلال السنوات الأخيرة، انكشف مُركّب ثقافى يضم حوالى أثنى عشر موقعاً، تعود إلى المجموعة الضخمة للجبانة – الموئل التى تم الكشف عنها فى المعادى والتى أطلق عليها اصطلاحاً «المعادى».

وبالإضافة إلى موقع المعادى الذى سميت هذه الثقافة على اسمه والجبانة المجاورة فى وادى دجلة تشكل مدينتا «هليوبوليس» و«بوتو»(٤٢) مركزين شديدى الأهمية لهما دلالتهما الخاصة، فيما يتعلق بتطور هذه الثقافة.

المعادى ووادى دجلة

إن محلة عصر ما قبل الأسرات فى المعادى، إحدى ضواحى القاهرة الجنوبية، تشغل حافة مدرج «بليستوسينى»، يطل على السهل الغرينى، فيما بين مصب وادى التيه ووادى دجلة، على مقربة من الأراضى المنزرعة، ولكن فى مأمن من مياه الفيضان.

شهد هذا الموقع أعمال التنقيب، من جانب جامعة القاهرة فى الفترة من ١٩٣٠ إلى ١٩٥٣، وكانت فى بداية الأمر واعتباراً من ١٩٣٣، تحت إشراف مصطفى عامر و«منجين» O.Menghin ثم اعتباراً من ١٩٤٨ تحت اشراف مصطفى عامر وابراهيم رزقانة.. ويغطى هذا الموقع حوالى ثمانية عشر هكتاراً. ويضم مساحة مخصصة للموئل، تم استكشاف منها أربعين ألف متر مربع، وجبانة عند أسفل المدرج.. وعلى بعد كيلو متر واحد إلى الجنوب من وادى دجلة تم الكشف والتنقيب فى جبانة ثانية، فيما بين ١٩٤٨ و ١٩٥٣ . وفيما بين ١٩٧٧

و ١٩٨٧ ثم تنظيف ٢٠٠م٢ فى القسم الشرقى من الموئل بمعرفة فريق من جامعة روما (Caneva : 1987). واعتباراً من ١٩٨٤ قام ابراهيم زرقانة و«سيهار» J. Seeher بإعداد واستكمال دراسة توثيقية كاملة عن الموقع وذلك برعاية المعهد الألمانى للآثار فى القاهرة (Rizkana U. Seeher 1987 - 1988. 1989. 1990).

إن الرواسب الأركيولوجية التى يصل سمكها أحياناً إلى مترين، تتكون من طبقة أساس من البيئة الطبيعية، وتوجد فوقها أكوام متعاقبة من الردم والأنقاض على هيئة مخروط، وقد قام السكان ذاتهم بتكديسها إبان مراحل شغل المكان المختلفة أو قام بذلك الباحثون عن السباخ، وهى المادة المخصبة الناتجة عن تحلل المواد العضوية، التى كان الفلاحون يسعون إلى الحصول عليها. هذا النسق المعقد من العلاقات المتبادلة بين مختلف المستويات، يجعل محاولة تحديد استراتيجرافيا أمراً إحتمالياً.

وتكشف الأبنية الهيكلية عن ثلاثة طرز لشغل الأرض، ومنها طراز فريد فى بابه فى مصر: انه طراز المساكن المحفورة فى الصخر، وهى عبارة عن منحنى بيضاوى يبلغ ثلاثة أمتار فى خمسة أمتار، يصل حتى عمق ثلاثة أمتار بالنسبة لأكبرها. وكان الوصول إليه عن طريق سلم حُفر هو أيضاً فى الصخر. وفى حالة واحدة، كانت الحوائط مغطاة جزئياً بالحجر والطوب اللبن وهى المثال الوحيد فى المعادى لاستخدام الطوب اللبن، إن سلسلة من الثقوب المتعاقبة على امتداد الحوائط توحى بوجود كسوة من خشب، ربما كانت تعطى لهذه المبانى الشاسعة مظهراً من الجلال والمهابة. وقد ذهب البعض إلى النظر إليها باعتبارها مبانى إحتفالية خالية من أى طابع عملى. وخلافاً لذلك، فقد نظر إليها «فاندييه» Vandier (1952:516) باعتبارها مخازن. ان وجود مواقد مبنية وجرار نصف مدفونة وبقايا منزلية فى مؤخرة هذه المبانى، لتشهد لصالح أنها موائل حقيقية فى واقع الأمر، وهى أشبه بما عُثر عليه فى بئر سبع، فى جنوب فلسطين (راجع Perrot : 1984). أما الطرازان الآخران فهما مساكن تعود إلى نماذج كانت مصر قد عرفتها من قبل: الأكواخ البيضاوية التى ألحقت بها فى الخارج مواقد محاطة بالحجر وجرار تخزين نصف مدفونة. والمساكن المستطيلة، تحدها خنادق ضيقة، مما يوحى بوجود سياجات من سيقان نباتية، مخصصة للحيوانات، استخدمت فيها الخنادق كأساسات لتثبيت هذه الحواجز الخفيفة فى الأرض حتى لا تعصف بها رياح الشمال ولاسيما الخماسين التى تهب فى فصل الربيع.

وهنا كما فى غيره من الأماكن، تشكل الآلات الحجرية والخزف أهم ملامح بقايا المحلات البشرية.

لقد صنعت الأوعية من طمى النيل. فشكلها الإنسان بيده، ماعدا شفتها التى ربما استكملت بعجلة بطيئة. وكانت سطوحها ملساء، ويتراوح لونها من الأحمر المائل إلى السمرة

إلى اللون الأسود، ويحاط في الغالب بمناطق داكنة بالمقارنة مع لون باقي سطح الآنية، مما يؤكد استخدام فرن مفتوح والمراقبة غير متقنة على أساليب الحرق.

وبشكل عام، يظل الشكل النمطي للأواني الفخارية المعادية (نسبة إلى المعادي) القاع المستدير والرقبة الضيقة إلى حد ما والشفة المفتوحة، وإن كنا نلتقي أيضاً بالأواني على هيئة قوارير والقاع ضيقة وأوعية على هيئة «لحية البيجون»، [illegible] مسطحة في اتجاه القاع المسطح، بالإضافة إلى القصعات والكئوس، ذات القاع المسطح أو المستدير.

وفيما يتعلق بسطح الأواني الفخارية المعادية فهي ليست مزخرفة إلا في النادر القليل، وتوجد أحياناً علامة حفرت بعد حرق الإناء، وتمثل تارة ما يشبه الطائر أو [illegible] لأسماء الزعماء الملقبين بـ «حورس» تارة أخرى... إن بعض الزخارف المرسومة، وهي [illegible] على خلفية فاتحة، تشير إلى أشكال نباتية، وفي حالة واحدة إلى رسم ظلي (سيلويت) لرجل - له عضو ذكر على هيئة [illegible] - ولا شك أنها تذكرنا بالزخارف المرسومة على أواني ثقافة العمرة (٢). وفي المقابل، فالعلاقة بصعيد مصر أقل وضوحاً، فيما يخص هذه الشقف للأواني الفخارية الحمراء المصقولة ذات الشفة السوداء، والقيمة غير المعهودة، التي لم يستطع أبناء ثقافة المعادي أن يتجنبوا تقليدها تقليداً غير متقن. وبالفعل فإننا نعثر على أواني حمراء بحافة سوداء، ومن الواضح أنها من صنع المعادي، كما تشهد على ذلك السمات التالية: فلون الحافة رمادي ضارب إلى السمرة وغير منتظم على خلفية مشوبة بالحمرة ومكان الكسر فاتح اللون، في حين أن مكان الكسر في الأواني ذات الشفة السوداء الحقيقية أسود اللون نظراً لأن الفحم قد نفذ إلى أعماق الآنية. وأغلب الظن أن الأوعية المعادية المقلدة، قد تمت على مرحلتين: وبداية، كان يترك الوعاء يحترق احتراقاً مؤكسداً عادياً، ثم بعد أن يبرد، يتم تعريض حافته فقط لسخام الدخان، ليكتسب ما يكفيه من اللون الأسود، ولكن بطريقة سطحية. كما عثر أيضاً على آنية من ثقافة الجرزة (Rizkana a. Seeher: 1987 pl. 43, 1-4 et 67,6) تكشف عن عجينة محلية.

وخلافاً للوجه القبلي، فقد جادت فلسطين بأواني فخارية ذات قائم ورقبة ومصب ومقابض وزخارف على هيئة نتوءات، شكلت من عجينة من الحجر الجيري، وكانت تحتوي على ما يظن على منتجات مستوردة – من نبيذ وزيوت وراتنج.. وسوف تؤثر هذه الأواني على الفخار المصري بطريقة ذات مغزى، يعادل مغزى المقابض المتموجة.

وعلى غرار الأواني الفخارية، يمثل ظران المعادي تقليدا متواترا أصيلا «يتنازعه» مركزان قصيان: مصر العليا وفلسطين. والمقصود به أساساً صناعة من النصال المستخرجة

[illegible]

[illegible] (الشرق الأدنى).

وفي المقابل فإن النصال الحجرية هي من طراز [illegible] ولا تظهر [illegible] إلا على [illegible] على حاله كما هو [illegible] حتى وقتنا هذا.

وتستخدم الأواني الحجرية مادة أولية صلبة (حجر جيري أو البازلت) [illegible] إن القصعات والأواني ذات القوائم على هيئة [illegible] الشكل مزودة في الغالب بمقابض أنبوبية الشكل [illegible] أيضاً من الحجر الجيري وأوعية [illegible] في حالات عديدة تحليل محتواها: إنه عبارة عن مادة [illegible] برهاناً على أن هذه الأوعية [illegible] من الراتنج أو الزيت كانت تحترق لإطلاق رائحة عطرة [illegible] شيئاً مصرياً. فإننا نجد أنفسنا أمام حالة جديدة من حالات الاستيراد من الشرق [illegible] الآنية على هيئة قنينة عالية، موجودة أيضاً في المعادي [illegible] الأحوال وقد سبق أن أشرنا إلى أصولها [illegible].

وهناك أيضاً أشياء مستوردة [illegible] هذه الصلايات [illegible] الشكل المصنوعة من الشست حيث لا يخامرنا أدنى شك أنها تعود إلى أصول نقادية. إن وضعها [illegible] واضح من أعدادها المحدودة من ناحية ومن وجود صلايات مصنوعة من الحجر الجيري، وهي بأعداد كبيرة، كانت مخصصة بكل وضوح للاستعمال اليومي.

إن رؤوس الدبابيس المصنوعة من الحجر الصلد (الجرانيت أو الديوريت) ومن الألبستر أيضاً، نجدها ممثلة بالأشكال المخروطية المميزة لثقافة العمرة ومطلع ثقافة الجرزة.

إن العديد من الأرحاء وأحجار السحن المصنوعة من الحجر الجيرى الصلد، تشير إلى عمليات السحن. والمصاقل والنقارات متوفرة بكثرة. إن أحجار ذات مناقير، هى وأقراص الحجر الجيرى المثقوبة، قد فسرت إستناداً إلى المقاربات الإثنولوجية، على أنها مغازل.

إن الأشياء المصنوعة من العظم المصقول ومن العاج، باستثناء بعض الأمشاط المستوردة من الوجه القبلى، تكشف عن التشكيلة التقليدية للإبر والمثاقب والمخاريز. ومن غير المستبعد أن هذا النوع من الشوك أو الإبر الذى يشكله الشعاع الصلب الأول من الزعانف الصدرية أو الظهرية لسمك القرموط، قد استخدم كأسنة للسهام. ومن المحتمل أن هذه الأسنة قد صُدِّرت إلى فلسطين كما يشهد على ذلك وجودها فى وادى غزة (Rizkana a. Seeher 1988:33) وحقيقة أنها تظهر فى المعادى داخل جرار، وهو ما يعنى بوضوح أنها قد خُزنت من أجل التصدير. وهكذا فقد كانت بمثابة نوع من أنواع النقود التى يتم مبادلتها بالمنتجات المستوردة.

ومن هذا المنظور، يكتسب النحاس فى المعادى دوراً بارزاً متميزاً. وفى مواجهة الغياب شبه التام للأشياء المعدنية فى غيره من المواقع، فإنها، متوفرة هنا على ما يبدو: فلا توجد فقط الإبر والشصوص والحلقات ولكن أيضاً القضبان والمساوط والفؤوس التى اتسع مداها فى غياب النماذج المصنوعة من الحجر المصقول والتى كانت من السمات المميزة لثقافتى الفيوم ومرمدة بنى سلامة. وهكذا اكتمل ظهور بديلها المعدنى. ولم يكن ممكناً لمثل هذا التحول أن يحدث، بين عشية وضحاها. وهو ما يوحى بوجود مرحلة انتقالية، هى ما قبل المعادى، والتى يمكن أن ترتبط بها الأوانى الفخارية التى عثر عليها فى حراجة عند مدخل الفيوم، التى جادت بها حفر التخزين المعزولة (Engelbach: 1923 pl. xxx et LV) ، وان لم يوجد لها أثر فى نطاق الثقافة المعاديّة. إن الإختفاء الكامل للفؤوس الحجرية المصقولة، فى نفس العصر، فى فلسطين المجاورة لتحل محلها نماذج معدنية، وإن كانت مختلفة عن مثيلتها فى المعادى، لا يمكن إرجاعه إلى عامل الصدفة، ولكنه حدث نتيجة تقدم تكنولوجى حاسم وانعكاس للتكافل[٤٥] Symbiose بين المنطقتين. وقد عثر عل كميات كبيرة من خام النحاس فى موقع المعادى، وكشف تحليله أن منطقة المنشأ المحتملة هى منطقة تيمنة أو فنان، فى وادى عرابة فى سيناء وان كان الأمر لا يعتبر شاهدا على معالجة هذا الخام فى الموقع ذاته، إلا انه يدل بالأحرى على أنه منتج للمقايضة، يستخدم اساسا كمسحوق للزينة، فى حين كان يتم هذا التحول على ما يظن، على مقربة من أماكن إستخراجه.

إن قدراً من العناصر، قد وضعت المعادى فى دائرة الإتصالات والإحتكاكات والتجارة. إن تحويل سكان المعادى إلى مغامرين مستثمرين (Hoffman : 1980 : 200 et sq.) يبدو أمراً مغالى فيه. ولا غرو أن الطريق انفتح أمام الأشياء القادمة من الجنوب، ونذكر على سبيل المثال الصلايات، ورؤوس المقامع وبعض الأوانى الجميلة ذات الشفة السوداء والمواد الأولية مثل العاج أو مختلف الحجارة الصلدة. أما أوانى البازلت وأحدث الأوانى الفخارية والنحاس، فقد سلكت الطريق المعاكس، كما تشهد على ذلك، الفأس النحاسية الجميلة – ومن الواضح أنها فأس «معادية» – التى عثر عليها فى مقبرة فى مطمر فى صعيد مصر، ويعود تاريخها إلى نقادة الثانية (Brunton 1948:21 pl. 16,47). وفى وسعنا مع ذلك، أن نندهش لان المقايضات لم تكن أكثر كثافة، رغم توفر طريقة مواصلات فريدة، لا مثيل لها، ومواتية للمقايضات وتشجع عليها وأن تجد تعبيراتها الوحيدة، فى المقام الأول فى حدود التقليد والمحاكاة. وعلينا إذن أن نطرح قضية هذه المائتين وخمسين كيلو متراً من الوادى الضيق التى تشكلها مصر الوسطى، فى المسافة الممتدة من أسيوط حتى مدخل الفيوم، والتى تفتقر إلى أى شواهد من عصر ما قبل الأسرات. وإذ يشير «كايزر» Kaiser (1985) إلى الكشف فى حراجة و سدمنت عن مواقع مرتبطة بالمعادى، يقترح أن نقر أيضا بانتشار المعادى إلى أبعد من ذلك فى اتجاه الجنوب، وان كانت الشواهد على ذلك قد دمرتها عمليات النحات أو الإرساب. ومن المحتمل أيضا، على نحو ما ذهب إليه «سيهار» Seeher (1990: 157) ، أن جماعة ثقافية، مستقلة إلى حدٍ ما، وان كانت متأثرة بمجموعات الوجه البحرى، قد لعبت دور المنطقة الحاجزة، بين «القطرين» على امتداد الطور الأول من المتتالية النقادية، فلم تسمح بتغلغل سوى بعض ما صنعه الإنسان، وقد يكون الضغط التوسعى لثقافة الجرزة قد عمل فى نهاية المطاف على تفجره.

والعلاقات مع المشرق أكثر وضوحاً. فقائمة المنتجات الشرقية التى وصلت إلى المعادى، طويلة فى حقيقة الأمر، وقد أعدّ «سيهار» Seeher (1990) قائمة بوضعها الأولى ننقلها عنه: أوانى فخارية وأوانى وحلقات من البازلت والنحاس ودرنات صخرية ضخمة من الظران ونصال كنعانية وبعض المباشر الدائرية الضخمة وأصداف البحر الأحمر والأصباغ والراتنج والزيوت وخشب شجر الأرز والقار، وجميعها عناصر تشير إلى ناحية الشمال الشرقى، فى اتجاه البحر الميت. واستطاع «أورين» E.Oren (1973, 1987) ان يعيد تحديد مسار الطريق الذى كان يربط مصر ببلاد كنعان، على امتداد شمال سيناء، إبان خواتيم عصر ما قبل الأسرات والعصر العتيق[٤٦]. إن اكتشاف حمير مستأنسة فى موقع المعادى (Bökönyi : 1985) يسمح بافتراض أن الإنتقال على الطرق البرية كان يتم على صهوة الحمير النشطة، على نحو ما كان عليه فى العمرى، ٥ ليصبح عملاً روتينياً فى عهود لاحقة.

إن أبناء ثقافة المعادى المشاركين فى شبكة من الإتصالات مع المناطق الهامشية فى الشرق وفى صعيد مصر وفى الدلتا كما سنلاحظه، وكما يدل عليه سكانهم، كانوا من الذين اعتادوا الإقامة الدائمة Sédentaires بشكل ثابت وجازم. إن القليل من الفونة البرية تعمل على موازنة الكميات الضخمة من الحيوانات المستأنسة (Bökönyi, 1985 et Boesneck, 1988) من ابقار وخراف وماعز وخنازير وهى تشكل، باستثناء الكلب، قاعدة الطعام من اللحوم للجماعة البشرية. وهم لا يميلون كثيراً إلى السمك الذى لا يشكل سوى نسبة ١٠٪ من الفونة – فى حين يشكل أكثر من الثلث فى مرمدة بنى سلامة والفيوم – ومع ذلك فقد كان أبناء ثقافة المعادى يلجأون إلى صيد سمك الشال (واسمه العلمى synodontis) الذى كانوا يستخدمون شوكه،وقشر البياض (واسمه العلمى lates niloticus) من أجل الإستهلاك. **كانوا رعاة أكثر منهم صيادين، كما كانوا فى الوقت نفسه، مزارعين، على أكمل وجه.** وهكذا فقد جادت علينا الجرار وآبار التخزين بكيلو جرامات من الحبوب. تميط اللثام عن أنواع من القمح والشعير (واسمائها العلمية: Hordeum vulgare. tritucum spelta. triticum aestivum. triticum dicoccum. triticum monococum) بالإضافة إلى فصيلة القرنيات[٤٧]، ونذكر منها على سبيل المثال العدس والبلسة.

إن الفصل بين الجبانة والموئل واضحه كل الوضوح، ولكن وجود عظام أدمية، فى رواسب الموئل بعد تقليبها، بالإضافة إلى جمجمة لم تحرق، عثر عليها فى موقد، تحملنا على الإعتقاد بوجود ممارسات جنائزية يصعب علينا أن نقف على دلالتها. ان دفن المواليد الناقصى النمو داخل الموئل، وأحيانا فى أوعية، هو فى المقابل ظاهرة شائعة.

وبشكل عام، فإن مقبرة المعادى هى عبارة عن حفرة بيضاوية مساحتها حوالى ٩٠×٧٠ سنتيمتراً، وكان يسجى فيها المتوفى فى وضع جنينى، ملفوفاً فى حصيرة أو قطعة نسيج. ان توزيع المقابر فوق المرتفع البسيط الذى تتكون منه جبانة وادى دجلة، قد أتاح لنا أن نميز بين مرحلتين لإشغال المكان وسوف نعود لاحقاً إلى هذا الموضوع. ويتضح بالنسبة للعصر الأقدم أن وضع الرأس وحده ناحية الجنوب يشكل اتجاها تفضيلياً . ويبدو ان القواعد قد تأكدت بشكل راسخ فى العصر اللاحق، فكان الجنوب هو اتجاه الرأس وينظر المتوفى ناحية الشرق، على عكس ما نصادفه فى الوجه القبلى، حيث كان الإتجاه ناحية الغرب هو المفضل. ولكن ينحصر التعارض فى أقصى درجاته فى «فقر» المتاع الجنائزى. فيصاحب المتوفى إناء واحد أو اثنان والصلايات والأشياء المصنوعة من الظران نادره إن العثور على مشط من العاج فى مقبرة من مقابر وادى دجلة ووجود إناء من الحجر ليعتبران استثناء فريداً . وفى المقابل كانت شُقق محار النيل الضخم المعروف علمياً تحت اسم Aspatharia rubens تستخدم على نطاق واسع كمعالق. ولا وجود لقطعة نحاسية واحدة، ولكن خام النحاس ليس نادراً ، به حيث كان يستخدم آنذاك كخضاب لمساحيق الزينة. وإذا كانت

بعض الأجزاء الحيوانية تمثل تقدمات وقرابين غذائية أكيدة، فهناك دفنات تحتوى على كلاب وماعز أو حملان وقد عولجت عند دفنها بنفس العناية التى يعالج بها البشر. ونجدها مجمّعة، فى وادى دجلة، فى قطاع الجبانة الأقدم عهداً .

وأخيراً، لا يسعنا أن نغادر العالم الذهنى لأبناء ثقافة المعادى فى المعادى دون الإشارة إلى هذا الوجه الأدمى المشكل من الصلصال ، الذى عثر عليه فى الموئل ، والفريد إلى أبعد حد، بجمجمته المدببة ، وأنفه الناتىء الذى يطيل الجبين على هيئة تحدب بسيط وطفيف. ومن المحتمل ان ذقنه التى «على هيئة امتداد مقعوف » ، هى لحية، فى حقيقة الأمر . وتشير فجوتان غير غائرتين إلى العينين ، وفجوة أخرى إلى الفم. (Rizkana a. Seeher, 1989, pl. I,5).

هليوبوليس[٤٨]

تم الكشف عن هذه الجبانة التى تعود إلى عصر ما قبل الأسرات، عام ١٩٥٠، إبان الأعمال التمهيدية فى ضاحية مصر الجديدة الحديثة، وجرت فيها أعمال التنقيب من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٣ من قبل «ديبونو» F. Debono. وبعد تقررين تمهيديين، نشر التقرير النهائى بعد مرور خمس وثلاثين سنة، وبرعاية المعهد الألمانى للآثار. (Debono : 1988).

لقد خرجت إلى النور ثلاث وستون دفنة، وكانت تقع فى السهل الصحراوى المحازى للجبل الأحمر والمقطم، وتمثل خمسة وأربعين دفنة آدمية (ستة وثلاثين بالغاً وصبيين وسبعة أطفال) وإحدى عشرة مقبرة حيوانات (ستة ماعز وخمسة كلاب) وسبع مجموعات من الفخار المدفون بلا أدنى أثر للعظام.

إنها مجرد حفر بيضاوية، عمقها غير محدد، وقد تم تمهيد التربة أثناء أعمال البناء، ومازالت آثار الحُصر باقية على امتداد الجوانب وتوحى بقايا خشب إلى وجود سقف منهار. والمتوفون فى وضع جنينى شديد التقلص فى بعض الأحوال، وقد سجّوا فى المعتاد على الجانب الأيمن، والرأس فى اتجاه الجنوب، والوجه ناحية الشرق. وتبعاً للسن وكيفية معالجة الجثمان، يمكن التمييز بين حالات أربع: حالة البالغين الذين لم يدثروا أبداً فى حصيرة ما أو فى جلد. وهؤلاء لا يتمتعون بأى تقدمات أو بالقليل منها . ثم حالة البالغين الذين يستفيدون بحماية حصيرة أو جلد، بل وسقف من خشب أحياناً . وإن كانوا لا يملكون سوى القليل من التقدمات. ونصل إلى حالة البالغين الذين لا يتمتعون فحسب بأنهم مدثرون، ولكن تحيطهم كمية كبيرة من التقدمات وهناك أخيراً حالة الأطفال الذين ترافقهم أحياناً بعض التقدمات. وان لم يدثروا فى حصيرة أو جلد. ويقتصر الأمر فى جميع الأحوال على أوعية موضوعة

بجوار المتوفى وحدها، أو فى مجموعات تضم وعاءين أو ثلاثة أو خمسة أو سبعة أو تسعة أو عشرة.

وتلتزم مقابر الماعز نفس تخطيط مقابر الآدميين: إنها صغيرة ومحدودة العمق، وقد سجى فيها الحيوان فى وضع مثنى، على الجانب الأيمن والرأس فى اتجاه الجنوب والوجه ناحية الشرق وقد دثر فى حصيرة أو جلد، وزود بأوانى فخارية.

أما مقابر الكلاب فهى صغيرة جداً، وقريبة من سطح الأرض، ولا تكشف عن أى معالجة خاصة.

ورغم أن الدفنات التى جرت فيها أعمال التنقيب لا تغطى سوى جزء من كل، ومن ثم يصبح من الصعب استخلاص نتائج عامة، يبدو تقسيم الجبانة إلى قطاعات على هيئة مناطق بلا تقدمات، وأخرى تتركز فيها الكلاب ومعظم الماعز وثالثة مخصصة للصبية... إن المواقد المنتشرة فى أماكن مختلفة توحى بإمكانية وجود وجبات جنائزية. ومن الراجح أن غياب الأطفال الحديثى الولادة يعود إلى أنهم كانوا يدفنون فى المعتاد داخل الموئل.

إن أوجه الشبه التى تربط الأوانى الفخارية مع مثيلتها فى المعادى ووادى دجلة واضحة للعيان.

لقد شكلت باليد من طين النيل، مع إضافة مادة نباتية أو معدنية كمزيل للزوجة، ويبدو سطحها فى المعتاد أملس أو مصقولاً صقلاً بسيطاً، ولونها رمادياً يميل إلى السمرة، وإلى الحمرة فى النادر القليل. إنها فى حقيقة الأمر عبارة عن جرار، تميل إلى الشكل البيضاوى، ذات القاع المسطح أو المستدير قليلاً والشفاة المفتوحة. وفى بعض الأحوال، يتميز الوعاء بوجود قائم مخروطى أورو[٤٩] رقبة مستقيمة وينتهى بشفاه مفتوحة أو أفقية. وتحمل سبع أوان خزفية خطوطاً رأسية بسيطة أو عنصرا نباتياً، وقد حفرت قبل الحرق وتشبه العلامات التى تركها الفخاريون، كما تظهر فى الوجه القبلى منذ ثقافة العمرة. ويلفت انتباهنا نموذج تمثله جرة بمصب وقائم مخروطى ومزودة بمصفاة عند المصب (Debono: 1990 fig15 7) وأخيرا فإن ثلاثة أوعية، لم يبق منها سوى صور فوتوغرافية، تبدو من حيث شكلها أنها واردات فلسطينية، مثل هذه الجرة البيضاوية ذات القاعدة العريضة المستوية، والرقبة المستقيمة المفتوحة والجوانب المستقيمة. (Debono: 1990 pl. 8).

إن وعاء من البازلت، بيضاويا إلى حدّ ما، وله قائم مخروطى ومقبضان على هيئة أذن صغيرة، يمثل هنا نموذجاً له أصول فلسطينية، تأكد وجوده بوضوح فى المعادى وفى الوجه القبلى، منذ نقادة الأولى. وكذلك وعاء آخر من الحجر الجيرى، يمثل قاعدة مستوية، وبطنا منتفخا ويتميز بوجود ثقبين استخدما لتثبيت مقبض معدنى على ما يظن.

ان صلايات مساحيق الزينة التى عثر عليها فى المقابر هى من نوع بدائى، ويتكون من مجرد فِهْر من الظران المسطح، ومازالت ملطخة أحياناً بالمغرة أو الدهنج. وعلى كل حال فقد عثر على كسف من هذه الأصباغ مراراً عديدة.

إن شقى محارة «أونيو» وهى محارات النيل، يشيران هنا إلى ملعقتين. وفى إحدى الحالتين كانت تلك الملعقة قبالة فم المتوفى.

إن الرخويات – التى تعرف علمياً باسم «أنسيلاريا» Ancillaria وهى من مَعْديّات الأرجل gastèropodes البحرية التى جادت بها شواطىء البحر الأحمر، هى من عناصر الحلى الوحيدة التى امتلكها أبناء هيليوبوليس الأقدمين، كما أن نصلين من الظران شبه الشفاف هما البقايا الوحيدة من صناعة لم يبق سواها من شواهد.

بوتو

إن «بوتو» المدينة المقدسة، وهى «دب» و«به»[٥٠] القديمتان، ومقر الإلهة – الصل «واچت»، كانت تمثل ثالث مركز معروف متأثر بثقافة المعادى.

وتقع عند طرف الدلتا. إن هذه المدينة التى تنظر إليها النصوص باعتبارها عاصمة مملكة قديمة فى الوجه البحرى، على غرار «هيراكنبوليس» فى الجنوب، هى هدف لأعمال تنقيب مكثفة يقوم بها المعهد الألمانى للآثار فى القاهرة، تحت إشراف «ڤون دير واى» T.Von der way (1992. 1997) وبفضل أسلوب عبقرى فى ضخ المياه، تم عمل سلسلة من المجسّات أسفل طبقة المياه الجوفية، الأمر الذى ساعد على خروج مراحل الإشغال القديمة إلى النور، وهى غنية بمادة خزفية وحجرية شبيهة بالمادة التى عثر عليها فى المعادى ووادى دجلة وهليوبوليس. وقد تأكدت أيضاً النزعة إلى التقليد المحلى للأشكال النقادية، بفضل الكشف وسط بقايا أوعية حقيقية ذات مقابض متموجة، وتتميز بعجينة من الحجر الجيرى، عن شقف من عجينة محلية، تحاكى نفس الخطوط الزخرفية، بالإضافة إلى كسف ملونة تحاكى أوعية ثقافة جرزة وهى صحراوية اللون بزخارف رمادية. وبالنظر إلى أنه لم يتم حتى الآن استخراج أى بقايا لوعاء ذى حافة سوداء، يبدو أن المرحلة الأقدم فى «بوتو» تتفق والعصر الثانى من نقادة، وعلى وجه التحديد المستويات II c-d من التتابع الزمنى لـ «كايزر» Kaiser، وهى تستمر فيما بعد، فيما وراء عصر ما قبل الأسرات، دون انقطاع وصولاً إلى الدولة القديمة.

وتقع «بوتو»، شأنها شأن جميع المواقع المعادية، عند حدود تقليدين متواترين: «الإفريقي» إذا صح القول، عن طريق الوجه القبلي. والشرقي، عن طريق فلسطين، بكل تأكيد. إنها تمثل في حقيقة الأمر، المكان الوحيد في مصر، إلى جانب المعادي، الذي نجد فيه المباشر الظرانية الضخمة المسطحة، وهي طراز فلسطيني مميز. ولكن بعيداً عن الشرق الأدنى المباشر، عقد أبناء ثقافة المعادي في بوتو، على ما يبدو، علاقات وثيقة مع جنوب بلاد الرافدين والسومريين في أوروك (وركاء) ٧ – ٦ (Uruk VII - VI): وهو ما يؤكده الكشف عن الأشكال المخروطية من الطين المحروق، التي لونت قاعدتها بالأسود أو الأبيض أو الأحمر، والتي شكلت فسيفساء زخرفية، استخدمها السومريون في تزيين جدران معابدهم. إن الحديث في هذا الصدد عن تبني «بوتو» عمارة سومرية – إلى جانب بنايات نباتية بدائية مرتبطة ببيئة مستنقعات – ليبدو أمراً سابقاً لأوانه. ومع ذلك، فإذا تأكدت صحة هذه الحقيقة، لربما كان لزاماً علينا أن نتفق مع الرأي الذي ذهب إليه «فون دير واي» والقائل بأنه لا يتم تصدير العمارة بنفس طريقة الأشياء وأنها تدخل في الحسبان نسقاً لانتشار الأفكار وتبني مفاهيم جديدة، كاشفاً النقاب عن علاقات مباشرة أكثر التصاقاً. وهو ما قد يرتبط بلا شك، من ناحية، مع المد التوسعي السومري فيما بين ٣٤٠٥٠ و ٣١٠٠ قبل الميلاد (راجع Bower: 1990)، ومن ناحية أخرى، مع الطابع البحري لمدينة «بوتو» الساحلية.

ويلاحظ «فون دير واي» أن المعادي هي محطة نهرية مرتبطة بفلسطين من خلال الطريق البري وعلى ظهر الحمير. بل ومن الراجح ان «بوتو»، كانت على عكس ذلك، أحد أول الموانئ التي انطلقت منها علاقات أكثر بعداً فارتبطت بسوريا الشمالية، وهي منطقة اتصال محتمل مع السومريين . وهكذا فقد عثر في «بوتو» وليس في المعادي على شقف خزفية بيضاء مع أشرطة حلزونية (Von der Way: 1986: fig 3, 1a4) شبيهة بشقف المرحلة F في أموك إلى الشمال من انطاكية، وهي بدورها قريبة الشبه بشقف أوروك (الوركاء).

مواقع معادِيّة أخري

وإلى جانب هذه المواقع الأربعة، حدثت كشوف منتظمة لمادة تعود إلى ثقافة المعادي في محطة طرة على بعد كيلو مترين إلى الجنوب من المعادي (Junker : 1912) وفي الجيزة، إبان أعمال مدّ خطوط الترام، وفي مرمدة بني سلامة، وفي سلسلة من مقابر عصر ما قبل الأسرات الداخلة في نطاق موقع العصر الحجري الحديث (Badawy : 1982)، وأخيراً إلى الجنوب قليلا في **الصف** (Habachi u. Kaiser: 1985) **وسدمنت** (Williams : 1982) **وحراجة** (Engelach: 1923). ومنذ زمن قريب، كشف موقع في **عزبة القرداحي**، على بعد كيلو مترين

إلى الجنوب الغربي من بوتو المجاورة، كشف على عمق أكثر من مترين، عن مادة خزفية وحجرية مماثلة لمادة الطبقات الأقدم عهداً في بوتو. (Wunderlich et al. 1989).

وفيما يتعلق بالتتابع الزمني لثقافة المعادي فقد أمكن التمييز بين أطوار ثلاثة، استناداً إلى جبانات المعادي ووادي دجلة وهليوبوليس، مقارنة مع المادة التي جاد بها الوجه القبلي وفلسطين. وتكشف هذه الأطوار الثلاثة عن نفسها بمعدلات تكرار الطرز، أكثر من أي تغيير جذري يطرأ على الآلات، ويقع على عاتق الباحثين في المستقبل أن يحددوها بوضوح، بل عليهم ان يبدلوها وفقاً للأعمال الجارية، أو المنتظرة في المستقبل.

الطور الأقدم في الزمان، ورأى «سيهار» Seeher (1990) أنه يوازي بوجه الإجمال الثلثين الأخيرين لنقادة الأولى، ويمثله الموقع الذي سميّ باسم البلدة، وهو هذا الموئل الضخم وأيضا الجبانة التي جرت فيها الحفائر، في المكان الذي صار فيما بعد ضاحية القاهرة. وأمكن تمييز طورين في جبانة وادي دجلة ، يرتبط الأول بثقافة المعادي القديم ، في حين يرسم الطور الثاني مع هليوبوليس متتالية متوسطة ، لم يعد يظهر فيها المعادي سوى ظهوراً خافتاً، ولكن ينبثق منها المستوى الأقدم، المعروف حالياً بـ «بوتو»، ويتحدد بين نقادة الثانية أ ب Nagada II ab و حـ د cd. ولا تتمثل المرحلة الأخيرة من ثقافة المعادي سوى موقع «بوتو» الوحيد، كمرحلة انتقال على قدر كبير من الأهمية قبل أن تنصهر في الثقافة المتجانسة في نسق واحد لفجر الأسرات Protodynastique، في حين استقرت عند منعطف نقادة الثانية حـ/د Nagada II c/d المجموعات الضخمة في جرزة وحراجة وأبو صير الملق ومنشأة أبو عمر، الخالية تماماً من أي عنصر من عناصر المعادي.

ويبدو من المحتمل أن ثقافة المعادي المنبثقة من عصر حجري حديث محلي، يقع العمري على ما يرجح في نطاقه، قد امتصتها موجة قادمة من الجنوب. وسوف نعود فيما بعد إلى بحث هذه المسألة (الفصل الثامن).

النوبة السفلى : المجموعة أ A

إبان النصف الثاني من الألف الرابع، ازدهرت في النوبة السفلى مجموعة ثقافية جديدة تطبّعت، في آن واحد، بتقاليد الجندل المتواترة وبثقافات ما قبل الأسرات في مصر. وقد تأكد وجودها، بفضل أعمال «ريزنر» Reisner (1910) الذي أطلق عليها اسم المجموعة «أ» Groupe A كتعبير عن الغموض الذي يكتنف أصولها واختفاءها المفاجيء بعد الأسرة الأولى.

ومقارنة ممثلى المجموعة «أ» «بتنويعة الخرطوم» ولاسيما بأبناء الثقافة الابكهية الذين كانوا جزئياً معاصرين لهم (Nordström, 1972)، نجد انهم يتميزون بثراء دفناتهم، ويمكن مقارنتها بدفنات مصر، وبعدة أنماط من الموائل، المقامة فوق الغرين المتأثر بعوامل التحات أو فوق سطح صخرى، عند حافة النهر.

وبفضل التقدمات الموضوعة فى المقابر أساساً، أمكن تحديد تتابع زمنى يقسّم تطور المجموعة إلى ثلاثة أطوار، تقابلها حركة إقامة المحلات من الشمال إلى الجنوب.

الأول معاصر لنقادة الأولى حـ والثانية أ د NagadaIc/IIad ويشغل القطاع الواقع بين كوبانية، شمالاً، ودكا وسيالة، جنوباً. وازدهر الثانى إبان نقادة الثالثة (راجع فيما يلى: الفصل الثامن) ثم الطور الأخير المطابق للعصر المعروف اصطلاحاً بعصر توحيد مصر وبدايات الأسرة الأولى. وعندئذ، فإن الزحف ناحية الجنوب، يخترق بطن الحجر[٥١] حتى الملك الناصر على بعد بضعة وخمسين كيلو مترا إلى الشمال من دال. وبعد فترة قصيرة تلاشت المجموعة، لتحل محلها فى هذه المنطقة المجموعة حـ Groupe c، وذلك بعد انقضاء بضع مئات من السنين، فى تاريخ يقترب من الأسرة السادسة، أى حول عام ٢٢٠٠ قبل الميلاد.

ان أقدم موقع يعود إلى المجموعة أ Groupe A هو خور بهان، إلى الجنوب من أسوان. إنه عبارة عن جبانة لجماعة صغيرة من المزارعين، حطت الرحال فى السهل الغرينى، عند مصب الأوديه التى انتشرت المراعى عند حافتها. وقد ذهب «تريجر» Trigger (1976)، إلى أنها تشكل النموذج الأولى للجماعات التى ستنتشر على امتداد النهر، حتى بطن الحجر، والتى أخذت على عاتقها من خلال هذا السياق، ان «تهضم» ثقافات الجندل القديمة. والمقابر مزودة بأوانى فخارية حمراء مصقولة بشفة سوداء، وقطع ظرانية جميلة ذات وجهين، وقصعات حجرية وصلايات من الشست مُعينّة الشكل ومقامع مخروطية، وهى من مقومات ثقافة عصر العمرة. ولأول مرة يصل النحاس إلى هذه المنطقة. ومع ذلك فإن وجود أوانى فخارية محلية وبعض مظاهر الصناعة الحجرية القريبة من الأبكهى، تشهد إلى حد ما، على أن الثقافة المصرية قد ازدهرت هنا وسط جماعات بشرية تنحدر من أصول محلية لها تقاليدها الخاصة. وبالفعل فإلى جانب الأوانى الفخارية المستوردة مباشرة من مصر، فإننا نجد أوانى فخارية، من انتاج الثقافة الأبكهية والتى سوف نلتقى بامتداداتها فى المجموعة حـ Groupe C. ونلاحظ على الخصوص مجموعة من القصعات مدببة القاع، مصقولة وحمراء وذات شفاه سوداء، وتظهر على سطحها الخارجى آثار تموجات بسيطة من الراجح أن تكون قد جاءت أيضاً أصلاً من الأبكهى، بدلاً من أن تكون قد نقلت إلى النوبة من خلال ابناء

ثقافة نقادة. إن أوانى رقيقة الجدران، لا مثيل لها، وتعرف اصطلاحاً بـ «قشر البيض» "coquilles d'oeufs" لا تظهر إلاّ فى الطور الأخير من هذه الثقافة، وتجود علينا على خلفية بلون فاتح، بتوليفه من الزخارف الهندسية ذات اللون الأحمر الداكن، تترك أروع أثر فى النفس.

وتكشف الصناعة الحجرية عن قدر من «الإفقار» مقارنة بتركيبات الجندل. لقد استبقت من الأبكهى نسبة كبيرة من المخارز والآلات المسننة والتقطت جمال صنعة الآلات ذات الوجهين من عصر ما قبل الأسرات.

وعلى وجه العموم، لا تختلف المقابر النوبية على الإطلاق عن نماذجها المصرية الأولى (راجع Hofmann : 1967: 78 et sq.) : فيوضع الجسد فى حفرة بيضاوية أو شبه مستطيلة، فى وضع جنينى، ويسجى على جانبه الأيسر، والرأس ناحية الجنوب، مع تدثيره فى حصيرة. وقد وضعت جرار نقادية ضخمة بجوار أشياء من صنع الإنسان، نذكر منها على سبيل المثال الصلايات المصنوعة من الكوارتزيت أو الحجر الجيرى، وأشكالها بسيطة فى أغلب الأحوال، وتحمل أحياناً بقعاً من الأصباغ. وتظهر المغرة كمكون هام فى الشعائر الجنائزية، وتغطى فى الغالب أجساد الموتى. إن الصلايات ذات الأشكال الحيوانية والمصنوعة من الشست نادرة جداً فى الجنوب، ولكن وجودها مؤكد فى المقابل فى الجبانات القريبة من المصدر النقادى. وتحتل الحلىّ الجسدية مكانة يعتد بها، ولا يظهر وجودها فحسب على هيئة خرز وأنواط الأقراط المصنوعة من العظم والعاج والحجر والمعدن (الذهب) و«القيشانى» ولكن يظهر أيضاً على هيئة عباءات حقيقية من القماش، مزدانة بريش النعام. وذهب البعض إلى النظر إلى الألواح الصغيرة المصنوعة من مادة الميكا باعتبارها مرايا. ويبدو ان الدفنات التى تضم أكثر من فرد، أكثر انتشاراً منها فى مصر. إن تمثالين صغيرين لامرأتين جالستين يقلدان النماذج التى عثر عليها فى المقابر النقادية. وفى تنقالا غرب (توماس وعافية)، جادت الجبانة 268 التى كشف عنها «سميث» H.S. Smith (1962)، عن سلسلة فى المقابر ذات بنية مستديرة من الحجر. واحدى هذه المقابر، التى أمكن تحديد تاريخها بفضل خزف الطور الأخير من المجموعة أ Groupe A، تضم غطاءً من البلاطات فوق حفرة كانت ترقد فيها ثلاثة أجساد. فهل علينا أن ننظر إلى المجموع على اعتباره أمراً استثنائياً (Nordström: 1972) وأن نتساءل بالتالى عن أسباب وجودها، أو هل علينا أن نستدعى إلى الأذهان مع «تريجر» (Trigger (1976: 36 ظاهرة التحات التى قد تكون السبب فى كثير من الأحوال، فى تحجيم وجود هذه الدوائر الحجرية؟

وأيا كان الأمر، يبقى التصور الجنائزى، فى الحقيقة، وربما التقاليد النقادية المتواترة.

ويقدر ما فى وسعنا أن نحكم على الأمور، يظل أسلوب الحياة شبه بدوى. وتظهر الموائل على هيئة طبقات تحتفظ بالشواهد على الوجود الآدمى وان لم يتبق أى أثر لبُنى محددة تحديداً واضحاً. وفى وسعنا أن نفترض بصورة معقولة أن الأمر كان يقتصر هنا على مجرد أكواخ بسيطة لم تتمكن من مقاومة التحات. واستخدمت أحياناً ملاجىء أسفل الصخور، كما هو الحال فى **سيالة** حيث يتداخل شغل المكان مع رسومات صخرية، على أكبر قدر من الأهمية (Bietak u. Engelmayer: 1963). وتم التعرف على القليل من البقايا العظمية التى تشهد يقينا على وجود أنواع مستأنسة. ومع ذلك، تكشف عن وجودها، عظام وجلود الماعز والأبقار فى المقابر، بالإضافة إلى الهياكل العظمية للكلاب المستأنسة. ولكن يا للغرابة، فالأوانى الفخارية المحلية هى التى تشهد بطريقة غير مباشرة على مجاورة القطعان المستأنسة. وإن كانت هذه الأوانى تعود إلى تقاليد **أبكهية** وتشترك مع سابقتها بأسلوب مشابه فى معالجة السطح، إلا أنها تختلف من حيث العجينة: فبعد أن كان مزيل اللزوجة رملياً، أصبح يحتوى على رماد، ويضم نسبة كبيرة من روث الأبقار. ومن غير المرجح، ان يتعلق الأمر بقطعان برية. لاسيما وأن ابناء الثقافة النقادية الذين تكوّن تقاليدهم أكثر مكونات المجموعة أ Groupe A وضوحاً، كانوا يربون الماشية. ويقال نفس الشىء عن الزراعة، التى من الراجح أنها تعود أصلاً إلى مصر، والتى لا يبدو أنها قد أزدهرت إلا فى العصر الأخير للمجموعة: فقد عثر على حبات شعير متفحمة فى الموائل، بالإضافة إلى القرنيات (الحمص والعدس)، ولكن من المستحيل ان نقيّم حق التقييم الدور الذى لعبه هذا الإنتاج الزراعى فى نظام التغذية. ويبدو أن محار المياه العذبة والأسماك قد احتلت مكانة لا يستهان بها كمصدر للبروتين. أما الأنواع البرية التى يوفرها الصيد البرى، فمن الممكن استخلاص وجودها من رسومات الأوانى الفخارية (الأفيال والزرافى والغزال والظباء) أكثر مما يمكن البرهنة عليه من البقايا العظيمية. وأخيراً، يبدو أن «كبراء» المجموعة أ كانوا يستسيغون الجعة والنبيذ المستوردين من مصر فى جرار كبيرة ذات مقابض متموجة.

فالمجتمع كان، على غرار أبناء ثقافة نقادة، يعرف على ما يبدو ظاهرة التراتب الهرمى الإجتماعى. وهو ما تشهد عليه، على الأقل، بعض المواقع وبعض المقابر، ونذكر على سبيل المثال تجهيزات **عافية** من عناصر صلبة، التى كشف عنها «سميث H.S. Smith»، عام ١٩٦١، والمقابر الثرية للجبانة 137 فى **سيالة** أو الجبانة L فى **قسطل**، التى نُشرت بفضل «وليامز» B. Williams (1986).

وهكذا أمكن التحقق من وجود آثار منازل فسيحة من الحجر تضم من حجرتين إلى ست حجرات، وذلك فى الموقع A.5 فى **عافية** ويعود تاريخها إلى الطور الأخير من المجموعة أ Groupe A. إنها عبارة عن بُنى مستطيلة تنفتح ناحية الشمال على عدد من الأبواب. وكانت

الجدران الداخلية والخارجية مشيدة بدون ملاط، والمسافة الفاصلة بينها مملوءة بالرمال والطمى. وكانت الأركان الخارجية أعرض وتشكل إستدارة بسيطة، والأرضية مجهزة بتغطيتها بطبقة من الطمى. ورغم انه لا يحملنا عنصر واحد من عناصر التقرير المنشور على استنتاج الدور المحدد الذى كانت تضطلع به هذه المبانى، إلا أن «تريجر» Trigger (1965: 77) يقترح النظر إليها باعتبارها مقار اقامة الزعماء المحليين الذين أثروا من تجارتهم مع مصر. وفى هذا الصدد، فإن المقبرة «الاميرية» رقم 137 فى سيالة، لها مغزاها ودلالتها.

وعلى غرار مبانى **عافية**، يعود تاريخ مقابر **السيالة** إلى الطور الأخير من المجموعة أ Groupe A، وتتكون من آبار مستطيلة محفورة فى الإرسابات الغرينية، وقد غطيت، كما هو الحال فى **تنقالا** غرب، ببلاطات ضخمة من الحجر الرملى، موضوعة فوق عدة أفراد. وكانت أكثر الدفنات ثراء (Firth 1927: 201) تضم إلى جانب الأوانى الحجرية، الفؤوس والسبائك والأزاميل النحاسية وصلايتين ضخمتين برأسى طائر ورأس أسد من الكوارتز الوردى المغشى بمادة مزججة خضراء ولوحة صغيرة من مادة الميكا (مرآة؟) ومقمعتين كمثرى الشكل ومقبضا مغشى برقائق من ذهب. وعلى إحديهما، (شكل ١١) شكلت خمس مجموعات من حيوانين بأسلوب المعدن المطروق، تحاكى موضوع وأسلوب العاج المحفور، لنهاية عصر ثقافة نقادة. وللأسف فقد سرقت هذه القطعة من متحف القاهرة، بعد دخولها بفترة قصيرة، وهى من أروع ما جاد به فن ثقافة نقادة، وخير مثال لنموذج المنتجات الترفية التى قايضها المصريون فى النوبة السفلى.

ولا غرو فى حقيقة الأمر، أن المجموعة أ تشكل تذبذباً للإنفجار النقادى. إن ازدهار التجارة على امتداد نهر النيل والحرف ذات الجودة العالية الملازمة لها، كانتا السبب وراء نشأة نقاط، كانت بمثابة «وكالات تجارية» حقيقية، انيط بها مهمة تأمين سلامة إنتقال المواد الأولية من الجنوب صوب الشمال لحساب الحكام النقاديين. **وكان هذا الإنتقال يتم آنذاك على أسس ،المعاملة بالمثل، قبل أن تصبح فى عهد الملوك الأوائل لمصر الأسرات، أكثر ،عدوانية، بشكل جذرى.**

ولا ريب، ان موقع **خور داوود**، على البر الشرقى من النهر، يكتسب هنا كل مغزاه. ولا يظهر أى أثر لموئل دائم، وإن وجد ٥٧٨ مطماراً، وهى مجرد آبار بسيطة محفورة فى التربة، وتضم عدداً لا يحصى من أشياء **نقادية** من صنع الإنسان، تتوزع على امتداد مرحلة تبدأ من مطلع عصر ثقافة **جرزة** وحتى الطور الأخير من عصر ما قبل الأسرات، وهى عبارة عن جرار صنعت من عجينة من الحجر الجيرى، بخطوط متموجة، بمقابض أو بدونها،

وأوانى فخارية مصقولة بشفاه سوداء أو حمراء، وقد استخدمت لنقل الجعه والنبيذ والزيت وربما الجُبن أيضاً. كان خور داوود مركز للتبادل والمقايضة وإعادة توزيع الخيرات، فى منطقة يهيمن عليها سهل دكه الشاسع وعند وادى العلاقى، ومن المحتمل أنه كان يستخدم، كما يلاحظ «نوردستروم» Nordström (1972: 26) كمكان إتصال مع البدو الرحل فى الصحراء الشرقية ويشكل استناداً إلى ذلك، مفترق طرق حقيقيا، ربما استخلصت منه المجموعة أ Groupe A منافع جمة.

كان أبناء ثقافة نقادة يصدرون منتجات جاهزة للاستعمال من انتاجهم كحرفيين، إلى جانب مواد غذائية يستسيغ الفم مذاقها، وان لم تُمتع العين، وفى مقابلها كانوا يحصلون على ما يحتاجون إليه من مواد أولية: العاج والأبنوس والبخور والزيوت النباتية وجلود السنانير، الواردة من المناطق الجنوبية، وكان أفراد المجموعة أ يؤمنون مسارها. وربما كانت الرسومات الصخرية العديدة للمراكب والتى نشاهدها على امتداد نهر النيل، ابتداء من الوجه القبلى وحتى تخوم بطن الحجر، هى خير شاهد على هذه التجارة.

كان أفراد المجموعة رعاة قبل أن يكونوا مزارعين، ويستمدون أصالتهم وثروتهم فى آن واحد من نظام فى التبادل وإعادة توزيع الثروة يندمج فيه تكوينهم الإقتصادى والإجتماعى.

وإلى هذه «التبعية» يعود سبب خراب هذه المجموعة.

وبالفعل، فمع بدايات الأسرة الأولى توقف فجأة سيل المنتجات الواردة من مصر، وفى الوقت نفسه أخذت المنتجات المحلية فى الإختفاء. وعبثا حاول العلماء ان يبحثوا عن التغييرات المناخية التى ربما كانت مسئولة عن هذا الإختفاء المفاجىء، بل إن ذلك حدث بالتحديد فى نفس اللحظة التى كان النمو الإجتماعى الإقتصادى للمجموعة يصل إلى قمم غير معهودة. ويبدو مع ذلك، ان مفتاح حل هذه المشكلة يتموضع فى التغييرات العميقة التى شهدها الوادى المصرى من نهر النيل، منذ نهاية العصر النقادى، وهى التغييرات التى علينا أن نتوقف عندها، وإن كنا نستبق بذلك، سياق عرضنا. وفى كلمات وجيزة، يمكننا أن نحدد مقومات هذا العصر، وهو المرحلة الحساسة فى التاريخ المصرى، بصفتها النقطة التى آل إليها وتجمع عندها سياق تراكم الموارد واستئثار الطاقات لصالح «طائفة مغلقة» من «زعماء الأسرات المحلية» الذين سيستمدون وجودهم من منابع ايديولوچيا تدمج سلطتهم فى التوازن الضرورى للعالم وتوحد بينهما: ويمكن ان نطلق عليها منذ ذلك الزمن، أنها «ماعت» الأسطورة المؤسسة للدولة المصرية. (راجع Assmann 1989)(٥٢).

غير أنه فى إطار نسق العلاقات الذى كان يربط المصريين بالمجموعة أ، كان وضع أبناء هذه المجموعة الأخيرة وضعا هشا، فلم يندمجوا فى التركيب البنيوى المعقد والمتشعب

الذى كان فى دور التكوين وكانت صورة الفرعون، تنبثق منه. لاشك أن شكلا من أشكال الإدراك لمفهوم «بلد القوس» (تاستى)(٥٣). وقد ظهر هذا المسمى أول ما ظهر منذ الأسرة الأولى - كان يقصد به أن هذا القطاع الذى يقطن فيه ابناء المجموعة أ، هو قطاع يسكنه «الأجانب» (Valbelle : 1990) . وأن هذا المفهوم قد بزغ بالتأكيد آنذاك فى عقلية النقاديين. إن تنصيب ملك واحد، ليحكم البلاد بأسرها، قد ترتب عليه وجود نظام أكثر صرامة فى توزيع الثروات داخل البلاد ذاتها، وطلب متزايد بلاشك على المواد الأولية، مما أدى إلى نتائج مدمرة بالنسبة لهؤلاء الوسطاء الذين فسدوا من كرم المعاملة. فقد خضعت التجارة لاشراف ورقابة الجيوش الملكية التى ألحق بها النوبيون.. كمرتزقة.

فهل تشهد مخربشات جبل الشيخ سليمان على هذا الأمر؟

تصور هذه الوثيقة الصخرية (شكل ١٤) الذى نشرها «أركل» Arkell (1950) أسيراً نوبياً - وعلى هذا النحو يمكن قراءة «ستى» (القوس) الذى يُبقى يديه مكبلتين خلف ظهره - ويطل عليه الإسم الحورى للملك «چر» (ثانى ملوك الأسرة الأولى). والرمزان الدائريان للمدينة(٥٤) يواجهانه، ويعلو الصقر أحدهما. وصوّر أخيرا مركب، ربط فى قيدامه أسير، فى حين يطفو القتلى أسفله.

وفى أعقاب عدة زيارات قام بها «نيدلر» W. Needler (1967) للموقع، لاحظ وجود رسومات أخرى، على مقربة من المخربشات التى تعنينا وتصور عقارب ممسكة بأسرى، ومن المحتمل أنها كانت استحضارا لإغارات مصرية سابقة على الأسرة الأولى.

وهكذا، وبعد أن كان المصريون مصدر ثراء المجموعة أ، فقد تسببوا فى خرابها. ولكن هل علينا أن ننظر إليهم على أنهم السبب الوحيد وراء اختفائهم؟ نظرا لغياب أى تفسير آخر، لا مفر أمامنا سوى أن نتمسك بهذا التفسير.

العصر الحجري الحديث المتأخر فى الخرطوم ومنطقته

ساد الإعتقاد لفترة طويلة ان العصر الحجرى الحديث فى الخرطوم قد خبا وخمد، مع مطلع الألف الرابع، دون أن يترك وراءه أعقاباً أو أخلافاً معروفين، تاركاً فجوة تصل إلى ٣٠٠٠ سنة، عندما تأسس حول القرن الثامن قبل الميلاد، مملكة نپاتا القوية! كان «أركل» Arkell (1949) قد كشف فى أم درمان و الشهيناب عن دفنات يعود نمطها إلى أزمنة لاحقة، نظر إليها باعتبارها من عصر فجر الأسرات. ولكن لم يُكشف النقاب عن عصر حجرى



شكل ١٤

حديث متأخر، إلا منذ عهد قريب فى أواخرالسبعينات، بفضل ما كشف عنه «جوس» فى القدادة، أعتبر انه معاصر، من حيث التتابع الزمنى للمجموعة «أ» (Geus: 1977 - 1986. Re-inold: 1982 - 1985 - 1987).

تقع القدادة، على مسافة ٢٠٠كم إلى الشمال من الخرطوم، على البر الأيمن من النيل، وتمتد فوق بقايا مدرج حفرى وفرع خور متحجر منذ العصر الحجرى الحديث، وتضم مناطق للموائل وجبانة جرت فيها أعمال التنقيب، على امتداد تسعة مواسم من ١٩٧٧ إلى ١٩٨٦.

إن إقامة نظام لضخ المياه لتغذية الأراضى الواقعة بين القدادة و الكابوشية، قرب مدينة مروى القديمة، هو الذى دفع علماء الآثار الفرنسيين إلى التدخل فى هذا القطاع. ومثلها مثل غالبية المواقع الجارى العمل فيها فى الوقت الراهن على امتداد النيل، شهدت القدادة أعمال إنقاذ ممتدة ومضنية.

وعلى غرار جميع بقايا الموائل فى هذا المنطقة (Reinold : 1986) . وباستثناء مواقد الشهيناب، اختزلت «قرى» القدادة إلى مجرد طبقة سميكة تشهد على وجود الإنسان ونشاطه تصل أحياناً إلى مترين، وهى بلا استراتيجرافيا أو بُنى تدل على شغل الإنسان لها. إن وجود شقف ذات خطوط متموجة وخطوط منقطة، وهى تشبه ما عثر عليه «أركل» فى أم درمان، قد شد اهتمام الباحثين إلى وجود إشغال للمكان، لفترة زمنية طويلة.

إن المئات من المقابر قد شوهت الموئل فى عدة أماكن. وبعضها (شمل التنقيب ٢٠٠ مقبرة) يعود إلى العصر الحجرى الحديث، وتمتد الأخرى من عصر نپاتا وحتى العصر الإسلامى.

وأمكن تمييز أربعة قطاعات مختلفة للعصر الحجرى الحديث، تضم، بالنسبة للمقابر التى تم التنقيب فيها ٧٣ فرداً (الجبانة A) و ١١ فرداً (الجبانة B) و ٢١١ فرداً (الجبانة C) و ٥ أفراد (الجبانة D) وتشهد الفوارق بين هذه الجبانات وداخل الجبانة C ذاتها على وجود تطور فى الممارسات الجنائزية خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً.

وبصورة عامة، فقد جرت عملية الدفن فى حفرة حفرت فى الأرض، فى وضع مثنى أو منحنى، دون تفضيل إتجاه محدد. وفى بعض الحالات، تكشف شدة إنحناء الفقرات العنقية عن استخدام أربطة أو أكياس. ولكن الشىء الذى يلفت النظر أكثر من غيره، دفن الأطفال الذين فى مقتبل العمر فى الأوانى (Reinold : 1985)، ووجود كلب أحياناً بجوار المتوفى وممارسة القربان الآدمى كما أوضحه «رينولد» (J.Reinold (1982. 1987.

وإذا كان هناك إشارات إلى هذه العادة على امتداد نهر النيل فى الجبانات النقادية وفى دفنات المجموعة أ ، إلا أننا لم نعثر أبداً على عنصر ملموس واحد ، يسمح بإقامة الدليل على ذلك.

وهو ما يمكن استنتاجه هنا من الدفنات المتعددة الشائعة نسبياً وكانت تضم من اثنين إلى أربعة أفراد. وبالفعل فإننا لا نجد أى شيء يدل على أن الحفرة قد أعيد حفرها لتضم الفرد أو الأفراد الآخرين ولا محاولة البحث عن الجثة السابقة، كما هو الحال بالنسبة للدفنات المتعاقبة. بل إن الملاحظات النابعة من أعمال التنقيب، تؤكد على العكس من ذلك صورة الفرد الرئيسى الذى سجى فى وضع مثنى فى وسط الحفرة، تصاحبه التقدمات المتراصة فى مكان منفصل، وفى عدادها شخص آخر، ومن الراجح أنه قد وضع فى كيس، وهو ما يؤكد شدة تقلصه. ان العلاقة الستراتيجرافية بين الشخص الرئيسى المدفون والآخر، يوضحها وجود جمجمة ثور تربط بينهما.

ويحدث أحياناً ان الفرد الآخر، هو عبارة عن طفل. وقد تأكد وجود هذه الحالات فى القسم الجنوبى من الجبانة C. فقد وضعوا آنذاك، غى وضع ممدد، عند حافة الحفرة، ويرتبطون دون منازع بالعناصر التى هم جزء منها.

وفى حالة الدفنات الثلاثية، فإن آخر الوافدين، يوضع فى وضع عمودى على الفرد الرئيسى، وهو ما يتفق، على عكس ما سبق، مع إعادة حفر المقبرة.

ويبدو إذن، ان الأشخاص من أصحاب النفوذ قد دفنوا فى وضع منحنى، فى وسط الحفرة، وتمّ التضحية بفرد آخر، إبان المراسم الجنائزية، ثم وضع فى المقبرة، هو والتقدمات فى آن واحد. وإذا كان هذا الأخير شخصاً بالغاً فكان يوضع فى كيس، فى القطاع الشمالى الغربى من الجبانة C، أما إلى الجنوب قليلاً فإنه يبدو فى وضع ممدد إذا كان طفلاً أو صبياً. وأخيراً، وفى وقت لاحق، فإن أحد المتوفين الجدد وهو أحد أفراد العائلة أو الجماعة سيختار أن يدفن على وجه التحديد فوق الشخص الرئيسى.

وفى أمثلة الدفنات المزدوجة، يوجد كلب كبديل عن «الشخص المضحى به». أيعنى ذلك الإنتقال من الأضحية الآدمية إلى الأضحية الحيوانية؟ أو العكس بالعكس؟ لقد تأكد وجود الأضاحى الآدمية فى السودان، فى عصر كرما الأوسط، حول ١٧٠٠ – ١٦٠٠ قبل الميلاد، فى نفس الوقت الذى كانت خراف باكملها وكلاب أحياناً توضع أحياء فى المقابر.

ونلاحظ، أن أصالة القدادة وتقاليد العصر الحجرى الحديث التى يمكن أن تُنسب إليها فى الوقت الراهن، تنبع من الأهمية التى كانت تعود إلى العالم الجنائزى.

فالتقدمات المتراصة فى الدفنات هى مطابقة بكل تأكيد لما يوجد فى الموئل. وفى انتظار ان تستغل وتنتشر أطنان (Reinold: 1987:17) الأشياء التى جادت بها، سوف نعتمد على معطيات الجبانات للتعرف على الثقافة المادية لأبناء هذا العصر الحديث المتأخر فى النيل الأوسط.

وهكذا كان المتاع الجنائزى يضم الأوانى الخزفية والآلات المصنوعة من الكوارتز، وهى فى الغالب غير مصقولة، وأشياء من الصخور الصلبة المصقولة، ونذكر منها على سبيل المثال، الفؤوس والأقراص المثقوبة والصلايات والمدقات المرتبطة بسحن الأصباغ التى نعثر عليها على هيئة كسف من الحجر الرملى الحديدى والملاخيت (الدهنج) ومستودعات ضخمة من الحصى المكسورة وأرحاء ومساحق وحلقات توضع فى الشفاه ومنتجات عظمية – وهى أحيانا من بقايا القصابة والجزارة التى وضعت فى المقابر – وأصداف محارات (واسمها العلمى Aspatharia rubens) وأساور صنعت من العاج أو أصداف البحر الأحمر وبيض نعام مستخدم كأوعية أو على هيئة كسف غير مزخرفة، وأخيرا فقد كانت هذه الدفنات مجهزة بالحصر والأغطية الجلدية. وكانت كميات كبيرة من الخرز من مختلف الأحجار ومن العاج والعظم والصدف تشكل حلياً للجسد (العقود والأساور) . وقد جادت علينا المقبرة KDD 86/16 باكثر من مائتى خرزة! ويلاحظ وجود عدد من حالات التماثيل النسائية الصغيرة المصنوعة من الطين المحروق، تحمل زخارف محفورة، وتتميز بعضها بقاعدة مستديرة كروية الشكل.

ويتكون الخزف من أوعية ذات أحجام مختلفة ومجموعة من الأشكال الشديدة التنوع: أقداح وقصعات وأطباق مستديرة وبيضاوية وأوعية نصف كروية وعلى هيئة كأس، وبلا أى وسيلة للإمساك بها. وهناك طراز خاص، له ما يشبه الشفة الشديدة البروز وقد أطلق عليها «أركل» . «الوعاء – المغرفة» "Vase - louche" . لقد شُكلّ فخار القدادة يدوياً وهو مزخرف فى الغالب بأشكال هندسية محفورة أو منقطة أو خطية أو مختلطة، وتبرزها أحياناً عجينة بيضاء. وأخيراً فقد تم تمشيط بعض السطوح تاركة أثراً يشبه تموجات فخار ثقافة البدارى والمجموعة «أ» المعروفة معرفة جيدة. وتميز الدراسة المجهرية (الميكروسكوبية) والكيمائية (De Paepe : 1986) بين مجموعتين كبيرتين: الأولى ذات أصول محلية وجاءت الثانية من منطقة أخرى، تقع إلى الجنوب قليلاً، فيما بين الخرطوم وواد بن نجا (De Paepe 1987, 45) . إلا أنه يبدو، ان الأوانى الخزفية من طراز القدادة، ذات الرسومات المتموجة والكأسية الشكل تعود إلى انتاج محلى. وهو ما قد يوفر لنا البرهان على أن سكان الموقع كانوا ينتجون خزفهم الخاص، وأنهم قد استخدموا لهذا الغرض صلصالاً محلياً.

إن ثقافة القدادة وهى وريثة العصر الحجرى الحديث فى الخرطوم، كما تشهد على ذلك الصَدَف المسننة ذات الشفتين (Aspatharia rubens) والخرز من الفلسپار الأخضر والحلقات التى توضع فى الشفاه والخطافات ذات النتوءات والشصوص المصنوعة من الصدف، تحمل بلا منازع أوجه شبه مع المجموعة أ فى النوبة: التموجات على سطوح الأوانى الفخارية وبعض الرسومات المحفورة والصلايات والأقراص المصنوعة من الحجر الصلد المصقول والأرحاء من الحجر الرملى والتماثيل الصغيرة من الطين المحروق. وأخيراً، فإن المناقير، وهى الطراز المميز للشهيناب غائبة عن كلتا المجموعتين.

وكان أبناء القدادة يمارسون اقتصادا مختلطا كان يحتل فيه النظام الرعوى وضع الصدارة، وكانوا فى ذلك متقدمين على أبناء العصر الحجرى الحديث فى الخرطوم. (Gautier: 1986). ويبدو أن الأغنام (الماعز – الخراف) (Ovis ammon, Capra aegagrus) كان شأنها يفوق أهمية الماشية (الأبقار: Bos Primigenius) مما يوحى أن مناطق الصيد كانت أقل إنفتاحا على المراعى الكبيرة، وربما يعود ذلك إلى وضع الموقع وسلوك النهر فى هذا المكان، دون أن نستبعد فى نفس الوقت ظواهر التخفيض dégradation الإيكولوجى المحتملة، الناتجة عن الإسراف فى نشاط المراعى. أما الثدييات البرية فتمثلها القردة (Cercopithecus aethiops) والأرانب البرية والعديد من القوارض والسنوريات (القطط البرية والأعنق(٥٥) caracals والفهود)، وبنسب أقل الأفيال والخنازير البرية وأفراس النهر ووحيد القرن الأسود والزرافى وأنواع من الظباء والغزلان، وترسم جميع هذه الحيوانات مشهداً للسافانا الجافة، التى تميز المنطقة السودانية السواحلية(٥٦). ومع ذلك، فإن النسب النسبية لكلا المجموعتين (Gautier: 1986, tab. 5) تبرز أهمية الأرنب البرى وهو من سمات زيادة الجفاف الناتج عن قلة التساقط Précipitations والوارد من فيضان النهر. كان انسان القدادة راعيا أكثر منه قناصاً، ومع ذلك فقد كان يجمع الرخويات (Pila. Lanistes. Aspatharia) بكميات كبيرة، ويتغذى عليها، ويصطاد الأسماك من المياه العميقة والزواحف والطيور والثدييات الصغيرة.

وبالنظر إلى حالة الموائل، فإنه من الصعب تحديد درجة حياة الإقامة الدائمة التى بلغها أبناء القدادة. ومع ذلك، فمن المحتمل أنهم لم يكونوا مزارعين (Stemler : 1990). وكما يلاحظه «جوتييه» A. Gautier (1986)، فإن أهمية تدجين الحيوان توحى بوجود تحركات الانتجاع، طلبا للعشب، مرتبطة بالأمطار وفيضانات النيل.

صحيح، انهم كانوا رعاة، ولكن المستوى الذى بلغوه، فى صنع الأشياء، يقول الكثير عن مستوى اتقانهم لصنعتهم، كما تعكس العادات الجنائزية التعقيدات الإجتماعية وتشابكها ويوحى وجود محارات البحر الأحمر بالروابط التى جمعتهم بأقصى الأماكن.

كذلك نلتقى بهذه الثقافة، فى الجنوب، فى الخرطوم (أم درمان)، فى المقابر التى أطلق عليها «أركل» مقابر «فجر الأسرات»، وفى صجّاى (Caneva: 1983: 24 - 28) وفى قيلى (Caneva : 1988) ، وتظهر بوادرها فى موقع الغابة المجاور، كما نلتقى بها أخيراً إلى الشمال قليلاً، فى مقاطعة كادروكا (Reinold: 1987).

ومن زاوية التتابع الزمنى، تتموضع هذه الثقافة عند متتالية «أركل»، فى هذا المكان على وجه التحديد الذى يبدو فيه أن العصر الحجرى الحديث فى الخرطوم قد أخذ يخبو . وجاءت التواريخ التى تم التوصل إليها بواسطة الكربون المشع، لتتراوح من ٣٥٩٩ إلى ٢٧٠٠ قبل الميلاد (Hassan : 1986) مؤكدة أنها كانت معاصرة جزئياً للمجموعة أ فى النوبة والثقافة النقادية فى الوادى المصرى من النيل. وإن كان لأهالى النيل الأوسط اتصالات محتملة مع ثقافات عصر ما قبل الأسرات، عن طريق المجموعة أ، إلا أنهم حافظوا على فردية «موحشة» بحيث لم يقبلوا أن يصلهم أى شىء مصرى خالص، وأى شىء مصنوع من النحاس، على وجه التحديد.

ومع العصر الحجرى الحديث، تم ملء الفراغ حتى نهاية الألف الرابع. ويظل الصمت يخيم على امتداد ألفى سنة وحتى حضارة نپاتا . ان بعض معطيات القدادة إلى جانب مواقع أخرى فى نفس المنطقة، تحملنا مع ذلك، على ان نتوقع ان هذا الصمت سوف يتم ملؤه ذات يوم جزئياً (Lenoble : 1987).

هوامش الفصل السابع

(١) «جاك دى مورجان» (١٨٥٧ - ١٩٢٤). عالم أثرى فرنسى متخصص فى عصور ما قبل التاريخ. شغل منصب مدير مصلحة الآثار المصرية عند نهاية القرن الماضى. (١٨٩٢ - ١٨٩٧). أول من أدخل مصطلح العصر الحجرى الوسيط mésolithique عند دراسة عصور ما قبل التاريخ. (المترجم)

(٢) «بترى» ١٨٥٣ - ١٩٤٢، عالم آثار بريطانى وضع الأسس الصحيحة لعمل الحفائر المنظمة. (المترجم).

(٣) وهى «نخن» عند قدماء المصريين والكوم الأحمر حالياً (المترجم).

(٤) المقود : هو ما تقاد به الدابة (المعجم العربى الأساسى) - (المترجم).

(٥) من الناحية اليسرى . (المترجم)

(٦) الجَدْعة : ما بقى من العضو بعد القطع . (المعجم الوسيط) . (المترجم)

(٧) نسبة إلى فريجيا . وهى مقاطعة فى آسيا الصغرى قديماً بين بحرى إيجه والأسود. والقلنسوة الفريجانية، هى القلنسوة الحمراء التى كان يرتديها ثوار ثورة ١٧٨٩ الفرنسية. (المترجم)

(٨) فى متحف الفنون الجميلة فى مدينة ليون Lyon فى وسط فرنسا . (المترجم)

(٩) وهى الدراسات التى تضع البعد الزمنى فى اعتبارها. وقد تكون تاريخية أو تطورية أو تحليلية. (موسوعة علم الإنسان. ترجمة مجموعة من أساتذة علم الإجتماع. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة ١٩٩٨) (المترجم)

(١٠) جان كابار Jean Capart. عالم مصريات بلجيكى. (١٨٧٧ - ١٩٤٧) أهتم بالفن المصرى القديم. رأس بعثة الحفائر البلجيكية فى الكاب مركز إدفو. تخرج على يديه عدد كبير من العلماء البلجيكيين وبعض المصريين (المترجم)

(١١) راجع أيضا: برنديت مونى: المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفى. الترجمة عن الفرنسية: ماهر جويجاتى. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع. ١٩٩٩ . ص ١١٠ (المترجم)

(١٢) نخن بالمصرية القديمة والكوم الأحمر حاليا. المرجع السابق ص ٣٠٥ (المترجم).

(١٣) ترس صغير على هيئة هلال، كان يستخدمه المحاربون فى بلاد اليونان القديمة. (المترجم)

(١٤) جماعات محاربة شرسة فى الأساطير اليونانية، كانت تتكون من النساء فقط. (المترجم) .

(١٥) وهما مقدمة السفينة ومؤخرتها . (المترجم)

(١٦) نسبة إلى جرزة. راجع نفس هذا الفصل فيما بعد. (المترجم)

(١٧) التصدع هو تكسر الصخور بقوة الشدّ أو الإنضغاط (المترجم*)

(١٨) حديدة يعدّ بها . المعجم الوسيط (المترجم)

(١٩) بالنسبة للأسماء المصرية القديمة والحديثة راجع: المعجم الوجيز المرجع السابق : ص ٢٧٦ و ٣٠٦ (المترجم).

(٢٠) إلى الشمال من أسوان (المترجم)

(٢١) الفدان = ٨٣, ٤٢٠٠م٢ ، والهكتار = ١٠٠٠٠م٢. (المترجم)

(٢٢) الكوم الأحمر حالياً . بالنسبة للاسم المصرى القديم، راجع المعجم الوجيز . المرجع السابق ص ٣٠٥. (المترجم).

(٢٣) أثافى : مف : أُثفية : أحجار ثلاثة توضع عليها القِدْر. المعجم العربى الأساسى. (المترجم)

(٢٤) نبتة من فصيلة القطانيات زهرها بنفسجى اللون. (المترجم)

(٢٥) «نبس» هو الاسم المصرى القديم للنبق. أنظر المعجم الوجيز، المرجع السابق . ص ١٢٦ . (المترجم)

(٢٦) كسارة صخرية زاويّة، يلتحم بعضها ببعض بمواد لاحمة مختلفة. (المترجم*)

(٢٧) راجع «المعجم الوجيز»، المرجع السابق ص ٣٠٥. للتعرف على الإسم الحديث والاسم القديم. (المترجم).

(٢٨) أبو صير : تصحيف للاسم المصرى القديم «پر أوزير» أى «مسكن أوزيريس». وأهم البلاد المعروفة بهذا الاسم هى أبو صير(محافظة الجيزة) وأبو صير الملق (عند مدخل الفيوم) وأبو صير بنا على مقربة من سمنود وأبو صير مريوط.. (المترجم)

(٢٩) وتصوره إحدى العلامات الهيروغليفية : راجع :

Gardiner. Egyptian Grammar, 1957. G 27 . P.470 (المترجم)

(٣٠) صخر نارى . (المترجم)*

(٣١) راجع المعجم الوجيز المرجع السابق ص ٢٤٧. (المترجم)

(٣٢) راجع : المعجم الوجيز : المرجع السابق ص ٦ و ١٨ و ١٦٧ و ١٦٨ . (المترجم)

(٣٣) وهما بلدتان متجاورتان قرب إدفو. عن اسمائهما القديمة والحديثة راجع المعجم الوجيز، المرجع السابق : ص ٣٠٥ . (المترجم)

(٣٤) حول أسماء هذه المدينة راجع المعجم الوجيز .. المرجع السابق ص ٣٠١ (المترجم).

(٣٥) إصطلاح إيكولوجى يقصد به قسم من الطبيعة بما فيه من أحياء نباتية وحيوانية وخصائص بيئية طبيعية وكيمائية، تؤلف معاً وحدة طبيعية أو وحدة إيكولوجية متميزة. د. أحمد زكى بدوى. معجم العلوم الإجتماعية. مكتبة لبنان. ١٩٨٦. (المترجم)

(٣٦) الفدان الواحد يساوى ٨٣, ٤٢٠٠م٢. (المترجم)

(٣٧) فى صعيد مصر (المترجم).

(٣٨) حول الأسماء المصرية القديمة واليونانية والحالية لهذه المدن راجع المعجم الوجيز، المرجع السابق ص ٣٠٣ و ٣٠٥ و٣٠٩ (المترجم).

(٣٩) حول المقابل المصرى القديم والحالى راجع المعجم الوجيز، المرجع السابق ص ٣٠١ (المترجم).

(٤٠) القعب (ج) قعاب : قدح ضخم غليظ. المعجم الوسيط. (المترجم)

(٤١) هى قائمة الموضوعات التى تُعنى بها حضارة من الحضارات أو يشغل بها عهد من العهود أو يعالجها فنان من الفنانين. د. ثروت عكاشة: معجم المصطلحات الثقافية. الشركة المصرية العالمية للنشر. ١٩٩٠ (المترجم).

(٤٢) فى الفنون، تشير هذه الكلمة إلى مجموع المواضيع القائمة عند نفس المستوى الأفقى فى أى عمل فنى سواء بالرسم أو النقش أو النحت (المترجم).

(٤٣) حول الأسماء القديمة والحديثة لهاتين المدينتين، راجع المعجم الوجيز، المرجع السابق ص: ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٩ (المترجم).

(٤٤) أجسام صخرية مختلفة الشكل والحجم تختلف فى التركيب عن الصخور التى تحتويها وتوجد فى هيئة درنات. (المترجم*)

(٤٥) اعتماد مجتمعين أحدهما على الآخر اعتماداً كبيراً ولكنهما يحتفظان بملامح وخصائص ثقافية واجتماعية مختلفة. د. أحمد زكى بدوى، معجم العلوم الإجتماعية. مكتبة لبنان ١٩٨٦. (المترجم)

(٤٦) يتكون العصر العتيق من خواتيم عصر ما قبل التاريخ (فجر التاريخ) والعصر الثينى (الأسرتين الأولى والثانية). أما عصر ما قبل الأسرات فهو العصر الحجرى النحاسى أو بداية المعادن - (Posener. Dictionnaire de la Civilisation Egyptienne. Hazan) (المترجم)

(٤٧) فصيلة نباتية من نوات الفلقتين (المترجم).

(٤٨) حول الاسم المصرى القديم والاسم الحالى: راجع المعجم الوجيز المرجع السابق ص ٣٠١. (المترجم)

(٤٩) من علامات الترقيم المنقولة عن اللغة الإنجليزية مع مطلع القرن العشرين، وتعنى صحة كل من «أ» و «ب». (المترجم)

(٥٠) حول الاسم المصرى القديم والاسم الحالى راجع المعجم الوجيز . المرجع السابق ص ٣٠٢ - ٣٠٩ . (المترجم)

(٥١) راجع الخرائط فى آخر الكتاب . (المترجم).

(٥٢) تُرجم هذا الكتاب إلى العربية : يان أسمان : ماعت . مصر الفرعونية وفكرة العدالة الإجتماعية . ترجمة : د. زكية طبوزادة، ود. علية شريف. دار الفكر ١٩٩٦ . (المترجم).

(٥٣) راجع المعجم الوجيز : المرجع السابق ص ٣٠٧ (المترجم).

(٥٤) راجع المرجع السابق ص ٢٧، ١٢٣ (المترجم).

(٥٥) جمع العَناق ويعرف بالتُّفه . حيوان من فصيلة السنانير أكبر من القط قليلاً. المعجم الوسيط . (المترجم)

(٥٦) منطقة انتقالية بين المناطق الصحراوية والمناطق التى يسود فيها مناخ مدارى سودانى رطب. (المترجم).

الفصل الثامن

أول الزعماء الملقبين بـ «حورس»

٣٣٠٠ - ٣١٠٠ قبل الميلاد

نقادة الثالثة وقضية توحيد الأرضين

يتميز الطور الختامى من العصر النقادى بتقلبات إجتماعية خطيرة، ومن المحتمل أن نقطة البداية قد حدثت من جراء ما طرأ من تغيرات إيكولوجية - دون أن يكون ذلك هو السبب الرئيسى - وقد ظهرت نتائجها فى التحولات الفنية الجديدة.

وكان «بترى» Petrie (1939) قد استدل على وجود هذا الطور الانتقالى بين نقادة الثانية والأسرة الأولى وأطلق عليه اسم «السماينية» نسبة إلى قرية سماينة على بعد حوالى ٢٥كم إلى الغرب من اسنا . وكان العالم البريطانى يرى أن الأمر يتعلق بانقطاع حقيقى قد تحدد بغزو جماعات بشرية شرقية كانت الأصل الذى انحدرت منه الأسرات الفرعونية. إنه « جنس » الأسرات "race" dynastiqe الذى تولىَّ «ديرى» Derry (1956) تأسيسه أنثروبولوجياً.

وعرفت نظرية «الغزاة القادمين من الشرق» تعضيد «ونكلر» Winkler (1938)، عند الكشف فى الصحراء الشرقية، عن رسومات صخرية تصور مراكب مسطحة القاع، وقيدامها وكوثلها مرفوعان فى اتجاه رأسى، وهى تنتمى بكل وضوح إلى طراز بلاد ما بين النهرين، ويشغلها أشخاص ازدانت رؤوسهم بالريش. وقابل «ونكلر» هذه القوارب الشرقية بالمراكب المقوسة المصورة على أوانى جرزة، ورأى فيها الدليل على غزوة قد تكون قد وصلت إلى المنعطف النقادى، عبر وادى الحمامات، وبعثت فى ثقافة جرزة ما كان سيؤهلها للوصول إلى مستوى الحضارة.

وفى عام ١٩٤٤، قوض «كانتور» H. Kantor «السماينية» تقويضا عنيفا، ولم ير فى السمات الشديدة الخصوصية لهذه المرحلة سوى امتدادات لسمات العصور السابقة.

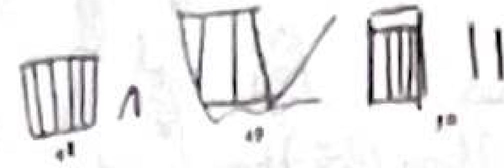
ومع ذلك، فقد استدل عليها «كايزر» W. Kaiser (1957) فى تتابعه الزمنى، دون أن يضطر لهذا السبب أن يلجأ إلى غزوة أجنبية، واصبح من المتفق عليه اليوم ان ننظر إلى هذه المرحلة باعتبارها الحد الأقصى للتطور المتسارع الذى قاد مصر بكاملها إلى الدولة المركزية . وهنا تظهر بوضوح تأثيرات بلاد ما بين النهرين التى أشرنا إليها عند الحديث عن «بوتو».

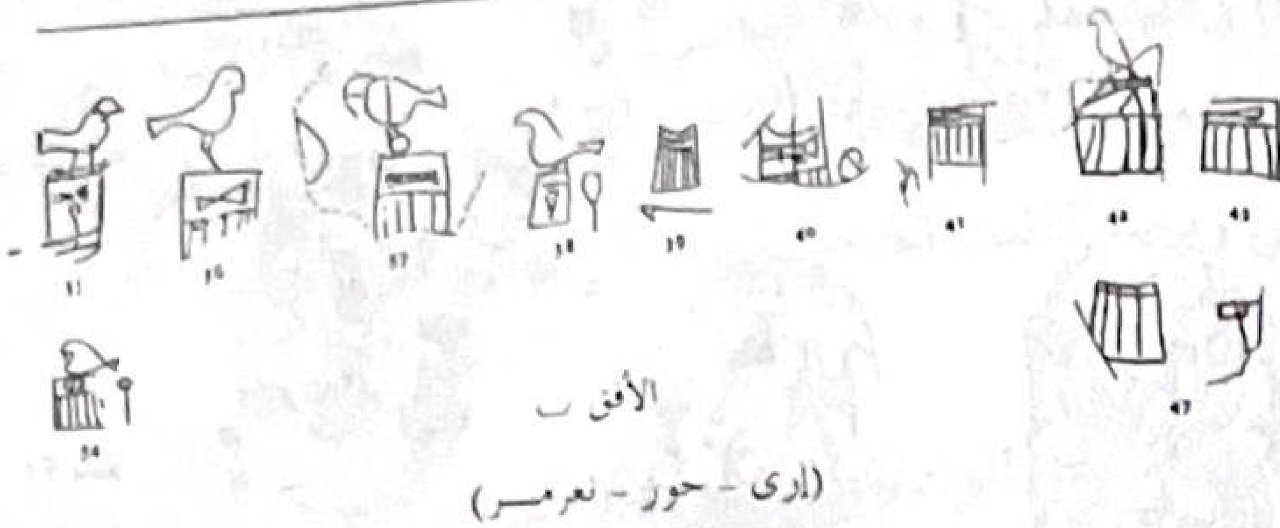
وتنقسم هذه المرحلة إلى طورين ثانويين: III a و III b (Kaiser, 1957).

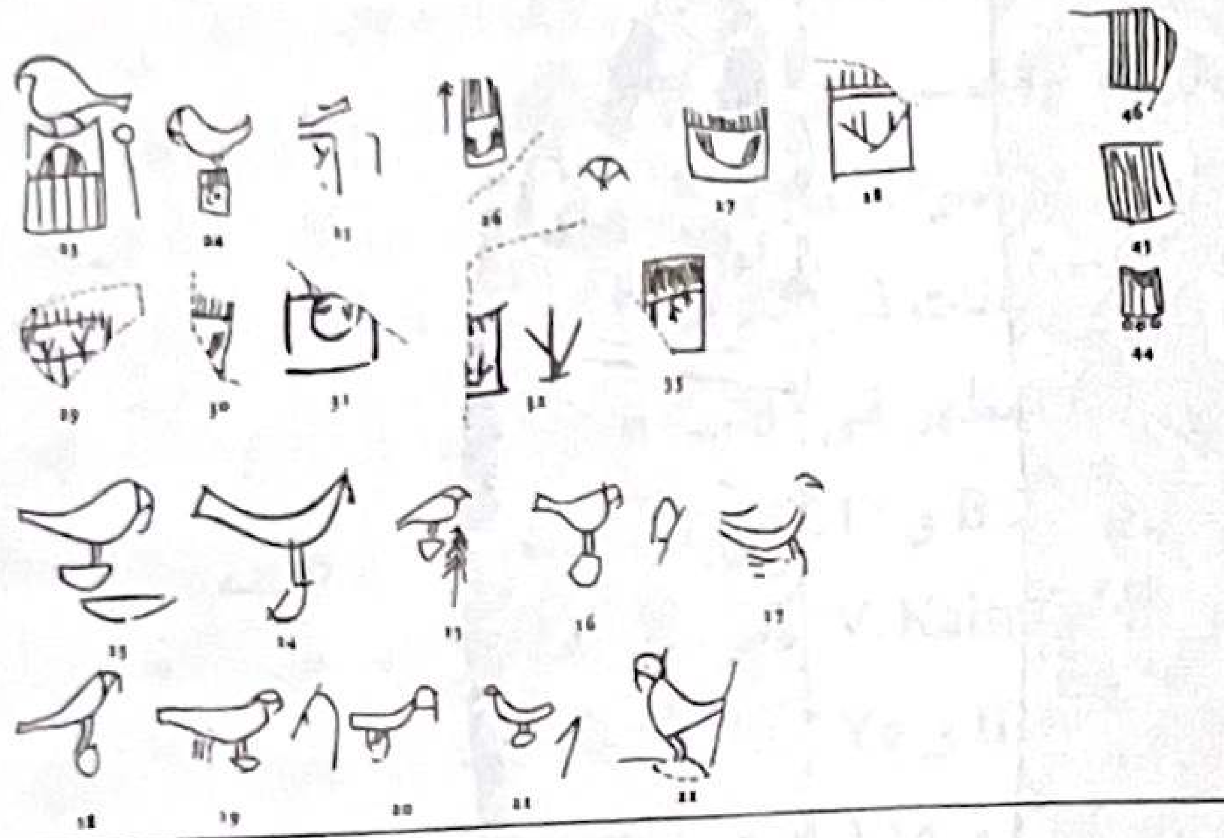
إن III a هو المقابل لثقافة جرزية متأخرة، وخلاله استطاعت التبدلات ان تفصح عن نفسها بشكل أفضل من خلال التغييرات التى أدخلت على الآلات المستخدمة وليس بالتوسع فى ضم الأراضى. أما III b، وهو الطور الأخير، فإنه يطل منذ الآن على بداية التاريخ. وهكذا انبثقت الأسماء الملكية الأولى، من عالم غفل من الأسماء، وقد دونت داخل هذه المستطيلات التى يعلوها الصقر تارة، أو لا يعلوها تارة أخرى، والتى يطلق عليها ال «سرخ»[١] – (شكل ١٥) . إنهم أول الزعماء الملقبون بـ «حورس» الذين سيدعمون سلطانهم فى المنطقة المنفية (طره و طرخان وحلوان وأبو رواش) ويمدونه جنوباً حتى الجندل الثانى ويشيدون أولى المقابر الضخمة فى أبيدوس (Kaiser U. Dreyer 1982. Dreyer 1990 , 1991): إنها الأسرة رقم صفر. dynastie O.

وتتصف من الناحية الإيكولوجية، بانزلاق محلات الصحراء فى اتجاه النهر. وإن كانت هذه الظاهرة قد بدأت بالفعل منذ نقادة الثانية، فقد أخذت الآن تزداد وتشتد، ليترتب على ذلك هجر نسبى لحياة الرعى لصالح نشاط زراعى متعاظم من خلال استخدام الرى الصناعى بعض أن صار ريا منظماً. إن رأس مقمعة الملك العقرب (شكل ١٦) الذى عثر عليه فى «هيراكنبو ليس»[٢] ربما كان أول شاهد على الرى الصناعى. ونرى على سطحه الملك. وقد أمسك بمعزقة ، ويشق قناة، وسط احتفال مهيب. (لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى Gautier et Midant - Reynes: 1995. Contra: Cialowicz: 1997). ومن ناحية أخرى فقد امدتنا «هيراكنبوليس» بالجانب الاكبر من الوثائق المتعلقة بهذا العصر. ولا يرجع الأمر إلى مجرد مصادفة، فقد شهدت هذه المدينة آنذاك ازدهاراً دفع تألقها نقادة، وهى المدينة المجاورة (المنافسة؟)، إلى أن تتوارى فى الظل، قبل أن تتقدم الكاب وثنى وجبانتها فى أبيدوس لتنحيها جانباً بعد توحيد البلاد.

ان الدراسات الحديثة التى أشرف عليها فريق «هوفمان» M. Hoffman الامريكى فى مدينة الصقر، مدينة الأجداد، **قد أوضحت ان أعدادا متزايدة من الجماعات البشرية قد أخذت تتجمع فى اتجاه السهل الغرينى، تاركة وراءها، لاسباب سبق الإشارة إليها، الأوديه بعد أن تصحرت.** وهنا، كما هو الحال فى الكاب، فان الإرسابات الغرينية لتكوين نخن تتوقف عند حوالى ٣٢٠٠ قبل الميلاد (Hoffman, Hamroush, Allen, 1986) فى حين يبرز الطور الأخير المحلى للدور المطير الهولوسينى . وفى المنطقة الصحراوية المهجورة، يعكس أفق (مستوى) horizon كربوناتى[٣] 'carbonate بالفعل، وجود هذه الأمطار الأخيرة، والمفارقة الغربية لم يترتب عى ذلك، اعادة شغل المنطقة المعنية. ولا غرو أنه يتعين البحث

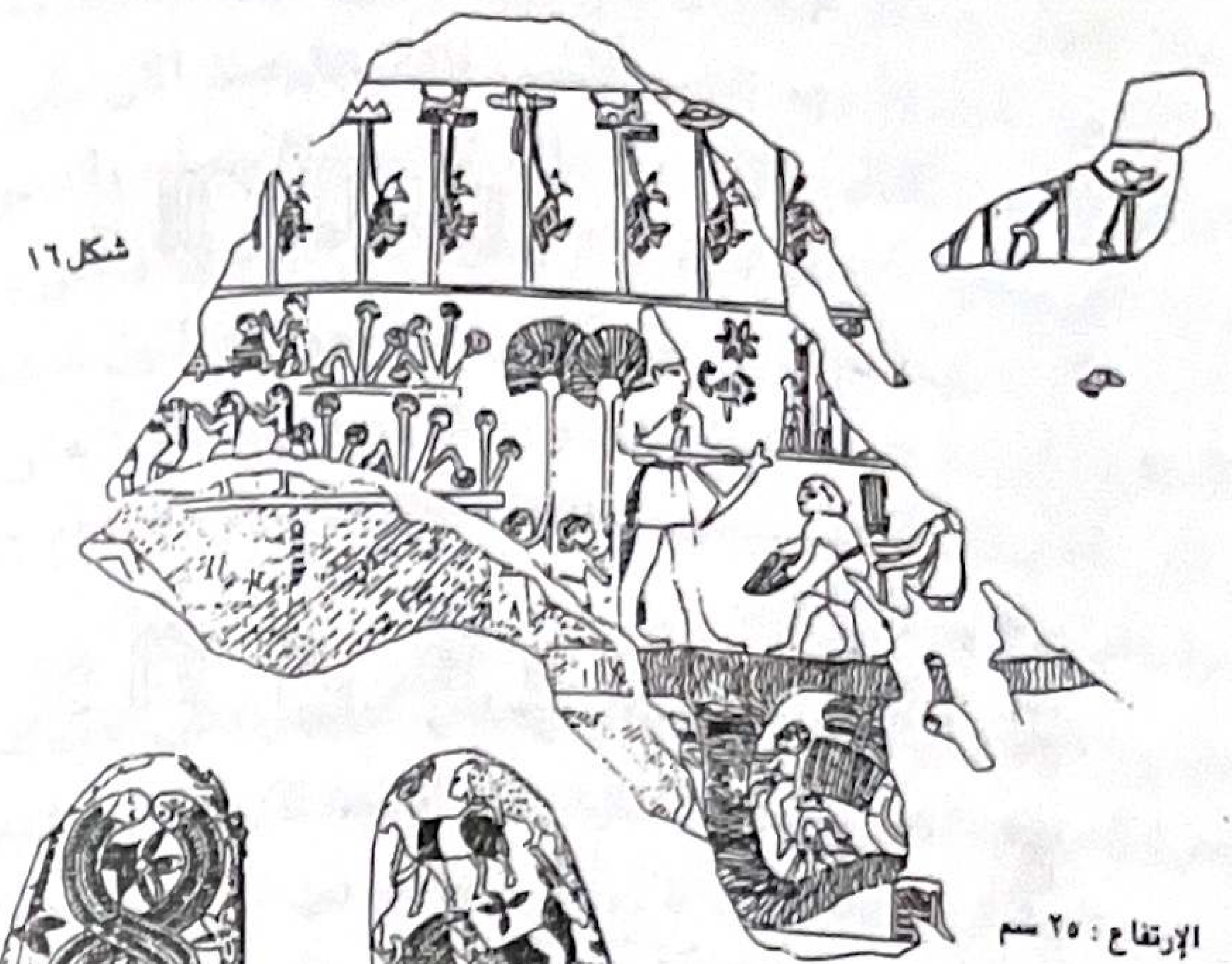






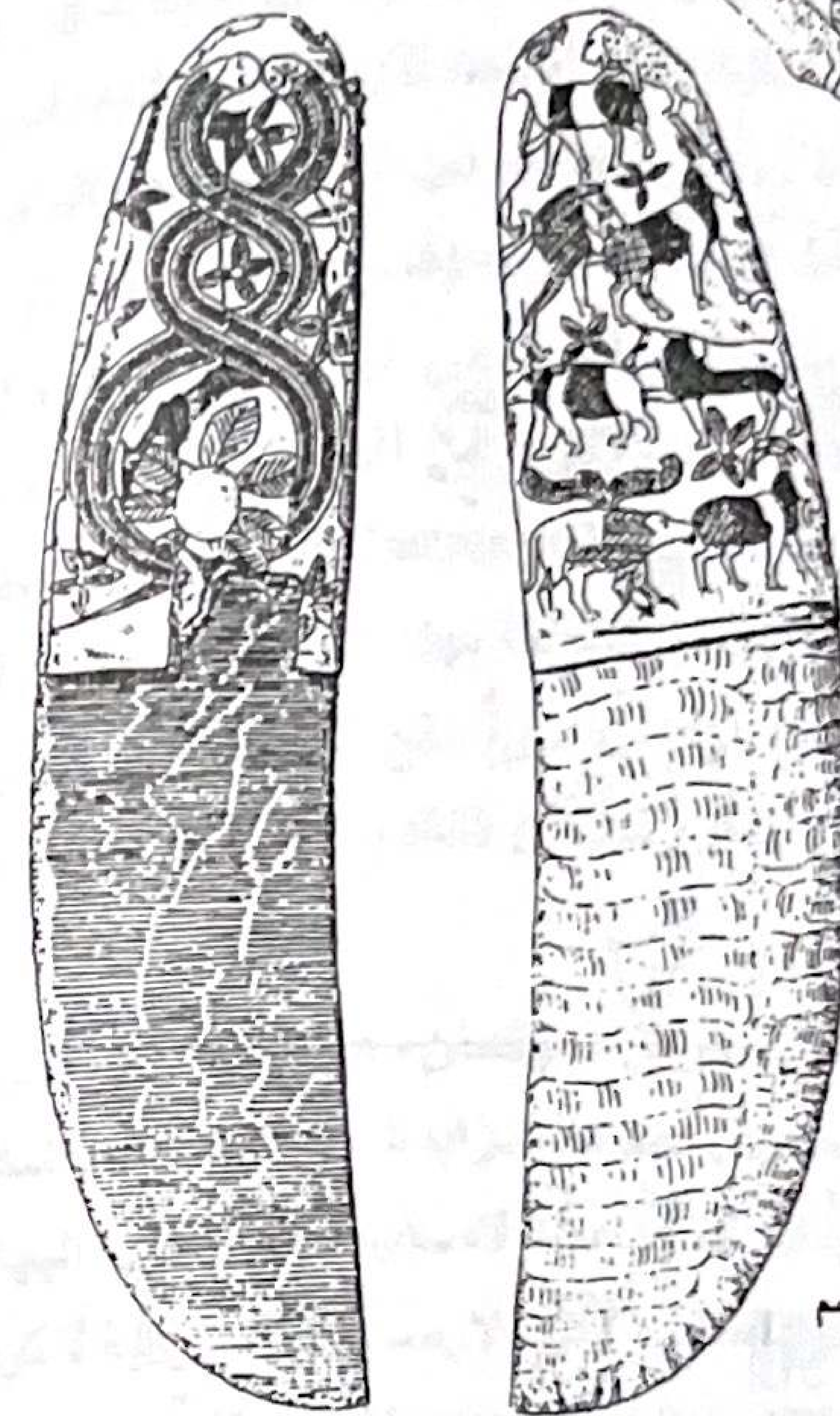


شكل ١٥



شكل ١٦

الإرتفاع : ٢٥ سم



شكل ١٧

الإرتفاع : ٢٢ سم

عن أسباب ذلك فى الفواصل الزمنية المتباعدة أكثر من اللازم، لتتحمل قيام استثمارات طويلة الأجل. ولكن علينا أن ناخذ ايضا فى الحسبان ضغط جماعات بشرية ضخمة جداً، مقارنة مع النسق البيئى الهش الذى ساد فى الأودية، بالإ ضافة إلى المقومات «الملكية» لسلطة متعاظمة، أخذت تركز النشاط الاجتماعى فى اتجاه زراعة مكثفة يخدمها الرى الصناعى.

وواقع الحال، أن الجماعة البشرية لنقادة الثالثة III، قد أخذت تتمركز داخل وحول مدينة نخن المحصنة التى كانت تشكل نقطة مرتفعة فى مأمن من الفيضانات، عند ملتقى منفذ وادى كبير وكثيب قديم. وإلى هذا العصر، يعود تاريخ البقايا الأولى للعمارة الضخمة، (Hoffman, 1972) ولاسيما: باحة المعبد العتيق والمقابر الضخمة فى الجهة 6 (Hoffman, 1982) والمقبرة رقم 1، المغطاة بالطوب اللبن وتصل أبعادها إلى ٦٥٠ × ٣٥٠ × ٢٥٠ سنتيمتراً والتى ربما كانت تخص الملك العقرب ذاته ، وفقاً لما ذهب إليه «هوفمان» M. Hoffman.

وفى كل مكان آخر فى الوادى، لا يظهر هذا الطور الأخير إلا على هيئة امتداد للملامح التى تطورت إبان عصر نقادة الثانية: وهكذا فقد تطورت المقابر «الثرية»، حيثما يستخدم الطوب، وحيثما يزداد التقسيم، إلى حجرات جنبا إلى جنب مع تعاظم كميات التقدمات ونوعيتها، وحيثما يو ضع كبراء المتوفين فى مكان آمن داخل توابيت من الخشب أو من الطين. وتم تجميع هذه الدفنات فى الكاب (Hendrickx , 1984) وفى «هيراكنبوليس» (الجهة رقم 6 : Hoffman, 1982) وتظهر فى أغلب الأحوال داخل المجموعات السابقة ذاتها(T 5 من الجبانة T فى نقادة. و B 201 و 217 فى الأبعادية..) ولا تتجاوز أبعادها مقابر نقادة IId. وقد قدر «كايزر» W. Kaiser (1957) متوسط هذه الأبعاد على النحو التالى: ١٥٠ × ١١٠ × ١٢٥ سنتيمتراً للطور III a 1 و ١٧٥ × ١٠٥ × ١٣٥ للطور III a 2، فى حين كانت ١٨٠ × ١١٠ × ١٦٥ للطور II d 1 و ١٦٥ × ١٠٥ × ١٤٥ للطور II d 2 . والدفنات المتعددة ليست بالشىء النادر ويظل الاتجاه المفضل، بوجه عام، هو الجانب الأيسر والرأس ناحية الجنوب والوجه ينظر ناحية الغرب.

والتقدمات، أكثر من أى شىء آخر، هى التى تفصح، على وجه اليقين، عن النفحة الجديدة التى غيرت اتجاه نهاية العصر النقادى ووهبته الزخم الفا صل والإنطلاقة الحاسمة. ولأنها تشكل «قطيعة» مع ما كان موجودا فى السابق، مال البعض فى بداية الأمر إلى النظر إليها باعتبارها ثقافة جديدة كل الجدة.

فلنحكم بأنفسنا.

* فالصلايات ذات الأشكال الحيوانية تختفى تماماً تقريباً، لتحل محلها الأشكال الهندسية البسيطة، المستطيلية أو التى على هيئة المعيّن أو شبيه المعيّن(٤)، وعلى سطوحها وبالنقش البارز سوف تدب الحياة فى مشاهد، سنعود إليها فيما بعد، لدراسة ملامحها.

* ومن ثم فالنقش البارز الذى شاهدنا ظهوره على أوانى وصلايات ثقافة جرزة، يتطور وصولاً إلى مستوى راقٍ على العاج والصلايات.

* وباتت الأوانى الفخارية المرسومة نادرة، وانحصرت فى الزخارف غير التشخيصية على هيئة أمواج ورقع الداما والفاصلة (من علامات الترقيم) وذلك قبل أن تختفى نهائياً. وفى نفس الوقت كانت أدوات الأكل الحجرية تتعاظم كما ونوعاً. ومع ذلك فقد ظهرت بعض الأوانى الفريدة فى ملامحها، وتوضح على بطنها بالرسم بعض الزخارف التى نصادفها على العاج والصلايات المزخرفة. ان هذه الأوانى الفخارية المرسومة لثقافة نقادة الثالثة، التى نصادفها على وجه التحديد فى الجبانة النوبية فى قسطل، كانت منذ عهد قريب محل دراسة موجزة (Williams, 1988).

* وبالطبع فان الأوانى الحمراء ذات الشفة السوداء لا مكان لها، ولكن الأوانى الفخارية الحمراء المصقولة أخذت تتنوع إلى جانب الجرار ذات القاع المدبب، المصنوعة من عجينة من الحجر الجيرى التى ستحمل على أكتافها الأسماء الأوائل للزعماء الملقبين بـ «حورس».

* وواصل النحاس «صعوده» وتطورت بشكل عام التمائم والحلى المصنوعة من اللازورد والذهب والفضة والأحجار شبه الكريمة والسبج (الأوبسيديان).

* وعرف «القاشانى» انطلاقة جديدة.

* وأخيرا، ظهر فن النقش على الحجر، كعنصر شرقى أصيل، وزحف عبر الاصقاع وانتشر... (Boehmer, 1974).

وعلينا أن نضيف إلى هذا العرض ظهور العمارة ذات الدخلات والخرجات التى جاءت هى أيضا من الشرق. وقد عثر منذ وقت قريب، على نقش متأثر بها ، جدير بالإعجاب ، على سطح صندوق صغير من العاج ، جادت به مقبرة من منشأة أبو عمر (Leclant, 1987, 7 ig 14).

ويتجلى فى الحال، أن البحث عن المواد الأولية، قد أصبح ضرورة ملحة بشكل متزايد، لتجهيز دفنات «كبراء» مصر العليا بالمنتجات الفاخرة، كمظهر من مظاهر وضعهم الاجتماعى المرموق. وإذ جاء العاج والذهب من الجنوب، وأوانى الأكل الحجرية والنحاس

من الشرق الأدنى المجاور، فقد جاء أصلاً اللازورد إلى جانب السبج من أماكن أبعد. وقد عثر هنا وهناك فى مقابر ثقافة جرزة على خرز صغير ومجرد شظايا من السبج. إن نصلاً صغيراً مصقولاً من نقادة (Petrie, 1920, 43 et Pl. xLv, 46) كان قد ثقب، حيث يستخدم كحلى، وهو ما يلفت الإنتباه إلى أى مدى كانت هذه المادة ثمينة وقيمة فى نظر من كانوا يرتدونها. إن عدة نماذج من الحراب المتشعبة المصنوعة من السبج، مجهولة المصدر، هى من مقتنيات متاحف اللوفر وبرلين والقاهرة وبروكلن، واستنادا إلى شكلها الخارجي فقد تم تحديد تاريخها بالعصر الثالث والأخير من نقادة، **حيث تتجلى كظاهرة انتقالية عظيمة الأهمية بين سلاح عصر ما قبل التاريخ وأداة شعيرة فتح الفم** (Casini, 1974, Needler, 1984, no 171) **إن الشحنة الرمزية التى شحنت بها، على ما يبدو، الحربة المتشعبة إبان عصر ثقافة نقادة، من المحتمل أنها توحى إلينا بها النماذج ذات المقبض المصنوع من الذهب المزخرف، والذى يحمل واحد منها اسم الملك «جر»** (Needler, 1956, Aksamit, 1989) . ولا نعرف على وجه اليقين منشأ ومصدر السبج. فنجده فى الجنوب فى نجاد أثيوبيا وفى الشمال فى المنطقة الشرقية من الأناضول قرب بحيرة «فان» وفى المنطقة الوسطي من الأناضول، على مسافة قريبة من موقع «ساتل حوجوك» وفى جزر بحر إيجه ولاسيما فى «ميلوس». فقد بدأت تجارة السبج فى وقت مبكر جداً فى المشرق وفى جبال زاجروس، انطلاقا من المصادر الأناضولية للمادة الأولية (Renfrew et al 1966). وقد أتت بعض النصال الصغيرة من المواقع الناطوفية فى ملاحة ومريبات، فيما بين ١٠٠٠٠ و ٨٣٠٠ قبل الميلاد، ولكن السبج كان قد بدأ يشكل نسبة ٢ر٧٪ من مجموع الأدوات الحجرية منذ عصر ما قبل فخار العصر الحجرى الحديث أ (PPNA) فى أريحا فيما بين ٨٣٠٠ و ٧٦٠٠. ومع ذلك، فقرب نهاية الألف السادس، اقتصر استخدام الحجر الأسود البركانى الجميل فى المشرق على الأشياء الفاخرة القيمة، فتراجع أمام منافسة النحاس بلا شك. واقتصر استخدامه على الخرز والأنواط والخناجر والأوانى وترصيع العينين فى الصور البارزة. ولا غرو أنه علينا أن ننظر إلى هذا الحجر فى مصر، من نفس المنظور. ولما كانت مصادر المادة الأولية بعيدة جداً، ولاسيما بالنسبة لتلك الواقعة فى الشمال، فلم يدرك المركز النقادى هذه المادة الجميلة إلا من خلال الصدُف التى يوفرها الرحالة الفرادى (الشظايا – الأنواط فى نقادة). وبعد ذلك، وبعد أن هيمن السبج على مصر بأسرها، ولاسيما الوجه البحرى، وحتى تخوم مناطق الدلتا الشرقية، فقد تسرب قطرة فقطرة، من الشرق الأدنى، حيث لم يكن مستخدما إلا كركيزة لبعض الأشياء الترفية النادرة ولتثبيت بعض العناصر ذات المغزى، مثل الحراب المتشعبة. وفى عصر الأسرات، كان يرصع فى أغلب الأحيان عيون الصور البارزة والتماثيل. وإذا كان هذا التصور المقترح لا يفرد أى

مكان لسبج الأنجاد الأثيوبية، فلانه لم يشكل على ما يبدو تجارة منتظمة ترجع إلى نفس العهود القديمة لتجارة الأناضول. وفى انتظار الدراسات التحليلية التى تتناول الأشياء المصرية، التى قد تساعدنا على تحديد وجهتنا، تبدو الأصول الأناضولية افتراضاً معقولاً. وهكذا، فإن مقبرة مصرية من الأسرة الثانية عشرة، تقع فى بيبلوس، قد جادت بإناء عطور من السبج مكفت بالذهب (Naville, 1922).

إن بروز نخبة فى كبرى مراكز الجنوب ولاسيما فى «هيراكنبوليس»، وهى النخبة التى امسكت بزمام تجارة المواد الأولية وسهرت على تحويلها إلى منتجات ترفية فاخرة لصالحها، يسير جنبا إلى جنب، مع ازدهار طبقة من الحرفيين التى ستحلق فى اتجاه الوضع الإجتماعى الرفيع الذى ينعم به الفراعنة على «المتميزين فى فنهم». إن غير المنتجين الذين يعيشون وسط جماعات بشرية، تتزايد باطراد وتتمركز فى قطاعات زراعية فى السهل الغرينى، سوف يتسببون أكثر فأكثر، فى ضغوط سوف تعطى للمد النقادى، قوة دافعة حاسمة. كان النقاديون قد أقاموا المستعمرات فى الجنوب (انظر اعلاه، المجموعة أ) إلا انهم قد صادفوا فى الشمال المزارعين من ابناء المعادى الذين كانوا يشكلون منطقة حاجزة أمام تجارتهم مع الشرق. وقد اشرنا إلى الدور الذى من المحتمل أن تكون مصر الوسطى قد لعبته فى اطار هذه العلاقات بين الجنوب والشمال . والحقيقة، انه لا يوجد موقع معادى واحد، فيما عدا بوتو»، يبدو انه استطاع أن يقاوم المد الذى اكتسح أرجاء مصر منذ نقادة IIC-d.

والقضية التى تظل فى حاجة إلى تعريف ليست من أبسط القضايا.

فالمطلوب أن نعرف إن كانت الموجة الكاسحة كانت سلمية أم حربية، وعند أى مستوى، أى عند أى نقطة التقاء غامضة، ينبغى أن نحدد لحظة توحيد البلاد تحت صولجان ملك للجنوب وللشمال، وبعبارة أخرى عند أى نقطة حدث الإنتقال من ما قبل التاريخ إلى التاريخ. وهل حدث ذلك سلماً أم حرباً؟

فعن الحرب تتحدث إحدى أقدم الوثائق المكتوبة فى التاريخ المصرى: إنها صلاية «نعرمر» التى تصور ملك الجنوب وهو يخضع الشمال. غير أن هذا الملمح العنيف الذى يظهر بمثابة أحد ثوابت وثائق عصر فجر الأسرات، هو عنصر سبق أن شاهدنا ظهوره الحذر فى مقبرة «هيراكنبوليس» المرسومة.

ومع ذلك لا يوجد فى الوثائق الأركيولوجية ما يعزز هذه الأطروحة. فقد لاحظ «ويلدونج» D. Wildung (1984) عند دراسة جبانة عصر ما قبل الأسرات فى منشأة أبو عمر، أن المتاع الجنائزى يكشف عن أن هؤلاء الأقوام كانوا تجاراً أكثر منهم محاربين: فلا

وجود للأسلحة فى المقابر. وتظهر وحدة البلاد على أنها أبعد ما تكون عن الغزو، بل هى تطور مستمر ومطرد. ومن هذا المنظور، علينا أن نتناول مرحلة «بوتو» الإنتقالية باكبر قدر من الإهتمام.

كانت مصر، كما رأينا موحدة ثقافيا، منذ نقادة الثانية، وقبل توحدها سياسيا، كما هو ثابت من الوثائق المكتوبة. فهل كان العنف ضروريا إذن!

ومع ذلك، يبدو من غير المستبعد ان الضغط الذى مارسه زعماء «هيراكنبوليس، قد كان بلا عنف، حتى وان كان لايشكل هذا الأخير العامل الرئيسى فى عملية التوحيد. فالأمر الغريب حقا، على ما يظن، أن يكون هذا المد الزاحف قد حدث دون ان يصطدم بقدر من المقاومة . وكما يشير إليه «كايزر» Kaiser (1987) فإن غياب الأسلحة فى دفنات منشأة أبو عمر لا يعتبر فى حد ذاته دليلا ضد غزو الوجه البحرى.

وفى هذا الصدد يجب ان نأخذ فى الحسبان تحليل الوثائق المنقوشة التى تميز نقادة الثالثة III، كما وردت على الأشياء المصنوعة من العاج وعلى الصلايات.

وقبل أن نواصل تقدمنا، لابد هنا من توضيح نقطة متعلقة «بقراءة» هذه الوثائق التى اعتبرت إحياءً لذكرى أحداث حقيقة أو طريفة أو تاريخية.

وقد سبق أن أتيحت لنا فرصة التعبير عن رأينا حول هذا الموضوع عند التعرض لصور أوانى ورسومات مقبرة «هيركنبوليس».

إن مقابض السكاكين التى بدأت فى الظهور لأول مرة فى تاريخ قريب من نقادة IId (Midant - Reynes, 1987, 220) تشكل مجموعة نموذجية للعاج المزخرف. إنها تصور فى المعتاد طوابير من الحيوانات الحقيقية، فى وسعها، بما أوتيت من سكينة وتناسق وقدر من تناظر المواكب على الوجهين، أن تبرز عالما حيوانيا لا يثير أبدا فى نفوسنا الرعب ويندمج كل الإندماج فى العالم النقادى. والى جانب هذه النظريات التى لايمكن ان نفصل بين أصولها وتأثير فن النقش على الحجر فى بلاد الرافدين، ظهرت مواضيع جديدة: ومنها الحيّتان المتشابكتان، على النحو الذى نشاهدهما على سبيل المثال على سكين جبل الطارف (شكل ١٧) أو فى الطوابير أسفل قوائم الأفيال (Keimer, 1947). كما ظهرت على الصلايات، حيوانات خرافية، تطل هنا وهناك، فى صحبة المشاهد التى نرى فيها الأسود وهى تنقض على الغزلان.

إن مقبض سكين جبل العركى، وهو مقبض مبدع، وإن أبدى البعض تحفظاتهم حول أصالته (Godron, 1961 وبالنسبة للرأى المعارض: Boehmer, 1991) يقدم لنا سلسلة من المشاهد مرتبة بالعرض. فنشاهد أسدين لبدتهما كثيفه يواجهما شخص ساقاه على هيئة

مخالب طائر جارح وكان مهمته إخضاع الحيوانين، وقد صور ما يشبهه على وثيقة من أوروك(٥) (الوركاء) (Mode, 1984) التقينا بمثيلتها – مع استبعاد الأسلوب – في المقبرة المرسومة في «هيراكنبوليس». وتصور اللوحات الأربع التالية عالم الصيد وفقاً لأسلوب في التعبير مماثل لأسلوب صلايات الحيوانات التي نشاهدها تتعاقب وتتصادم وتطارد بعضها البعض وفقاً للأنواع المعنية. وعلينا أن نبحث أيضا في «هيراكنبوليس» عن المصدر الذي ألهم تكوين وُضع وجها لوجه: فتتلاحق مشاهد المعارك، من التلاحم الجسدي إلى المعارك على صفحة الماء. ويمكن التعرف على طرازي السفن التي تشرف بطيفها الظلي (سيلويت) الضخم، على الوحدة المتناسقة للمجموعات المرسومة في المقبرة رقم ١٠٠.

إن الصلايات المنحوتة، مع الأخذ بعين الاعتبار الكسف التي نعرفها، يقترب عددها من العشرين. وإذا كان هذا الرقم لا يمثل في واقع الأمر العدد الحقيقي للصلايات التي انتجت إبان هذا العصر، إلا أنه يعطينا فكرة عن مدى محدوديتها، إذا ما قارنا بالآف شقف الأواني المرسومة التي وصلتنا.

إن حوالي عشر صلايات – ومنها صلاية «نعرمر»(٦) الذائعة الصيت، تشكل مجموعة وثائق يمكن استغلالها، لأنها وصلتنا سليمة بالكامل، أو ان الجانب الأكبر منها في حالة جيدة من الحفظ.

وقد قام «رانكيه» H. Ranke بتوزيعها على مجموعتين تتعاقب من حيث التتابع الزمني: فالعناصر التي تكون المشاهد، في المجموعة الأولى لا توضح أي فارق في قامة ما تصوره وتشغل المساحة المتاحة بالكامل، ولا تلتزم بنظام الصفوف registres، ودون تدخل أية علامة هيروغليفية. **أما المجموعة الثانية، فقد تم تقسيم مساحة الصلاية إلى خطوط أفقية، وظهرت القامة التراتبية التي تتفق وو ضع كل شخص في السلم الهرمي الاجتماعي وفر ضت نفسها وبدت للعيان العلاقات التصويرية الأولى(٧)، وهي الإرها صات التي مهدت لظهور الكتابة.**

وان كانت صلاية الصيد تصور علامات هيروغليفية – إذا أخذنا في الحسبان اللواءين اللذين يرمزان إلى الشرق والغرب أو الإقليمين الرابع عشر والثالث من أقاليم الدلتا – فإنها مدرجة ضمن المجموعة الأولى من الوثائق. ان صفين من الصيادين، المتناظرين بالنسبة إلى محور، يسمحان برؤية الشكل وهو على هيئة ترس، في اتجاه ارتفاعه وليس عرضه. إن هذين الصفين يتجهان صوب مجموعة من الحيوانات من بينها أسد انغرست فيه بعض السهام، وقد طرح أرضا قوّاساً وأيضا غزال امسك به الوهق. وقبالة هذه الحيوانات، ومن الناحية الأخرى من بؤرة الصلاية، تسير غزلان ونعامة تطاردها الكلاب. وأخيراً، وفي الجانب السفلي من الصلاية، يظهر أسد قد انغرست فيه السهام، وهو بمفرده ورأسه إلى أسفل وعرف «تفنين» R. Tefnin (1979) كيف يوضح ان المقصود به هنا هو

الصيد إجمالاً، وليس صيدا محدداً، وليس في نيتنا في هذا المجال ان نعيد عرض تحليله البارع، ولكن سنكتفي بتحديد وضع الصلاية المعنية في سياق تطور نمط الوثائق. وإذا وضعنا الأسلوب جانباً، فمن اللافت للنظر في الحقيقة، أنها تشكل جزءاً متكاملا مع المفردات الرمزية التي كان النقاديين قد عودونا عليها، بعد ان طورت إذا صح القول الموضوع الذي نشاهده على صلاية «منشستر» Manchester: عالم الصيد الحيواني ومعه، مع ذلك الإحالة إلى صيد الأسد كصدى لأسر الغزال. وكان هذا الصيد من المآثر الخطيرة التي ترفع من شأن القائم بها والتي ستثبت رمز الفرعون المنتصر (راجع المقبرة المرسومة في «هيراكنبوليس») .

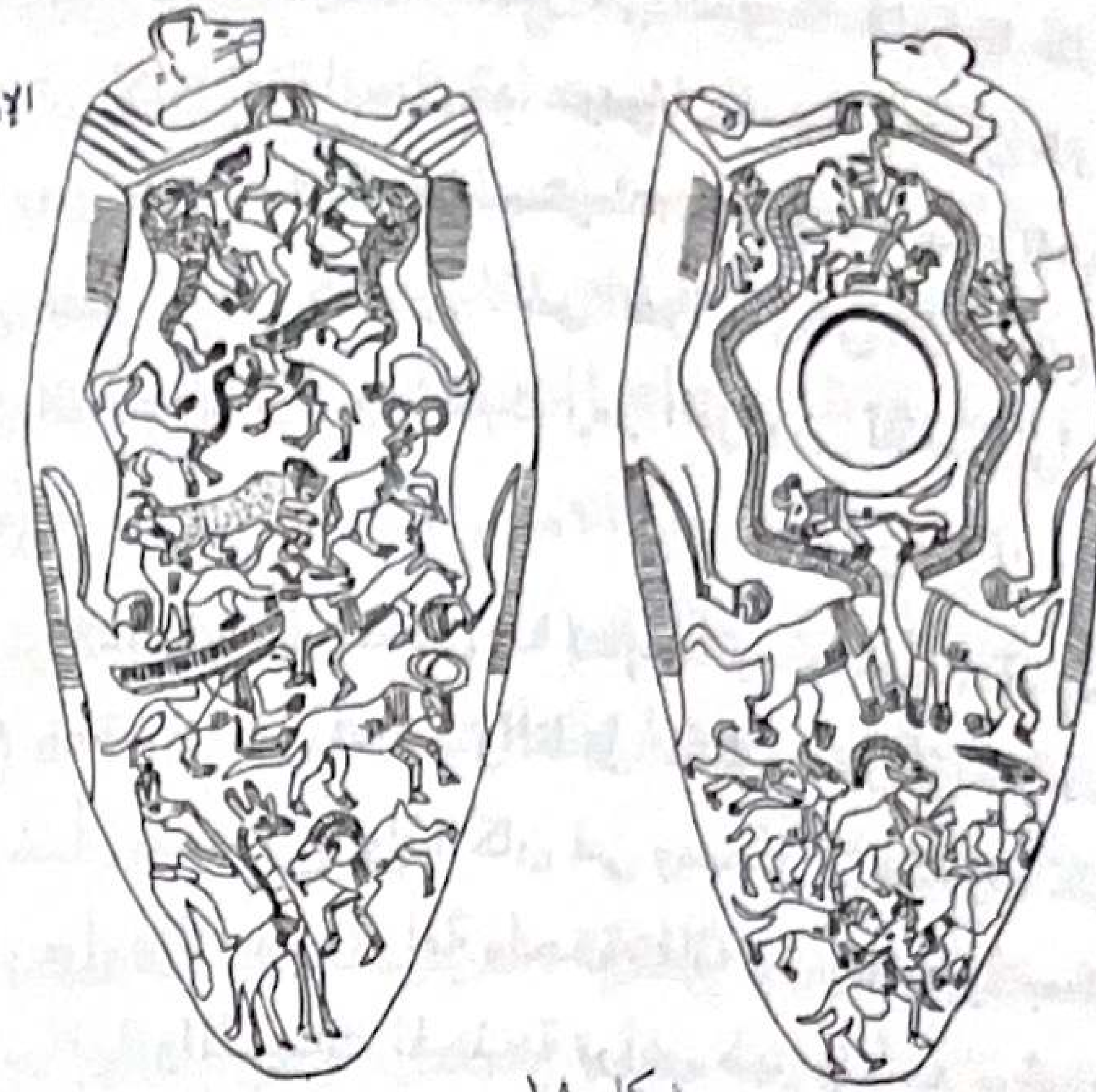
أما صلاية «هيراكنبوليس» (شكل ١٨) فإنها وسط مساحة، يحدها حيوانان من حيوانات السمع(٨) lycaon، على الوجه والظهر، تكشف عن تزاحم حشد من الحيوانات، يطارد بعضها بعضاً وتتصارع. وإذا كان في وسعنا أن نتعرف على الكلاب والغزلان والكباش البرية والوعول والاسود وزرافة واحدة، فإنه من الصعوبة بمكان، أن نطلق اسما على الحيوانات الخرافية والثدييات المجنحة برأس طير والأسد برقبته الثعبانية الشكل، ناهيك عن هذا الشخص الغريب، غير المألوف الذي يرتدي قناع زرافة، والنافخ في آلة الناي (٩)، وكأنه يريد أن «يؤثر بوسائل سحرية» على الحيوان الضخم آكل العشب الذي استعار رأسه لنفسه.

أما صلاية متحف المتروبوليتان Metropolitan Museum (Fisher, 1958) فهي داخل تكوين مشابه لصلاية «هيراكنبوليس» وعناصرها شبيهة بعناصر صلاية اللوفر (حيوانات السمع وحيوان طويل الرقبة) ولها سمة مزدوجة: فحيوانات السمع هي أنثى هذا الحيوان، وكل منها ترضع ثلاثة صغار (وهي حالة كسفة جاءت من منجات) (Fischer, 1958, Fig 11) و«حورس فوق سرخ» يقف جاثماً فوق بؤرة الصلاية التي يحدها ثعبان ملتف، كما هو الحال على مقبض سكين جبل الطارف (شكل ١٧).

وتستعيد صلاية اللوفر (شكل ١٩) صلاية «هيراكنبوليس» في ملامحها الرئيسية ولكن في الشكل الأكثر هدوءاً لزرافتين، تتواجهان على ظهر الصلاية، على جانبي نخلة باسقة تكون محور التماثل. إن واحداً من هذه الأسود الخرافية الممسوخة برأس ثعبان، يظهر على وجه الصلاية.

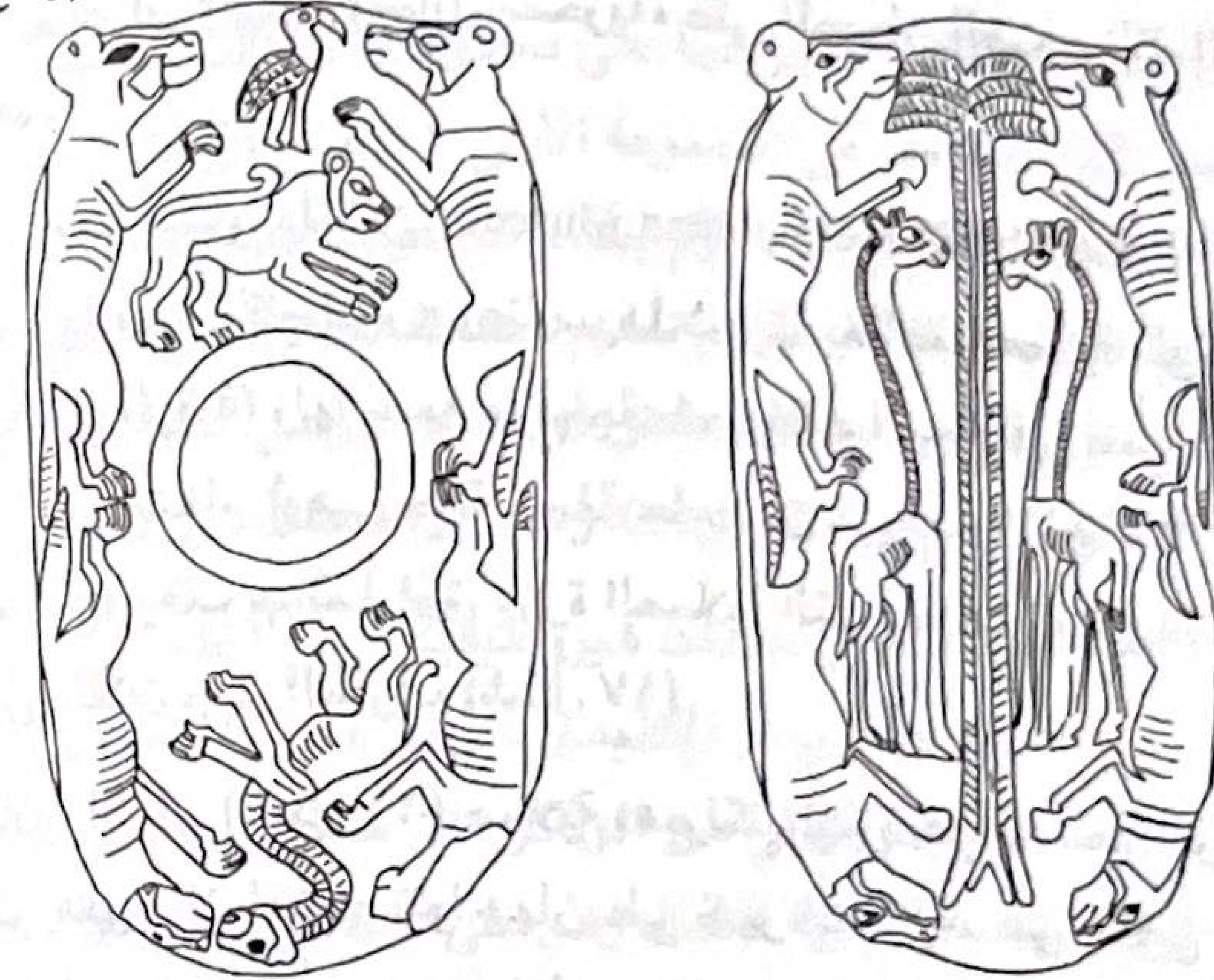
وعلى ظهر صلاية العقبان أو النسور (شكل ٢٠) نجد نفس موضوع الزرافتين المتواجهتين، وإن كانت التفاصيل أكثر ثراء. وفي المقابل، فقد صور على وجه الصلاية مشهد ينطوي على أقصى درجات العنف وهو إرهاص لصلاية نعرمر، بفضل أسيرين

الإرتفاع: ٤٢ سم



شكل ١٨

الإرتفاع: ٣٢ سم



شكل ١٩

يساقان، وقد غلت يداهما وراء ظهرهما، من جانب لواءين زودا بساعدين. وقد صور فيه المنتصر على هيئة أسد غزيرة لبدته وضخمة قامته، ويدهس بأقدامه «سبّاحين» غير مألوفين، وموتى يسبحون فى الفراغ التشكيلى، وقد وقعوا فريسة العقبان.

ونقش صلاية الثور شديد البروز (Petrie, 1953, Pl. 6, 17 - 18) وهى تشبه سابقتها إلى حد كبير، من حيث ان المنتصر، يظهر هنا على شكل ثور وليس أسداً، وهو يصرع عدوه الذى صور على هيئة مدينتين متراكبتين، لهما أسوار مسننة. وفى الجانب الآخر، فإن ألوية تنتهى بسواعد تمسك الحبل الذى غُل فيه العدو المهزوم.

وعلى الصلاية المعروفة اصطلاحاً بصلاية المدن أو الجزية الليبية(٩) (شكل ٢١) تنتظم العناصر الواحد وراء الآخر، وفقا لخطوط بارزة: وهكذا ظهر الصف régistre. إن حيوانات ممسكة بمعزقة تعلو الأسوار المسننة لسبع مدن دونت اسماؤها داخل كل منها، بواسطة علامات اختلفت الآراء وتباينت حول قراءتها. ومن بين حاملى المعازق السبع، يمكن رؤية أربعة فقط: الصقر والصقرين فوق لواءين والعقرب والأسد وقد تقمص كل منها على الوجه الاكمل صورة الملك أو الملوك المنتصرين(١٠) . ولكن التصوير ينطوى هنا على مفارقة: أهو تاسيس أم تدمير مدن؟ ويصور الوجه الآخر من الصلاية عروضاً هادئة للأبقار والحمير والخراف المشهورة ذات القرون الملتوية، وتحتها تنتشر أشجار، تقف بجوارها العلاقة الهيروغليفية «**ثحنو**»، التى تشير إلى الليبيين.

أما صلاية «**نعرمر**» الذائعة الصيت (شكل ٢٢) فهى أولى وثائق هذه المجموعة، التى تحمل اسم الملك مدوناً داخل «**سرخ**»(١١)، وتصور فى مساحة مقسمة إلى صفوف، *الشهادة الأولى على توحيد الأرضين* وعلى ظهر الصلاية نشاهد الملك مرتدياً التاج الأبيض للوجه القبلى وهو يصرع عدواً جاثياً بضربة من مقمعته الكمثرية الشكل، وبجوار عدوه مدونة هيروغليفية تشير إلى «أملاك الخطاف»، المعروفة إصطلاحا فى النصوص الجغرافية بالإقليم السابع من أقاليم الدلتا. ومن فوقها، فإن الشكل البيضاوى – وهو العلاقة الدالة على الأرض – يشير أيضا إلى الدلتا، وامتداد أحد طرفيه، المواجه للفرعون، يصور رأس العدو المهزوم. وتنبثق من الشكل البيضاوى ست سيقان لنبات البردى، تشكل أجمة يعلوها صقر وفى أحد مخالبيه، وقد تحول إلى يد، يمسك حبلا مثبتا (بحلقة؟) فى أنف الأسير. إن الرسالة واضحة . «**فقد صرع الملك عدو الدلتا**». والأمر هكذا، وأيا كان المعنى المحدد الذى يتعين أن نفسر به المجموعة الدالة على **أملاك الخطاف** (راجع Kaiser, 1964, 89) – «فإن حورس يمسك به (بالعدو) أسيراً». وتهيمن على أعلى المشهد صورة مزدوجة للبقرة («حتحور»؟) التى تؤطر اسم العاهل الملكى. ولا يفوتنا بصدد وضعها «السماوى» ان نشير

إلى بعض أوجه الشبه مع الصلاية المعروفة اصطلاحا بصلاية «حتحور» (شكل ١٠ – ح). ومن ناحية أخرى، وتحت الخط الدال على الأرضية التى يقف فوقها فرعون، نشاهد «شخصين يسبحان». وربما كانت العلامات الغريبة تشير إلى أصولهما، ولكن وضعهما على هذا النحو يؤكد ان الملك المنتصر يدوسهما بقدميه . وأخيرا، وخلف الملك، وعند نفس الخط الدال نعلى الأرضية، يقف حامل نعلى الملك بحجم مصغر وهو يمسك بالأبريق، الذى يمهد لطقوس التطهر. وبشكل عام، فإن المجموعة باكملها تثير فى نفوسنا انطباعاً «بكلاسيكية» هذه التصاوير، منذ هذا الوقت المبكر. حيث حدث فى الإمتداد الذى يفصل التصوير «الذى يعج بالزحام» بأسلوبه الشرقى الواضح، كما هو الحال فى صلاية «هيراكنبوليس»، واللوحات المقسمة إلى صفوف فى صلاية «نعرمر»، أن تسللت العلامة الهيروغليفية، الأداة الخطية للتعبير عن المقاطع الصوتية. إن هذه الحركة الدائمة، ذهابا وإيابا، بين الكتابة والصورة، قد نظمت الفضاء التشكيلى المصرى وفقا لمبدإ واحد: هو مبدأ «القراءة الميسرة»، وفى نفس الوقت كانت تبتعد الأشكال الشرقية للحيوانات الخرافية المجنحة وتتحدد القائمة الإيقوتوغرافية(١٢) . ومازال وجه صلاية «نعرمر»، والحيوانين الخرافيين اللذين أمسك بزمامهما وقد تشابك عنقاهما ليشكلا بؤرة الصلاية، مازال يحمل سمة العصر السابق. وفى الصف العلوى، يظهر الملك مرتدياً التاج الأحمر وممسكاً بالسوط، وهو يسير الى الأمام، يتقدمه كاتبه وحاملو ألويته متجهين صوب «الباب العالى لـ حورس»، حامل الخطاف وهى العبارة الدالة على «بوتو». ويكشف صفان من الأفراد الراقدين ورأسهم بين ساقيهم، عن فداحة الهزيمة.

وهكذا، فإن الكون المصور بالنقش إبان المرحلة الأخيرة من نقادة، يكشف بالإضافة إلى مصادر الإلهام الأسيوية الواضحة (Mode, 1984. Boehmer, 1974) عن قطيعة تجد تعبيرها فى الصعود المطرد للعنف (مطاردة الحيوانات والحيوانات الخرافيه ومشاهد المعارك) ويعكس تغييرات ذات طابع نفسانى.

وفى حين حدث، على الصعيد الإجتماعى، أن كان التعبير عن صعود نخبة من خلال تجميع الخيرات المادية، فإن ترجمتها فى الهياكل البنيوية الذهنية كان من خلال نوع من إعلاء شأن العنف، الأمر الذى لم يكن بالضرورة مجرد ترجمة لحوادث حقيقية، ولكن إسماء للقوة والسلطان، كاشفا عن نشأة أيديولوجيا ستتولد منها صورة فرعون.

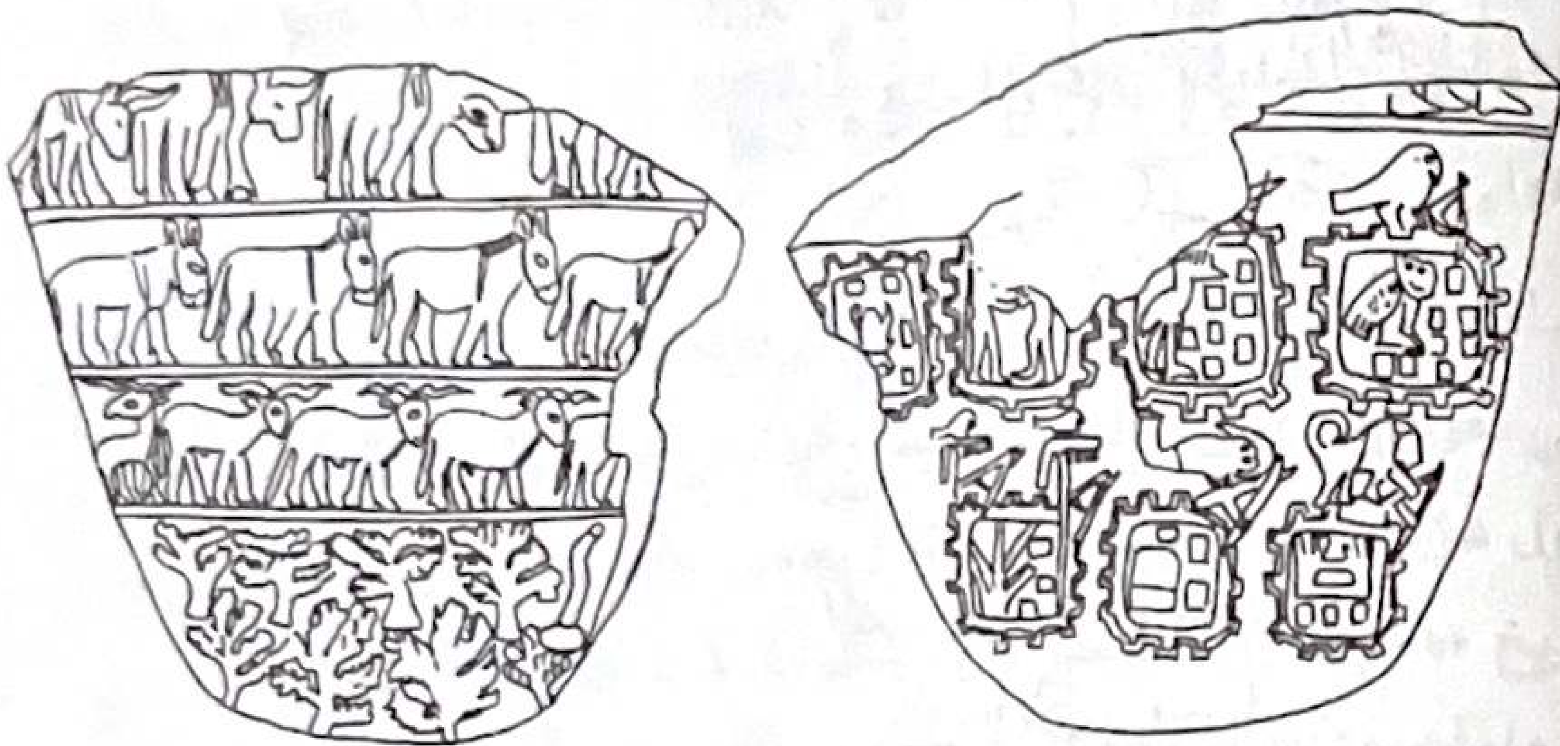
***

إن عملية توحيد البلاد، بعد إعادة وضعها فى إطار هذا التحليل، تظهر أنها أبعد ما تكون عن عملية «غزو» بقدر ما هى ظاهرة _استيعاب_ الشمال من جانب الجنوب. ولكن تظل



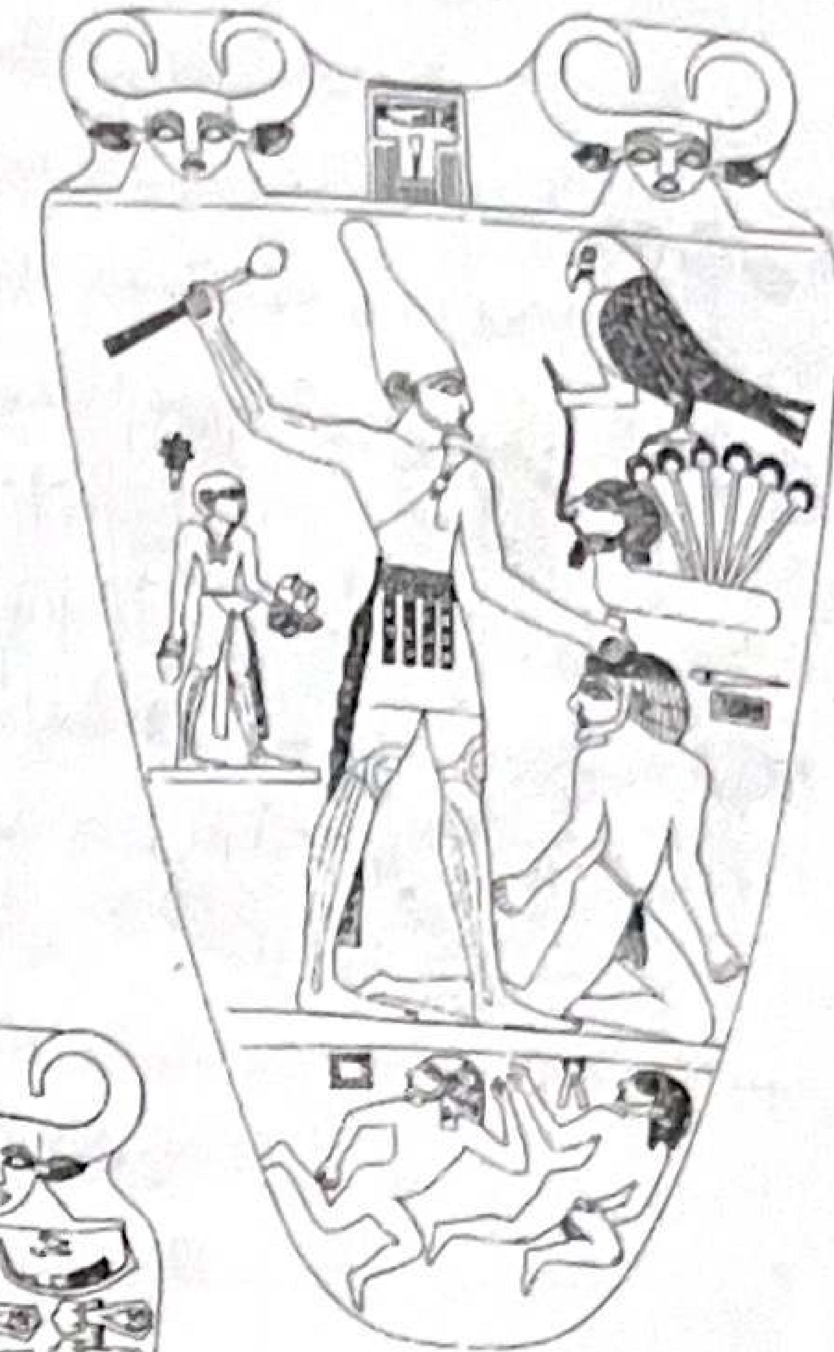
الإرتفاع : ٣٢ سم

شكل ٢٠

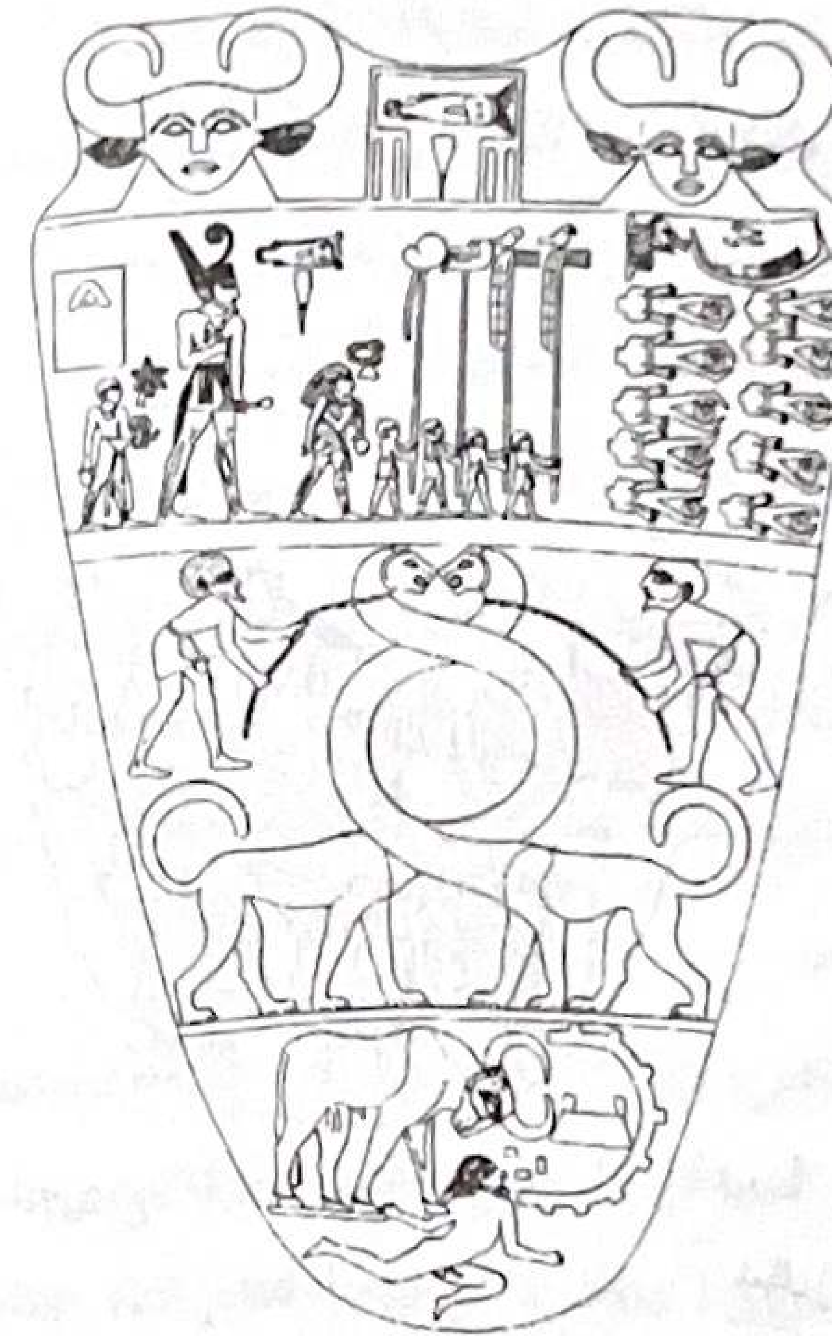


الإرتفاع = ١٨,٥ سم

شكل ٢١



الإرتفاع : ٦٣.٥ سم



شكل ٢٢

الحرب فى هذا السياق أحد المكونات. ولانها تعلى من شأن المنتصر، فسوف يتم الإشادة بها أكثر من جميع «المقومات» الأخرى فى عملية التوحيد، التى تدخل فى عدادها التحالفات والزيجات.

ومن هذا المنظور، لاتعكس الإزدواجية الانقسام إلى أرضين ومملكتين منفصلتين، يقف على رأس كل منهما زعيم قوى ومحارب، ولكنها «مبدأ» متأصل فى الوجه القبلى (صعيد مصر) طبق على البلاد بأسرها بعد أن أضيفت له رموز جديدة جديرة باستيعاب فكرة غزو الشمال راجع (Otto. 1938 Bonhême et Forgeau, 1988, 101 et sq.).

وفى هذا السياق اين تتموضع وحدة البلاد السياسية ومن هو أول ملك تربع على عرش مصر؟

استناداً إلى التقاليد المتواترة يبدأ التاريخ مع «مينا» وتعتبر صلاية «نعرمر» أول وثيقة مكتوبة تحيطنا علما بملك للجنوب يُخضع الشمال.

أيعنى ذلك ان المعادلة مينا = نعرمر = أول ملك على مصر الموحدة، هى على هذا القدر من الوضوح؟ وفى هذا الصدد يتساءل «كايزر» Kaiser، إن كان ثمه تاريخ يحتفظ بتقليد شفهى متواتر، قد وجد قبل ان يحدد المؤرخون الرسميون مجرى الأحداث؟

إن تحليل المصادر التى نبعت منها التقاليد المتواترة المصرية والكلاسيكية مقارنة بالوثائق المعاصرة لعملية الوحدة، لايدع مجالا للشك فى وجود العديد من أجيال الملوك قبل الأسرة الأولى.

لقد وصلنا التعاقب الجزئى لملوك مصر بفضل حجر بالرمو وبردية تورين والقوائم الملكية التى تعود إلى الدولة الحديثة وشذرات تاريخ مانتون. ولأكثر من مرة يرد اسم مينا على أنه أول هؤلاء الملوك. ومع ذلك، فإن بعض الأحداث قد سبقته، حسبما ورد فى وثيقة تورين وتاريخ مانتون: إن سلسلة من الأسرات شبه الإلهية قد تسللت فيما بين حكم الآلهة وحكم مينا، والمقصود بذلك «أتباع[١٣] حورس، الذين نصادف اسمهم فى حجر بالرمو وفى النصوص التى تعود إلى عهود لاحقة. (Von Beckerath, 1956. Kaiser, 1959, 1960, 1961, 1964). وربما كانت الأصداء الخافتة لتقاليد شفوية متواترة موغلة فى القدم.

فلنمعن النظر الآن فى الوثائق المعاصرة لمرحلة التوحيد. إن أشكال الـ «سرخ»، هذه المستطيلات المظللة على هيئة واجهة القصر، قد استخدمت منذ المدعو «قع» فى كتابة الاسماء الملكية، وهو «الاسم الحورى، الذائع الصيت، أول أسماء الألقاب الملكية[١٤]. وقد ظهر الـ «سرخ» ، محفوراً أو مرسوماً على بعض الطرز النوعية من الأوانى الفخارية، منذ بداية نقادة الثالثة ب IIIb، وهى خالية أحيانا من أى تدوين، أو أضيف لها أحيانا أخرى، كلمة

غير مقروءة ربما تدل على صاحب الإناء أو مصدره. ان تصنيف الأوانى الخزفية تصنيفاً تيبولوجياً (وفقا لتتابع الطرز) بدءاً من الأنماط الأقرب إلى نقادة وصولاً إلى تلك التى لا نجدها إلا فى العصر اللاحق، قد أتاحت لـ «كايزر» Kaiser (1964 - 1982) ان يرتب أشكال الـ «سرخ» واسماء الملوك. مع مراعاة تتابعها الزمنى (شكل ١٥). وأمكن التمييز بين آفاق (مستويات) ثلاثة: الأفق أ A يصور الـ «سرخ» بلامدونات، وان كان يعلوه فى الغالب الصقر المزنوج. ومع الأفق ب B بدأ يظهر المدعو «إرى – حور» (Kaiser U. Dreyer, 1982) ثم «قع» و «نعرمر» وأخيرا يبدأ الأفق حـ C باسم «عحا». وهكذا ترتسم المتتالية «إرى حور – قع – نعرمر – عحا» التى تؤكدها دراسة التطور المعمارى لمقابر الجبانة B فى أبيدوس (Kaiser u. Dreyer 1982. Dreyer, 1990). وهنا، وبعد استبعاد «إرى – حور» الذى يظل وجوده مشكوكاً فيه، نجد أن لكل واحد من هذه الشخصيات دفنته الخاصة.

وبعد كل ما قلناه، أين «مينا» إذن، من كل هذا؟

ان البحث المشروع لإيجاد توافق بين المصدرين قد قاد الباحثين إلى اقتراح حلول مختلفة. فقد رُئى أن **مينا ونعرمر أو مينا والملك العقرب شخص واحد. أو تم إدماج الثلاثة فى شخص واحد: مينا - نعرمر - العقرب**. ومع ذلك، فان قراءة المجموعة الهيروغليفية «من» على عدد من اللوحات العاجية الصغيرة باسم الملك «عحا» (Kaiser U. Dreyer, 1982. Pl. 57 c) وكسفة طبق (de Cenival, 1981, 13)، قد أدت إلى الأخذ بالمعادلة «مينا - عحا». ولربما توقف الأمر عند هذا الحد، لولا ما أبداه بعض الباحثين من تحفظات ملحوظة حول الإقرار بان اسم «مينا» ذاته، كان هو المدون ضمن المجموعة «من».. ولما كانت هذه المجموعة الأخيرة، قد وردت على وثائق أخرى، فقد أصبح لزاماً علينا أن نقر بوجود أكثر من «مينا»، على حد ملاحظة «ڤيكانتيف» Vikentief (1942) بل لقد ذهب «ديرشان» P. Derchain (1966) إلى ابعد من ذلك، وتبنى موقفا أكثر تطرفا، عندما أنكر وجود هذا الملك من أساسه. وكان يرى أن المجموعة «من»، هى أشبه بالعبارة التى تشير إلى الشخص الذى تقام من أجله المراسم الشعائرية فى الطقوس الدينية: وترادف عبارتنا المعاصرة: «زيد من الناس» أو «السيد فلان» التى نترجمها فى المعتاد بعبارة «أحدهم» أو «أحد الناس». ولما تعذر على كتبة الدولة الحديثة قراءة الاسم الوارد فى القوائم القديمة فقد ذكروا محله «من» بمعنى «أحدهم» أو «أحد الناس»، وقد ثبتت هذه الكلمة فى صورة «منى»، وهو الاسم الذى نصادفه فى القوائم الملكية للدولة الحديث، وتبنى «ڤيركوتير» نفس الموقف المتطرف J. Vercoutter (1990)، وهو يشير إلى وجود العديد من الأشياء الصغيرة التى عثر عليها فى معبد من الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ – ١٣١٤ قبل الميلاد) مكرس للإله «آمون»، فى صاى، فى السودان، وقد نقش اسم «منى» الذى قد يعتبر تصحيفاً لاسم الإله «آمون». ألا يمكن إذن أن يكون

فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، الذين كان «أمون» هو إلههم المفضل، قد حولوا اسمه إلى «منى»، ككتابة رمزية تشبه الشفرة، ليجعلوا منه أول ملوك الفراعنة؟ ويخلص «ڤيركوتير» إلى انه «أيا كان الأمر، وسواء كان ذلك تأويلاً توصل إليه الكتبة، أو إبتكارا ظهر فى الدولة الحديثة، فانه يبدو من الواضح أن «مينا» لم يوجد قط، وأنه من العبث ان نبحث عن اسمه على آثار الأسرة الأولى. ولكن، لا «ويلدونج» Wildung (1969) ولا «لورتون» Lorton (1987) يأخذان بهذا الرأى.

وسواء أكان «مينا» شخصية أسطورية أم أنه يتخفى وراء إحدى التسميات المبهمة، تظل المشكلة منحصرة فى معرفة مَن مِن ملوك مصر الأوائل الذين وصلتنا اسماؤهم، فى صورة لقبهم **الحورى** قد اقام عاصمته فى «ثنى» وأسس «منف»، وهو ما فعله «مينا» على حد قول التقليد المتواتر ومن ثم يمكن النظر اليه باعتباره أول ملوك الأسرة الأولى.

ويستجيب «قع» و «نعرمر» و «عحا»، لهذا الحل المقترح وذاك، نظراً إلى أن لهم دفنة فى أبيدوس وان اسمهم بدءاً من «قع» قد ثبت وجوده على الأشياء التى جادت بها جبانات القطاع المنفى فى طره وطرخان وحلوان. ولكن بدأ استخدام جبانة سقارة فى عهد «عحا» أى «المحارب». وأخيراً فقد كان هو، أول من أرخ لسنوات حكمه بأحداث بارزة. إن إدخال هذه «المذكرة التاريخية» الأولى – على افتراض أنها لم تعرف من قبل – بالإضافة إلى استخدام الجبانة المنفية الكبرى ووجود المجموعة «من» على لوحات «عحا» الصغيرة، لتفسر وجود هذا الملك على رأس القوائم المتوفرة فى الوقت الراهن.

وهنا يطرح سؤال جديد: حول توحيد الأرضين، وهو موضوع لا يدخل ضمن تعريف الملك الأول للأسرة الأولى. ويخبرنا التقليد المتواتر أن «مينا» هو أول ملوك الأسرات الملكية من البشر وأنه أسس منف، ولكن لم يرد انه وحد الأرضين. لقد أضيفت هذه الفرضية، كبديهية، حيث ان تأسيس منف قد حدث فى إطار غزو الشمال. ومع ذلك، فإذا أخذنا بالإفتراض القائل بأن «عحا» قد يكون أول ملوك الأسرة الأولى، فإننا نلاحظ أن أربعة ملوك على الأقل قد سبقوه، وهم: «نعرمر» و «قع» و «إرى – حور» و «العقرب». ولا شك بكل تاكيد أن «نعرمر» قد تربع على عرش بلد موحد. أما «العقرب»، فإن تحليل رأس مقمعته المشهور (شكل ١٦) – ولم يبق منه للأسف سوى بعض الكسف – لا يترك مجالاً يذكر، سوى لاحتمال أنه يعبر عن ثنائية النظام الملكى. وبالفعل يظهر الملك بالقامة التى تتفق ومكانته فى التراتب الاجتماعى، وطبقا للأعراف التى كانت قد استقرت، وهو يرتدى الشارات التقليدية، ويقف عند شاطىء ترعة ويقبض بيديه على معول، أمام حمَّالين: احدهما يحمل قفة والآخر حزمة نبات. ويتقدمه حملة الألوية، فى حين يقف وراء ظهره شخصان يحملان مروحتين. وأمام وجهه، علامتان متراكبتان، الوُرَيْدة والعقرب، وقد

قرأهما البعض «الملك العقرب». والشيء الملفت للنظر، أن جميع الكشوفات الألمانية الحديثة فى أبيدوس تميل إلى النظر إلى كلمة «العقرب» باعتبارها لقبا وليست اسم علم. وتوجد خلف هذه المجموعة نباتات الوجه البحرى، ثم يأتى الراقصون (؟) والأشخاص المحمولون على محفات ويتبعهم رجل يحمل عصا يتجه إلى الناحية الأخرى، جهة الجزء المهشم من الزخرف وحيث كانت توجد على ما يظن صورة العاهل الملكى مرتدياً التاج الأحمر. وفى الجهة العلوية، نشاهد الطيور «رخيت» تتدلى من الألوية – وهى لا ترمز بالقطع للوجه البحرى – (Kaiser, 1964, 91 n3)، كما ساد الإعتقاد لفترة طويلة، بل إنها تمثل الشعوب المهزومة. وفى الجانب الأسفل يوجد صف هشم جزء منه، يوضح ثلاثة أشخاص بجوار فرع ترعة، ويقبض أحدهم بيديه على معول، وبجوارهم شجرة نخيل خلف سياج أو بالإحرى عند حافة حقل مروى، ومقدمة مركب وبناية سقفها مقبب، وهى مماثلة لتلك التى توجد على صلاية الصيد، التى كانت تعتبر معبداً، أى الهيكل «پر - نو» للوجه البحرى. وإذا وضعنا هذا الفعل فى سياق إطاره الدينى والإحتفالى، ولما كان ينبع من الموضوع الأولى للفرعون المنتصر، ففى إمكاننا أن نفسره على أنه من أعمال الرى. ومع ذلك، فأيا كان الشكل الذى يتخذه الخطاب: فعل الضرب أو فعل الرى أو احتفال اليوبيل، كما هو الحال على سطح رأس مقمعة «نعرمر» (Helck, 1987. Millet, 1990)، فإنه يشكل جزءاً لا يتجزأ من مفهوم الإنتصار وفقا للفقرات الرئيسية التى تظل على حالها، من وثيقة إلى أخرى.

أيعنى ذلك أن «العقرب» كان أول من تربع على عرش مصر الموحدة؟ وإذ يعود «كايزر» W. Kaiser إلى دراسة مصادر التقاليد المتواترة دراسة ثاقبة، فإنه يقترح أن ينظر إلى «أتباع حورس» المذكورين فى بردية تورين باعتبارهم ملوك ما قبل الأسرات وفقاً لتقاليد شفوية تواترت واحتفظت بهم النصوص على ما يعتقد فى ذاكرتها. إن وحدة الثقافة النقادية تكفى للبرهنة على أن حكمهم قد امتد ليشمل أرض مصر بأسرها. ومع ذلك، يخفف «تريجر» Trigger (1987) من هذا الرأى، إذ يذهب إلى أنه لا يوجد شيء قبل المقابر الضخمة الأولى التى تعود إلى أواخر نقادة الثالثة يسمح بالتحقق من وجود ملوك حقيقيين. وإذا تجنبنا إنكار أهمية النقاش، فالحق يقال، أنه لا يمكن تقييم الحدث إلا بالأصداء التى ترددها عنه. فالقول بأن بعض صغار الملوك كانوا على قدر من القوة بحيث أمكنهم أن يلموا شمل البلاد، على فترات متفرقة، ويخضعوها لسلطانهم، قد غدا أمراً ممكناً منذ النصف الثانى من نقادة الثانية. وأن يظهر ملوك يتحلون بما يكفى من قوة وبشخصية آسرة، وأن يجمعوا حول شخصهم مجمل الرموز التى بفضلها، وهم مؤسسو النظام الملكى، سيصبحون الضامنين لنظام الكون، الساهرين عليه، فإن ذلك لأمر مؤكد، ومنذ عهد «العقرب» على أقل تقدير.

ومن هذا المنظور، تعكس صلاية «نعرمر» سياقاً سبق أن تشكل بالكامل ويبدو بالأحرى أشبه بتحفة تعبر عن الوحدة أكثر من كونها ترجمة لعملية التوحيد إنها تؤكد على «ضرب الوجه البحرى» تماماً كما أن مدونة «خع سخم»[١٥] سوف تؤكد على نفس الشيء فى وقت لاحق، بعد انقضاء مائتى سنة تقريباً. إنها أول شاهد معروف للتعبير العنيف الذى عبرت من خلاله ظاهرة كانت مكتملة منذ عهد بعيد: ظاهرة استيعاب وتمثل ثقافات الشمال من قبل الثقافة النقادية.

هوامش الفصل الثامن

(١) راجع المرجع السابق: المعجم الوجيز. ص ٢٠٥ (المترجم).

(٢) حول مختلف اسماء هذه المدينة والمدن الأخرى الواردة فى الفقرات التالية راجع خريطة مصر ضمن الملاحق فى أخر الكتاب وأيضا المرجع السابق: المعجم الوجيز ص ٣٠٥ و ٣٠٩ (المترجم).

(٣) نسبة إلى معادن الكربونات (المترجم)

(٤) شبيه المعيّن rhomboïde: متوازى الأضلاع ، غير متساوى الأضلاع المتجاورة. أما المعيّن فهو متوازى أضلاع، أضلاعه الأربعة متساوية وقطراه متعامدان (المترجم).

(٥) مدينة أثرية فى بلاد الرافدين (المترجم).

(٦) وبتوسط القاعة ٤٣ من الطابق الأرضى من المتحف المصرى بالقاهرة (المترجم).

(٧) راجع المرجع السابق: المعجم الوجيز ص ٦ (المترجم).

(٨) حيوان مفترس: ولَد الذئب من الضبع. (المعجم الوسيط) (المترجم).

(٩) وهى من مقتنيات متحف القاهرة، ويطلق عليها الدكتور عبد العزيز صالح صلاية الحصون والغنائم. حضارة مصر القديمة وآثارها ١٩٨٠. د . ن . ص ٢٢٠ (المترجم).

(١٠) راجع المرجع السابق: المعجم الوجيز ص . ٣٠٩ (المترجم).

(١١) المرجع السابق ص ٢٠٥ (المترجم).

(١٢) الإيقونوغرافيا: هى قائمة الموضوعات التى تُعنى بها حضارة من الحضارات أو يشغل بها عهد من العهود أو يعالجها فنان من الفنانين. د. ثروت عكاشة. معجم المصطلحات الثقافية. مكتبة لبنان ١٩٩٠ (المترجم).

(١٣) «شمسو» باللغة المصرية القديمة، ومنها كلمة شماس فى الكنيسة القبطية. راجع المرجع السابق: المعجم الوجيز ص ٢٢٤ (المتر).

(١٤) راجع المرجع السابق: المعجم الوجيز: ص ٢٨٢ – ٢٨٣ (المترجم).

(١٥) من ملوك الأسرة الثانية (المترجم).

الخاتمة

أكثر من أى وقت مضى، تخضع دراسة مصر فى عصر ماقبل الأسرات للتطور السريع الذى تشهده مختلف الأبحاث.

وأكثر من أى وقت مضى، فإن حصة الكشوف التى جادت بها السنوات الثلاثون الأخيرة[١]، قد أوجبت إعادة النظر فى العديد من النقاط وتضمنت ترك عدد من النقاط معلقة، نتيجة لذلك...

بدءاً من التكيف مع البيئة النيلية وحتى بزوغ الفراعنة الأوائل، فإن اعتماد اقتصاد قائم على الإنتاج، لم يكن له مثيل فى التسارع المنقطع النظير إبان الألف الرابع. ومازلنا أيضا بعيدين كل البعد، عن إدراك كافة مكونات ووقائع هذه اللخطات الكبيرة، بكل تعقيداتها وتشابكاتها.

وعندما سيكون هذا النص تحت الطبع، سوف تسجل المعامل عمليات تأريخ جديدة. كما ان الأبحاث التى تقوم بها هذه المؤسسات أو تلك، العاملة على أرض الواقع سوف تميط اللثام عن مجموعات جديدة ستؤكد أو تعدل أو تدحض المعطيات التى سبق التوصل إليها.

ولكن المقترحات على صعيد المفاهيم سوف تبدل من نظرة الباحثين ذاتهم، فى العديد من النقاط . فلا أحد يفلت من مبدأ الممكن التاريخى.

لقد ولدت دراسة عصور ما قبل التاريخ فى مصر فى القرن التاسع عشر، هذا القرن الذى كان يؤمن «بنظرية هجرة الشعوب»، حيث كان لمفهوم «الجنس أو العرق» race[٢] معنى بات مرفوضاً اليوم. وهكذا، كان لكل تغيير ذى بال، وكل قطيعة مادية صدى أنثروپولوجيى. هذا هو «جنس الأسرات» Dynastie Race وفقا لما ذهب إليه «ديّرى»، القائم أساساً على دراسة الجماجم.

ويقودنا ذلك إلى استدعاء قضية الأنثروپولوچيا الفيزيقية[٣] إلى الأذهان، والتى اخترنا على امتداد سطور هذا الكتاب ان نلتزم إزاءها الصمت التام.

إذ يبقى علينا أن نفعل كل شىء فى مجال على قدر كبير من الحساسية ويحتاج فى نفس الوقت إلى حسم. وقد أثار هذا المجال ومازال يثير الكثير من الكلام الحماسى. (لقد قام «ڤيركوتير» بتلخيص الأطروحات السائدة حول إعمار مصر J. Vercoutter, 1978).

منذ بداية هذا التخصص العلمى، وعند المصدر ذاته لكشوفات «پترى» Petrie، توجد

آلاف الهياكل العظمية التى أخرجت من دفناتها وكانت فى مجملها – موضوع دراسات «مورفوميترية»(١٩) morphomètrique. وكانت جميع التحليلات ترمى إذاً إلى البحث عن أنماط فيزيقية ثابتة خليقة بأن تحدد جنساً أو عرقاً ما. وهو مفهوم موضع جدال فى الوقت الراهن.

وفى الحقيقة ترتكز مثل هذه المعالجة على فرضية مزدوجة:

– الصفة التمثيلية للعينة بالمقارنة مع السكان محل الدراسة.

– ثبات الملامح الفيزيقية النمطية التى تكشف عن نفسها على هيئة «مسجل ملامح» تظل دون تغيير على امتداد مرحلة زمنية ممتدة، فتبقى هى هى اليوم، كما كانت عليه بالأمس.

وعلى العكس، تميل الأبحاث الحديثة إلى إثبات أن كل ممارسة جنائزية تدخل إنحرافا على السكان الإصليين (Crubezy, 1991) وتطرح السؤال التالى (Greene, 1981): هل تعتبر القرابات المورفولوجية إنعكاسا لقرابات وراثية؟ أيوجد بالفعل وصف نمطى يحدد الإختلافات بين الشعوب ويشكل جنساً أو عرقاً؟ وتوضح الحقائق البينة ان الملاحظات النمطية هى إرث لمسارات معقدة ومتعددة العناصر الوراثية، تلعب فيها البيئة دوراً مؤثراً جنبا إلى جنب مع النمط الجينى genotype خلال نمو وتطور الفرد. ويمكن للجماعات البشرية، فى المناطق الجغرافية المعنية، أن تتطور تطوراً مماثلا، بحيث تظهر عليها مجموعة من السمات القادرة على الوصول إلى عملية تصنيف «جنس» (عرق). ولكن «الجنس» مفهوم مجرد. والقضية مطروحة بالأحرى بعبارات التماثل البيولوجى وتفتح مجالات فى البحث والاستقصاءات فى اتجاه الأبحاث الكيمائية الحيوية biochimiques.

وفيما يتعلق بالبقايا العظمية، وإذ تم استبعاد النمط الثابت الجامد الجنسى (العرقى)، تصبح المعالجة استقرائية(٥) inductive ولم يعد الباحث ينظر إلى العظام كموضوع دراسة فى حد ذاتها، ولكن باعتبارها عناصر مركزية فى الممارسات الجنائزية.

ويسجل «كروبيزى» و«جانين» (Crubezy et Janin (1992 : 21 الملاحظة التالية: «كل مقاربة ومعالجة للدفنات ينبغى أن تبدأ بمقارنة ديناميكية (انثروبولوجيا على أرض الواقع) تتصدرها إعادة التشكيل المقترنة بالإيماءات الجنائزية والتشوهات التى حددتها العناصر «التافونومية» Taphonomique (مجموع القواعد التى تضمن الحفظ) بالنظر إلى التنسيق الأولى للمقبرة. وبمقابلتها بغيرها من المعطيات الأركيولوجية، فإنها تتيح إذاً مناقشة مجموع الممارسات ودلالتها باعتبار أنها انعكاس للإيديولوجيا والبنية الإجتماعية الإقتصادية للجماعة (Duday et Sellier, 1990) وبعد ذلك، فإن تحليلا انثروبولوجيا، إذ يأخذ

فى الحسبان المعطيات الديموغرافية، والبحث عن روابط عائلية محتملة بين الأفراد، ومعطيات علم أمراض العصور القديمة، فى محور علم الأوبئة، سوف يساعد هذا التحليل بتحديد انتقاء الموقع والقطاعات التى يتم التنقيب فيها. وعندئذ، يمكن اقتراح تأويل بالإيثنولوجى (على حد قول » لوروا – جورهان» (A . Leroi - Gourhan)، ويصبح إذن فى الإمكان محاولة عقد مقارنات محتملة بين الشعوب.. وفى إطار هذا المنظور تندرج الدراسة الحديثة، العظيمة الشأن حول البقايا الآدمية فى جبانة نجع الدير (Podzorski, 1990).

لما كان وادى النيل معلقاً على الركن الشمالى الشرقى من القارة الافريقية، فقد أكد منذ البداية أنه إقليم ثقافى ينتمى إلى مجموعة أكثر شمولاً.

وعلى عكس ما ذهب إليه «ڤينيار» Vignard، لقد وجد أنه منخرط فى خضم ديناميكية التيارات الثقافية الكبرى، ولكنه طبع البشر بطبيعته القوية، هؤلاء البشر الذين عاشوا تحت رحمة التقلبات المناخية، فاختاروا ان يحطوا الرحال فيه. ان هيدرولوجيا(٦) الوادى الفريدة قد شجعت على ايجاد شكل من إشغال الأرض شديد الخصوصية، واستغلال للبيئة يتوافق مع التوازن الإيكولوجى: اى التكيف مع البيئة النيلية. وهكذا شاهدنا جماعات تمارس الصيد النهرى وصيد البر والتقاط الطعام، وقد ملكوا ناصية الإمكانيات الرائعة لمجموعة من الالات الخفيفة ذات الفاعلية المتعاظمة – نعنى بذلك الآلات الحجرية القزمية – شاهدناها تحط الرحال على هيئة وحدات محدودة، عند مصبات الوديان، أو عند شاطىء بحيرة، لم يبق منها الآن سوى حفرية، ولكنها كانت تغمرها المياه أنذاك بصفة دورية. فتستغل هذه الجماعات محياها الغنى. وبعد أن تكون قد مارست الصيد النهرى فى المياه العميقة خلال أشهر الفيضان، كانت تضيق الخناق على أسماك المستنقعات، عند انحسار المياه، وتمارس التقاط الطعام وصيد القَنَص الكبير الذى كان يتجول على ما يظن فى السهل الغرينى. ألا نجد فى هذه اللوحة للتكيف مع البيئة النيلية الإرهاصات البعيدة لفصول السنة الثلاثة عند المصريين؟ الفيضان: *آخت* وانحسار المياه: **پرت** والقيظ أو الجو الحار: **شمو**(٧)، كانت هذه الجماعات تتحرك وتتنقل فى أرض ضيقة ومحدودة بحكم الضرورة، فعرفت كيف تطور طائفة من الإيماءات ومفهوماً جمعياً وتصورا للجماعة، تشهد عليها فى أن واحد عودتها المنتظمة واستخدام التخزين.

وفى هذا المناخ «القائم على علاقات من الود والتفاهم والتآلف، لم يشكل الأخذ بإقتصاد قائم على الإنتاج ضرورة ملحة...

ولكن أخذت الطبيعة على عاتقها، أن تقلب رأساً على عقب، التوازن الذى سبق لها أن أزرته كل المؤازرة.

إن الموجة الجافة التى بدأت حول ٦٠٠٠ / ٥٥٠٠ قبل الميلاد قد دفعت الجماعات البشرية حاملة الأوانى الخزفية - والتى ربما كانت قد عرفت الرعى - دفعتها فى اتجاه الوادى قادمة من شرق الصحراء الكبرى ومن الصحراء الشرقية. وتفتحت فى شمال السودان اتجاهات تكنولوجية جديدة فى قطع الحجر وأولى الأوانى الفخارية فى المنطقة، وذلك على خلفية خواتيم العصر الحجرى القديم لتقاليد الجندل المتواترة. وفعلت ما فعلت متجاهلة كل ما كان يدور آنذاك فى الوادى، ودون أن يظهر أى اتجاه إلى حياة الإستقرار sédentarisme أو استئناس النبات أو الحيوان. وإلى الجنوب قليلا، وفى منطقة الخرطوم، كان تشكل العصر الحجرى الحديث قد بدأ فى الظهور منذ الألف الثامن قبل الميلاد، وفى هذه المنطقة، ووسط جماعات بشرية تمارس الصيد النهرى والصيد البرى وجمع الطعام، وتعيش حياة الإستقرار فى أضيق الحدود صنعت هنا أولى الأوانى الفخارية فى الوادى. وكان علينا أن ننتظر الألف الخامس حتى تظهر أولى البقايا الواضحة للعيان لمواقع عصر الحجرى الحديث فى القطاع المصرى من النيل: فقد ادمجت كل من الفيوم ومرمدة بنى سلامة النوعين المستأنس والمزروع، وجمعت بينهما.

ولكن لاشك، أن الجنوب، فى الوجه القبلى، هو الذى سوف يشهد، قرب نهاية الألف الخامس تكوين، إن لم يكن أساس الحضارة الفرعونية، فعلى الأقل أحد مكوناتها الرئيسية. فمع ثقافة البدارى - العمرة ظهر فن المعادن و «الموت». ان هؤلاء الرعاة المزارعين الذين مازالوا مرتبطين ارتباطاً وثيقا باقتصاد يتسع مجال نشاطه فى المقام الأول لصيد النهر وصيد البر ، سوف يعرفون كيف يستغلون نطاقا واسعاً من النسق البيئى écosystème، بدءاً من مناطق الوديان التى مازالت تعرف بصفة منتظمة مناخاً رطباً وحتى شطآن النهر الضيقة إلى حد ما. **ومن المقابر ومن التقدمات، تظهر بجلاء صورة مجتمع، سجل على امتداد ما يقارب خمسمائة سنة من الوجود، تنوعا ملحوظا (أشياء نوعية فى مقابر نوعية) وتراتبية اجتماعية هرمية (تراكم الخيرات والثروات فى مقابر تميل إلى زيادة أحجامها). وهما نزعتان سوف تبرزان أكثر ويتعاظم دورهما فى المرحلة اللاحقة مع «توسع وازدهار» ثقافة جرزة.**

وفى الشمال، وسط المشاهد الطبيعية للوجه البحرى، تطورت إبان مجمل مرحلة البدارى - العمرة، ثقافات حياة الإستقرار، مدعمة بالمزارعين الرعاة المتصلة اتصالاً وثيقاً بالشرق الأدنى. عندئذ، اكتسبت المعادى وبوتو صفة المكان المحورى الذى تتسرب عبر بوابته المنتجات الأسيوية إلى الوجه القبلى. وإذا كان الأمر منحصراً إبان الطور الأول من نقادة فى أضيق الحدود وبالتدريج، فقد اكتسبت العلاقات منحىً أكثر وضوحاً فى المرحلة اللاحقة التى ربما لم تكن ثقافة المعادى بعيدة كل البعد عن نشأة هذه الأخيرة. ولما كانت

ثقافة جرزة قد انبثقت من رصيد البدارى - العمرة، بملمحها «الإفريقى»، وقاع آنيتها المسطح فى المعتاد، ومقابضها المتموجة وزخارفها الأصيلة، فإنها «تميل» أكثر ناحية الشمال منها إلى الجنوب. ففى هذه المنطقه، أخذت الحياة تتركز آنذاك على امتداد النهر. فبعد أن هجرت الجماعات البشرية لأسباب بيئيه، ضفاف الوديان بعد أن أضحت موحشة **أخذت تتجمع فى الشريط الضيق من السهل الغرينى. وبعد أن كان الإقتصاد رعويا أصبح زراعيا فى المقام الأول. وبعد ان كان الموئل مبعثرا أخذ يتجمع. ولكن هذا التجميع لم يكن تجميعا ماديا فحسب، بل إنه يعكس أيضا انبثاق طبقة اجتماعية مسيطرة، تستهلك منتجات ترفية، وقد تفرغت بالكامل للتحكم فى المواد الأولية. ومع ازدهار العمل الحرفى الرفيع المستوى، أصبح واجبا على المجتمع النقادى أن يستوعب بين ظهرانيه مجموعة تزداد عددا من غير المنتجين فى إطار أرض محدودة، يتطلع إليها الفلاح بالحاح وإصرار متزايدين. ومن ثم ولأول مرة، سوف يتدخل الإنسان فى التحكم فى النهر، ويقحم نفسه فى التوازن الألفى لتكيف البيئة النيلية: وهنا سيقوم الإنسان بأعمال الرى. إن عملية التدخل هذه سوف تكتسب بعدا قيميا «للسلطة»، من خلال الإيماءة الرمزية للملك «العقرب».**

وسوف تزحف الموجة النقادية مكتسحة كل شىء ولا يقاومها شىء.

والتقت فى اتجاه الشمال على ما يرجح بهذه الجماعات البشرية فى مصر الوسطى، المنتسبة إلى دائرة ثقافة المعادى والتى كانت تكون ما يشبه المنطقة العازلة بين ما يمكن أن يطلق عليه «**المصران**» (مثنى مصر) أو «**القطران**» إن هذا الاكتساح الذى كان يهدف إلى الإشراف على تجارة المواد الأولية ومراقبتها، لم يحدث دون صدام. **ولكن لايوجد شىء يبرهن على أنه قد تحول أبدا فى لحظة ما، إلى شكل من أشكال حروب الغزو أو الفتح. وعلى العكس من ذلك، فلا ينبغى استبعاد التحالفات والزيجات...**

وفى المقابل فقد كان النقاديون، فى اتجاه الجنوب، يتمتعون بتحالف جليل الفائدة: إنهم ابناء المجموعة أ Groupe A، رجال الجنوب هؤلاء الذين عاشوا على امتداد التاريخ، شأنهم شأن ملوك الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية، دون أن يعتريهم أبداً هذا الإحساس بالغربة فى هذا القسم من الوادى القائم إلى الشمال من الجندل الأول. وفى وقت لاحق، مع ذلك، وفى ظل الأسرة الأولى، ستصبح للرغبة فى الوصول مباشرة إلى المنتجات النفيسة، اليد الطولى، فى بلد يعرف تراتبيه اجتماعية متدرجة، تهيمن عليه صورة الفرعون المنتصر. ولن تخرج المجموعة أ من كل ذلك سالمة وهى على قيد الحياة. إذ سوف تتولى الجيوش الملكية تأمين سلامة الطرق الجنوبية...

وإذا كان هناك من اعتقدوا للحظة ما، أن مصر الفرعونية كان فى إمكانها أن تنبعث من

الرمال على وجه التحديد مع مطلع الألف الثالث، فسرعان ما اكتشفوا، مع كشوفات بترى Petrie، وجود عملية مخاض، أخطأ العلماء فى تقدير مدتها. وبالإضافة إلى ذلك، كانوا يتأففون من النظر إلى ابناء العصر الحجرى الحديث المقيمين على ضفاف نهر النيل على أنهم الأجداد الأقدمون لأخلافهم الألمعيين. وكان الطريق الأسيوى ينفتح على ماض أكثر إجلالا ومجدا... ومع ذلك، فان الحضارة المصرية هى حضارة نقادية فى صميمها. وفيما وراء هذا الماضى «المباشر ذاته»، نجد أن هؤلاء القوم من ابناء العصر الحجرى القديم الذين مارسوا صيد البر و صيد النهر . وجمع الطعام، قد مهدوا لهذه الحضارة على طريقتهم، قبل عشرين ألف سنة من إيماءة الملك «العقرب»، عندما و ضعوا أساس حياة جماعية قائمة على التكيف مع النهر، فقد حددوا الإطار الذى جاءت مقومات تشكل العصر الحجرى الحديث لتاخذ مكانها فيه، ثم حل العصر الحجرى الحديث، بانتصار الإنتاج المتكيف مع الإيراد الخاص لنهر النيل وتصريفه. ومن كل ذلك، سوف ينبثق فى الألف الرابع الجهاز الاجتماعى والأيديولوجى الذى ستنشأ عنه الحضارة الفرعونية، كما تتكشف لنا من خلال عمائرها وآثارها و صورها ونصوصها.

هوامش الخاتمة

(١) صدر الكتاب فى طبعته الفرنسية عام ١٩٩٢ (المترجم).

(٢) يشير الاستخدام الشائع لهذا المصطلح إلى مجموعة من الناس الذين يشتركون فى بعض السمات الفيزيقية ويشكلون وحدة سكانية متميزة... والمصطلح بهذا المعنى ليس صحيحاً من الناحية العلمية... شارلوت سيمور سميث. موسوعة علم الإنسان الترجمة بإشراف د. محمد الجوهرى. المجلس الأعلى للثقافة. ١٩٩٨. ص ٥٠٤ (المترجم).

(٣) لمزيد من التفاصيل راجع المرجع السابق: موسوعة علم الإنسان ص ١٥٢ - ١٥٤ (المترجم)

(٤) أى قياس الشكل أو الاشكال (المترجم).

(٥) الاستقراء : التوصل إلى الحكم الكلى أو العام انطلاقا من معرفة الجزئيات (المترجم).

(٦) هو علم المياه ويعنى بدراسة الظاهرات المائية للأنهار والبحيرات والآبار والمياه الجوفية فيما يتصل باستخداماتها وضبطها وصيانتها (المترجم*).

(٧) راجع المرجع السابق: المعجم الوجيز ص ص ٣٦ - ٩٦ - ٢٢٤ (المترجم).

تذييـــل

مشاكل التسلسل الزمنى

أولاً : التسلسل الزمني النسبى والأنساق التقليدية

يشكل نسق التتابع الزمنى Sequence Dates (S.D) كما حدده «بترى» Petrie أول محاولة لرسم التسلسل الزمنى لعصر ما قبل الاسرات.

لقد تم صياغته إنطلاقا من ٩٠٠ مقبرة من بلدتى هو والأبعادية (Petrie, 1901, 4 - 12)، ويعتمد على ترتيب المادة التى سبق تصنيفها فى بطاقات، تم توزيعها على مجموعات وفقاً لنسق محدد.

وتوصل بالتالى إلى تسعة أنماط من الأوانى الفخارية ثم تحديدها على أساس الشكل والزخارف التى تزين سطوحها. إن الحدس العبقرى الذى ألهم «بترى» قد قاده إلى اكتشاف أن الأوانى ذات المقابض المتموجة تتطور بدءاً من الأشكال الكروية ذات المقابض البارزة بروزاً واضحاً، وصولاً إلى الأشكال الأسطوانية التى لا تلعب فيها المقابض سوى دور زخرفى . ويكون هذا الإكتشاف العنصر الأساسى الذى انتظم من حوله مجمل التسلسل الزمنى للتتابع الزمنى S . D.

يتضح من هذا الجدل وجود خمسين مرحلة أو تتابعاً زمنياً، وقد استهل الترقيم بدءاً من ٣٠، ليترك فراغاً لما قد يستجد من ثقافات سابقة. وكان تحفظاً حكيماً من جانبه استفاد منه البدارى الذى كشف عنه «برونتون» G. Brunton فى وقت لاحق. إن مختلف مراحل هذا التتابع لا تربطها معايير متكافئة فيما بينها والمرجعية الزمنية الوحيدة من النمط المطلق يمثلها التتابع الزمنى ٧٩ / ٨٠ S. D 79 / 80: وهو تربع مينا على عرش البلاد حول عام ٣١٠٠ قبل الميلاد.

ونخلص من كل ذلك، إلى ثلاث وقائع بارزة تحدد ثلاث مراحل:

١ - ثقافة العمرة أو نقادة الأولى، وتشمل المراحل من ٣٠ إلى ٣٨ (S. D . 30 - 38) وهى مطابقة لأقصى تطور بلغته الأوانى الفخارية الحمراء ذات الشفة السوداء (الطراز B من طرز «بترى») والأوعية المزخرفة بمواضيعها المرسومة باللون الأبيض على خلفية حمراء (الطراز C من طرز «بترى»).

٢ – ثقافة جرزة أو نقادة الثانية، وتشمل المراحل من ٣٩ إلى ٦٠ (S . D . 39 - 60) ظهرت خلالها الأوانى الفخارية ذات المقابض المتموجة (الطراز W(١) من طرز «بترى») وقد الأوانى الخزفية المعروفة اصطلاحاً بالأوانى الخشنة (الطراز R (٢) من طرز «بترى»). والزخارف السمراء على خلفية غير ناصعة البياض (الطراز D (٣) من طرز «بترى»).

٣ – ونصل أخيرا إلى الطور الذى تمثله السمانية أو نقادة الثالثة من المرحلة ٦١ إلى المرحلة ٧٩/٨٠ (S . D . 61 - 79/80) وقد تطورت خلاله الأوانى الفخارية المعروفة اصطلاحا بالـ (الطراز L من (٤) طرز «بترى»)، لان اشكالها تذكرنا منذ هذه اللحظة بخزف عصر الاسرات، والذى يتحدد بوصول جنس اسيوى إلى مصر، هو «جنس الأسرات» والذى اضطلع بالقفزة الحضارية الكبرى(٥).

ومن الواضح كل الوضوح أن صلاحية مثل هذا النسق قائم على مصداقية مجموعة الأوانى الفخارية التى هى أساس هذا البنيان وعلى اتساق مختلف العمليات (ومجموعها ١٨ عملية) التى أدت إلى صياغة هذا النسق. ومن ناحية أخرى، ونظراً، لان هذا النسق قد تكون فى منطقة نقادة فإنه لا ينطبق بالضرورة على جبانات الشمال وجبانات النوبة. وقد رفض «يونكر» Junker و «شـارف» Scharff و «فيـرث» Firth و «ريـزنـر» Reisner ان يستخدموه.

ورغم ثغرات هذا النسق فقد ظل المرجع الوحيد المعمول به إلى أن وجهت إليه «ستوفن»(٦) Stufen «كايزر» W. Kaiser الضربة القاضية عام ١٩٥٧ !

ومع ذلك، ومنذ ١٩٤٢ كانت مجموعة «بترى» قد اعيد طرحها من جديد على بساط البحث، من جانب «والتر فيدرن» Walter Federn وأثار من حولها جدلاً عنيفا. و «فيدرن» من ابناء مدينة «فيينا» ومنفى إلى الولايات المتحدة. فعندما أراد إعداد وصف لأوانى مجموعة «مورجان» Morgan التى يحتفظ بها متحف «بروكلن» Brooklyn، اضطر أن يعيد النظر فى مجموعات «بترى» وفى الحقيقة، لم يؤد عمله إلى أى نشر من أى نوع، قبل ١٩٨١، عندما أشار إليه «نيدلر» W. Needler فى الـ JSSEA (٦). وهو لا يعتمد فقط على الأشكال والزخارف، دون سواها. ولكن أيضا على مختلف أنواع العجائن التى استخدمت فى صناعة الأوانى. إن إعادة الفحص التى تولاها «فريدن» قد ألفت مجموعتى L و F (٧) من مجموعات «بترى»، أى الأوانى الفخارية التى تعرف اصطلاحا بالمتأخرة (L) والأشكال المبهرجة (F) وتوصل إى ايجاد تباينات داخل المجموعات الأخرى أو استكملها.

ومع ذلك، فإن «كايزر» W.Kaiser هو الذى أخذ على عاتقه القيام بالعمل الأساسى فى

هذا الصدد. فبمناسبة أطروحة الدكتوراه التى تقدم بها لجامعة ميونيخ عاد إلى المادة الأساسية التى اعتمد عليها التتابع الزمنى S . D. وفحصها فحصاً لا يرحم.

وينتج من تحليله أن جميع الأنماط W(المقابض المتموجة) ذات الشكل المنتفخ (من W 1 إلى W 3) تثير قضايا عويصة. وسنكتفى فى هذا المجال ببعض الأمثلة توضيحاً لطابعها. وهكذا، فإن W 1 المصنف فى المرحلة ٤٠ SD 40 ، قد جاء فى حقيقة الأمر عن طريق الاقتناء! (وكما كانت «بومجارتل» Baumgartel قد لاحظت)، فإن النمط W 1g، المؤرخ بالمرحلة ٥٨ S. D. 58، يغطى فى واقع الأمر المراحل من ٥٨ إلى ٧٠ SD 58 - 70، كما تشهد على ذلك، المقبرة b 224 فى العمرة أما المقبرة المرجعية W 2a، فلم تنشر.

ويبدو بشكل عام، إنه عند تحليل القطع الخزفية، المنتفخة السبع عشرة التى تكون من W1 إلى W3 المراحل الثمانى الأولى من التتابع الزمنى لـ «بترى»، يتضح أنها أكثر تأخراً أو أحدث، وانها لا تظهر إلا فى المرحلة ٤٦ من التتابع الزمنى SD 46. ومن ثم، فإن الخزف ذا المقابض المتموجة الذائع الصيت لم يعد الحفرية المرشدة لنقادة الثانية، ولكنه يظهر بكل بساطة خلال تقدم هذا العصر، بصفته مجرد مظهر من مظاهر تطوره.

ومن هنا ظهرت الضرورة الملحة للتقدم باقتراح تسلسل زمنى جديد. وأخذ «كايزر» على عاتقه هذه المهمة من خلال استخدامه للجبانة 1500 /14 فى أرمنت، التى جرت فيها أعمال التنقيب فى الثلاثينات من القرن العشرين من قبل «موند» Mond و «مييرز» Myers. وظهر دفعة واحدة تطور للتسلل الزمنى الأفقى من المقابر المائة والسبعين المنشورة نشراً مدققاً: فالفخار ذو الشفة السوداء ينتشر فى الجنوب بكميات كبيرة. فى حين يتركز الفخار «المتأخر» جهة الشمال. إن تحليلاً ثاقباً لعملية التوزيع، الذى ظل معتمداً على مجموعة «بترى قد اتاح لـ «كايزر»، أن يصحح «التتابع الزمن S. D.، ابن الستين سنة تقريباً، وأن يمحصه، فى نفس الوقت. وهكذا تاكد وجود ثلاث مراحل كبيرة، ولكنها تتوزع على أحد عشر قسماً ثانوياً من Ia إلى IIIb .

وأخيراً، علينا ان نذكر العمل الذى اضطلع به «كمب» B. Kemp (1982) الذى اقترح مناهج جديدة لحل مشكلة قديمة، فاستخدم المتواليات الرياضية للقضاء على الجانب الذاتى الذى أخذ على «بترى». وانتهى تحليله إلى ظهور ثلاث مجموعات كبرى ، مطابقة بالنسبة للأولين مع طورى ثقافة العمرة وثقافة جرزة، فى حين ضم المزيد بالنسبة للجموعة الأخيرة لتشمل خواتيم عصر ما قبل الأسرات ومطلع عصر الأسرات.

ثانيا: التأريخ المعروف اصطلاحا بالتأريخ «المطلق».

وعلى غرار «التتابع الزمنى» S. D لـ«بترى»، لا يمكن استخدام «ستوفه»[٨] Stufe «كايزر» Kaiser إلا بهدف المقارنة، وفى المواقع البعيدة عن منعطف نقادة. فمن الواضح أن كل حقل أركيولوجى يصوغ تسلسله الزمنى الداخلى الخاص، كما تشهد على ذلك، فى الوقت الراهن، المتتالية الستراتيجرافية فى «بوتو»...

ومع ذلك، فإن الإرتباط الضرورى بتسلسل زمنى مطلق أصبح أمراً ممكناً بفضل تطور مناهج التأريخ الناجمة عن تحليل الظواهر الفيزيائية الكيماوية، والتى يدخل فى عدادها الكربون المشع (14C)والتألق الحرارى thermoluminiscence.

ومن المعلوم، أن «لايبى» Libby قد اختبر فاعلية نظامة على مادة جادت بها الفيوم. وفى الحال، صارت بالفعل الحضارة المصرية بأكملها، ومصر ما قبل الأسرات على وجه التحديد، مجالاً خصباً لاستقصاءات قيمة، من حيث أنه قد أصبح فى الإمكان التحقق من النتائج الحاصلة، بالاعتماد من جهة أخرى، على إطار يعرف تسلسلاً زمنياً قد تحدد بوضوح. ومع ذلك، فقد لحق بهذا الإفتتان قدر من خيبة الأمل (راجع Säve - Sädebergh, 1970) بالنظر إلى تعقيد وتشابك الظواهر التى يتم التعرض لها وما تنطوى عليه من هوامش الغموض وعدم اليقين.

ومن المعروف أن هذا المبدأ يرتكز على التناقص الدائم عند وفاة الفرد (سواء أكان نباتاً أم حيواناً أم إنساناً) للكربون المشع. وقد قدر «لايبى» Libby بـ ٥٥٧٠ ± ٣٠، الفترة اللازمة لفقدان نصف العنصر المشع. وهو ما يعنى ان فرصة التاريخ، كى يتموضع فيما بين سنتى ٥٥٤٠ و ٥٦٠٠، تصل نسبتها إلى ٥ر٦٨٪. ومن المتفق عليه أن تقدير هذه التواريخ يتم بمعيار «قبل الزمن الحاضر B. P = Before Present»، علما بأن هذا «الحاضر» Present يتحدد بعام ١٩٥٠، ومن ثم كان يكفى ان نطرح هذا الرقم للوصول إلى السنوات مقدرة بقبل الميلاد B.C. كل ذلك يفترض على نحو خاص: أن يكون تركيز الغلاف الجوى بالكربون ١٤ C 14 هو نفس تركيزه فى الوقت الحاضر، وأن يكون التبادل مع الغلاف الحيوى[٩] سريعاً، وأن يكون التركيز ثابتاً فى نفس هذا الغلاف الحيوى. إلا أنه حدثت تغييرات فى التركيز بالكربون المشع على مر الزمان. فقد طرأت تعديلات من جراء التغييرات فى المجال المغناطيسى للأرض، والتقلبات المناخية والتفجيرات النووية فى عهود أقرب. ومن جانب آخر، فإن نظام التبادلات مع الغلاف الحيوى ليس نظاماً مغلقاً. وهو أكبر قدراً بالنسبة للخشب مقارنة مع الأصداف أو العظام، التى تكون فرصة تعرضها للتلوث من مصادر الكربون المشع الأخرى (الدبال[١٠] والحجر الجيرى على هيئة محلول مائى..) كبيرة. واخيراً، فقد لوحظ، عام ١٩٦٢، ان الفترة اللازمة ليفقد أى جسم نصف

نشاط الإشعاعى ليست ٥٥٧٠ ± ٣٠ بل ٥٧٣٠ ± ٣٠. ومن هنا نشأت إذن ضرورة إيجاد معيار لهذه التواريخ بمساعدة وسائل أخرى فى التأريخ. وفى الستينات من هذا القرن ساعدت أعمال «سوويس» Suess على شجرة من كاليفورنيا، تعرف بالاسم العلمى «بينوس أريستاتا» Pinus aristata وقد تعيش لفترة تصل إلى ألف سنه، ساعدت على أعداد الجداول الأولى التى تصحح السنوات بالكربون المشع وتحولها الى سنوات بالتقويم الشمسى وذلك عن طريق «علم التأريخ الشجرى أو بواسطة الخشب» dendrochronologie. وفى حوزتنا اليوم العديد من الجداول المعيارية التى تسمح بالعودة إلى الوراء إلى حوالى ٧٠٠٠ سنة «قبل الزمن الحاضر» B . P.

ومن الواضح إذن أن استخدام معطيات الكربون المشع ليس أمراً يسيراً وأنه يتعين قبل الإستفادة منها ان تتوفر بعض المقتضيات التى يفرضها هذا الإستخدام: صلاحية العينة (بعد استبعاد الاشياء التى ظلت مخزونة لفترة طويلة أو المعرضة للتلوث..) وتعدد عمليات التأريخ (إن بعض عمليات التأريخ المنعزلة لا تساوى شيئا) واخيراً التحليل النقدى للنتائج (بعد استبعاد النتائج المضللة) ومعاملة المعطيات إحصائيا. وهذا ما فعله فكرى حسن بالنسبة لمصر ما قبل الأسرات (1985) والسودان (1986). ان مراجعنا حول هذا العصر، تعتمد على أعماله. وهكذا فقد اخترنا أن نعطى عمليات التأريخ بمقياس «قبل الزمن الحاضر» B . P بالنسبة للمرحلة الشاسعة الممتدة فيما وراء ٧٠٠٠ قبل الزمن الحاضر B. P واعتمدنا للفترة الممتدة فيما بعد هذا التاريخ على عمليات التأريخ بمقياس قبل الميلاد (ربما من الأصوب أن نقول التقوم قبل الميلادى) ، وهى عمليات التأريخ التى جمعها فكرى حسن. وعندما يكون المقصود مجرد تقدير جزافى، وليس تاريخاً محدداً، فإننا نستخدم عبارة «قبل الميلاد».

إن الجدول رقم ١ (نقلا عن فكرى حسن Hassan, 1985) هو تجميع لنتائج التقديرات بالكربون المشع وفقاً للتقويم قبل الميلادى. أما الجدول رقم ٢ (نقلاً عن «كايزر» Kaiser, 1985) فإنه يدمج معطيات «كايزر» فى المخطط الكلى. ونلاحظ وجود اختلاف يتعلق بالوضع الخاص بمرمدة بنى سلامة والفيوم.

إن التواريخ المستخدمة هى التواريخ التى ابلغنا أياها المؤلفون.

وتواريخ «قبل الزمن الحاضر» B.P هى كلها تواريخ لم يتم تصويبها بالسنوات الحقيقية.

وجميع تواريخ «قبل الميلاد» B.C هى تواريخ تم تصويبها بالسنوات الحقيقية.

للوقوف على الوضع الراهن لعمليات التأريخ بالكربون ١٤ C14 فى مصر بدءاً من العصر الحجرى الحديث وحتى بداية التاريخ يمكن الرجوع حالياً إلى Archéo - Nil 9 (1999).

هوامش التذييل

. (المترجم). Wavy Handled Pottery (١) يشير هذا الرمز إلى الحرف الأول من عبارة

(٢) يشير هذا الرمز إلى الحرف الأول من عبارة Rough Pottery (المترجم).

(٣) يشير هذا الرمز إلى الحرف الأول من عبارة Decortted Ware (المترجم).

(٤) يشير هذا الرمز إلى الحرف الأول من عبارة Late Pohery (المترجم).

(٥) هذا رأى «بترى» بالطبع. وقد دحضته المؤلفة فى أماكن أخرى من كتابها هذا، واستناداً إلى رأى جمهور العلماء (المترجم).

(٦) أى مستويات التسلسل الزمنى (من حوار مع المؤلفة). (المترجم) .

(٦) راجع قائمة الإختصارات فى آخر الكتاب (المترجم).

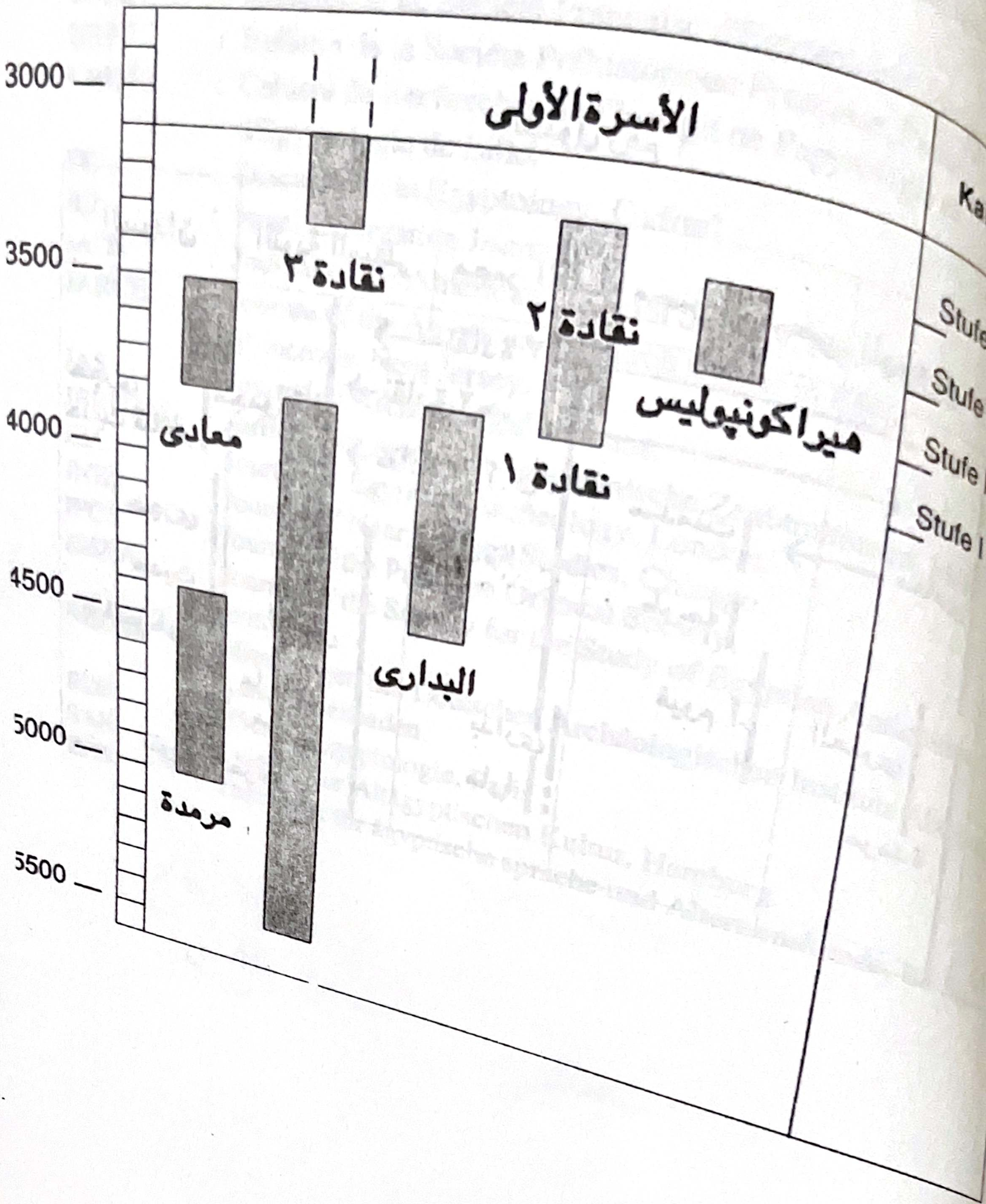
(٧) يشير هذا الرمز إلى الحرف الأول من عبارة Fancy Forms (المترجم).

(٨) أى مستوى التسلسل التاريخى (من حوار مع المؤلفة) (المترجم).

((٩) الغلاف الحيوى biosphère: المنطقة التى تسكنها الكائنات الحية وهى طبقة رقيقة حول الأرض وتضم سطح الغلاف الحجرى lithosphe're والغلاف المائى Hydrosphére والغلاف الجوى atmosphère الأسفل (المترجم*).

(١٠) الدبال : humus: المركب العضوى للتربة. وهو عبارة عن مواد حيوانية ونباتية متحللة (المترجم*).

جدول رقم ١


3000
3500
4000
4500
5000
5500
الأسرة الأولى
نقادة ٣
نقادة ٢
نقادة ١
معادى
ميراكونبوليس
البدارى
مرمدة
Kai
Stufe
Stufe I
Stufe II
Stufe I

الجدول رقم ٢

ق . م	الوجه البحرى	مصر الوسطى	مصر العليا	النوبة السفلى	السودان
3000	←		نقادة ٣ →		
	بوتو ←		نقادة ٢ حـ . د →	مجموعة أ	حجرى
3500	معادى →	سدمنت	نقادة ٢ أ . ب →		حديث قناطر
		طرجة	نقادة ١		حجرى
4000	العمرى	فيوم أ		الأبكى	حديث
					الخرطوم
4500	مرمدة		بدارى	ما بعد	
			مارا	الشرمكى	
5000				تنويمه الخرطوم	

الإختصارات

ASAE : Annales du Service des Antiquités de l' Egypte, Le Caire.
BIFAO : Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire.
BIOR : Biblotheca Orientalis, Leiden.
BSFE : Bulletin de la. Société Française d'Egyptologie, Paris.
BSPF : Bulletin de la Sociète Préhistorique Française, Paris.
CRIPEL : Cahiers de Recherches de l'Institut de Papyrologie et d'Egyptologie de Lille.
DE : Discussions in Egyptology. Oxford
IEJ : Israel Exploration Journal.
JAOS : Journal of the American Oriental Society, New Hdven.
JARCE : Journal of the American Research Center in Egypt. Princeton, New Jersey.
JAS : Journal of Archeological Science.
JBRGZM : Jorbuch des ruömisch - germanische Zenbtralmusen, Mainz
JEA : Journal of Egyptian Archeology, London.
JNES : Journal of Near Eastern Studies, Chicago.
JPOS : Journal of the Palestine Oriental Society.
JSSEA : Journal of the Society for the Study of Egyptian Antiquities. Torento.
MEDIK : Mitteilungen des Deutschen Archäologischen Instituts Abteilung Kairo, Wiesbaden.
RDE : Revue d'Egyptologie, Paris
SAK : Studien Zur Altägyptischen Kultur, Hamburg.
ZÄS : Zeitschrift für ägyptische sprache und Altertumskunde, Berlin.

شرح لبعض المصطلحات

شكل الكلمات التالية تقسيمات زمنية للأحقاب الجيولوجية:

أوليجوسين Oligocène :

م من الحقب الثالث ويتفق مع مرحلة تقع فيما بين ٣٠ و ٢٥ مليون سنة تقريباً .

يستوسين Pleistocène :

م الأدنى من الحقب الرابع وينقسم إلى البليستوسين الأدنى والأوسط والأعلى. ملة فترته الزمنية من ٢ مليون سنة وحتى بداية الهولوسين. وتتفق هذه المرحلة مع تافات العصر الحجرى القديم فى ربوع الكرة الأرضية بأسرها.

سين Pliocène :

استراتيجرافي لنهاية الحقب الثالث. ويمتد من ٥ إلى ٢ مليون سنة.

يري Crétacé :

لأخيرة من الحقب الثاني. وينقسم إلى الطباشيرى الأدنى والطباشيرى الأعلى. تمتد بدءاً من ١٣٠ مليون سنة تقريباً وحتى ٦٥ مليون سنة. ويهيمن الطباشير ت الجيولوجية لهذه المرحلة ومن هنا تسمية بالطباشيرى. وكلمة Crètacé مشتقة تينية *Creta* = طباشير.

ن Holocène :

ير من التسلسل الزمنى من الحقب الرابع. ويبدأ حوالى ١٠٠٠٠ سنة قبل مستمراً حتى الوقت الراهن. وتتفق بداية الهولوسين على تكوين أولى ثقافات الحديث فى الشرق الأدنى وفى الشرق الأوسط.

الجداول والخرائط

صناعات العصر الحجرى القديم فى مصر فى سياق مناخ العصور القديمة

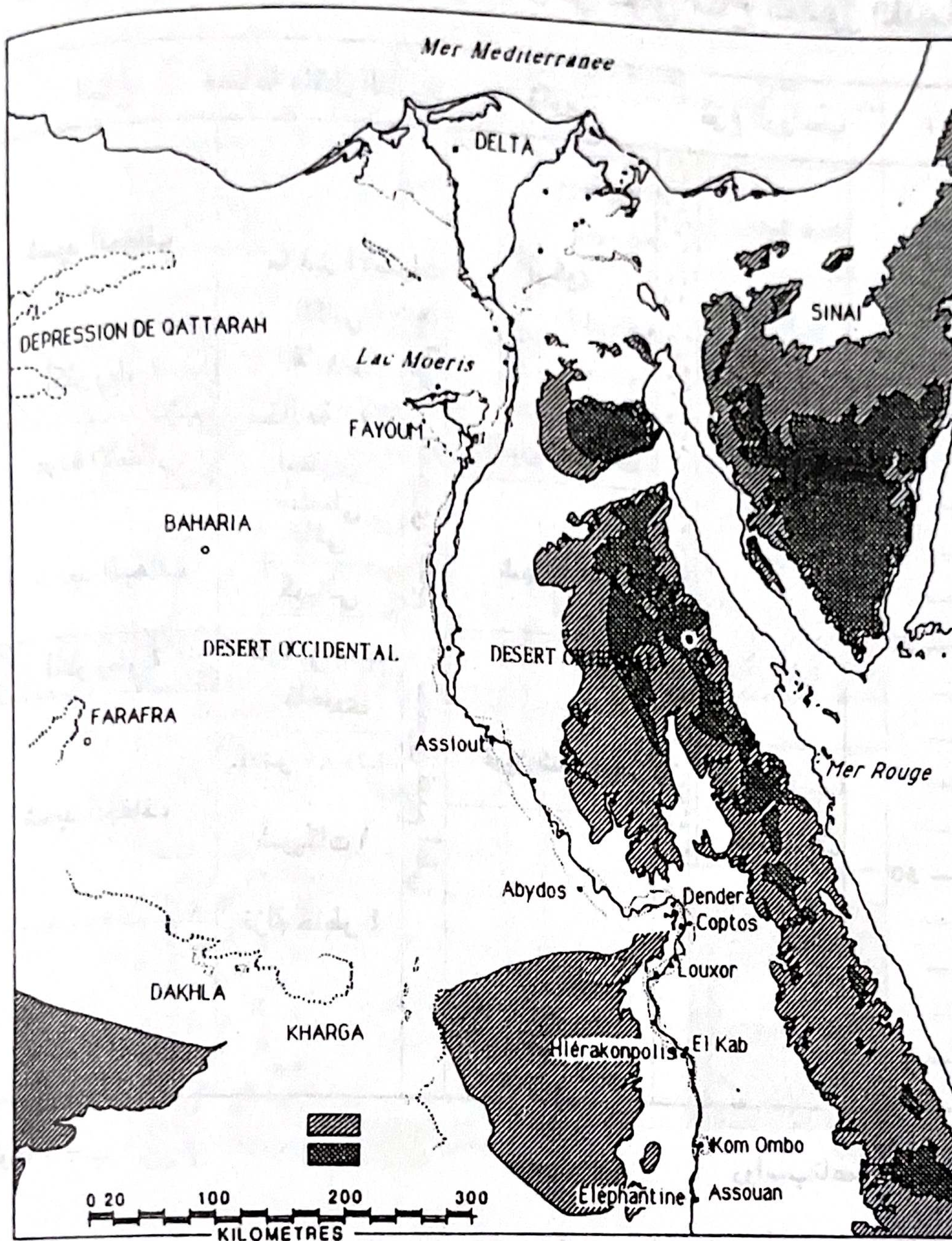
المناخ	صناعة ماقبل التاريخ		تكوين	نوع الرواسب
> 40 000 B.P. (14C); 60 000 B.P. (T L)				
شديد الجفاف	سبيلى قديم خور موسى	حجرى قديم متوسط	دبيرة – چر ?	رواسب ناعمة / رواسب حصى
فى اتجاه الجفاف	مخادمة ٦ بيت علام نزلة خاطر ٢ نزلة خاطر ١	حجرى قديم متوسط	كوروسكو ?	رواسب ناعمة / رواسب حصى
				100.000 B.P تقريبا
أكثر رطوبة	مواقع أشولية فى نجع الخليفة	حجرى قديم أدنى	النيل عند ٥ أمتار منطقة سوهاج غير محدد	رواسب ناعمة / رواسب حصى
				300 000 B.P تقريبا
شديد الجفاف أزمة دندرة		حجرى قديم أدنى	دندرة	رواسب ناعمة / رواسب حصى
				400.000 B.P تقريبا
الأكثر رطوبة		حجرى قديم أدنى	غير محدد	رواسب ناعمة / رواسب حصى

لوحة ١ – أ — رواسب حصى — رواسب ناعمة

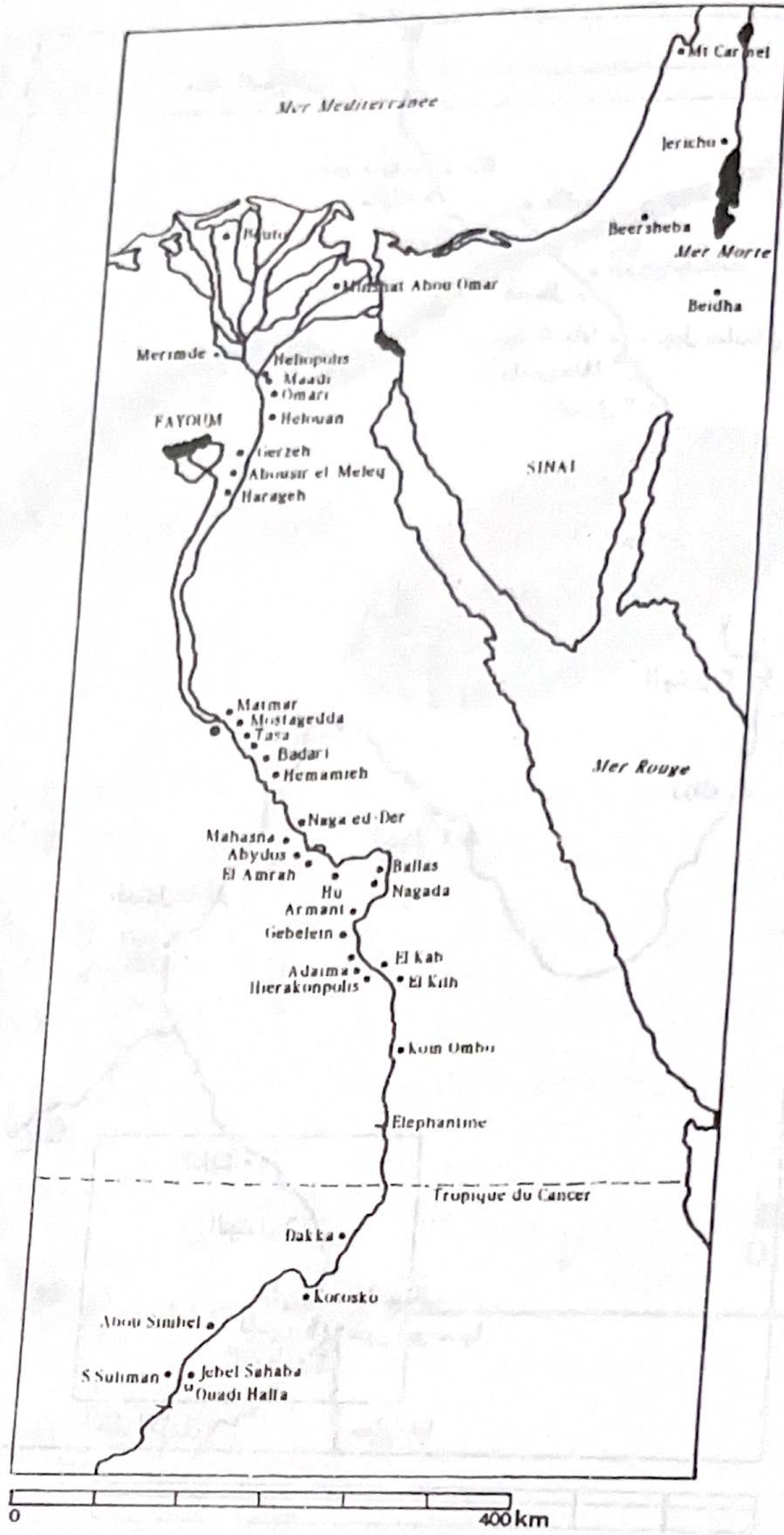
صناعات العصر الحجرى القديم فى مصر فى سياق مناخ العصور القديمة

لوحة ١ – ب

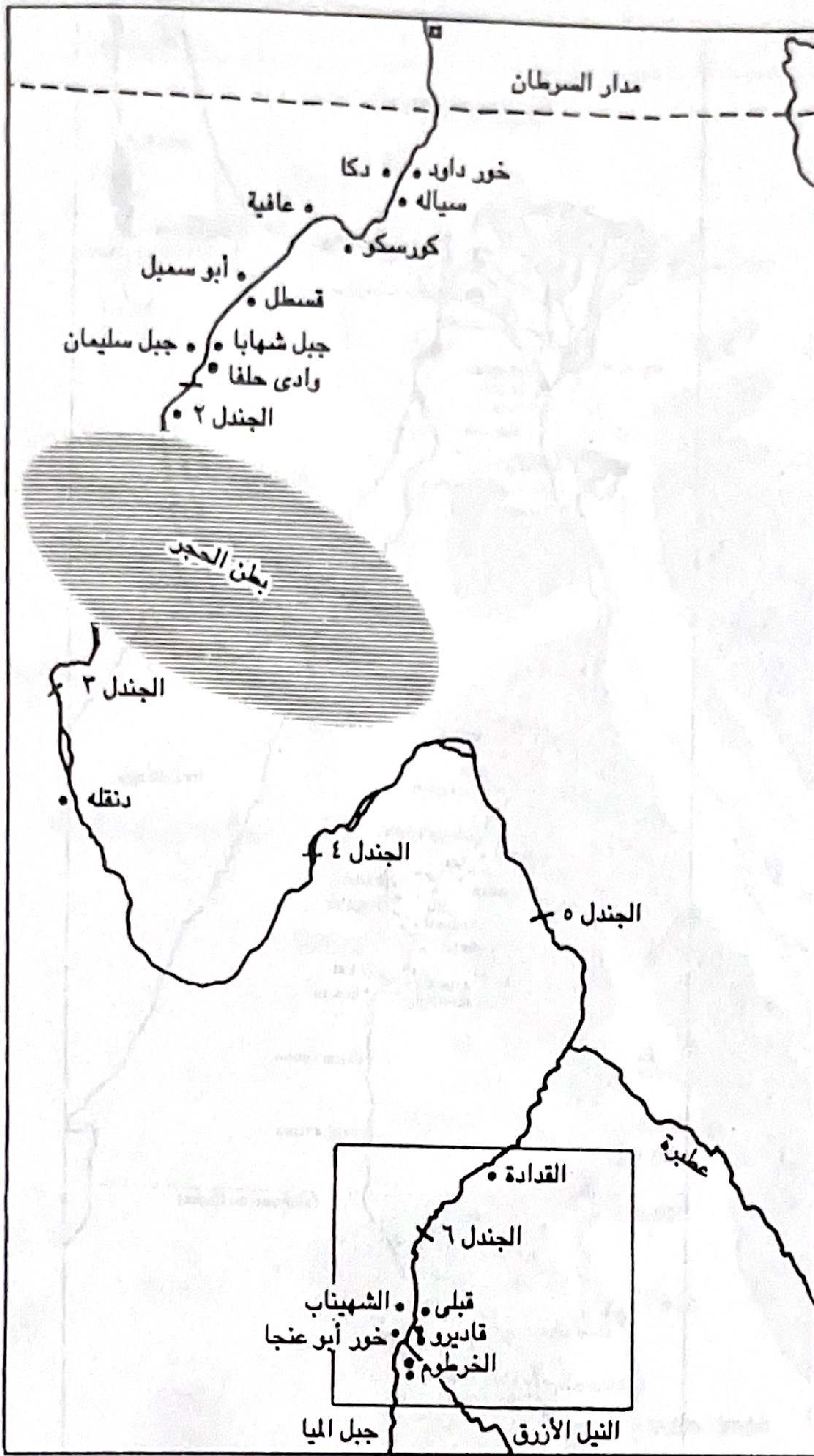
الوادى والصحارى : ثلاث مناطق كبرى

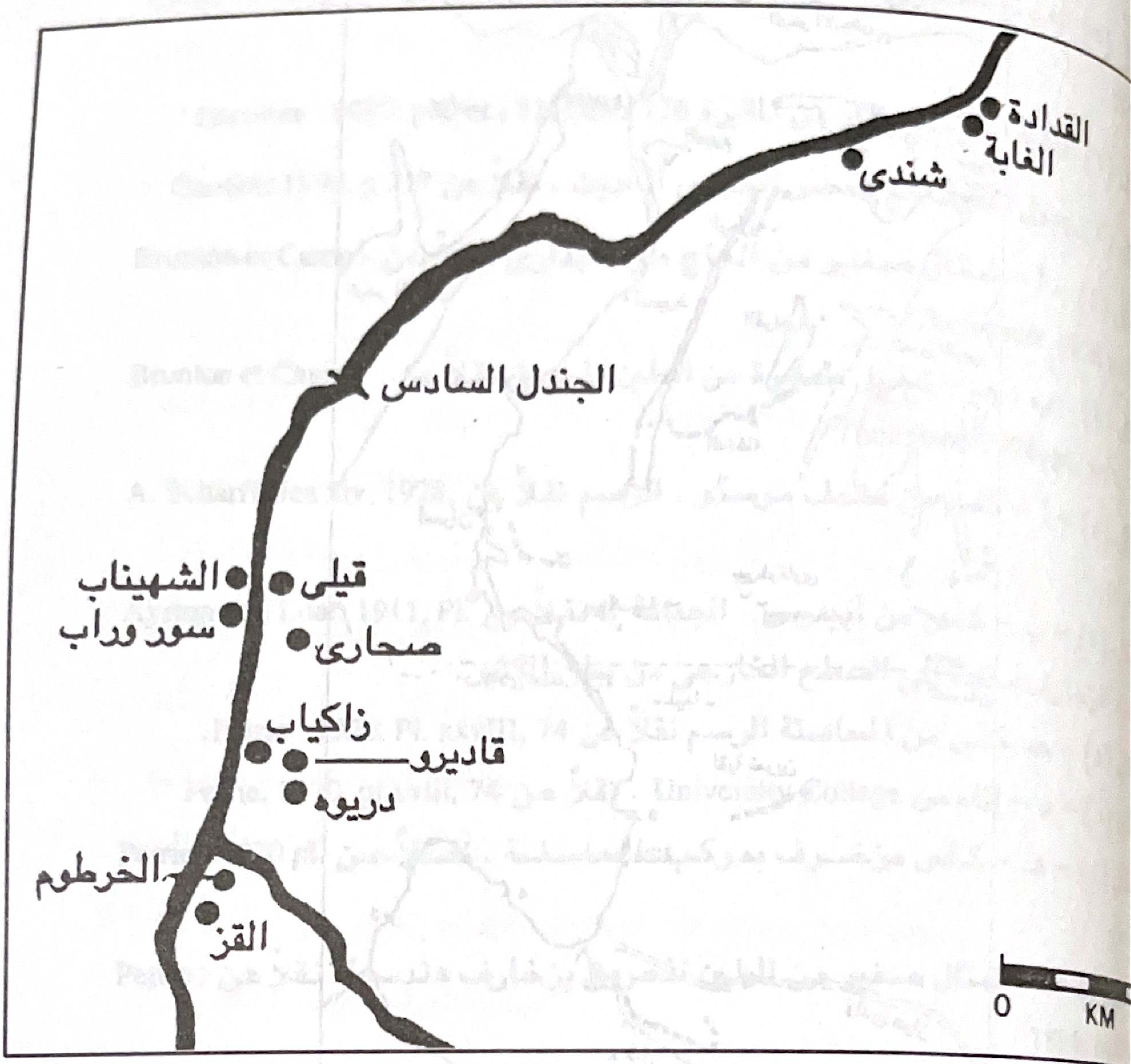


وادى النيل فى مصر



وادى النيل فى السودان




القدادة
الغابة
شندى
الجندل السادس
قيلى
الشهيناب
سور وراب
صحارى
زاكياب
قاديرو
دريوه
الخرطوم
القز
0
KM

الملاحـــق

تامت السيدة/ بياتريكس ميدان - رينيس «بإعداد هذه الملاحق خصيصاً للطبعة
ربية من كتابها».

الملحق الأول

العضايمة

نبــذة

عن موقع العضايمة

محله العضايمة هى واحدة من سلسلة محلات عصر ما قبل الأسرات (المقابر والموائل) المنتشرة بمحاذاة الوادى والممتدة حتى حافة الصحراء.

ويبعد الموقع مسافة ٨ كم جنوب مدينة إسنا على البر الغربى من نهر النيل. وكان «هنرى دى مورجان» Henri de Morgan قد كشف عنه فى مطلع القرن العشرين، ويضم مدينة الأموات على مساحة ٣٥ هكتاراً[١] وتتكون من جبانتين (نقادة الثانية ونقادة الثالثة) ومنطقة شاسعة خصصت للموائل. وقد وزعت الأشياء التى تم الكشف عنها إبان أعمال التنقيب القديمة على متحفى «بروكلن» Brooklyn و«سان - چيرمان - إن - لاى»[٢] Saint - Germain - en - Laye. وفى عام ١٩٧٣ أتيح للمعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة IFAO وكان يديره آنذاك عالم المصريات الفرنسى «سيرج سونرون» Serge Sauneron - اتيح له أن يعيد اكتشاف هذا الموقع. وتم التنقيب فى حوالى ثلاثين مقبرة تحت إشراف «فرنان ديبونو» Fernand Debono. وبحلول عام ١٩٨٩، استؤنفت الأبحاث فى إطار المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة بقيادة المديرين الذين تعاقبوا على شغل هذا المنصب وهم على التوالى السيدة «كريجر - بوزنر» Mme P. Krieger - Posener والسيد «نيقولا جريمال» M. Nicolas Grimal والسيد «برنار ماتيو» M. Bernard Mathieu المدير الحالى. ويقود هذه الأبحاث فريق من مختلف التخصصات (أثريون arcbe'ohégues وأنثروبولوچيون céramologues و علماء الخزف céamologues وعلماء نباتات المجتمعات القديمة archéobota-nistes وعلمـاء الچيومورفولوچيا geomorphologues وعلمـاء حيوانات المجتمعات القديمة archéozologues ...) وقد جاءوا من مؤسسات علمية وجامعية متنوعة.

وسيجد المرء أول تصنيف تجميعى للأعمال التى تمت فى هذا الموقع فى مجلة Archéo - Nil 8 (1998). ومن ناحية أخرى فإن مؤلفاً ضخماً وشاملاً هو الآن تحت الطبع ويحتوى نتائج سنوات التنقيب السبعة الأولى. ويضم جزئين:

Adaima I . Economie et habitat.

---

(١) أى ما يعادل ٨٣ فداناً تقريباً (المترجم).

(٢) مدينة فرنسية تقع إلى الغرب من پاريس ولا تبعد عنها كثيرا (المترجم).

(العضايمة ١ : الإقتصاد والموئل)

تأليف «بياتريكس ميدان رينيس» و «ناتالى بوشيز»

par Béatrix Midant - Reynes et Nathalie Buchez

Adaïma II. la nécropole prédynastique.

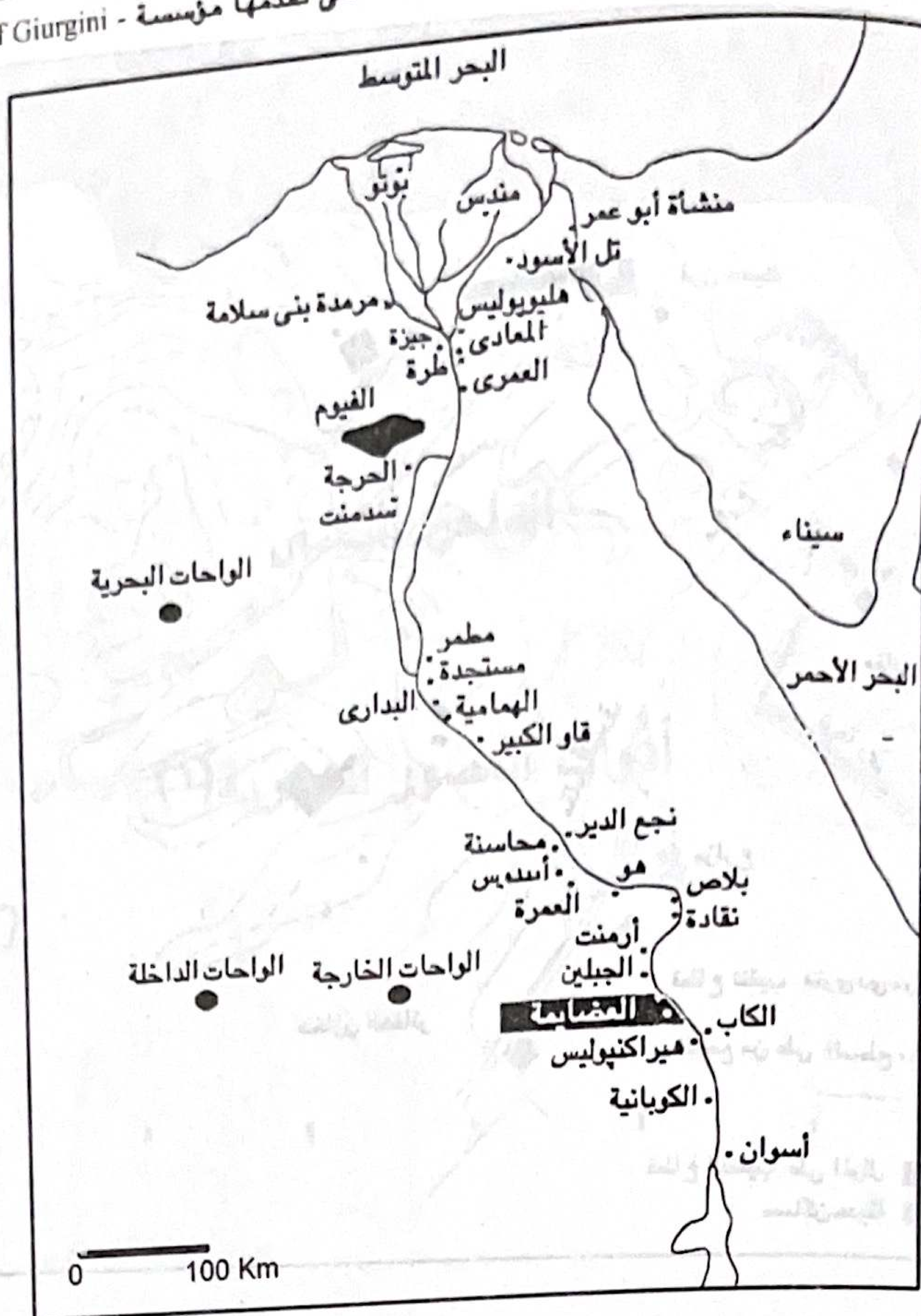
(العضايمة ٢ : جبانة عصر ما قبل الأسرات)

تأليف «كروبيزى» و «جانين» و «ميدان – رينيس»

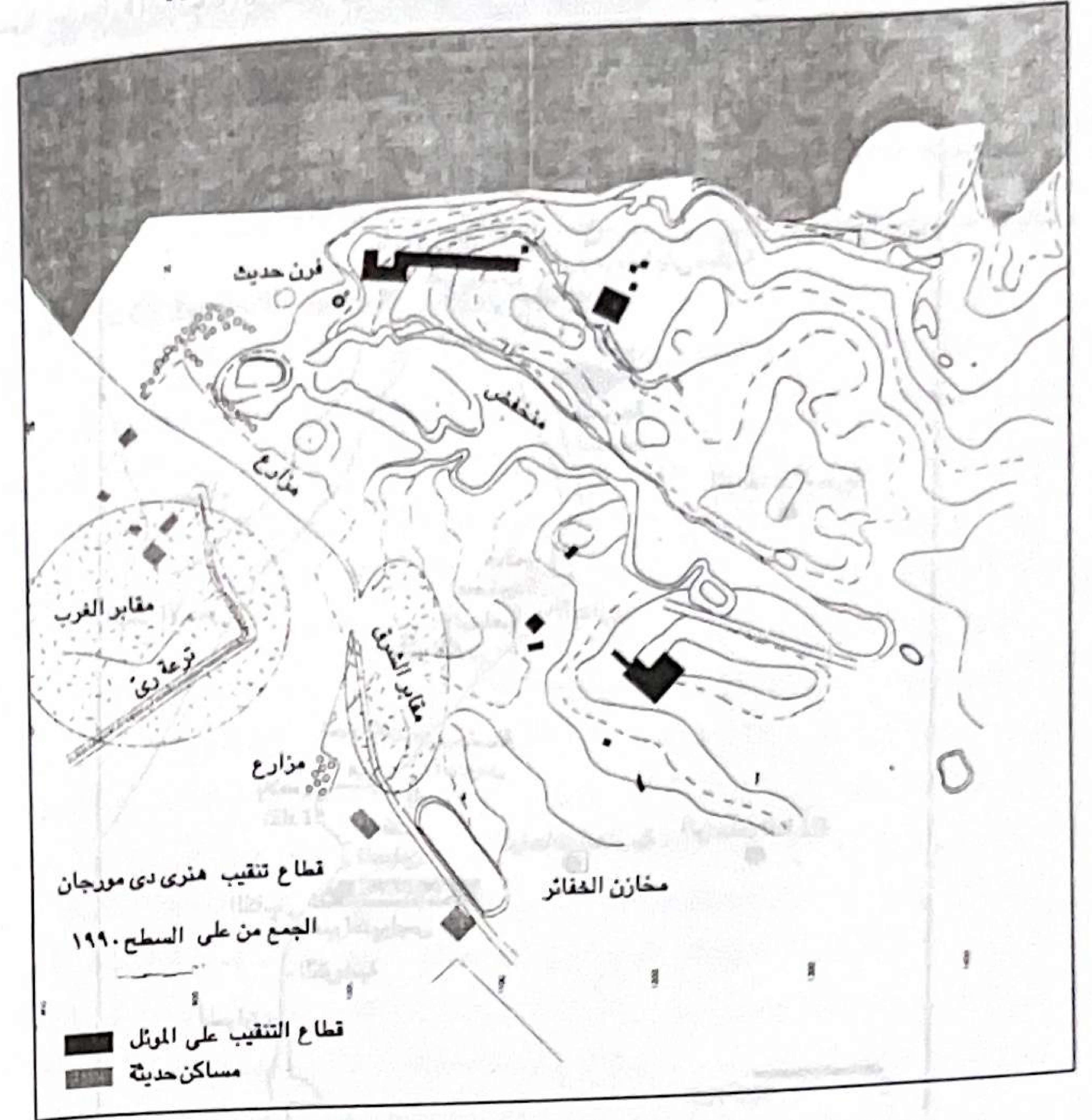
Par E. Crubezy - T - Janin. B. Midant - Reynes.

العضايمة وأهم المواقع فى مصر فى عصر ما قبل الأسرات

العضايمة هى إحدى مناطق التنقيب التى يشرف عليها المعهد الفرنسى للآثار الشرقية IFAO، وتتلقى إعانة سنوية من وزارة الخارجية الفرنسية. كما تستفيد من المساعدة التى تقدمها مؤسسة - Michella Schiff Giurgini



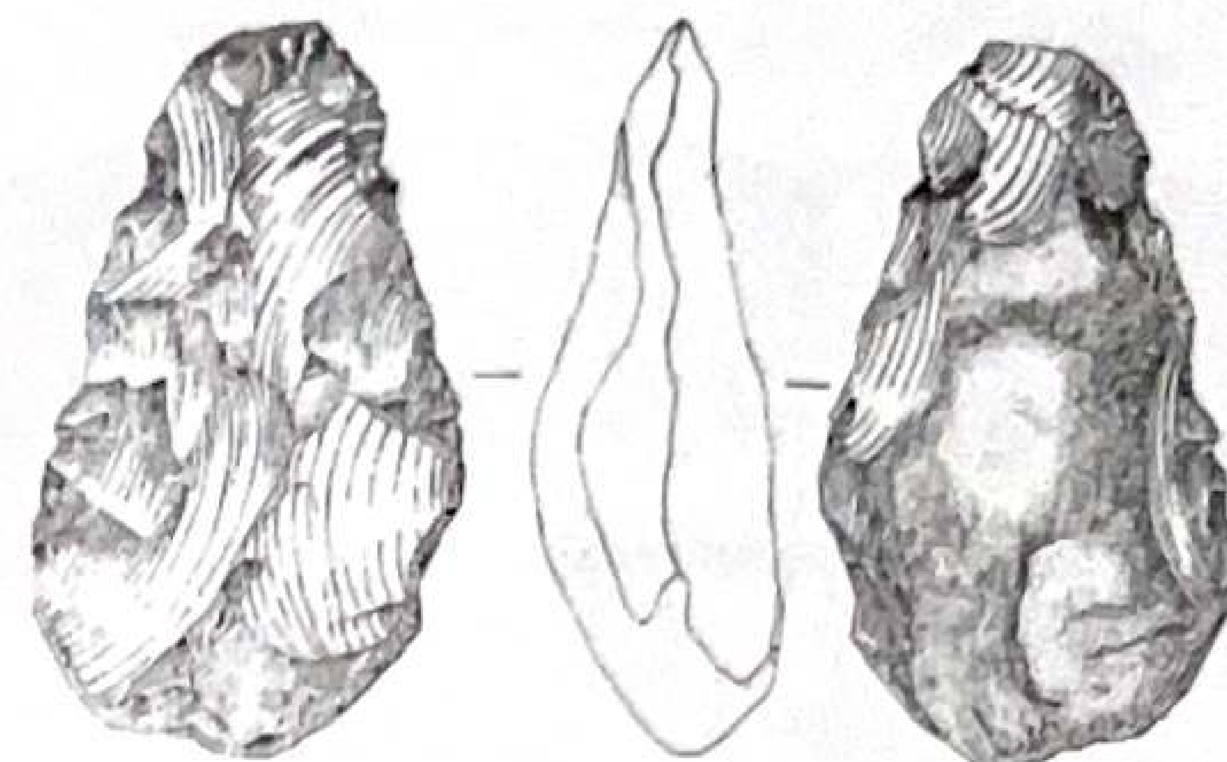
خريطة لموقع العضايمة تحدد موضع مختلف قطاعات التنقيب



الملحق الثانى

أدوات العصور الحجرية(١)

(١) الأدوات التى تطوعت السيدة معاونة المؤلفة برسمها دون مقابل مذيلة بعبارة Dessin C. Hochstrasser -Petit أى «رسم «هوخستراسير – بيتى». وأكرر لها الشكر على ما بذلته من جهد . (المترجم)



أداة ذات وجهين (العضايمة)

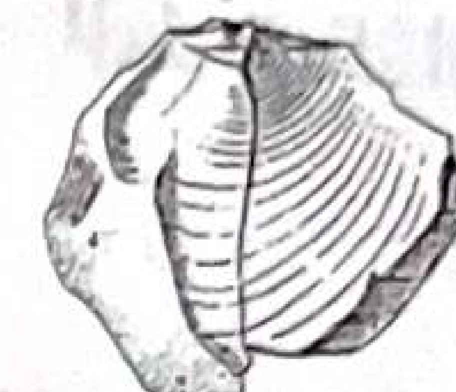
الإرتفاع ١٨,٥ سم

(رسم C.Hochstrasser - Petit)

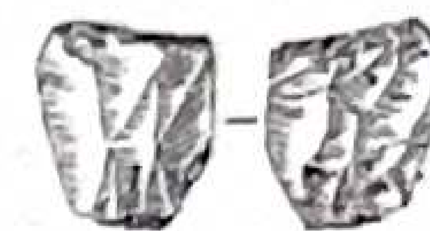
هوخسترا سير – بيتى



الإرتفاع ٣,٥ سم. شظية ذات فُرضة

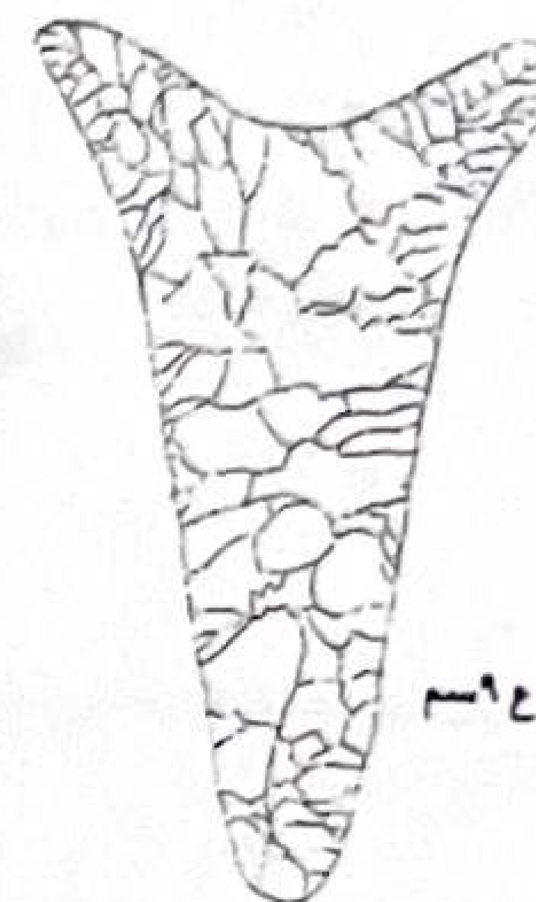


تصنيع عرضى من مسرت ما الإرتفاع ٥,٥ سم



- قطعة تحمل آثار طرق شديد الإرتفاع ١,٩ سم

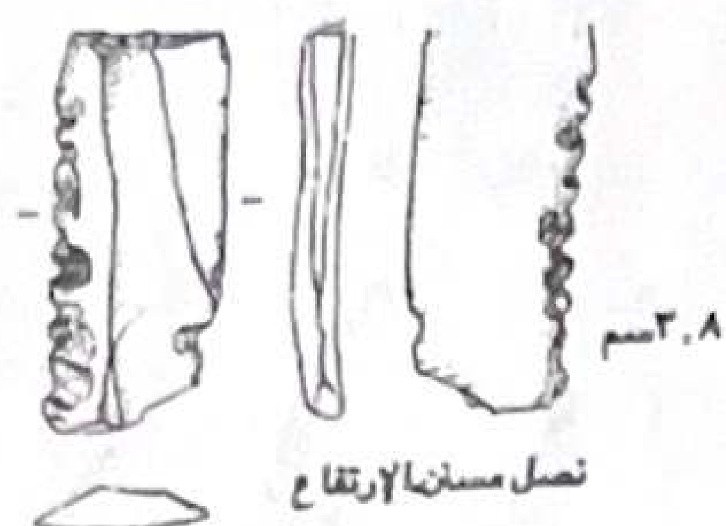




حربة متشعبة الإرتفاع ٩ سم

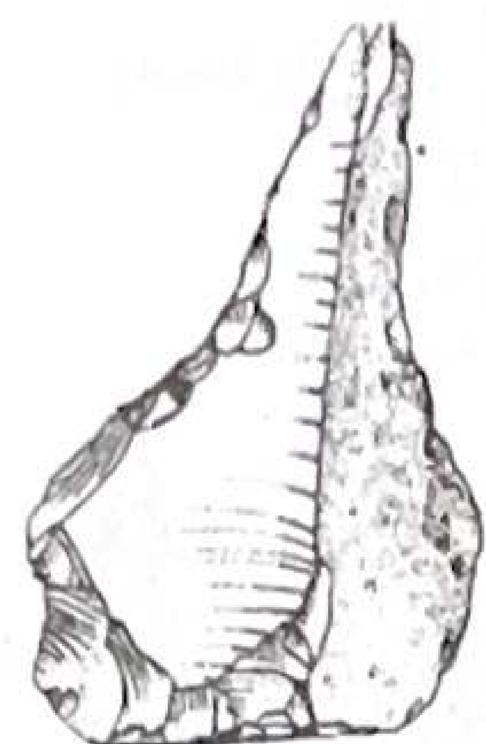


بعض نماذج أزاميل بسيطة



٣,٨ سم

نصل مسنن الإرتفاع



٦,٥ سم

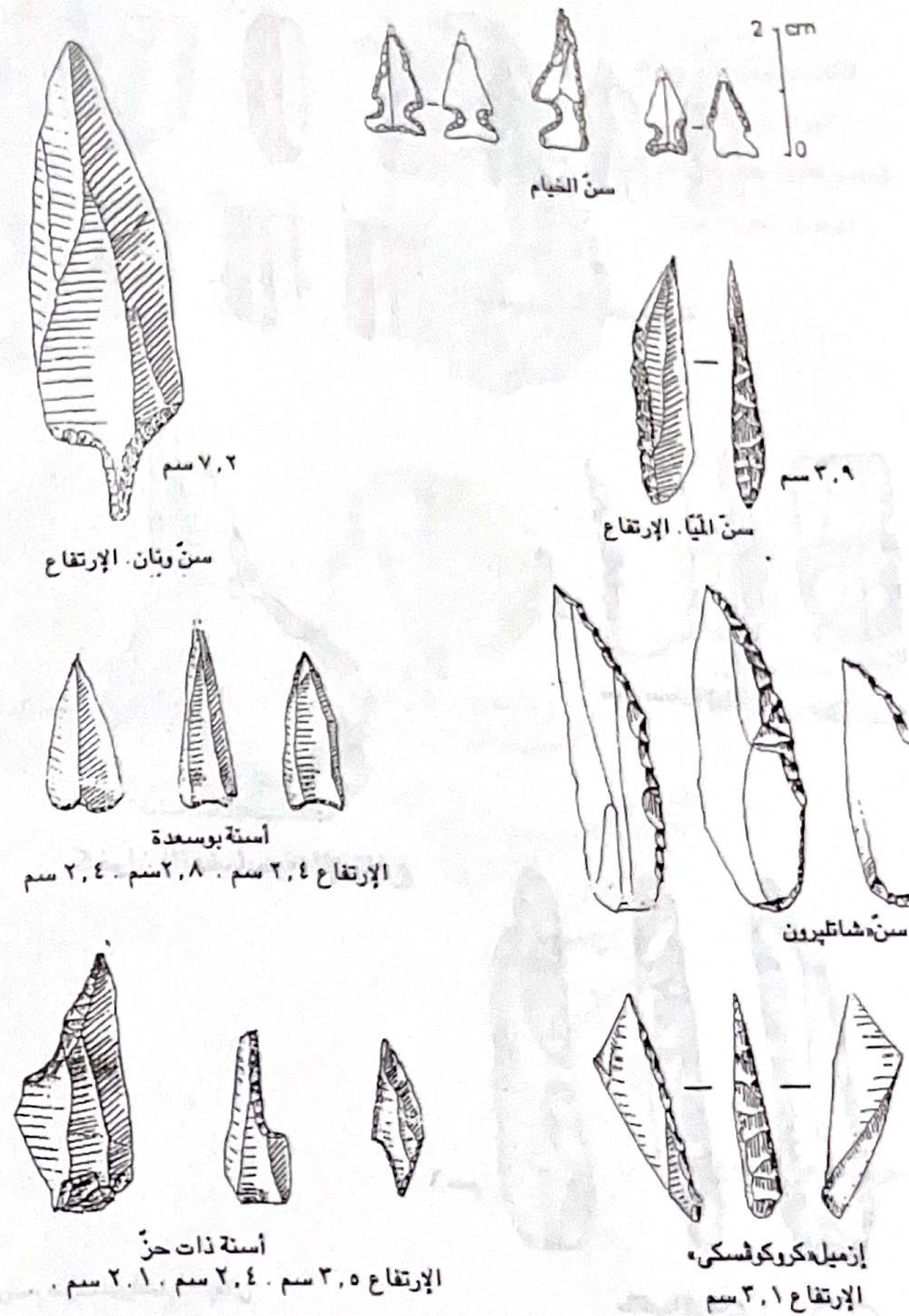
كخراز (العضايمية) الإرتفاع

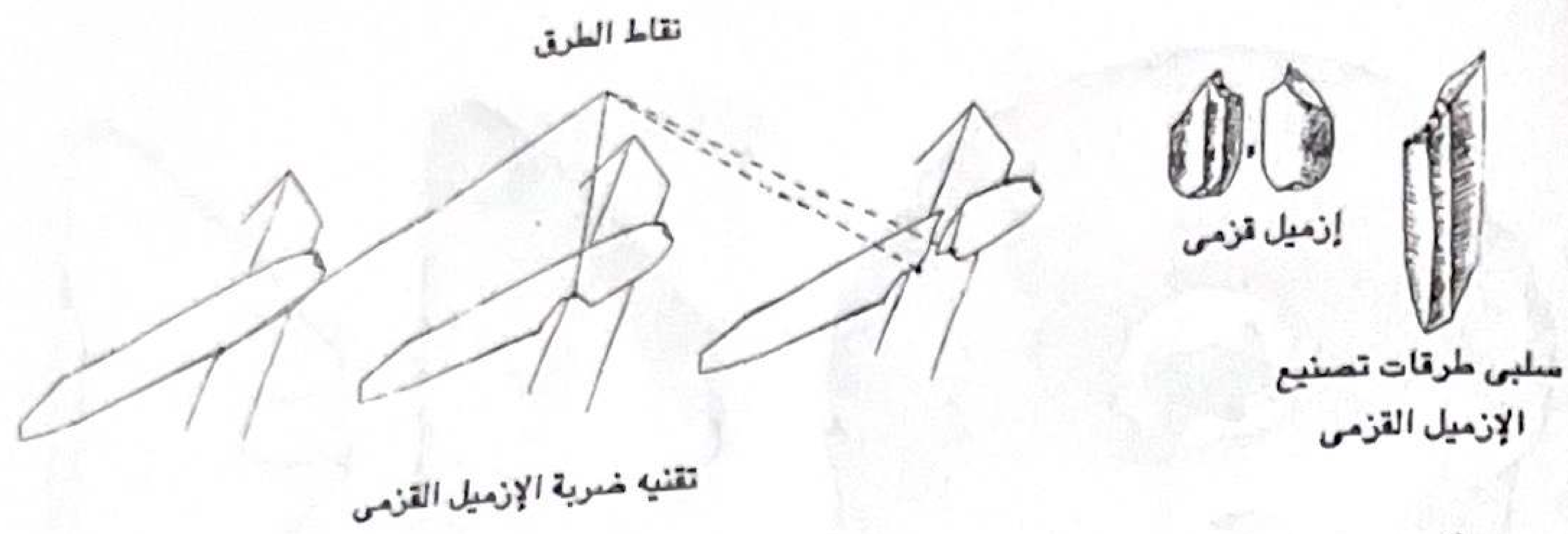


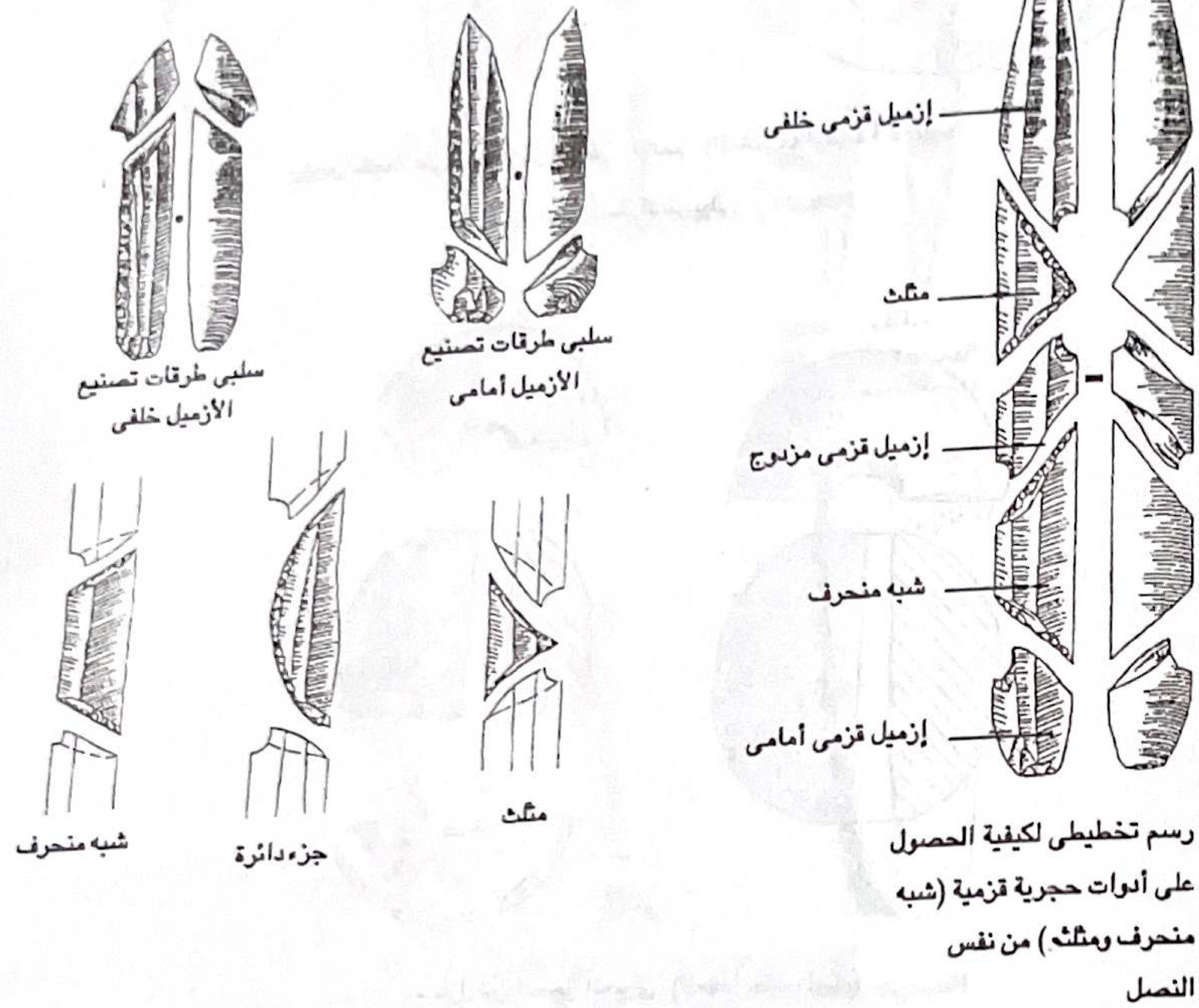
٦ سم

مثاقب الإرتفاع

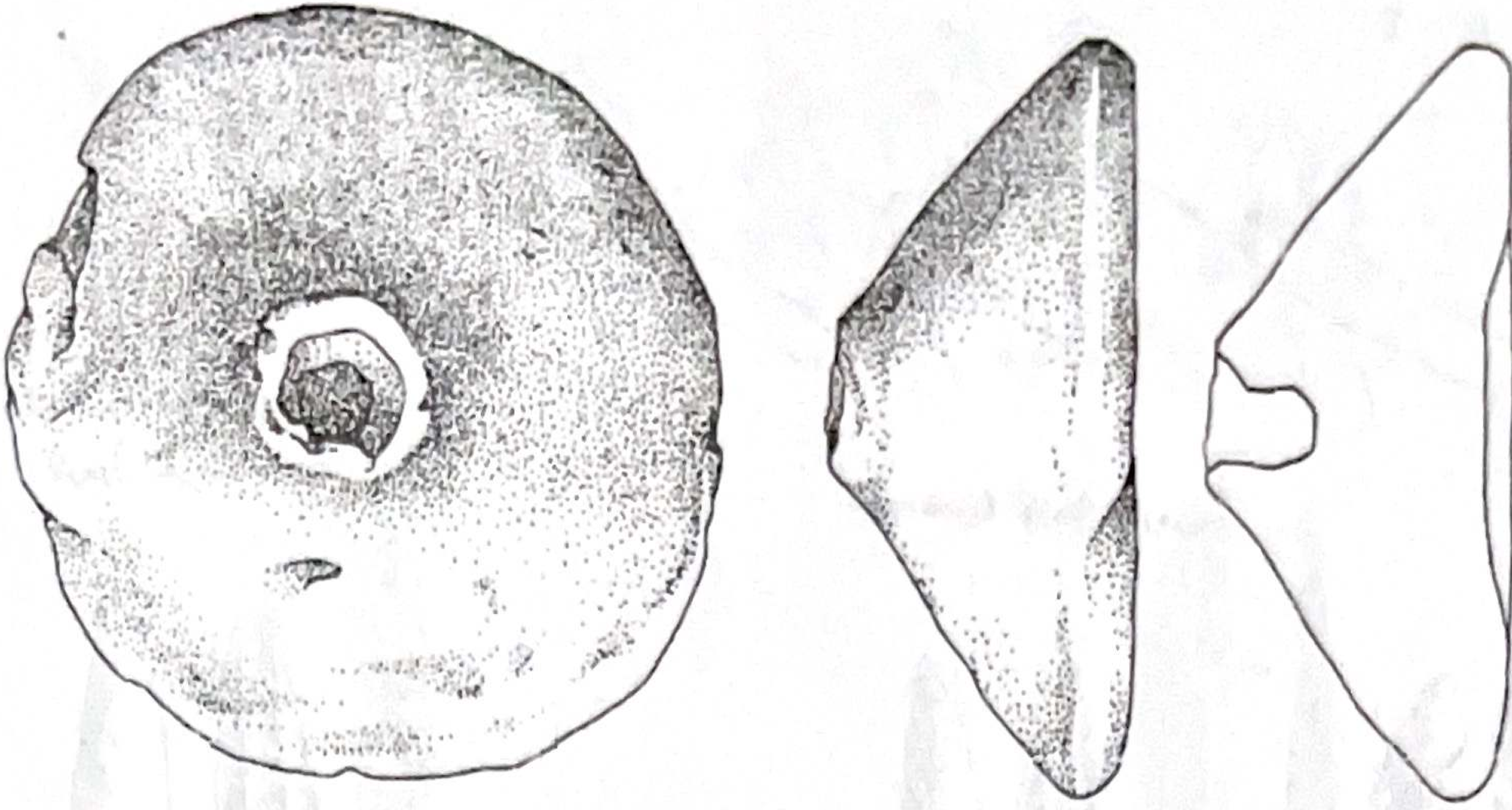
رسم هوخستراستر – بيتى





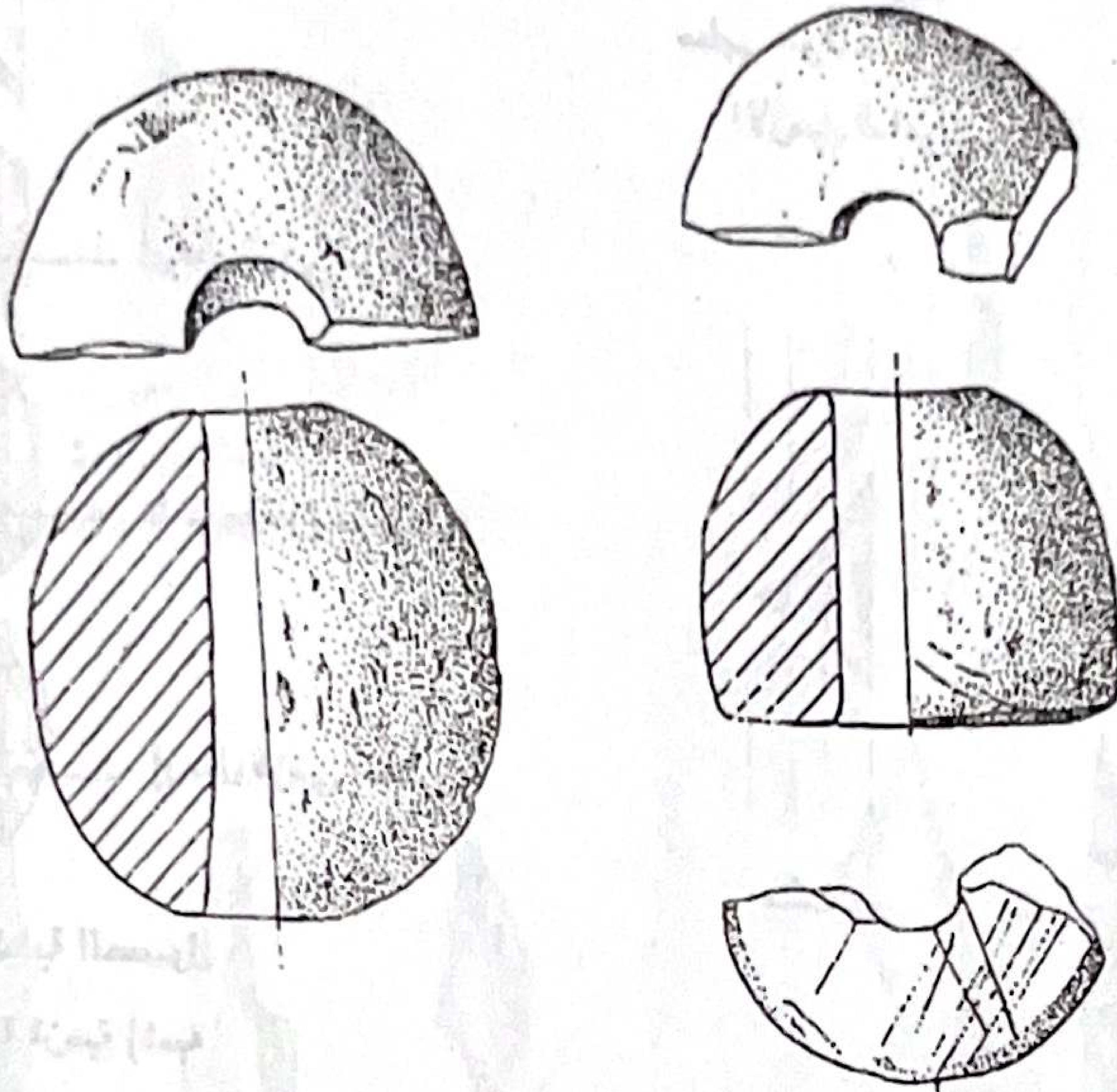


رسم تخطيطى لكيفية الحصول على أدوات حجرية قزمية (شبه منحرف ومثلث) من نفس النصل



رؤوس مقمعة على هيئة قرص القطر : ٧ سم (العضايمة المقبرة S24)

رسم هوخستراستر بيتى



مغازل من الحجر الجيرى (العضايمة . الموئل)

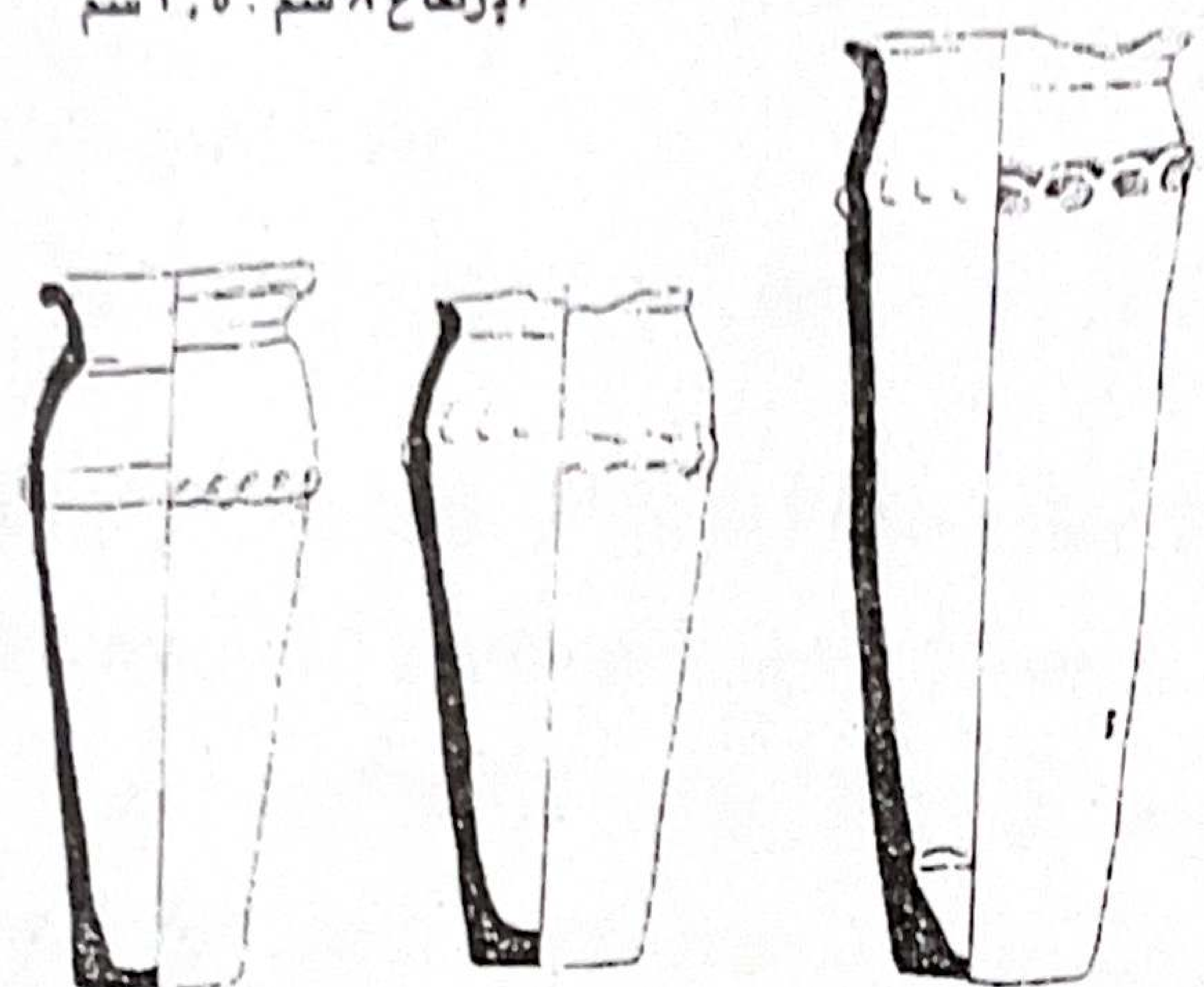
الارتفاع ٤ سم . ٢,٥ سم . رسم هوخستراسر - بيتى



مثقاب من عظم الماعز أو
الخراف. العضايمة،الموئل

خطاف من العظم
العضايمة مقبرة S 100
رسم هوخسترا سر- بيتى

دبوس وشصّ من النحاس
(العضايمة - الموئل)
الإرتفاع ٨ سم . ٣,٥ سم



أوانى ذات مقابض متموجة wavy handled
العضايمة . المقبرة S85 الإرتفاع ٢٨ سم . ٢٠,٥ سم . ٢١,٥ سم
رسم هوخستراسر - بيتى

عصور ما قبل التاريخ فى مصر

إنه أول كتاب باللغة العربية يتطرق باستفاضة إلى هذا الموضوع الهام. وهذا الكتاب المترجم عن الفرنسية هو دراسة شاملة تسجل آخر ما توصل إليه العلم والعلماء العاملين فى مجال «عصور ما قبل التاريخ فى مصر» حتى نهاية القرن العشرين.

فرغم أن الأصل الفرنسى قد صدر عام ١٩٩٢ فقد تقرر بالاتفاق مع المؤلفة والناشر الفرنسيين إلى أن يتم إدخال بعض التعديلات على النص الفرنسى سواء بالإضافة أو بالحذف ليتفق مع أحدث ما توصل إليه العلم فى هذا المجال حتى ديسمبر ١٩٩٩.

كما خصت المؤلفة الطبعة العربية بملحق عن العضايمة قرب إسنا وهو الموقع الذى تعمل فيه السيدة المؤلفة إلى جانب بعض الرسوم لأهم الأدوات الحجرية.

والسيدة «بياتريكس ميدان – رينيس» مؤلفة الكتاب تحمل درجة الدكتوراه فى علم المصريات. وتشرف على حفائر موقع العضايمة. كما أسست عام ١٩٨٩ جمعية - Archéo Nil وهدفها دراسة ثقافات عصور ما قبل الأسرات فى وادى النيل كما تصدر الجمعية مجلة سنوية.